
هموم
مثقف عربي
الدكتور
يحيى المرهبي

هموم مثقف عربي

تأليف

د. يحيى أحمد المرهبي

مراجعة وتنسيق

د. بكيل المراني

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أولئك الشباب الذين يحدوهم الأمل للارتقاء بأوطانهم على بصيرة من خلال الارتقاء بذواتهم.

إلى أولئك الشباب الذين يتطلعون إلى المستقبل الذي تصنعه عقولهم الواعية وسواعدهم الفتية.

إلى أولئك الشباب الذين كلما ازدادوا علما ازدادوا عطاء، وكلما ارتفع مستوى وعيهم، قدموا لأوطانهم أغلى ما لديهم.

إلى أولئك الشباب الذين تسلحوا بالعلم والفكر (والمعلومة قوة)، فكانوا مشاعل تنوير لأوطانهم.

إلى أولئك الشباب الذين لم يبهرهم بريق أفكار الآخر البعيد، ولم تخدعهم تبريرات الآخر القريب.

إلى هؤلاء الشباب، وإن كانوا قد بلغوا من العمر عِتيا، ـ فالعبرة بفتوة العقل والعزيمة ـ، وإلى غيرهم، أهدي ثمرة جهدي هذا، وكلي أمل أن يجدوا فيه ما يعزز قواعد التفكير وأسس الحوار، الذي من خلاله تبنى الأوطان.



شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل لمن اختلف معي، لأنهم سمحوا لي بأن أبدي وجهة نظري، التي قد لا يتفقون معها، ومع ذلك فتحوا لي عقولهم وأوسعوا لي في صدورهم، لأبدي وجهة نظري كاملة غير منقوصة، والشكر لهم أيضا لأنهم كلفوا أنفسهم عناء قراءة ما كتبت، ومن ثم نقدوه ورشَّدوه، فكان لهذا التثاقف والتفاكر معهم نكهة ولذة، أجد متعتها عندما أعيد قراءة ما كتبت، فأجدني قد أصبت في مواضع ولم يحالفني الحظ في مواضع أخرى، وقد كان لردودهم الناقدة بصمتها الواضحة فيما كتبت، فكانوا لي كالمرايا التي أدركت من خلالها عيوبي، وكنت لهم كذلك.

ومن خلالهم أتقدم بالشكر والتقدير لكل من اتفق معي فيما كتبت، وتطابقت وجهة نظره مع ما سطرت، وهو باتفاقه معي قد أعلى من ثقتي بأفكاري، وأشعرني بأن هناك من يشاركني الهمَّ ومقاربات الحل.

ولا أنسى في هذا المقام أن أتقدم بالشكر الجزيل للأخ العزيز الدكتور / بكيل المراني الذي أخرج هذه الهموم في قالب فني أصيل، ووضع لهذا الكتاب مقدمة ضافية، تعتبر محاولة من قارئ ذكي أريب لإبداء وجهة نظره لموضوعات هذا الكتاب، وهذا من دواعي سروري أن أجد منه ومن أمثاله من يقدم رؤاه على ضفاف وتخوم هذا الكتاب، فله مني خالص التحايا والتقدير.



مقدمة

في قضايا الفكر العربي وهمومه المختلفة، نحن بحاجة إلى تجلية المفاهيم العامة بعد استبطانها والتأمل في خباياها ، وعرضها على المدارك السوية ، والأذهان اليقظة، والعقول غير المبرمجة على التقليد دون بصيرة وأثارة من علم.

إن جولان الفكر، وإمعان النظر، وإعمال العقل والمنطق - وفق الضوابط الدينية- وفي حدود ما سمح به الشارع الحكيم، مزية فطرية ندبنا إليها الخالق عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه العزيز وهو يدعونا إلى التفكر والتأمل للوصول إلى المعرفة واليقين، والنفاذ إلى الحقائق، أو بالتعبير القرآني « البصائر».

والبصائر لا يمكن الوصول إليها إلا بالفكر المتجرد الواعي اليقظ، المدرك لقضايا مجتمعه ، وهموم أمته، لأن الفكر هو محل تجليتها ، وموضع ما تنطوي عليه من بينات الإقناع ودلالات التأثير.

وهذا الكتاب - في تصوري- يسهم بدور فعال بعيد المدى في صقل العقل نفسه وتنمية ملكاته الفكرية، بما خلقه من بيئة ثقافية راقية، وحوار عقلي ماتع، ذلك أن الفكر الأصيل هو وليد البحث والنظر والتأمل لاستكناه ما وراء السطور، وتناول المفاهيم العامة من زوايا مختلفة، لتقديم رؤى وتصورات جديدة، لذا لن يعدم القارئ الكريم - وهو يجول في سطور هذا الكتاب- أن يصادف حكمة مختبئة، أو يجد فائدة متوارية، أو يقف على فكرة جديدة، أو تتبلور لديه قناعة معينة، وسواء اتفق القارئ أو اختلف مع بعض ما طرحه المؤلف الأخ العزيز الدكتور - يحي المرهبي - فلن يملك ألا أن يحترم هذا الفكر النير في مجمله، ذلك

أن الكاتب نفسه – في همومه الثقافية - يقدم فلسفته الشخصية، ورؤيته الذاتية، واجتهاده الخاص، مفسحا المجال للقارئ للأخذ والرد والاستدراك، فهو يحترم عقول القراء ، ويعدها طرفا أصيلا في الحكم والتقييم.

وخلال قراءتي لهذا الكتاب، وجدت نفسي في سياحة فكرية ممتعة، لا أكاد أنتهي من قراءة مقال في محتواه حتى أتشوف لقراءة المقال التالي، مسجلا إعجابي بما تميز به مؤلفه في صياغته من عبارة أنيقة، وأسلوب رصين، وإدراك عميق، وحجج قوية، ولفت النظر إلى معانٍ جديدة لم تكن في حسباني.

هذا الكتاب – في رأيي – يعد خطوة في طريق الارتقاء الحقيقي بالفكر الإنساني، والفكر العربي الإسلامي على وجه الخصوص، بما يحمله من هموم لمثقف عربي، ولكنها ليست كأي هموم، بل تلك الهموم التي يقاس بها الرجال في زمن صارت هموم أغلب الناس فيه صغيرة.

والله من وراء القصد.

د. بكيل علي المراني

قصة هذا الكتاب



هذا الكتاب لم يولد في لحظة معينة، بل كان نتاج حضانة فكرية وحوارية دامت أكثر من أربع سنوات، تبادل فيها المؤلف الحوار والنقاش والسجال في مواضيع عديدة ومتنوعة، مع فضلاء وأعزاء جمعته بهم الأقدار، فكانت الأفكار حلقة تواصل بينهم، والعلم رحم بين أهله كما يقولون، وقد قدم صاحب الكتاب في هذه الحوارات وجهة نظره بكل تجرد ومصداقية، بعد أن حاول أن يتفهم وجهة نظر من يحاورونه في الطرف الآخر، ويقف في المكان الذي يقفون فيه.

إن هذا الكتاب (هموم مثقف عربي)، هو بالفعل هموم عاشها مؤلفها وتفاعل معها، وحاول أن يقدم مقاربات لفهمها أو المساهمة في حلها. الكتاب عبارة عن قناعات فكرية، حولها صاحبها إلى كلمات وعبارات وأسطر ومقالات، قال فيها رأيه بكل مصداقية، وهذا الأفكار التي سطرها على مدى أكثر من أربع سنوات جاءت في وقتها (ابنة لحظتها)، ولذلك لم يحاول صاحبها عند رغبته في إعادة نشرها مجتمعة، أن يتدخل فيها من جديد فيعيد صياغتها أو يعدل في مضمونها، لأنها بالنسبة له عبارة عن محطات لتطوره الفكري، فهو قبل أربع سنوات غيره الآن، فقد جرت في ثنايا فكره مياه كثيرة، يظن أنها قد وسعت أفقه إلى الأفضل والأحسن.

وقد حاول المؤلف في هذه المقالات المتنوعة، أن يُبقي على جوهر الفكرة التي تم الحوار حولها، مع إغفال اسم المحاور في الطرف الآخر، إلا في بعض المقالات التي تطلب حضور الاسم ضرورة ما، حتى تتضح الفكرة، وحرص صاحب هذه الهموم على أن يكون الهدف هو التركيز على المضمون، لأن هذا هو ما سيستفيد منه

القارئ، ولذا فقد يجد بعض قراء هذه الهموم في هذا المقال أو ذاك أنه كان طرفا فيه، ومما يدخل السرور إلى قلب صاحب هذه الهموم أنه قد استفاد من محاوره واستفاد محاوره منه كما يبدو له، مع أمل أن يستفيد من هذا التفاكر جميع القراء.

وصاحب هذه الهموم، لا يزعم أن ما سطرته يداه في هذا الكتاب هو الحق المحض والصواب الكامل، وإنما هي أفكار وآراء ووجهات نظر، قالها في حينه، ولا زال يعتقد مضمونها في المجمل - إلا في القليل النادر - مع سعة صدره وترحيبه مع من يختلف معه أو له وجهة نظر مغايرة، بأنه على استعداد لتفهمها قدر المستطاع، وسيكون المؤلف أكثر سعادة لو زوده من يختلف معه بوجهة نظره، ففي هذا إثراء لما لديه من أفكار، وتعزيز لما سيطرحه مستقبلًا، إن مدَّ الله في العمر وبارك في الجهد.

أيها القارئ العزيز/ هذه قصة هذا الكتاب، وفي طياتها قصة أفكار صاحب هذا الكتاب، أقدمها لك بكامل حمولتها النفسية والوجدانية والعقلية، على أمل أن تتقبلها بقبول حسن، وراجيا أن تحظى لديك ببعض الاهتمام، فهي هموم مثقف عربي، ربما تشترك معه فيها أو في بعضها، وربما تختلف معه فيها أو في بعضها، ولكنه بهذا الكتاب قد فتح معك صفحة للحوار وتبادل الآراء ووجهات النظر، وألزم نفسه بأن يكون واسع الصدر بعيد الأفق مع من يختلف معه قبل من يتفق معه. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

د. يحيى أحمد المرهبي

المحتويات

الإسلام صديق القطة والكلب...

الحديث الأول هو: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (عُذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، فلا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض). رواه البخاري ومسلم.

الحديث الثاني: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج، فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ مني، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجرا؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر). (أي كل حي من الحيوان والطير ونحوهما). رواه البخاري ومسلم.

جميعنا يعرف هذين الحديثين، حديث المرأة التي دخلت النار بسبب حبسها لقطة (هرَّة)، وحديث الرجل الذي دخل الجنة بسبب أنه سقى كلبا، وهذين العملين (كفعل) ليسا من أعظم الأعمال أجرا أو جرما ليترتب عليهما دخول جنة أو نار.

دعونا نتأمل الحديثين لندرك المغزى منهما وما يرميان إليه: حديث المرأة التي دخلت النار بسبب حبسها لقطة، يشير إلى تصحر قلب هذه المرأة وانتكاس فطرتها حتى أصبحت تتلذذ بالتعذيب والقتل، ولم يكن مطلوبا منها أن تطعم القطة، بل كان مطلوبا منها ألا تحبسها، فاستحقت النار لا لهذا الفعل المفرد، بل لانعدام الرحمة في قلبها وانتكاس فطرتها، وفعلها مع القطة إحدى مؤشرات ذلك الجفاف والتصحر.

أما الرجل الذي رقّ لحال الكلب وسقاه عندما رأى من حاله ما رأى، ولم يكن مطالبا بذلك، بل قام به لاتساع مساحات الخير والرحمة في نفسه، فنزل البئر مرة ثانية على صعوبة ذلك، ولم يكن معه وعاء يستخدمه لغرف الماء، فاستخدم حذاءه،

ولصعوبة الصعود أمسك الحذاء بفمه. وكان بإمكان أحد هذه الأعذار أن يصرفه عن القيام بهذا العمل، ولكنه أصرَّ على أن يسقي الكلب. مثل هذا العمل يدل على تمكُّن وتأصُّل بذور الخير والرحمة في نفسه، وما قام به مع الكلب إحدى مؤشرات الخير لديه التي استحق عليها الجنة.

صديقي العزيز: الإسلام صديق الفطرة والإنسانية، يبني ويربي الإنسان الذي يتعامل مع الكون كله جماده وحيوانه وإنسانه بمساحات الخير والرحمة والفطرة السوية، والقطة والكلب نموذجان لأصدقاء الإسلام. لا تقل للآخرين إنك رحيم، دع مساحات الرحمة والخير تدل عليك، وعندها ستكون صديقا لهذا الكون بما فيه ومن فيه، وهناك ثمَّ جنة الدنيا والآخرة.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: «إن (المنظور المضموني) يقودنا إلى القول بأن هذين الحديثين يقفان على طرفي النقيض، على اعتبار أن الأول يتحدث عن القطط والنساء وجهنم، فيما الثاني يتحدث عن الرجال والكلاب والجنة!! وقد يقال، على مستوى تجريدي بسيط مباشر، إن الحديثين يوصيان بالرفق بالحيوان». وهذا، في تصور المسيري، تفسير وعظي أخلاقي.

وبناء على رؤية المسيري وتصوره لـ «التحليل النماذجي» فإن هذين الحديثين سيتم النظر إليهما على أساس أنهما يحاولان تحديد علاقة الرجل والمرأة بالقطة والكلب، أي علاقة الإنسان بالحيوان، بل الإنسان بالطبيعة. ويضيف المسيري بأنه يمكن القول إن هذه العلاقة في جوهرها علاقة توازن مع الطبيعة (عذبت المرأة في هرة)، (بلغ هذا مثل الذي بلغ مني)، (في كل ذات كبد رطبة أجر)، ولكنه -والاستدراك للمسيري-توازن لا ينطوي على مساواة بين الإنسان والطبيعة، ويستشهد المسيري هنا



بقوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الأحزاب: ٧٢، وإنما تفترض تميز الإنسان وتفرده ومسؤوليته.

ويشرح المسيري رأيه هذا بقوله: «ففي الحديثين الشريفين الفاعل هو الإنسان (رجل أو امرأة)، والمتلقي هو الحيوان (قطة أو كلب)، والثواب والعقاب من نصيب الفاعل المسؤول. فمن خلال عملية تجريد متعمقة لهذين الحديثين، كما يقول المسيري، يصبح الرجل والمرأة فاعلين، ورمز الإنسان الفاعل هو مركز الكون (فالفاعل أعلى من المفعول به)، ويصبح الإنسان هو الكائن المستخلف الذي يجب أن يعمر الأرض؛ وهذه هي الإجابة الإسلامية عن السؤال الكلي النهائي الخاص بعلاقة الإنسان بالطبيعة.

فكرة الشخصنة .... ضياع للحكمة.

إن الشخصنة داء متأصل فينا، أسبابه عديدة، معقدة، متداخلة، وكثيرا ما نحاول إلباس هذه الشخصنة ثوب الموضوعية والحياد، وهي حيلة نهرب من خلالها إلى عدم قبولنا للفكرة الصحيحة في حال العداوة، وبالمقابل الترحيب بالفكرة الخاطئة وأحيانًا قبولها إذا جاءت ممن نحب، دون بحث عن الدليل والبرهان لهذه الفكرة، فالشخص القائل لها هو دليلها في حال كونها صحيحة أو خاطئة.

شخصنة الفكرة يعني: تحويلها من فكرة مجردة إلى فكرة مجسّدة تمحور في شخص معين، سواء سلبًا أو إيجابًا. وكذلك: ربطها بأمور شخصية خارجة عن موضوعها ومنهجيتها وأصولها وأدلتها، كالعواطف الإنسانية والمصالح الدنيوية والرؤى المذهبية.

و(شخصنة الفكرة) كما يقول حازم ماهر ليس مرتبطًا بحضارة أو بأمة دون أخرى، بل يعاني منه الناس في العالم أجمع ولكن بنسب متفاوتة؛ فالغرب -على سبيل المثال-يعاني من كونه يجعل من نفسه محور الكون ومركزه، وأن الحكمة متجسدة في الرجل الأبيض وحده، وأن أفكاره معيارية بالنسبة لما ينتجه العالم كله من أفكار، بل إن الآخر نفسه لا يعتبر موجودًا إلا إذا (اكتشفه) الغربيون!

والشخصنة تعوق إثراء الفكرة في جو طبيعي تتلاقح فيه الأفكار وتتبادل فيه الآراء، كما تحجب عنها الاجتهاد الموضوعي الذي يطرحها طرحًا يركز على المحتوى والمضمون، فتقع في أسر الشكلية والتقليد الذي يجمِّدها أو يبتعد بها عن مقاصدها أو قيمها، مما يؤدي بها إلى أن تمسي أفكارًا «ميتة» لا حياة فيها، أو تبقى شعارًا تنطق به الألسنة دون أن تغوص في القلب أو تُصدَّق في الواقع، وإن غاصت أو صُدِّقَت فإنها تكون كالقطار الذي ينطلق بسرعة ولكن بعيدًا عن قضبانه أو عن هدفه الذي يرنو

إليه فينطلق إلى حتفه.

والفكرة حين تحرم من النقد تذبل وتتراجع، إذ إن النقد هو ماء الأفكار وهواؤها، حسب تعبير الدكتور عبد الكريم بكار. إن الأفكار دائما طليقة تنتمي إلى عالم المثال الذي لا يعرف القيود، وحين تندمج الفكرة في الإنسان، وتبدأ مخاضات التجسد في الواقع العملي تكون قد كبّلت نفسها بقيود الزمان والمكان وتعدد الفهم وتنوع الإمكانات. وكل ذلك يحتم نوعا من المفارقة بين الواقع والمثال.

وهذا يؤكد تأكيدا جازما أن حث الإسلام على الاجتهاد ونبذ التقليد يُعد رفضًا كذلك لشخصنة الأفكار، لأن الاكتفاء بتقليد الأئمة لا يعدو كونه شخصنة للفكر يأباه العقل السليم، ولهذا فإن المنظومة الفقهية الإسلامية قائمة في الأساس على أنه «لا يقبل قول دون دليل»، لأن العبرة بالدليل لا بشخص القائل.

يقول الإمام القرطبي تعليقًا على رفض قوم نوح الانتساب إلى دينه الذي اتبعه -بحسب زعمهم-الأرذلون بادي الرأي: «والحق لا يعرف بقائله، ولكن يعرف بنفسه، ويجب قبوله دون النظر إلى قائله»، وقال: «فالحق يجب قبوله، سواء أقاله الفاضل أم المفضول، الحق أعلى من كل شيء».

والرسالة الإسلامية لم يكن اسمها (المحمدية) -على نسق المسيحية مثلاً-بل سُمِّيت باسم الفكرة ذاتها وهي (الإسلام)، فهذا فصل كامل بين العقيدة (الفكرة) وبين حامليها من الناس والرسل وغيرهما من «الأشخاص» على رفعة قدرهم ومقامهم عند الخالق سبحانه. ولهذا أطلق الدكتور محمد فتحي عثمان – رحمه الله-على الدولة الإسلامية مفهوم «دولة الفكرة» في كتابه الذي أسماه بالاسم ذاته: «دولة الفكرة»، واعتبرها هي الدولة الوحيدة في التاريخ التي قامت على الفكرة المجردة وحدها.

والكهنوتية في حقيقتها هي شخصنة للدين -نصوصه وقيمه ومبادئه المجردة-في أناس يحتكرونها من دون الناس ويقيمون أنفسهم حكمًا عليها وميزانًا توزن به، ومثلها الكهنوتية السياسية التي تختصر الحكمة والكياسة والفطنة والذكاء والرشاد في شخص الحاكم وكلامه، وخير مثال على ذلك هو ما قال به زعيم الكهنوتيين السياسيين والدينيين على السواء (فرعون): (قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) غافر: ٢٩.

إن الفكرة كما تبدو عند البعض منا ممزوجة بشخص صاحبها وكرامته، ارفضها ترفضه معها، واقبلها تقبله، إنها شبيهة بالكلب في المثل الإنجليزي: من أحبني أحب كلبي، وقد أورد هذا التشبيه -مع تحفظنا عليه-الدكتور زكي نجيب محمود في أحد كتبه.

وكثيرا ما تطرق أسماعنا تلك العبارة التي يتداولها بعض الفقهاء في معرض التحذير من النقد لآرائهم فيقولون إن: (لحوم العلماء مسمومة)، في عملية مزج عجيبة بين الرأي أو القول أو الفتوى وقائلها، وكأن التعرض للقول بالنقد هو في ذات الوقت تعرض لقائله بتقطيع لحمه (المسموم طبعا)، وكأن بقية اللحوم الآدمية منزوعة السُمِّية في حال الغيبة والنميمة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) الحجرات: ١٢.

إننا مطالبون بأن نجعل بين الفكرة وقائلها (حاجزا) فننقد الفكرة ونحترم الشخص، نعالج المرض دون قتل المريض، وما أشبه حال البعض في عدم الفصل في النقد بين الفكرة وقائلها من قولهم: « نجحت العملية ولكن المريض مات».

وأنا أعي تماما أن تجسيد الفكرة في شخص ما لا يعني بالضرورة وجود خطورة



على الفكرة وتجريدها، بل قد يكون في تجسيدها إضافة قوية لها باعتبار أن حاملها يقوم مقام القدوة التي تؤكد على إمكانية تطبيق الفكرة وتحققها، وهذا يظهر بوضوح في حياة الأنبياء خاصة، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) الأحزاب: ٢١، إلا أن الخطورة تحدث حين يتم التبادل في ذهن الناس بين الفكرة المجردة والشخص الذي تجسدت فيه، فتصبح الفكرة طوع تصرفات الإنسان، تُعرف به وتنتهي بتخليه عنها أو بموته، عندئذ تحدث المشكلة، كما في حياة الناس غير المعصومين، والكل ـ غير الأنبياء ـ غير معصوم.

أعوذ بالله من السياسة... دع قيصر يعمل ما يشاء.

في البداية أسارع إلى القول إن نقاشي هنا لا يتطرق إلى موضوع السياسة الشائع والمتداول بين الناس، بل سيتطرق إلى السياسة كعلم، وكيفية التربية عليه. إذ لا يزال مفهوم ـ السياسة ـ في المجتمعات الإسلامية المعاصرة يستمد «محتواه» من ـ لغو ـ المجالس واللقاءات العابرة، و «يشتغل» به كل قادر على اللغو من الخاصة والعامة سواء، وما زالت «مصادره» هي الصحف والقنوات ومواقع التواصل والإنترنت والإذاعات والإعلام المعادي الذي يعمل لقولبة التفكير، وتضليله بدل إعطاء الحقائق وتنوير الأفهام.

أما «الحكمة السياسية» -أو العلوم السياسية-التي تستمد محتوياتها من البحث الراسخ المحيط بقوانين الاجتماع وروافع القوة، وتعتمد في مصادرها على النفاذ إلى «مراكز البحوث» المختصة ومراكز صنع القرار وتنفيذه وتقويمه، وبواسطة «المختصين» الذين يستنبطونه منهم، فهذه علوم ما زالت غائبة منسية، كما يؤكد على ذلك الدكتور ماجد عرسان الكيلاني.

وهو ما قال به ابن عقيل، كما نقله عنه ابن القيم، في إدراك مبكر لمدلول السياسة كعلم ومقصد، حيث قال: «السياسة ما كان من الأفعال، بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول (-صلى الله عليه وسلم-)، ولا نزل به وحي». وهي رؤية صائبة وفهم دقيق من ابن عقيل لمقاصد الدين، وإدراك منه لثوابت هذا الدين ومتغيراته.

إن هناك علاقة مباشرة بين السياسة والحياة: فالأولى تخطيط للثانية، وما السياسة في جوهرها إلا مشروع لتنظيم التغيرات المتتابعة في ظروف الإنسان وأوضاع



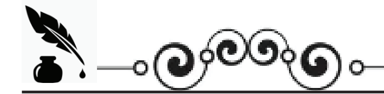
حياته، هذه العلاقة التي تحدد وضع الفرد باعتباره غاية كل سياسة، تعد الفرد أيضاً عاملاً لتحقيق تلك الغاية.

وعلى العموم نجد أن هناك صنفين من السياسة، ولكل صنف واقعه الخاص، كما يقول مالك بن نبي: فأما الصنف الأول فهو السياسة التي تتمثل في (أفكار مجردة)، وأما الصنف الثاني فهو السياسة التي تمثل في (أفكار مجسّدة). فالسياسة التي تتطور تبعاً لـ (أفكار مجردة) تعانق بحكم الضرورة الضمير الشعبي، ومن ناحية أخرى فإنها تلتزم المبادئ والمقاييس والقواعد التي تتحكم في سيرها.

لقد حذر المهاتما غاندي من حضارة العصر التي ارتكبت خطايا جعلت: «السياسة بلا مبادئ، والتجارة بلا أخلاق، والثروة بلا عمل، والتعليم بلا تربية، والعلم بلا ضمير، والعبادة بلا تضحية». وعندما يصبح الحال كما أشار إليه غاندي يتحول العالم إلى غابة، يأكل القوي فيها الضعيف، وتتحول القيم التي كان مؤملا منها أن تصلح العالم وتحرره، إلى وسائل تفسده وتستعبده. إن السياسة من دون أخلاق ما هي إلا خراب الأمة. والسياسة حين تنزع منها العاطفة الإيجابية ومعرفة مآلات إدارة القوة على إرادة الناس تغدو لعبة حسابات ومصالح صماء عمياء.

لقد علمتنا السياسة ألا نأخذ أبدا بظاهر الأمور مهما كانت مشتعلة إعلاميا، فالحقيقة لا تجدها في وسائل الإعلام ولا في التصريحات السياسية النارية، بل تجدها على أرض الواقع. وقد أخبرنا الفلاسفة الإغريق ألا نركز على ما يقوله الساسة، بل على ما يفعلونه على الأرض. «فالسياسة ليست ما يقال بل ما ينجز». كما يقول مالك بن نبي.

إن القرآن والتاريخ يشهدان أن السياسة مواقفُ ومدافعةٌ لظلم الظالم، لا مواعظ ومراهنةٌ على يقظة ضمير الحاكم. ويُعجبني في هذا المقام قول الزعيم التركي نجم الدّين



أربكان عندما قال: «المسلمون الذين لا يهتمّون بالسّياسة يحكمهم ساسة لا يهتمّون بالمسلمين!». وهذا واقع واضح لا تخطئه العين. والحاصل أنَّ كل المدقِّقين السّياسيين يرون ـ كما يقول الكواكبي ـ «أنَّ السّياسة والدّين يمشيان متكاتفَيْن، ويعتبرون أنَّ إصلاح الدّين هو أسهل وأقوى وأقرب طريق للإصلاح السّياسي».

ومن هنا تأتي الأهمية القصوى لاقتراح ـ أبراهام ماسلو ـ وهو نقل الدراسات الدينية إلى ميدان العلم بدل بقائها حبيسة في دوائر الكهانة، ليتعيش بها الكهان أو في دوائر السياسة ليستغلها الساسة. والمعنى أن نخرج الدارسات الدينية من دوائر الكهانة والخرافة والأساطير في الأولى، ونخرجها من دوائر المكر والخداع والتضليل والتزييف في الثانية.

لقد استطاع مالك بن نبي أن يفرق بين السياسة التي يعتبرها «علما» ترسم أهدافا وتجنِّد وسائل، ولا تخطئ إلا في حدود خطأ العلم، وبين السياسة التي تحترف الدجل السياسي، وسماها في إحدى كتبه (بالبوليتيك)، ويقصد بذلك السياسة العقيمة التي تغيب فيها الفعالية، وتبنى على الكذب والخداع والدجل، ويحترفها المرتزقة والمشبوهون والجهلة، (فالبوليتيك)؛ دائماً تكرر أخطاءها، لأنها ليست علماً أو تجربة، وإنما هي جهل وهذر وشذوذ، وفصل للفكرة عن النشاط بطريقة تظل بها الأُولى عاجزة، ويظل الثاني أعمىً فاقداً للبصيرة والبصر.

وهناك من يشبه السياسة بالمسرح (الدكتور عمار حسن)، ليس فقط من زاوية الإيهام والتخييل، بل أيضا من باب مهارة العرض، وتوزيع الأدوار، وإقبال الناس بغية الفرجة. وصار بإمكان (الاستعمار الجديد) أن يصنف الدول بطريقة معينة، وأن يعطيها السياسة التي تناسبها. وهذا ما نلاحظه بوضوح في عالمنا العربي والإسلامي.



وصار حال العديد من السياسات العربية الإسلامية يشبه القصة الرمزية التي ذكرها عبد الرحمن أبو ذكرى في كتابه (أفكار خارج القفص): «يروى أن ضفدعة لعوبا نصحت إحدى صواحبها قائلة: لا تقصدي البحيرة الفلانية ففيها يكمن ضفدع ماجن عديم الحياء لئيم، ذهبت هناك أول أمس فاغتصبني، وذهبت بالأمس فاغتصبني، وذهبت اليوم فاغتصبني، وسوف أذهب غدا لأحسم أمري معه وأنظر ماذا يفعل بي!».

إن هذه القصة الرمزية تفسر كثيرا من عبثية السياسة في عقول من يحترفون الدجل السياسي. فالسياسة كما يقال عنها (فن الممكن)، ولكن الممكن هنا هو ما يمكن استخلاصه من الواقع أو إسقاطه عليه، وليس الانبطاح والاستخذاء الذي نطالعه اليوم.

وفي واحدة من لفتات المفكر الجزائري مالك بن نبي الرائعة قوله: «أدركت للتو أن السياسة التي لا تبدأ بتكوين الإنسان، وتنشيط ذكائه ووعيه، ليست إلا نطحة ضد شيء خفي». وهو يشير هنا إلى عملية إعداد الإنسان الواعي، أو ما نسميه في مجالنا التربوي (بالتربية السياسية). وهذا مفهوم أدركه أسلافنا في وقت مبكر، فقد عرف النحّاس الإنسان الرباني بأنه: الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة. (تفسير القرطبي)

إن الحقيقة الناصعة تشير إلى: أن التربية السياسية المستمرة تظل إحدى الضمانات التي يمكن من خلالها تحقيق الضبط السلوكي لكل من يتعاطى السياسة، قائدا كان أو مواطنا عاديا، وهذه هي الوظيفة التي تقوم بها المدرسة والجامعة بطريقة مباشرة وبقية المؤسسات الاجتماعية بطريقة غير مباشرة.

لقد عبر محمد الطالبي بأسلوب نقدي بارع ـ نتفق معه فيه ـ عن إخفاقات



السياسة في محيطنا العربي الإسلامي فقال: «إن إخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم، إنما هو إلى حد بعيد إخفاق الجامعة قبل كل شيء». ونحن نمد ما قال لنجعله يشمل ما قبل الجامعة وما بعدها وما يصاحبها ويؤثر فيها.

إن ممارسة السياسة عن علم، وبناءً على قيم وأخلاق، يبدأ الإعداد له مبكرا، وإن صمْتَ المؤسسات التربوية والاجتماعية عن القيام بوظيفتها في هذا المجال، بل وقيام البعض منها بالتحذير من الحديث عن السياسة باعتبارها (رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) المائدة: ٩٠، معناه أنها تسمح وتساعد على إخراج ساسة يحترفون الدجل السياسي، بدلا من إعداد رواد للمستقبل يأخذون السياسة عن علم، ويمارسونها بموجب قيم وأخلاق.

إن إعداد رواد للمستقبل بالصورة الإيجابية التي ذكرناها يتطلب أن تصبح (التربية السياسية) جزءا أساسيا من مناهجنا وحواراتنا في المدرسة والجامعة وبقية المؤسسات الأخرى، في عملية نقدية تشجع على اكتساب السياسة القائمة على العلم والقيم، وتحذر من السياسة التي تحترف الدجل السياسي... فالسياسة كالسباحة لا يتم تعلمها نظريا بل لا بد من أن يكون للواقع والممارسة النصيب الأوفر في تعلمها وترسيخها.

خصخصة الإسلام....

الأصل في المفكر والمثقف والفيلسوف الحق أن يكون رائدا لبني قومه، ومحللا تحليلا دقيقا للوضع الذي تعيشه أمته/دولته، وواضعا لمشاريع حلول للخروج من مآزقها. وهذا ما أراه في كثير من الرواد في وقتنا الحاضر، ولا نزكي على الله أحدا.

فبادئ ذي بدء، لا بد أن نعي أن أي جماعة مهما كان حجمها أو مدى ادعائها للشمولية لا تخرج ولا يمكنها تجاوز أن تكون جماعة (من المسلمين) وليست (جماعة المسلمين)، وبين التوصيفين السابقين من الاختلاف كما بين السماء والأرض. ولا يمكن لأي جماعة أن تدّعي أنها الإسلام أو أنها الممثل الوحيد للإسلام، فالإسلام حركة أمة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ولا يمكن للجماعة أو الحركة أن تحل محل الأمة، ولكن بإمكانها أن (تخمِّرها)، وتسير معها وبها إلى دروب النهوض.

وثانيا علينا وعلى الحركات والجماعات خصوصا أن تعي أن الوسائل تبقى وسائل ولا يمكنها أن تتحول إلى غايات، لأن تحولها إلى غايات يعني أن يتم بموجبها الولاء والبراء والقرب والبعد من الإسلام، وفي هذا (خصخصة) للإسلام على (نموذج) محدد، والإسلام لا يمكن خصخصته أو تميطه لأنه جاء رحمة للعالمين. وعليه فالوسائل التي يسعى المصلحون للعمل للإسلام من خلالها (سياسية، اقتصادية، تربوية، فكرية، اجتماعية، تنظيمية، نقابية ....)، هي وسائل من حق الجميع تقويمها، ولا يمكن أن تكون هذه الوسائل ثوابت في كل المراحل، فالوسيلة التي تكون مجدية اليوم قد تكون كارثة غدا... وهكذا.

وتقسيم العمل وفقا للتخصصات يؤدي إلى الإتقان والإبداع، وتراجع نسبة الخطأ، قال تعالى: (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) [فاطر: ١٤]، كما يؤدي التخصص وتوزيع

العمل إلى التكامل وإعادة بناء شبكة العلاقات، فيتم تشبيك المجتمع من خلال مؤسسات أهلية، ومدنية، ونقابية، وخيرية، وحقوقية، يمنع المجتمع من خلالها تغول قوى النفوذ سواء أكانت الدولة، أو القبيلة، أو المؤسسة العسكرية، أو حتى الأحزاب، وليس من الضروري انتماؤها للأحزاب.

ثالثا: أتذكر أني نشرت في إحدى المجموعات مقالا بعنوان: (أعوذ بالله من السياسة. ... دع قيصر يفعل ما يشاء)، وقد أوضحت فيه أن على النخب الثقافية والفكرية والأكاديمية أن تسعى لرفع مستوى الوعي السياسي بمعناه الواسع وليس المعنى الحزبي الضيق، ليتمكن المسلم من إدراك جميع الأبعاد في دينه مهما كان موقعه، ومهما كان انتماؤه، ومهما كان الدور الذي يؤديه.

وهذا ما أريد تأكيده الآن، وهو أنه وفي حال التخصص لا يعني أن يكون الجميع جُزُرا معزولة عن بعضها، فالجميع، سواء المنتمون إلى الأحزاب أو الجماعات أو الحركات، أو المتخصصون في فروع الحياة الخدمية والنقابية والحقوقية، هؤلاء جميعا يجمعهم الفهم الشامل للإسلام، وهذا ما يجب على النخب الفكرية والثقافية أن يقوموا به، لتصبح حركة الأمة/المجتمع متناغمة متكاملة لا متقاطعة متناقضة.

ويمكنني أن أختم هذا المقال بكلمات رائعة قرأتها للدكتور سلمان العودة - رحمه الله- ، توضح أن الإسلام لا يمكن أن يُحصر في (نموذج) معين كما قد يتبادر إلى الذهن، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى المجتمع، أو حتى على جميع المستويات. وإليكم كلماته:

كلنا يعتبر نفسه هو (النموذج) في أمور الدنيا والدين:

انتبهتُ ذات يوم وأنا أقود سيارتي إلى واحدة من القواعد النفسية والأخلاقية

العامة التي يشترك فيها أكثر الناس: فإذا حجزتني سيارة بطيئة أمامي، قلت: يا لهذا السائق البليد! وإذا تجاوزتني سيارة مسرعة من ورائي، قلت: يا له من سائق متهور! إننا نعتبر أنفسنا «النموذج» الذي يُقاس عليه سائر الناس، فمن زاد علينا فهو من أهل (الإفراط)، ومن نقص عنا فهو من أهل (التفريط).

إذا وجدتَ من ينفق إنفاقك فهو معتدل كريم، فإذا زاد فهو مسرف، وإذا نقص فهو بخيل، ومَن يملك جرأتك في مواقف الخطر فهو عاقل شجاع، فإذا زاد فهو متهور، وإذا نقص فهو جبان ... وهكذا ولا نكتفي بهذا المنهج في حكمنا على أمور الدنيا بل نوسعه حتى يشمل أمور الدين، فمَن عَبَدَ عبادتنا فهو من أهل التقوى والإيمان، ومن كان دونها فهو مقصر، ومن زاد عليها فهو من المتنطّعين. وبما أننا جميعاً نرتفع وننخفض، ونتقدم ونتأخر، ونتغير بين وقت ووقت، وبين عمر وعمر، فإن هذا المقياس يتغير باستمرار.

ربما مَرّ علينا زمان نصلي فيه الصلاة مع الجماعة ثم نقوم فنمشي دون أن نصلي السنّة، فنحسّ ـ في قرارة أنفسنا ـ بالأسف على مَن يفوّت الجماعة ونراه مقصراً، لكننا لا نرى أي بأس في الذين يقتصرون على الرواتب دون النوافل؛ فإذا تفضّل الله علينا وصرنا من المتنفّلين نسينا أننا لم نكن منهم ونظرنا إلى من لا يتنفّلون بعين التعالي والزِّراية أو بعين الشفقة والرثاء..

نصل من تلك الملاحظات التي أوردها الدكتور سلمان العودة إلى قاعدة مهمة من قواعد الحسبة: إياك أن تظن أن مقياس الصواب في الدنيا ومقياس الصلاح في الدين هو الحالة التي أنت عليها والتي أنت راض عنها، فرُبّ وقت مضى رضيتَ فيه من نفسك ما لا ترضاه اليوم من غيرك من الناس... فدع الخلق للخالق، واعمل على

إصلاح ذاتك، والتماس الأعذار للآخرين في دينهم ودنياهم وحتى في الوسيلة التي يرونها لخدمة دينهم... مالم يكن في ذلك خروج عن ثوابت الدين، أو خروج على ما أجمع عليه المجتمع ليكون ثوابت وطنية. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الجهاد على بصيرة ...

التدين هو جهاد لإنجاز الدين، كما يقول الدكتور عبد المجيد النجار، فيه معاناة يكابدها الإنسان عبر واقعه الذاتي والموضوعي، وفي ذلك الجهاد يصوغ الإنسان تصرفاته الفردية والاجتماعية والكونية، في مكابدته لواقع النفس والمجتمع والكون أفعالاً جزئية غير منحصرة يحقق بها كليات الدين، ويقترب بها قدماً من المثال الكامل، على قدر ما يصيب في اجتهاده، وما يخلص في جهاده، في حركة لا تستنفد أغراضها بتحقيق الكمال، ولكن يتجدد زخمها ويشتد بما يُحسن الإنسان من أساليب التدين في تزكية النفس وتعمير الأرض.

والجهاد والمجاهدة إنما تكون في الميادين جميعها؛ ومشروع النهوض هو مشروع أمة بكل فئاتها ومواقفها ومسؤولياتها؛ والجهاد، بمعنى دفع العدوان وإزالة المعوقات من طريق الدعوة ونشر الحرية، جانبٌ أساس في مشروع النهوض بكل أدواته، لكن لابد لنا أن نعرف أين (نضع أقدامنا)، لابد من التخطيط ودراسة الجدوى ومعرفة الإمكانات الذاتية وإمكانات الخصم وخططه والتمتع بوضوحٍ في الرؤية والهدف ونظافة الوسيلة، وكل ذلك من الجهاد، بمعناه العام، وهذا ما نراه غائبا لدى كثير ممن يرفعون رايات الجهاد اليوم.

والدولة العثمانية في أيامها عندما حكمت العالم الإسلامي، اهتمت بالجهاد أكثر من اهتمامها بالاجتهاد، الذي هو قرين الجهاد، مع إن القيادة الإسلامية تحتاج إلى كلا الأمرين: الاجتهاد لمعرفة الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والجهاد لحمايته والذود عنه؛ وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا بد للدين من كتاب هادٍ وحديد ناصر» مشيرًا إلى قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ

فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [الحديد: ٢٥].

ويعد الإمام الجويني تعطيل الجهاد وعدم الإعداد له إشارة متقدمة على تسليم الأمة نفسها لعدوها فيقول: «وما أقرب قعودنا عنهم من قدومهم إلينا»، وهذا مبني على واقع العلاقات الدولية في زمانه، فما بالك في زماننا هذا، الذي أصبح العدو بقواعده العسكرية وبوارجه الحربية وطائراته الحديثة، يحاصرنا برا وبحرا وجوا، إضافة إلى استخذاء حكامنا له، وتطبيعهم معه ومع أذنابه سرا، وإن كان قد تحول جهرا كما نجده في زيارة بعض حكام الكيان الإسرائيلي إلى بعض الدول العربية واستقبال زعمائها لهم استقبالا رسميا.

إذن، فالقضية ليست قضية رفع راية، وفتح جبهة للقتال، والدخول في معركة دون رؤية، بل القضية إيمان وبصر وبصيرة وإحاطة، وفكر وفعل وممارسة، واستشعار للمسؤولية، والتزام بآداب الجهاد وارتباط بأهدافه، وضبط لأدواته، وليس مجرد توثب روحي وحماسات وغضب عارم، وحناجر سميكة، وخطب رنانة، ورايات عميّة، قد يتسلمها أو يحركها العدو فتقود الأمة إلى حتفها، حتى ولو كان ظاهرها يرفع شعار الإسلام.

والمآلات (بمعنى اعتبار ما تؤول إليه الأمور) إنما اعتبرت لكي تعالج غلو ما يفضي إليه التطبيق الآلي للنصوص، على ما يندرج تحتها من وقائع جزئية لاتقاء النتائج الضرورية غير المقصودة للشارع، فهذا الأصل ينبني على أن (الفعل يشرع) لما يترتب عليه من (المصالح واقعياً)، ويمنع لما يؤدي إليه من المفاسد.

والمجتهد إذا بلغ به النظر في المآلات إلى توقع حدوث المصلحة التي تشرع

الحكم لأجلها حكم بمشروعية هذا الفعل، وإذا بلغ به اجتهاده أن هذا الفعل في بعض الحالات غير محصل لهذه المصلحة، أو كان مع تحصيله لها مفوِّتاً لمصلحة أهم أو مؤدياً إلى حدوث ضرر أكبر منع المجتهد منه، وبالمثل يحكم المجتهد بالمنع من الفعل دفعاً لمفسدته، طالما كان منه لا يؤدي إلى تساوٍ أو تزيد. (فريد شكري، فقه التنزيل).

وإذا تحقق للمجتهد أو غلب على ظنه أن تطبيق أي حكم في الشريعة يفضي في ظرف من الظروف إلى مآل يناقض المقاصد التي استهدفها التشريع، فإنه لا يجوز المصير إلى ذلك بأي حال من الأحوال (د. فتحي الدريني، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي).

ومن المعلوم أن هناك أحكامًا شرعية تمثل خطاباً للمعركة والتعبئة النفسية والتحريض على القتال والغلظة في المواجهة، وأخرى تمثل خطابًا للدعوة والحوار والمجادلة باللين والحكمة وعدم الغلظة والفظاظة، وثالثة لبناء العلاقات الاجتماعية والوفاء بالمعاهدات وعقود الذمة.

وكم نكون بائسين إذا نزلنا خطاب وقيم النصر على ساحة الهزيمة، وقيم الدعوة على مجال الدولة، وأحكام فترة الاستضعاف والتعايش مع الأصنام في مكة على لحظة الانتصار والتمكين في فتح مكة، ونزلنا ما ورد من نصوص في فساد وانحراف العقائد الأخرى على أساليب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وانطلاق الحوار من كلمة سواء ومجادلة (الآخر) بالتي هي أحسن ومشروعية القبول به - والقبول لا يعني إقراره على ما هو عليه - ونزلنا خطاب الحرب والتعبئة العسكرية على مساحات الحوار والإقناع والمجادلة بالتي هي أحسن، ذلك أن تنوع مواصفات الخطاب القرآني بحسب الحالات التي يعالجها ويتنزل عليها يقتضي الفقه بذلك كله، وأن لكل حالة حكمها وحلها.(أ.

عمر عبيد حسنة). أما مجرد الاستشهاد بالآيات والأحاديث وتنزيلها على غير محالها فسوف يؤدي إلى الكثير من التداعيات والمجازفات والإصابات وغياب الفقه والوعي والرشد.

ولعل من أشد الأمور خطورة غياب الرؤية الشاملة لاكتمال الشريعة واستقرار الأحكام وإبصار الهدف النهائي أثناء الإقدام على فقه التنزيل وتحقيق الهدف المرحلي؛ في أمر الجهاد أو في غيره، لأن ذلك الغياب سوف يؤدي لممارسة تقطيع النص وتجزئته وإخراجه عن سياقه وممارسة الانتقاء لتسويغ أفعالنا، فبدل أن يكون هوانا تبعاً لمقاصد النص وما جاء به تنعكس الصورة فيصبح ما جاء به النص من مقاصد وتكاليف تابعاً لهوانا، والرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». قال النووي: حديث صحيح.

والنص هو الحاكم على الاجتهاد ومدى صوابه، وليس الاجتهاد هو الذي يحكم النص، حال واقع الكثير من الفتاوى والفهوم، التي أقامها أصحابها حاكما على الكتاب والسنة. وما بين قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) [النساء: ٧٧]، وقوله تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [الحج: ٣٩]، بين هاتين الآيتين مسافة ومساحة من الزمن والفقه والإعداد والتربية ما يحتاج منا إلى أن نتوقف عندهما كثيرا، وألا نأخذ بالإذن في محل كف الأيدي ولا نكف أيدينا في محل الإذن بالقتال، وألا نحجم عن مدافعة قد حان أوانها واستكملت أسبابها، ولا ندخل في معارك لم يحن أوانها ولم نستكمل الإعداد لها، ونرى أن مآلاتها ليست في صالحنا

.... هذه سنن الله في النصر والهزيمة من تأملها جيدا وسار على خطاها كان النصر حليفه، ومن تنكبها فلا يلومن إلا نفسه.

مجتمع المعرفة ...

من غايات مجتمع المعرفة التي أجمعت عليها الآراء، وصارت متداولة بين من ينظِّرون لمجتمع المعرفة أن التعلم يشتمل على أربعة أهداف أو غايات، يجمعها السؤال لماذا نتعلم؟ وهي: نتعلم لنعرف، ونتعلم لنعمل، ونتعلم لنكون، ونتعلم لنشارك الآخرين، وقد انصب الجهد على الغايتين الأوليين في حين أُغفلت بصورة شبه تامة الغايتان الأخريان، فصار تعلمنا لغرضين فقط المعرفة بمفهومها المعلوماتي والعمل، وغاب عنا التعلم الذي يجعل منا أناسا آخرين يستطيعون أن يكونوا وأن يشاركوا الآخرين.

وقد طرح العالم (دانيال بل) مصطلح (مجتمع المعرفة) واصفا فيه تحول المجتمع من مجتمع قائم على الصناعة، ويركز على إنتاج السلع وتسويقها، إلى مجتمع قائم على المعرفة، يركز على إنتاجها وتطبيقها وتسويقها.

ومجتمع المعرفة كما عرفه الدكتور عبد اللطيف حيدر هو: ذلك المجتمع الذي يقوم أساسا على نشر المعرفة، وإنتاجها، وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات النشاط المجتمعي: الاقتصاد والمجتمع المدني والسياسة والحياة الخاصة وصولا لترقية الحالة الإنسانية باطراد، أي إقامة التنمية الإنسانية.

وهناك تراتبية بين المصطلحات في مجتمع المعرفة، حيث يتم البدء بالبيانات وهي التي تقع في أدنى السلم المعرفي، ثم تجمع بطرق منهجية للحصول على المعلومات التي تعلو البيانات في السلم المعرفي، وكذلك يجري تجميع المعلومات ذات العلاقة للحصول على المعارف، وهي التي تقع في أعلى المعلومات في السلم المعرفي، وأخيرا تركَّب المعارف بعناية شديدة، وفي ضوء خبرة طويلة المدى للحصول على الحكمة، وهي التي تقع في أعلى السلم المعرفي.



والبيانات: هي المادة الخام، هي المعطيات البكر- إن جاز التعبير - البيانات هي بنود البطاقة الشخصية ومادة استيفاء النماذج، وقراءات أجهزة القياس، والإشارات التي تنبعث من أجهزة الإرسال، وتلتقطها أجهزة الاستقبال، البيانات هي ما ندركه مباشرة بحواسنا، هي إشارات اليد وحركة العين، وإيماءة الرأس، وتغير ملامح الوجه، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

أما المعلومات: فهي ناتج معالجة البيانات من خلال عمليات التحليل والتركيب، وذلك من أجل استخلاص ما تتضمنه البيانات من مؤشرات وعلاقات وتعالقات (من العلاقة) ومقارنات وكليات وموازنات ومعدلات وغيرها، وذلك من خلال تطبيق العمليات الحسابية والطرق الإحصائية والرياضية والمنطقية، أو من خلال إقامة نماذج المحاكاة وما شابه. وعليه فالبيانات هي ركيزة المعلومات، وهي المتغير المستقل الذي يستحدث، والمعلومات هي المتغير التابع.

والمعرفة: هي حصيلة هذا الامتزاج الخفي بين المعلومات والخبرة والمدركات الحسية والقدرة على الحكم، فنحن نتلقى المعلومات، ونتمثَّلها في عقولنا، نطبق عليها آليات الاستنباط لاستخلاص المعرفة الضمنية الكامنة بها، وآليات الاستقراء لتوليد معرفة جديدة انطلاقا منها. واستنتاجا من ذلك فإن الفرق بين المعلومات والمعرفة يفوق بكثير الفرق بين المعلومات وبين البيانات.

وأخيرا الحكمة: التي نصل من خلالها إلى ذروة الهرم المعرفي، حيث نواجه أعقد العمليات التي يمارسها الذهن البشري لتقطير المعرفة إلى حكمة مصفاة، وتجاوز المتاح من المعرفة، وانتهاك السائد، وزعزعة الراسخ، من أجل فتح آفاق معرفية جديدة، ومن أجل كسر القيود واقتناص الفرص، وترشيد استغلال الموارد والموازنة بين تحقيق الغايات وكلفة الوصول إليها. د. نبيل علي، مصادر المعلومات واكتساب المعرفة.

الغرب ليسوا الأصلح للحياة...

عندما أقرأ لك (المقصود هنا الأستاذ الدكتور فؤاد البنا) على مستوى الومضات أو المقالات أو الكتب أجد متعة عقلية وروحية ونفسية قلما أجدها عندما أقرأ لغيرك، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تمكنك مما تكتب وقبل ذلك توفيق الله لك في تقبل الآخرين وحبهم لك ولما تكتب. فأسأل الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتك.

نعم أستاذي الكريم قرأت مقالك الأخير وأعجبت به، ولكنني توقفت عند الدراسة الأخيرة التي أوردتها في آخر المقال، والمعنية بتصنيف الدول حسب قيم الإسلام التي قال بها معدو هذه الدراسة. وإيرادك لهذه الدراسة ضمن مقالك دون التعليق عليها يعني أنك متفق مع ما توصلت إليه من نتائج وتعميمات، ولكني أتساءل بين يدي ما ذكرت التساؤلات التالية:

بداية: هذه الدراسة وشبيهاتها من الدراسات حول العالم الإسلامي فيها نوع من التحيز ولو كان على رأسها باحثون مسلمون، فهي في جُلِّها دراسات موجَّهة تنطلق من الرؤية الغربية الحاكمة للمسار العالمي.

قد تقول لي: وأين يكمن التحيز الذي أشير إليه في هذا المقال؟ فأقول لك: إن المحاور والقيم التي تم التطرق إليها ليست كل المحاور والقيم التي كان من المفروض أن يتم التقييم بموجبها. فأين المحور الاجتماعي والعلاقات الأسرية؟ وأين المحور الأخلاقي؟ وأين المحور الروحي والنفسي؟ وقد أشرت إليه أنت، وأين المحور الإنساني؟، وأين المحور البيئي؟ وأين. .....؟.

ثم أين القيم التي أظنها غابت عن القيم التي تم التقييم عليها: تماسك الأسرة، العفة، بر الوالدين وصلة الأرحام، الحفاظ على البيئة التي تدمرها نفايات المصانع، وأين الإنسانية التي لا نراها منصرفة إلا إلى المواطن الغربي. ..... إلخ.

هل دخل ضمن التقييم القيم السلبية المتمثلة في الربا الذي يحكم كل نواحي الحياة الغربية (والدول الإسلامية واقعة فيه)؟ وهل دخل ضمن التقييم الشذوذ الجنسي والزواج المثلي والحرية الجنسية بلا حدود؟ هل دخل ضمن ذلك إنتاج وبيع الأسلحة والمخدرات؟ هل دخل ضمن ذلك شبكة التجسس والمخابرات التي تجوس خلال العالم؟ هل دخل ضمن ذلك التسويق للجريمة والرذيلة من خلال المؤسسات الإعلامية؟ هل دخل ضمن ذلك السيطرة على المنظمات الدولية وتوجيهها الوجهة التي يريدونها؟ هل دخل ضمن ذلك التدخل في شؤون دول العالم الثالث ومنها بالطبع الدول الإسلامية؟ هل دخل ضمن ذلك قتل الأبرياء في كثير من الدول بحجة محاربة الإرهاب؟ هل دخل ضمن ذلك التحكم في التجارة العالمية وإخضاع العالم للأمركة والأوربة؟ هل دخل ضمن ذلك الأجهزة البوليسية وعصابات الجريمة مدفوعة الأجر التي يتم استئجارها للاغتيالات؟ هل دخل ضمن ذلك الجريمة المنظمة في الغرب التي لولا قوة الدولة وكثرة السجون لرأينا العجب؟ هل يدخل ضمن ذلك. .....؟ والأمثلة أكثر من أن تحصر.

أتساءل الآن لو وضعت هذه المحاور والقيم سواء منها الإيجابية أو السلبية، هل ستكون النتائج كالنتائج التي خرجت بها الدراسة التي أوردت؟ لا أعتقد ذلك! إن من يطلع على مقالك يظن أن الغرب يعيش في (الفردوس الأرضي) حسب وصف الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله في كتاب له بهذا العنوان متحدثا فيه عن الغرب.

الغرب الذي نمدحه بكثرة ونجعله قبلة لمن يريدون التقدم يعاني من اختلالات بنيوية لا يدركها إلا الفطناء الذين لا تخدعهم ولا تغرهم المظاهر الخارجية، ولولا الدفعة الحضارية التي يعيشون في نعيمها، وكذا ما ينهبونه من خيراتنا عن طريق حكامنا التابعين لهم، وهم من يصنعونهم ويحمونهم لرأيت عجبا.

هذا الغرب الذي لا يعترف بالإنسان إلا إذا كان مواطنا غربيا أما إذا كان غير ذلك فلا قيمة له. لا أخفيك أن جزءا من مأساتنا متوقفة على هذا الغرب الذي سلب عقولنا وصرنا نتغنى به ونسوِّق قيمه ونروج لمبادئه، لا فرق بين علماني وإسلامي وقومي.

قد نكون كمسلمين في حالة يرثى لها، لكننا لسنا بذلك السوء الذي يتم تصويرنا به، وإن بإمكاننا أن ننهض إذا أحسنا فهم ديننا وإدراك السنن التي ينبغي أن يتم النهوض عليها. قد أكون بالغت، لكن لم يكن أمامي وأنا أقرأ هذه الدراسة إلا أن أقول ذلك ليعتدل الميزان.

فتنة الغرب ...

في البداية: كان بإمكاني عدم مواصلة الحوار فيما تم، اكتفاءً بما ذكر، رغم عدم قناعتي ببعض الأفكار التي طرحت، ولأن التجربة أثبتت أن تكرار فكرة، من غير مواجهتها برد، يجعلها بعد فترة مسلّمة لا تقبل النقاش. وهذا جزء من غسيل الدماغ. وقد وجدت أفكارا تحتاج إلى رد.

فهناك من يستخدم طريقة المحاكمة التي تصدر عن قناعة راسخة لدى الشخص، وتريد أن تقول شيئا موجودا في رأس هذا الشخص، ثم تعمل على التقاط ما يمكن أن يعد دليلا، فإذا كان الدليل نفسه يمكن استخدامه بما ينقض الدعوى، قيل: إن ذلك الدليل ليس قاطعا، فلا يمكن استخدامه إلا باتجاه واحد فقط.

وعليه، فهل الاحتلال مشكلة أم حل؟ وهل أخطأنا عندما أخرجنا المحتل من أرضنا؟ وهل المحتل أفضل لنا من أنفسنا لكي يحكمنا؟ ولماذا كان الناس بهذا الغباء الفاحش عندما قاوموا الاحتلال؟

تقولون إن هناك قابلية للاستعمار، نعم، وهذا القول صحيح، فما بالكم وقد انتقلنا إلى مرحلة أخرى ليست القابلية للاستعمار فقط، ولكن الترحيب والقبول به، لأن الشيخ رشيد رضا قال بأن المغرب كان أفضل مع وجود الاستعمار، أو لأن عدن قبل الاستقلال أفضل منها بعده، أو لأن الاستعمار لو بقي بأرضنا لكنا في (جنة عدن).

ألا ما أغبى ثوار الجزائر الذين ضحوا بمليون شهيد من أجل إخراج من جاء لإخراجهم من الظلمات إلى النور!، وما أتعس الأفريقيين الذين استعمرهم البرتغال

الهمجيين!، ولو كان الأمر بيدهم لفضلوا عليه البريطاني أو الفرنسي، فالواقع يقول إن هناك فرقا بين مستعمر ومستعمر، وعلينا أن نختار نوعية المستعمر إذا كنا أذكياء وأردنا لأنفسنا التقدم الحضاري، فالاستعمار ليس مثل قالب الجبن لا فرق بين أطرافه ووسطه بل هناك تنوعات كثيرة علينا أن نقارن بينها ونختار الاستعمار (الشيك).

إن هناك من يوهمون قراءهم بأن الصورة (هناك) في الغرب وردية وأن العرب وحدهم موطن المساوئ كلها. والظاهر أن بعضا من منتقدي الوضع الإسلامي قاموا بتوظيف علم (المقارنة التقابلي) توظيفا آخر تماما، فهم ينظرون إلى الغرب، فإذا وجدوا فرقا فإن هذا لا يسجل على أنه (فرق) ينبغي التنبه إليه والاستفادة منه في تعلمنا من الآخر، ولكن على أنه مثلبة أو منقصة، وبطبيعة الحال فإن الخاسر عندهم في المقارنة والموازنة هم أهل الإسلام، كما هو متوقع، لأن الغرب في رأيهم متقدم علينا حضارة وقيما ونظما ولغة.

وعلى طريقة فلسفة الطالب الكسلان: فهو يذكر ألف سبب لفشله (كره المعلم له، صعوبة المادة، زحمة الطلاب، ....)، ولكنه لا يذكر السبب الحقيقي لفشله. والسبب الحقيقي يدركه هؤلاء عن يقين ولكنهم لا يريدون قوله بصراحة وهو: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)، كما يقول الإمام مالك بن أنس وغيره، وفقا للمفهوم الحضاري السني لا المفهوم السلفي السطحي الذي يهتم بالفروع على حساب الأصول وبالجزئيات على حساب الكليات.

إن ما يفعله هؤلاء المنتقدون هو أنهم يتصيدون رأس الدبوس (من عيوب المسلمين وعيوبهم كثيرة، ومن حسنات الغربيين ولهم حسنات كثيرة) ليضعوا كل ذلك تحت المجهر فيظهر بحجم عمارة كبيرة يحاولون رمي الآخرين بحجارتها. فنراهم

وبإصرار شديد يحملون التيار الصحوي (كما يسمونه) يحملونه كل كوارث الأمة في مرحلتها المتأخرة، وكأن الاستعمار وأذياله طبعا بريئون من ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب، بل ويتهمونهم ويتهمون رموزهم بأن عقليتهم الاستعلائية الشوفينية هي سبب نكبتنا، وكان عليهم أن يتواضعوا للغرب ويحنوا له الجباه ليمنحهم من بركاته.

إنه زمن العجائب حيث يتحول (الاعتزاز بالذات واستقلاليتها بصورة طبيعية طبعا) تهمة ومذمة، يرمى بها هؤلاء في مقابل، التغني والتمجيد لقيم الغرب ونظمه.

لقد تعاملنا مع المسلمين بعقلية ما يسمى (بالإفراد الوهمي) والذي يعني أن العرب ينفردون بهذا العيب أو ذاك، ثم يقوم أولئك المنتقدون ببناء عمارة من الاستنتاجات على أساس هذا الإفراد الوهمي.

وهناك أسلوب آخر يتبعه هؤلاء المنتقدون ويرتبط بالأول وهو ما يمكن تسميته (بتكديس الظواهر) (سلبية للمسلمين وإيجابية للغربيين)، ونعني بذلك ذكر المنتقدين لظواهر متعددة وتقديمها على أنها نتيجة للعيب الذي لدى العرب أو الفضيلة التي لدى الغرب، مقيمين في ذلك رابطا وهميا بين الظواهر المكدسة من ناحية، وسببها المزعوم من ناحية أخرى، ضاربين بذلك عرض الحائط أسلوب البحث العلمي، وفلسفة العلم، وضرورة إثبات الرابطة السببية بالدليل القاطع.

لقد تعاملنا مع الطرف الإسلامي بالمثالية وطالبناه بالصغيرة والكبيرة، ولم نقبل منه أي تبرير، بينما تعاملنا مع الغرب بكل واقعية، إلى درجة أننا صرنا في التبرير له ملكيين أكثر من الملك، وكمثال قريب ذكرته وكالات أنباء عن صحف أمريكية أن الجنود الأمريكيين بعد غزوهم للعراق سنة ٢٠٠٣، قد سرقوا من العوائل العراقية التي داهموا بيوتها مبالغ تقدر بثلاثة مليارات دولار على شكل حلي ومدخرات. ...

إلخ. وذلك في أول سنتين من الغزو. والسؤال هو:

هل كانت الذات المثالية لهؤلاء الجنود متطابقة مع الذات الواقعية، أي أنهم سرّاق في النظرية والتطبيق، أم أن ذاتهم المثالية كانت مختلفة عن ذاتهم الواقعية، بحيث أنهم كانوا يسرقون وحناجرهم تصدح بالهتاف للحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان؟ ألا ما أصدق الحديث النبوي: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) رواه الإمام أحمد في مسنده. لماذا نرى القشة في الإناء الإسلامي ولا نرى الجذع (بل الجذوع) في البركة الغربية؟ (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) الأنعام: ١٥٢.

إن هؤلاء يحذرون من ثنائية (سيد قطب / وطه حسين)، ولكنهم لا يحمِّلون (بتشديد الميم وكسرها) طه حسين وتلاميذه وزر ما نحن فيه، فالعين موجهة للطرف الآخر، وكأن المخرج يريد ذلك.

هم يقولون: إن البقاء للأصلح (أوكي) وقبلها قالوا: إن البقاء للأقوى وفق الرؤية الداروينية، بمعنى ما دام البقاء للأصلح، والأصلح والأفضل للحياة هو الغرب وفق المعطيات الواقعية والأدلة الدامغة، ولأن العرب والمسلمين ليسوا الأصلح ولا الأفضل للحياة فوجودهم وعدمهم سواء، بل إن عدمهم هو الأفضل، ولذلك من الخير للبشرية التخلص منهم، وقد بدؤوا بالفعل، وما الأحداث الأخيرة والتطهير في الكثير من البلدان الإسلامية إلا تطبيقا لهذه السياسة.

غريب حقا أن يعمد بعض مثقفينا إلى تناسي أو تجاهل حقيقة مهمة في التاريخ الحديث للحضارة الغربية، وهي أن المثقف الغربي سعى إلى التنبيه إلى المشكلات الحقيقية لمجتمعه، وتقديم الحلول الناجعة لها، لا أن يختلق مشكلات لا وجود لها، أو يوجه مشكلات موجودة الوجهة التي تخدم الغرب أكثر مما تخدم بني قومه.



لقد نظر هؤلاء إلى الإسلام نظرتهم إلى عملة أثرية: فهي عديمة القيمة بوصفها (عملة)، ولكنها عظيمة القيمة بوصفها (أثرا)، فهم يريدون الإسلام أثرا أما العملة فيتم سكها في الغرب، فعملة الإسلام لا قيمة لها في عالم اليوم.

أخيرا أيها الأفاضل: إن صدقت النوايا فعلينا أن نحشد طاقاتنا جميعا للإبحار بأمتنا نحو شاطئ الأمان من خلال العودة الصادقة لدينها وهويتها وحضارتها، منطلقين من القيم البانية والسنن الجارية، ومستفيدين من الآخر فيما يخدم مشروعنا لا مرتهنين له، ولا مرتمين في أحضانه. هذا من وجهة نظري هو المخرج أما التغني بأمجاد المسلمين أو بأمجاد الغربيين دون عمل، فأظن هذا من الخطل والخطر الذي نهينا عنه.

ترشيد النقد.... خطوة خجولة

النقد القائم على التحيز، والبعيد عن الموضوعية والإنصاف، يسهل القيام به من أي إنسان، ولكنه بالمقابل عند من وُجه له النقد لا يحمل أي قيمة، ولا يَلتفت إليه، ولا يعيره أي اهتمام.

والنقد كما هو معروف يظهر مساحات الجمال في الموضوع المنقود، كما يبين مكامن الخلل وثغرات القصور، وإن كان النقد قد أخذ مسار البحث عن العيوب ومكامن الخطأ في وقتنا الحاضر. ومع هذا تبقى مرارة النقد المنصف عند من يدرك أهميته أحلى من حلاوة المدح الذي يقال ويكال أحيانًا بلا حساب وبكرم حاتمي، وإن كنا كبشر نفضل الثاني على الأول.

النقد الموضوعي والمنصف والذي يُظهر العيوب، يزرع لدينا الحصانة ويرفع لدينا مستوى الوعي، ويمكننا من مغادرة استراحة الاسترخاء الفكري، إنه يرسخ لدينا قاعدة أن الزاوية التي نرى منها ليست الزاوية الوحيدة، بل ليست الزاوية الأوسع والأوضح والأصفى لرؤية هذا الموضوع، وأن زوايا الرؤية لدى الآخرين، وكذا وجهات نظرهم ربما تكون الأقرب إلى الصواب، وإن حزّ ذلك في نفوسنا وتقبلناه على مضض.

ولذا، كثيرا ما نعجب من حملات النقد القاسي لدى الغربيين في حواراتهم ونقاشاتهم، ولكنها تبقى في إطار النقد المقبول أو المرفوض، مع بقاء التواصل والتعاون والانسجام في جماعة العمل الواحدة، وهذا يدل على أنهم استطاعوا أن يؤسسوا للنقد قواعد تتجاوز العواطف ولا تلغيها، كما أنهم استطاعوا أن يوجدوا نوعا من الحصانة التي تقيهم الانزلاق إلى مربع القطيعة أو رفض الآخر المحاور مع نقده. لكن يختلف الأمر لدينا كثيرا، فلا زالت ملَكَة تقبل الرأي المخالف، والرجوع إلى الرأي الذي تبين



صوابه مع الآخر، أو حتى العودة خطوة إلى الوراء صعب جدا، ونعد ذلك (مسألة كرامة)، وتنازل غير مقبول ومنح الآخر نقاطا تضاف لصالحه و تسحب من رصيد خصمه.

وفي رأيي، أن هذا يعود إلى نوع من الهشاشة والضعف لدينا، مهما ادّعينا أننا موضوعيين ومنصفين ومحايدين وباحثين عن الحقيقة بدليلها وبرهانها، لكن مواقفنا وردود أفعالنا تفضحنا وتظهر مدى هشاشتنا أمام رأي الآخر المخالف لنا، فإما أن نكيل له الصاع صاعين، أو نهمل ما قال، لا لأنه لا يستحق الرد أو التعقيب، ولكن لأننا لا نريد أن نقول إن لديه بعضا من الحقيقة التي لا تطيب أنفسنا أن نعترف له بها، ولذلك نصمت صمت المُغضب، الذي يعد أسلحته ويتحين الفرصة لينقض على خصمه ويسقطه أرضا بالضربة القاضية.

كم هي معاناة المفكر المنصف والموضوعي عندما يريد أن يطرح موضوعا أو يعلق على آخر، أقول كم هي معاناته عندما يكتب وهو يحس أنه يمشي في (حقل ألغام) من الكلمات، يخشى أن يقول هذه الكلمة فيتحسس فلان، أو يورد تلك العبارة فتثور ثائرة آخر، فهو في حوار داخلي مستمر مع نفسه، يغير هذه الكلمة، ويعدل هذه العبارة، ويخفف من هذا الحكم، ويرشِّد هذا التعميم، ويصبغ هذا الرأي بصبغة عدم اليقين، ويحاول أن يمدح من أو ما لا يستحق المدح، ويُطري ما لا يستاهل الإطراء، لا لشيء إلا لكي يتم قبول (بضاعته المزجاة) ورأيه المتهم وطرحه الخارج عن الموضوعية والإنصاف. ... ويالها من معاناة!

المفكر الصادق قليل الجزم في القضايا الاجتهادية، فهو يتردد كثيرا في إصدار الحكم، وإبراز التعميم، وليس ذلك لقلة ما يملك من معلومات حول هذا الموضوع بل

لكثرة ما لديه حول هذا الموضوع، مع إلمامه بإشكالاته ومعضلاته، فهو كلما أقدم على حسم رأي حول موضوع أنته أفكاره المتشعبة بما ينقض ما قال أو يشكك فيه أو يخفف من يقينيته، فيعاود الكرة من جديد تحقيقا وتمحيصا وإعادة نظر، فإذا صدر عنه حكم أو تعميم جديد كان متواضعا في عدم الجزم به، بل تجده يعتذر بين يدي ما يقدمه، ويستعمل عبارات لا تدل على الجزم والحسم، بل تجده يردد كلمات مثل (إلى حد ما، تقريبا، حسب رأيي، هذا ما هداني إليه تفكيري، هذا ما استطعت الوصول إليه، وهذا ما لا أستطيع الجزم به، وأشباه هذه العبارات).

إن نظر المفكر صاحب الملكة الفكرية الراسخة في القضية الفكرية المطروحة عليه يكون أتم وأشمل، حيث إنه عند وضع تصور لتلك القضية يضع كل الاحتمالات ويورد كل الإشكالات والمعضلات، وهذا يجعله يتوقف فيها أحيانًا، ويتردد فيها أحيانًا أخرى. وهذه مزيَّة في الفقيه كما في المفكر كما يقول الإمام المناوي: «إن المجتهد كلما ازداد علما وتدقيقا وكان نظره أتم انفتاحا وتحقيقا تكاثرت عليه الإشكالات الموجبة للتوقف لديه، وتزاحمت المعضلات بين يديه». وهناك من اتهم الإمام الشافعي بقلة العلم نظرا لتردده في بعض المسائل الفقهية، إذ لو لم يكن للشافعي على غيره من مزيَّة ورجحان إلا بتردده في بعض أقواله لكفانا كفاية ومقنعا، فإنه ما نشأ تردد أقواله إلا لفائض نظره ودقيق فكره لهذه الخبايا والخفايا.

نحن في أمس الحاجة إلى أن نعيد النظر فيما نقول نقدا للآخرين، فنعيد تقويمه، كما نعيد النظر فيما ينتقدنا به الآخرون فنعيد توجيهه الوجهة الصحيحة لنستفيد منه. وقد جرينا في أخذ كلمة (النقد) عند طرحنا لهذا الموضوع لشهرتها وإلا فإن المصطلح الإسلامي الإيجابي لمثل هذه الكلمة هي (النصيحة)، التي تعبر عن ديننا بمجمله (فالدين النصيحة)، كما ثبت في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم.

ألا ما أجمل اليوم الذي أتصوره في مخيلتي، ذلك اليوم الذي يقال لمن يقدم النقد (النصيحة) ، يقال له المقولة العمرية، وبكل ترحاب: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عِيُوبِي». عندها سنكون قد وصلنا إلى جَنَى النصيحة الداني.



هموم تعليمية . ملاحظات على إحدى تقارير اليونسكو.

لدي ثلاث ملاحظات حول هذا التقرير:

الأولى: أن التعليم في العالم العربي خاصة والعالم الإسلامي عامة تابع لغيره ولا يدري ما الذي يفعله، ووضعه وتصوره الثقافي مختلف عن الذين يتبعهم، ولذلك فإن التعليم في العالم العربي يسير بدون بوصلة ولا هدف يعبر عن الذات فعلا، بل هو تعليم هجين يحاول أن يجمع بعضا مما لدى الغرب الذين يتبعهم مع بعض مما في هويته، مما يؤدي إلى أن يفسد أحدهما الآخر.

إن التعليم في العالم العربي ليس ابن بيئته وهويته وليس غرس تربته، بل هو تعليم زرع في بيئة لا يمكن أن ينتج فيها، وإن بقينا مئات السنين نحاول ذلك، وقد مرت علينا عقود طويلة وما ازددنا في تعليمنا إلا خبالا، وكلما قلنا سنلحق بالآخرين نكتشف أنهم يبتعدون عنا ليس بالسنوات العادية ولكن بالسنوات الضوئية إن صح التعبير.

الملاحظة الثانية: إن هناك سؤالا كبيرا لا بد أن يطرح ومن خلال الإجابة عنه سيتضح لنا أي تعليم نسعى إليه. والسؤال هو: لماذا نعلِّم؟ وعندما ندرك الهدف من التعليم، ونجيب عن السؤال إجابة وطنية وعربية وإسلامية سندرك حينها أننا بدأنا الخطوات الصحيحة.

إن التوجهات في التعليم العربي أصبحت تساق لإخراج حملة مؤهلات لرفد السوق المحلية بالخبرات، بمعنى أن الهدف الأسمى للتعليم (هدف تجاري) بالدرجة الأولى، وليس لبناء الإنسان العربي المسلم الواثق بنفسه المعتز بعروبته ودينه، والمتطلع

إلى رفعة راية وطنه وأمته. هذا التعليم الذي نسعى إليه ونحاول أن نقلد فيه الغرب والشرق تقليد الأغبياء الحمقى لن يخرجنا من محنتنا، بل سيزيدنا سوءا إلى ما نحن فيه من سوء.

الملاحظة الثالثة: إن منظمة اليونسكو التابعة لمنظمة الأمم المتحدة والتي أصدرت هذا التقرير، وتصدر التقارير الدورية عن التعليم، هي منظمة تشبه أخواتها في الجوانب السياسية والاقتصادية التي تديرها الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا، وتسير وفق رؤية تخدم المسيّرين والداعمين لها، وكل تقاريرها هي من باب ذر الرماد في عيون العرب والمسلمين، ولا وجه للمقارنة بين التعليم والجامعات الغربية والتعليم والجامعات العربية، لاختلاف أوجه المقارنة من نواحٍ كثيرة.

ثم إن التقارير التي تصدرها هذه المنظمة وغيرها هي مؤشرات وليست أرقاما دقيقة يمكن الجزم بها، وأغلبها تقوم بها نخب ثقافية وبحثية في العالم العربي مقابل دولارات تصرفها عليهم هذه المنظمة، ولذا تأتي التقارير وفقا لمعايير من يدفع، وكما يقال : (من يدفع للزمار يطلب اللحن الذي يريد)، وهذه المنظمة وغيرها هي التي تدفع للزمارين العرب فيعطونها اللحن الذي تريد.

فإلى متى سنظل ساذجين؟ ونعتقد أن تميتنا السياسية والاقتصادية والتعليمية و... تأتي من خلال هذه المنظمات المشبوهة، (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) التوبة: ٤٧، وقد فعلوا.

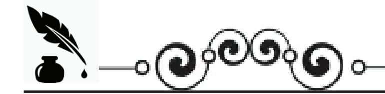
هم يدركون جيدا (أي الغرب) أن واحدة من مصائبنا الكبيرة هي الأنظمة الحاكمة المستبدة التي يقفون وراءها بقوة. ولذلك نتساءل: كيف يمكن للبحث العلمي



أن ينتج في ظل واقع كهذا؟ وكيف يمكن أن يخرج علماء ومفكرون وباحثون أحرار في ظل وضع كهذا. نسمع جعجعات الجودة والإدارة الحديثة وغيرها من التقليعات ونريد أن نلحق بها، ونقطّع أنفاسنا ونحن نلهث للحاق بها (وهيهات) (فلا هدفا وصلنا ولا راحلة أبقينا)، فالوضع مختلف جدا، وما نريد أن نركِّبه أو ننقله إلى أوطاننا من جديد الآخر لا يمكن تركيبه على وضع لا يصلح له.

متى نقتنع أن وضعنا مختلف عن وضع الغرب؟ وأن الحلول التي تصلح لنا لا يمكن أن تأتي من هناك، بل إن مصدرها هو الذات أولا وأخيرا، وإذا وقفنا على أقدامنا يمكننا أن نقول حينها إننا يمكن أن نستفيد من جديد الغرب، أما في وضعنا الحالي من التبعية والارتهان للغرب الذي نحن فيه، فالأمر أصعب مما نتصور.

إننا في تقليدنا الأحمق للغرب في المجالات المختلفة، كمن يريد أن يركب رأسا نوويا على رأس جمل، أو يعمل مركز أبحاث في خيمة في الصحراء. لنبني الإنسان الذي هو ثمرة التعليم النابع من الذات، وعندها يمكننا الحديث عن مثل هذه التقارير.



وإذا الموءودة سئلت .... الوأد التربوي نموذجا.

لقد انشغلنا بأمر الدفاع عن المرأة وبيان حقوقها ومكانتها في الإسلام عن بناء شخصيتها، واستيعاب دورها واستشراف المستقبل الذي ينتظرها، والقدرة على استلهام قيم الوحي واستيعاب الواقع لتوليد الفقه المناسب لحركتها وممارساتها الشرعية، وقد ذكر الدكتور عبد الكريم بكار أننا صرفنا ٨٠٪ من جهودنا في حماية المرأة، في مقابل ٢٠٪ في تربيتها وتعليمها، ولو أن الأمر تم بعكس ذلك، وركَّزنا جهودنا على تربيتها وتعليمها وتأهيلها لتغير حال المرأة، ومن ثم تغير حال المجتمع.

والمرأة التي ادّعينا حمايتها، أُتينا من قِبَلها، وعدنا من حمايتها والدفاع عنها، فلم نجدها، وصحونا بعد فوات الأوان، لنرسلها إلى مؤسسات التعليم، فنجد أن المشرفين والمشرفات على العملية التعليمية والتربوية ممن تربوا خارج الإطار الإسلامي، وسبقوا إلى التعليم، وصار أمثال هؤلاء قدوات لها!

إن المرأة في الواقع الإسلامي اليوم هي الثغر المفتوح، الذي ينفذ منه الكثير من البلاء، كما يؤكد على ذلك الأستاذ عمر عبيد حسنة، ومن خلاله تنتقص القيم الإسلامية، ويدخل عليها (الآخر) بكل مثالبه... ولو كنا نتمتع بالحصانة الثقافية والوقاية الحضارية والواقع المقنع، وكنا في مستوى إسلامنا، لما امتد (الآخر) في فراغنا واستطاع أن يستغل معاناة المرأة فيسرق نساءنا وبناتنا ونحن ما نزال معلقين على المنابر بعيداً عن أرض المجتمع.

لقد جعل الله ميزان الكرامة والفوز التقوى والعمل الصالح، وليس الذكورة ولا الأنوثة، لأنها أمور قسرية، لا يد للإنسان فيها، ولذلك لا يقبل عقلا أن تكون محل مسؤولية وتفضيل، وإنما المسؤولية على الأمور الاختيارية، والقوامة التي شرعها الله

للرجل هي في الحقيقة مسؤولية إشراف وأهلية قيادة، وليست تشريفا، ذلك أن الشرف يكون بالتقوى والعمل الصالح، فالخطاب عام، إلا من بعض المساحات الخاصة التي ينفرد فيها الرجل، أو تنفرد فيها المرأة، حسب الطبيعة النوعية، ومقتضيات الوظيفة الاجتماعية.

وكما فضَّل القرآن المرأة في بعض المواطن التي هي أقرب لوظيفتها ودورها ورسالتها على الرجل، كذلك فضَّل الرجل في بعض المواطن التي هي أقرب لدوره ووظيفته ورسالته، فلكلٍ فضل وتفضيل في مجاله واختصاصه.

ولا ندري ماذا دهانا اليوم حتى بتنا نفتن بواقع المرأة في الحضارة الغربية، ونبحث عن المرأة في الرجل وعن الرجل في المرأة، ونلهث وراء السراب، وتخطف أبصارنا ما تظهر به المرأة في الحضارة الغربية من الحرية في التعامل مع جسدها، تلك الحضارة التي اختزلت عمر المرأة في أقل من عشر سنوات، هي سنوات الشباب والنضارة، لأنها تتعامل مع المرأة كجسد ومتعة وسلعة، في كل المجالات، ثم بعد فورة الشباب تنتهي المرأة إلى كهوف ومغارات الظلام من الأمراض النفسية ومن القلق والإحباط والاكتئاب، بعد أن كانت في شبابها تعيش كل الأضواء والشهرة والمساحيق والمكياج والأزياء!

إن الحالة التي انتهت إليها المرأة في الحضارة الغربية جاءت ثمرة لفلسفة الجنس عند فرويد وغيره من فلاسفة مجتمعات الإباحية، الذي أرجع في تحليله النفسي جميع الأنشطة والسلوك البشري إلى دوافع غريزية، متمثلة في غريزة الجنس، حتى رضاعة الطفل من أمه هي عنده نوع من التلذذ الجنسي، وحب البنت لأبيها، وحب الابن لأمه، أو ما يطلق عليه بعقدة أوديب، هو سلوك بدوافع جنسية، وفاته أن يفسر هذا



السلوك تفسيراً صحيحاً نظيفاً، ويحلله تحليلا نفسياً فطريا، وكيف أن الله سبحانه وتعالى جعل ارتباط الابن بأمه أشد حتى يتم تدريبه عندما يصير زوجاً على حسن التعامل مع المرأة الزوجة المشوب بالرحمة التي أسسها مع أمه، وكذلك حال البنت مع أبيها لتصبح زوجة تحسن التعامل الراقي والمحترم مع زوجها.

والمفارقة العجيبة في حضارة اليوم، أنها تقرر نظرياً أن التربية هي أساس النمو والنهوض، والتعليم سبيل الحضارة، وتقيم لذلك الجامعات والكليات والمعاهد والمدارس ومراكز البحوث، وفي الوقت نفسه لا تعد عمل المرأة في البيت والتربية والأمومة عملاً، وبذلك تفسد الحضارة الحديثة برؤيتها وفلسفتها في إخراج المرأة عن وظيفتها ورسالتها حتى ولو أحسنت العمل في البيت والعمل معاً.

لقد حرمت المرأة في الواقع الإسلامي من التعليم، ومن الثقافة، ومن العبادة في المسجد، ومن الولاء والبراء، والقيام بمسؤوليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحمل الشهادة وأدائها، وألغيت ذمتها المالية، وحقها في الإرث، وعطاؤها في الجهاد، تارة باسم ضرورة التفرغ لوظيفتها التربوية، وأخرى باسم الحرص على شرفها وعفتها، وثالثة باسم فساد العصر، وشيوع الفتن! وكأن وظيفتها التربوية يمكن أن تؤدى وهي جاهلة بالحياة، والعصر، والمجتمع الذي يطلب إليها تربية أولادها للتعامل معه، ولا ندري كيف يمكن لها أن تقوم بأداء وظيفة تربوية، وتخرج نماذج لحياة لا تعرفها، وكأن التربية تقتضي الجهل والغباء والعطالة، بحيث تصبح أقرب إلى تنظيف البيت والطفل منها إلى تربيته، وكأن بعضنا أحرص على المرأة من الله الذي شرع لها حدود وظيفتها، وهو الخالق لها، العالم بتقلب الأحوال، والأزمان، والفساد، والصلاح.

وليس مستغرباً القول الشائع: إن المرأة التي تهز السرير بيمينها تهز العالم بشمالها.

ولعلنا نقول: إن هزة السرير هي التي تحرك العالم وتتحكم بمستقبله وتبقى اليد الأخرى جاهزة لعمل آخر، كما أن فلسفة الجنس أدت إلى اعتماد المرأة والجنس مدخلاً للابتزاز في جميع الممارسات السياسية والاقتصادية والأمنية.

ولا يعني هذا الطرح أننا نعفي المرأة من مسؤوليتها فيما آلت إليه حالها، فعلى عاتقها تقع مسؤولية انعتاقها من إصر الأغلال والقيود التي كبلها بها المجتمع، وساهمت هي في تمتين بعض هذه القيود، من خلال عدم قدرتها على التفريق بين ما منحها الشرع لتتحرر به وما فرضه المجتمع من قيود مكبلة لها، فقامت برفض ورمي الجميع وراء ظهرها، كما هو حال داعيات التحرر في العالم الإسلامي، وبدل أن تأخذ دورها ومسؤوليتها دخلت في معركة مصيرية مع المجتمع كانت الخاسر الأكبر فيها.

بين يدي العام ٢٠١٩م . هل الاستعمار ذكر أم أنثى؟!

في واحدة من طرائفه الناقدة والساخرة للواقع، يورد المفكر الجزائري الراحل مالك بن نبي تشبيهاً عجيبا للحال الذي وصل إليه حال المسلمين وانقسامهم، فقد ذكر أن أهل بيزنطة في عهد تدهور حضارتهم، كانوا يتجادلون في جنس الملائكة: هل هم ذكور أم إناث ...؟ ونحن (يقصد العرب والمسلمين) إذا ما تورطنا في الميتافيزيقا، يمكننا أن نتجادل في جنس الاستعمار: هل هو ذكر أم أنثى؟ ولو أن هذا قد وقع، فإنني على يقين (والكلام لمالك بن نبي) من أن الاستعمار سوف يرينا عورته كذكرٍ مرة، ويرينا عورته كأنثى مرة أخرى، ثم يتركنا في غينا هائمين.

وربما تنشأ عندنا (مدرستان)، ويظهر في هذا الأمر (مذهبان)، ولا شك فإن الاستعمار حينئذٍ سوف يبذل كل ما في وسعه لبث روح الجدال بين الفريقين، حتى تنصرف كل الطاقات العقلية، في العالم الإسلامي إلى هذا الجدال العقيم. ثم عندما يؤول الجدال إلى مشاجرة، فسوف يسعى الاستعمار بعد ذلك، حتى يقر في أذهان كلا الطائفتين، أن كل من لا يشارك في هذا الجدال وتلك المشاجرة خائن، وأن كل من لا يقول إن الاستعمار أنثى أو ذكر، يصبح في نظر المذهبين مرتداً خائناً.

هكذا هو الحال، فما أكثر ما تشهد ساحتنا الثقافية اشتباكات تزيد حدتها أو تنقص، مرة بين التراث وأهله من جهة، وبين وكلاء الغرب وعشاق العلمنة والحداثة من جهة أخرى، ومرة بين دعاة القديم ودعاة الجديد، وأخرى بين الأصالة والمعاصرة، وبين التقدم والتخلف، وبين المدنية والبدوية. ... وغيرها من الثنائيات التي تقوم على أساسها سوق هذه التراشقات والتلاسنات والاشتباكات.

إن الثقافة الغربية تصارع، وبصورة حاسمة، وقد كسبت محاربين(مرتزقة)

من بني قومنا، هم أكثر حماسا لثقافة الغرب من الغرب نفسه، ذلك أن الدَّعيَ يُظهر الحماس والتعصب بحيث يتجاوز الغربي في حماسه وتطلعاته!

وما نشاهده ونعايشه من استعدادات البعض (دولا وأفرادا) للاحتفال ببداية السنة الميلادية يفوق أحيانًا استعدادات الغرب أنفسهم، بل البعض تجاوز ذلك إلى مرحلة إرسال واستقبال التهاني والتبريكات، وليت أمر إرسال التهاني والتبريكات كان ممن يملك قراره (من ند لند) لهان الأمر، ولكن الأمر واضح أنها تهنئة من خادم لسيده ومن تابع لمولاه، وفي هذا ما فيه من المذلة.

وكما لا يجادل أحد بأن الغرب يضغط بكل قوة لجعل ثقافته وقيمه وتوجهاته سائدة في العالم كله، ويساعده ويشجعه في ذلك مجموعة من الوكلاء، قد يبالغون في الحماس أكثر من الغرب، كما أسلفنا سابقا، وهم يجدون في الغرب راعيا وحاميا ورافعا لهم، ولذا فهناك تخادم بينهم، (أخدمني كي أتقدم وسوف أخدمك عندما أتمكن).

لقد اشتبك المسلمون مع الغرب في أكثر من (٢٧٠٠) معركة كبرى، كما يذكر (الدكتور نعمان السامرائي)، وفتحوا إسبانيا وأجزاء كبيرة من شرق أوروبا، وإذا كنا نسينا ذلك التاريخ، فالغرب يتذكره، وهناك من يذكِّر به باستمرار.

لقد صار العالِم عندنا ـ كحال من حالات التبعية المهينة ـ هو من يعرف التراث الغربي، ويجادل بل ويؤكد أن العلم هو المعلومات الوافدة من الغرب، وأن الإنسان لا يكون مُجدِدا إلا إذا تعلم الوسائل الغربية، (لقد صار العلم نقلا، والعالِم مترجما، والمفكر عارضا بضاعة الغير)، وتلك لعمري هي قاصمة الظهر.

وحتى أصبح الباحث من هؤلاء العاشقين لكل ما هو غربي، يستبطن العداء



وإن كان يتظاهر بالحياد، حيث وقد قامت للنفاق سوق رائجة، يحاول (الشرقي) الكاتب والباحث أن يرضى عنه الغرب، ويتشرف بلقب معتدل أو متنور، أو غير أصولي، عندما يصفوه بها، أما من يكتب السباب والشتائم عن دينه وبني قومه، فيكرم أكبر تكريم من قبل أسياده في الغرب!

إن هؤلاء الليبراليين ـ وخاصة من يقومون بهذه الأدوار ـ يكثر تركزهم في الجامعات والمنظمات الأهلية، وفي أغلب الهيئات التي لها علاقة بالغرب، وهم في العادة يجيدون اللغة الإنجليزية والفرنسية، وهم مرتاحون للغربيين، وكذلك الغرب يرتاح لهم، إنهم يتقدمون بالسن، ويعيشون في عزلة أكبر، وأعدادهم في تناقص، وتأييدهم ضئيل بين السكان، أما شرعيتهم فأقل ـ في نظر مواطنيهم ـ وقد صاروا يمثلون أفكار الماضي الفاشلة، بدلا من آمال المستقبل الجريئة، إنهم يخسرون المعركة بسرعة، ولا يفوزون بقلوب الناس ولا بعقولهم، حسب وجهة نظر الدكتور السامرائي.

لقد حاولت القوى الاستعمارية من خلال المدارس والجامعات التابعة لها تدريب المستعمَرين ـ بفتح الميم ـ على القيام بالأدوار، التي تناسب المستعمِر ـ بكسر الميم ـ، وقد حققوا نتائج نرى وطأة آثارها، في معظم حكامنا، وفي الكثير من نخبنا الثقافية والفكرية.

والحق أننا لم ندرس بعدُ الاستعمارَ دراسة علمية، كما درَسَنا هو، حتى أصبح يتصرف في بعض مواقفنا الوطنية، وحتى الدينية، من حيث نشعر أو لا نشعر، وفق رؤية المفكر مالك بن نبي. وقد كان دور الشعوب الإسلامية أمام الزحف الاستعماري خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين دورا بطوليا فقط. ومن طبيعة هذا الدور (البطولي) أنه لا يلتفت إلى حل المشاكل التي مهدت

للاستعمار وتغلغله داخل البلاد.

إن القضية عندنا، كما يقول مالك بن نبي أيضا، منوطة أولاً (بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته)، من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين: ((أَخْرِجُوا الْمُسْتَعْمِرَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِكُمْ)). فهل آن للأمة أن تقوم بذلك؟!

العلماء والأمة ... من ينصر من؟!

لقد استطاع أعداء الإسلام، بإعلامهم الطاغي تشويه صورة الإسلام، والتخويف منه، ومن أهله، واستطاعوا إقامة الحواجز النفسية بين الناس وقيم هذا الدين، وبدل أن يكون الفرار إليه والاطمئنان في ظلاله بالسلم والأمن والأمان، تحول الحال ليصبح الإسلام والإسلاميين الشبح المخيف، الذي يستعمله الأعداء والخصوم لمحاصرة امتداده، والحيلولة دون التعرف عليه بشكل صحيح واعتباره الملجأ والمنجى.

أتدرون من يدرك أهمية وخطورة العلماء ودورهم في استنهاض الأمة ضد الاستبداد أو الاستعمار؟

الجواب من يدرك ذلك هم الحكام والدوائر الاستعمارية، ولذلك فهم يعملون على جذبهم إلى صفوفهم ترغيبا وترهيبا (ذهب المعز وسيفه) بغرض الترويج لهم وتسويقهم، أو إبقائهم في منطقة الحياد مع إمكانية السيطرة عليهم، أما اتصال العلماء بشعوبهم فإن ذلك يعني عند الحكام والدوائر الاستعمارية إعلان (حالة حرب)، ولذا فإن الحكام وأسيادهم يستهدفون العلماء في بلدانهم بالسجن أو القتل، ويستهدفونهم من الخارج بوضعهم على لائحة الإرهاب وملاحقتهم واعتقالهم وأحيانا قتلهم بواسطة الطائرات بدون طيار. هذا حال (العلماء الربانيين) الذين يصدعون بالحق، فأين الأمة التي تقف معهم ولا تتفرج عليهم، تنصرهم وتدافع عنهم وترد عنهم الكيد الداخلي والتآمر الخارجي.

إن الأمة التي تريد علماء يصدعون بالحق وتتفرج عليهم وتتركهم فريسة لظلمة الداخل ومجرمي الخارج أمة لا تستحق علماء يحررونها من طغاتها ومستعمريها، بل هي شعوب هواها من هوى طغاتها ومستعمريها. نحن نتحدث عن علماء من البشر لا

ملائكة ولا أنبياء، وما يجعل لمواقفهم قيمة ومكانة هو صوت الأمة ووقوفها معهم. فالأمة الراشدة عزيزة بعلمائها والعلماء الأفذاذ شامخون بشعوبهم الحية، ولهذا فعندما نطالب العلماء بالشجاعة والتضحية نطالب الشعوب بذات المطلب.

أمر أخير، وهو أن الحياد والصمت من العلماء يخدم الظلمة والمفسدين، وكل حياد أو صمت عن الحق من قبل أهله سواء كانوا علماء أو نخب فكرية أو ثقافية أو .... يصب في مصلحة الباطل وعلى حساب الحق، ولذا فلا مجال للأمة بعلمائها وشعوبها إلا بقول الحق لأن حيادها وصمتها ليس في صالحها بتاتا، بل في صالح خصمها المستبد أو المستعمر.

ولذا كان حديث الرسول --صلى الله عليه وسلم-- حول الساكت عن الحق بأنه (شيطان أخرس) يصب في هذا الاتجاه حتى تخرج الأمة بعوامها وعلمائها من حالة السلبية والانتقال إلى حالة الإيجابية.

وليس اجتهاد البعض من سلف الأمة في موقفهم موقف الحياد كما يقال إلا اجتهادا وليس تشريعا، واعتزال الفتنة من بعض الأعلام اجتهاد يدرس في إطاره وتاريخه وليس تشريعا واجب الأخذ به، مع الأخذ في الاعتبار اجتهاد غيرهم في الوقوف ضد الفئة الباغية أو الظلمة والمفسدين في الأرض وهم أكثر عددا ممن سبقهم. ولولا الإطالة لبسطت الحديث حول النقطة الأخيرة وتطرقت إلى أبعادها ومآلاتها.

الأديان والعنف .... أية علاقة؟

بداية سأعد فهمي قاصرا لمقالك (الأستاذ مجيب الحميدي) الذي نشرته، ومع ذلك سيكون من حقي أن أبدي رأيي حول المقال كونه قد طرح للنقاش، وليس على أنه مسلّمة لا يمكن الجدال حولها. سأورد بعض فقرات مقالك وأعلق عليها، لأكون موضوعيا (قدر استطاعتي) كما طلبت.

١ -ما ذكرته في أول مقالك قولك: « في داخل كل شخص منّا "إرهابي مستتر" لا نستطيع اكتشافه، لأنه يتلبس بجوهر مثالي، ولكننا نسمعه أحياناً يوسوس لنا ببعض الخواطر المتعلقة بإبادة الآخر المختلف. فقد فطر الله الناس على نشدان الكمال والنزوع نحو "النموذج المثال"، ليصلوا إليه كنموذج للمثل الأعلى، وتشتعل أشواقهم إلى الفردوس المفقود على وجه الأرض، والذي يتجسد في الحياة الأبدية، والموعد الفصل لتطبيق العدالة المطلقة». انتهي الاقتباس.

وتعليقا على ما ذكرت نتساءل عن مدى صدقية التعميم الذي ذكرت، هل فعلا في داخل كل منا إرهابي مستتر لا نستطيع اكتشافه؟ وهل هذا التعميم تثبته الدراسات النفسية والاجتماعية أم أنه تعميم وفقط، ودون أي سند، ثم إذا سلمنا بهذا التعميم فمعنى ذلك أن العنف والإرهاب نزعة متأصلة في الإنسان لا يمكن الفكاك منها وإن كانت مستترة لا يمكن اكتشافها، فهل هذا هو ما تريد تأكيده؟

ثم تذكر أن الله فطر الناس على نشدان الكمال والنزوع نحو "النموذج المثال"، ليصلوا إليه كنموذج للمثل الأعلى، وهذا كلام لا غبار عليه، ولكن تأمل عبارتك التالية التي تقول فيها: « فأخطر جينات العنف تكمن في الفطرة البشرية المشدودة إلى البحث عن الكمال المطلق والتماهي مع حالة من الطهورية المثالية الخيالية». فبأي

العبارتين نأخذ؟ بكون فطرة الله هي في نشدان الكمال أم بكون أخطر الجرائم تكمن في هذه الفطرة البشرية المشدودة للبحث عن الكمال المطلق؟ أترك الإجابة لك.

٢-قولك: «جاءت الأديان لاستئصال جوهر الإرهاب الرابض في النزوع المثالي لإيجاد الفردوس المفقود على الأرض. فأكدت وجود عالم آخر للفردوس، يتجسد فيه العدل المطلق؛ ولهذا اتهمها أرباب النزوع المثالي، بأنها أفيون للشعوب، تقتل قابلية الإنسان للتحريض على ممارسة القتل والإبادة من أجل صناعة عالم أفضل على الأرض ولا تقبل جرائم ستالين ولينين وجميع حركات العنف الثوري الراديكالي التي تسربت مؤخرا إلى التيارات الدينية».

ما الذي تريد قوله هنا بالضبط؟ هل لا زلت مع أن الله فطر الناس على نشدان الكمال والنزوع نحو "النموذج المثال"، أم أن هذا العبارة تنقض بعبارتك (جاءت الأديان لاستئصال جوهر الإرهاب الرابض في النزوع المثالي). والسؤال هل المثالية صفة نفرُّ منها أم نسعى إليها؟ أترك الإجابة لك.

٣-قولك: «كان المفكر الإسلامي اليوتوبي سيد قطب من أهم قنوات تسرب النزعة المثالية الماركسية فحاول التبشير بيوتوبيا دينية لمملكة الله في الأرض تحاكي النموذج الشيوعي للعدالة الشمولية المطلقة. ولهذه النزعة أهمية عميقة في التحفيز على التغيير وتكمن أهميتها في خلق حالة التوتر بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون. فالنزعة المثالية ليست شراً مطلقاً. وكيف لها أن تكون أمثولة للشر، وما قامت إلا لاجتثاث الشر؟!»

وفق هذه العبارة فأنت ضد فكرة النزعة المثالية التي حاول سيد قطب (اليوتوبي) التبشير بها أو أنها تسربت عبره محاكية النموذج الشيوعي. .... كيف يمكننا أن نفهم هذا الطرح؟ ثم تأمل آخر عبارتك وأنت تمدح المثالية وأنها «ليست شراً



مطلقاً. وكيف لها أن تكون أمثولة للشر، وما قامت إلا لاجتثاث الشر؟!». ما الذي نعتمده من طرحك؟ أترك الإجابة لك.

٤-قولك: «وهذا بالضبط ما يشرح الفرق بين سيد قطب باعتباره مفكرا ملهماً، وبين من حاولوا ترجمة أفكاره اليوتوبية ترجمة فقهية أو سياسية تورطت في صناعة ثقافة العنف والتطرف عند بعض المدارس الدينية». لاحظ الآن أنك في هذه العبارة تبرئ ساحة سيد قطب، بل وتمدحه باعتباره مفكرا ملهِماً، وأن العيب يقع فيمن ترجم أفكاره فقهاء وساسة فتورطوا في صناعة العنف والتطرف، بينما في الفقرة السابقة تقول إن النزعة المثالية الماركسية تسربت عبر سيد قطب محاكية النموذج الشيوعي، فأي الرؤيتين نأخذ؟ أترك الإجابة لك.

٥-مقولتك: «نزعة العنف في الثقافة الإسلامية السنية تحديداً تبلورت من نزعتين مثاليتين: نزعة سلفية توحيدية بالغت في الحديث عن النقاء التوحيدي العقدي وفق قوالب صارمة سمحت لها بتكفير المخالفين الموسومين بالشرك وتجويز ممارسة العنف بحقهم. ونزعة قطبية حولت المثالية العقدية إلى مثالية اجتماعية وسياسية وارتكزت على ذات المرتكز التوحيدي فخرجت لنا جماعات دينية تبحث عن الفردوس المفقود الذي سيسود الأرض بعد تطبيق الشريعة وفق تصورات مثالية جامدة غير قابلة للتجديد».

أعتقد أن النزعة السلفية التوحيدية والنزعة القطبية ـ كما أشرت ـ لا يمكنهما أن يمثلا الثقافة السنية، اتفقنا أو اختلفنا معهما، هذا على اعتبار أننا نفترض تجاوزهما، وشذوذ بعض فتاواهما أو أفكارهما، فالمدرسة السنية لها امتدادها في الزمان والمكان ولا يمكن حصرها في هذين النموذجين. ثم تأمل في جملة (النقاء التوحيدي)، والسؤال إن لم يكن هناك نقاء في التوحيد فماذا يمكن أن نسميه؟ أترك الإجابة لك.

٦-مقولتك «ما نود تأكيده أن هذا العنف ظاهرة إنسانية وليس نتاجا خاصاً بداعش العراق وسوريا أو تنظيم القاعدة».

هل فعلا يمكن قبول هذا التعميم بإطلاقه (العنف ظاهرة إنسانية) وهل هي تأكيد للمقولة التي ذكرتها في بداية مقالك (في داخل كل شخص منّا "إرهابي مستتر" لا نستطيع اكتشافه). أترك الإجابة لك.

٧-مقولتك: «من هنا نستطيع أن نجزم أن معظم اتجاهات ومدارس العنف ليست دينية المنشأ، مع تأكيدنا على أن هذه النزّعات تسربت إلى تيارات دينية مشبوبة بعواطف إيمانية في ظل بيئة تعيش حالة من الاحتقان السياسي أو الاجتماعي ومركب الفقر والجهل والاستلاب مع الحضور الطاغي لبعض الفلسفات الوافدة».

مع أنني قد أميل معك إلى ما ذهبت إليه في هذا الجزم، لكن لديَّ تحفظي على هذا الجزم، فهناك نزعات عنف يمكن نسبتها إلى بعض الأديان وربما المذاهب الدينية، وقد ذكرت أنت مثالا في مقالك عن اليهود، ومع هذا هل لا تزال تجزم بذلك، خاصة وأنك قد ذكرت نماذج في ثنايا مقالك عن العنف في الثقافة السنية؟ أترك لك الإجابة.

٨-مقولتك: «عموما ستظل المخيلة البشرية تستبشع بصورة كبيرة أي جريمة إنسانية باسم الدين وتتسامح مع جرائم أكبر ليس لها غطاء ديني ما دامت المخيلة البشرية مسكونة بقداسة الدين عاجزة عن الفصل بين جوهر الدين وتجارب التدين. وليس في ذلك أي إساءة للدين فهذه الحساسية البشرية تجاه جرائم العنف ذات الطابع الديني تؤكد إحساس الناس أن الدين في جوهره ضد العنف والإرهاب وهو إحساس صادق مهما أخطأ البعض في طريقة التعبير عن هذا الإحساس».



دعني أقول لك إن هناك توظيفا للعنف، من قبل الغرب فهو يظهر ما يرغب فيه من حوادث العنف ويركز عليها ويروج لها ويصنع لها رأيا عاما، بحيث يوجه الجماهير إلى الفاعل للعنف لا إلى جريمة العنف ذاتها، فيبرز ذلك إذا كان الفاعل مسلما مثلا حتى وإن كانت جريمة العنف يسيرة، بينما يتغاضى ويهمش جريمة العنف الكبيرة إذا كان الفاعل غير الذي يراد إبرازه.

لا أعتقد أن هناك استبشاعا أو تسامحا في جرائم العنف وفقا لنسبتها إلى الدين من عدمه فالجريمة تبقى جريمة والعنف يبقى عنفا باسم الدين أو باسم غيره، وإن كان لدى الناس ميل إلى توقع الخير من صاحب الدين في مقابل مقارنته مع غيره، وأن الموضوع مرتبط بشكل أساسي بمن يوظف حوادث العنف ويوجهها ويصنع من ورائها رأيا عاما.

أخيرا أتمنى أن أكون قد أوصلت بعض الأفكار والتساؤلات بين يدي مقالك، لا أدّعي فيها أنني على صواب، ولكن هذه وجهة نظري مطروحة للنقد أيضا، وجمال الحوار أنه يبني جذور الثقة، ويمد جسور التلاقح.

الدين والبحث العلمي...

أعتقد أن النقاش حول موضوع الاختلاط لم يعد واردا إلا من حيث كونه مدخلا لنقاش آخر يدور حول علاقة الدين بالبحث العلمي، ولذا يمكنني أن أضع بعض الملاحظات:

١ـ عندما نتحدث عن الدين أستاذة (انتصار كرمان) فنحن لا نتحدث عن أي دين بل نتحدث عن (الإسلام) الذي نفخر جميعا بالانتساب إليه، وعبادة الله وفق منهجه، فلا داعي للخلط بعبارات مموهة (دين، ديني، الدينية)، فنحن لا نناقش أمورا تدور في الديانة المسيحية أو اليهودية بل نحن نناقش أمورا تدور في إطار الدين الإسلامي.

٢-البحث العلمي ليس أمرا مقدسا ولا معصوما، بل هو عصارة وخلاصة ما توصلت إليه العقول البشرية من مناهج وطرق لتنظيم المعرفة وكيفية السير على إجراءات مقننة للوصول إلى النتائج. فلماذا نمنح البحث العلمي إطارا خارج ما وضع له؟ ولماذا نطالب باحترام البحث العلمي ونتائجه؟ ولكننا بالمقابل لا نعطي نفس هذا الاحترام للإسلام الذي ندين به، ونجعل الإسلام بالنسبة له وكأنه تابع يستمد قوته منه، ما هكذا تناقش الأمور العلمية.

٣-تأملي عبارتك الجميلة التي يقولها كثيرون في بداية حديثهم عن الدين وهم يقصدون في الغالب الإسلام ولكن تأتي بعد ذلك أمور أخرى، وكأنهم يضعون المخدِّر في البداية ثم يجرون العملية التي هم بصددها، وها هي عبارتك: «لسنا ضد الدين كمنظومة فهو إكسير الحياة وعماد تهذيب النفوس وتعزيز القيم وإصلاح السلوك الإنساني والرقي الروحي، بل وعندنا في علم النفس له الأثر البالغ في الصحة النفسية والحفاظ عليها والشفاء من أمراضها وعدم الانتكاسة النفسية وتحمل الضغوط وتحديد صعوبات الحياة

وبناء المجتمعات». وهذه العبارات والمديح جميل ورائع، ولكنك بعد قليل تقولين غير ذلك: « فانتهاك دماء الناس في السياسة باسم الدين وذبح الناس باسم الدين، ودمرت أسر وكسرت قلوب وشرد أطفال وتفككت أسر أيضا باسم الدين (بفعل المنظور القاصر لمفهوم التعدد) أجد وبكل حسرة وألم أنه يتم انتهاك العلم والبحث العلمي باسم الدين».

كل هذه المصائب والكوارث والفواجع باسم الدين (الإسلام). أين ذهب المديح السابق (إكسير الحياة، عماد التهذيب، تحديد صعوبات الحياة، بناء المجتمعات)، هذا الدين الرومانسي (كيوت)، يتحول بعد أسطر إلى سبب في كل المصائب، أهذا ما تقصدينه؟

٤-ثم لاحظي بعد ذلك أنك وضعت قاعدة لعلاقة الدين بالبحث العلمي وهو قولك: «وبدلا من أن يكون العلم هو من يوجه التفكير الديني نحو التفكير العلمي والمنهج العلمي الصحيح أرى أنه بمثل هذا البحث وغيره يطوع البحث العلمي وينتهك ويكيف ليصب في بوتقة أفكار دينية وصل الحد به في الانتهاك إلى صياغة عبارات وفقرات المقاييس بألفاظ ومصطلحات دينية!! وتجيير البحث وتفسيره في اتجاه ونحو نتيجة مبتغاه ومحددة سلفا دينيا كأي خطبة أو موعظة دينية».

فما أكدت عليه في الفقرة السابقة من أن البحث العلمي هو من يوجه التفكير الديني نحو التفكير العلمي يحتاج إلى التوقف عنده كثيرا، فهل صار البحث العلمي مما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن الدين والفكر الديني لا بد أن يسيرا في ركابه ليمنحهما الشرعية والقبول؟ أهذا ما تريدين قوله؟

٥-ثم جاءت عباراتك الهجومية فيما يتعلق ببحث الاختلاط بأن هناك (انتهاك) و

(أفكار دينية)، (صياغة عبارات وفقرات المقاييس بألفاظ ومصطلحات دينية!!) (وتجيير البحث وتفسيره في اتجاه ونحو نتيجة مبتغاه ومحددة سلفا دينيا كأي خطبة أو موعظة دينية)، ألا تلاحظين كم تكرر لفظ دينية، أخشى أن يكون ذلك عائدا إلى حالة نفسية، وكأن المصطلحات المقبولة علميا لا يجوز أن تكون (دينية)، هل يعقل هذا ومن أفتى بذلك ومن قننه؟

٦- وفي الأخير كان لك عند من يقرأ منشورك ولا يتفق معك رجاء وطلب، قلت فيه، وكأنك محامي الدفاع في قاعة المحكمة : «فقط ارحموا العلم ولا (تلوثوه) كما لوث السياسيون ومدعو الإصلاح للشعوب والمجتمعات من قبلهم (بتطعيم أفكارهم وتوجهاتهم) للتأثير على الشعوب (بالدين)، دعوا (العلم نقيا خالصا) واستفيدوا من منهجيته لما يحقق خير الدين والقيم التي يدعوا إليها لا أن يتم تطويع العلم والمنهج العلمي بما يتلاءم مع مخرجات معرفية عقائدية (دينية) يراد غرسها وتثبيتها للناس ، ولإقناعهم بها تصاغ على أنها بحث علمي وهي لا تمت للبحث العلمي بصلة إذا ما قارناها بشروط ومعايير البحث العلمي» انتهت المرافعة.

العلم هو النقي الخالص وما يلوثه هو الدين، ولا داعي للتطعيم بالمصطلحات الدينية الملوثة، ولا يجوز تطويع العلم والمنهج العلمي بما يتلاءم مع مخرجات معرفية عقائدية (دينية). هذه خلاصة فقرتك الأخيرة، وفيها غبن للبحث العلمي وللدين، فليس العلم أو البحث العلمي هو النقي الخالص وليس الدين هو الملوث، فالدين الحق (الإسلام) هو قرين للبحث العلمي، والبحث العلمي هو من يعطي الدين بعدا أوسع وأعمق من خلال الأبحاث والدراسات التي تزيد من ثقة الإنسان بنتائج دراساته وأبحاثه كما تفيض على نفسه ببرد الطمأنينة والثقة في هذا الدين الذي يتدين به.



٧-دعيني أقول لك أستاذة انتصار في آخر هذه الملاحظات، وهي نصيحة من مجرب، وهي ألا نراهن على تحرير الناس من الخرافة والجهل بتوجيه السهام والطعنات إلى عقائدهم وثوابتهم لأنهم حينها سيرفضون الخروج من الحال التي هم فيها، ما دام أن هذا الخروج سيكون على حساب دينهم وعقائدهم وأخلاقهم وقيمهم.

الاتحاد قوة ...

إلى الإخوة في قيادة الاتحاد المنتهية ولايتهم المحترمين.

إلى الإخوة قيادة الاتحاد الجديدة.........المحترمين .

إلى الإخوة أعضاء الاتحاد جميعا........... المحترمين .

إلى الإخوة الزملاء جميعا......... المحترمين.

كنت أتابع من بعيد ما ستسفر عنه فعاليتكم الديمقراطية، وأضع يدي على قلبي خشية أن تموت في مهدها، وأن عمرها لن يتجاوز العامين، هي مدة الاتحاد السابق. ولكنكم أثبتم بأنكم على قدر المسؤولية، وجديرون بالاحترام والتقدير، وأن الثقة التي أولاها زملاؤكم فيكم كانت في محلها، وأن ترشحكم كان لخدمة زملائكم وليس طمعا في منصب أو مصلحة، إذ لو كان كذلك لكنتم تمسكتم بقيادتكم للاتحاد واختلقتم لذلك الأعذار والمبررات، ولكن ما حدث هو العكس تماما.

إن ما يجعلني أفتخر بأني كنت في يوم من الأيام قبل أكثر من عامين مع الزملاء الأفاضل الذين أكنُّ لهم كل التقدير والاحترام، كنا جميعا قد بذرنا بذورا في تجربة (وإن كانت متواضعة) إلا أنها أثبتت أنها يمكن أن تستمر بقيادة جديدة ودماء جديدة وشباب يواصلون خدمة زملائهم بكل حب وتفان على قدر استطاعتهم.

أقول لقيادة الاتحاد السابقة: شكرا لكم فقد فتحتم أفقا رحبا للتبادل، (وإن كان رمزيا) إلا أنه أفق مبشر بأنه بإمكاننا أن نكون شيئا يذكر، وأن بإمكاننا أن نتبادل مراكز القيادة بأوراق توضع في صناديق الاقتراع، وليس بمعارك تأكل الأخضر واليابس، وأن الذي يعيش بعقلية التعايش والتبادل السلمي في الأمور الصغيرة فهو

مؤهل لأمثالها في الأمور الكبيرة إن شاء الله.

وأقول أيضا للقيادة الجديدة: لقد حملتم أمانة أن تقدموا لزملائكم الخدمة التي تستطيعونها، وأن عليكم أن تستفيدوا من نجاحات من سبقوكم وتقلدوهم فيها، وأن تتخلوا عن النقاط السلبية التي وقعوا فيها، فأنتم بهذا ستأخذون الطريق الصحيح الذي يخرجكم عن التقليد الذي لا يرضاه لكم غيركم ولا ترضونه لأنفسكم.

وكلمة أخرى لأعضاء الاتحاد جميعا: تأكدوا أن مهمتكم لم تنته، وكما تطلبون من زملائكم في قيادة الاتحاد الجديدة أن يقدموا لكم خدمة فأنتم مطالبون بأن تتعاونوا معهم وتقفوا في صفهم وتقدموا لهم النصح والمشورة وتبصروهم بعيوبهم في حال وقوعها، وأنتم بهذا ستحافظون على كيانكم وبجانب ذلك مصلحتكم، وليعتبر كل واحد منكم نفسه هو الاتحاد، فبكم سيكون الاتحاد أقوى للمطالبة بحقوقكم المشروعة وانتزاعها، وبسلبيتكم وتواكلكم ستخسرون الكثير، فاليد الواحدة لا تصفق.

أتمنى لكم جميعا من كل قلبي التوفيق والنجاح والسداد، وأن أرى كيانكم يكبر ويقوى ويتوسع، ليكون بارقة أمل تخدمون بها وطنكم في المهجر أو عندما تعودون.

البحث العلمي... فضاء بلا حدود

في لوحة رافييل الشهيرة التي تصور (مدرسة أثينا) يظهر أفلاطون وأرسطو في وسط مجموعة من فلاسفة الإغريق. أما أفلاطون فيشير بإصبعه نحو الأعلى، وأما أرسطو فيرفع يده إلى مستوى خصره ويتجه بها نحو الأرض.

والصورة على هذا النحو ترمز إلى الفرق بين هذين الحكيمين: فبينما يرى أفلاطون أن حقائق الأشياء تقع خارج العالم المادي المشهود، أي في عالم (المُثل)، يرى أرسطو أن حقائق الأشياء توجد في عالم (التجربة) من حولنا. ولو أتيح لي أن أقحم نفسي في الصورة ـ كما قال أحدهم ـ، على ما في ذلك من ادِّعاء، لرفعت يدي اليمنى نحو الأعلى، ويدي اليسرى نحو الأدنى.

لا تبحثوا كثيرا عن أدوات البحث العلمي ـ على ما لها من أهمية ـ ولكن ابحثوا عن الإنسان السوي الذي سوف يستخدمها، لأنها سوف تصبح في يده أداة يحكمها الصدق والدقة والإنصاف، وستظهر نتائجها مشرقة بالحكمة والبناء والتنمية والرحمة، أما في يد غيره من الباحثين عن الشهادات والترقيات فإنها أداة تحكمها المصلحة والوصول إلى الغاية، ولذلك يمكن التلاعب بها وتشويه نتائجها. فكم من بحوث ودراسات أجريت في الغرف المغلقة وليس في مجتمع الدراسة، وأجريت دراسات على عينة افتراضية وقيل إنها عينة ممثلة من مجتمع البحث.

إن غاب الباحث المسؤول، صاحب الضمير الحي، فلا تحدثني عن الأدوات والقياسات والمعايير لأنه من السهولة التلاعب بها وإخراجها بالكيفية التي أريد لها أن تكون سلفا. إن البحث العلمي بحث يأخذ بسلطان العلم: ملاحظة واستقراء، وبسلطان العقل: بحثا واستنتاجا، وبسلطان الروح: إشراقا وإلهاما.

لقد كان العلماء السابقون يدركون أهمية اقتران الصدق والخلق والمسؤولية والضمير الحي بالعلم، ولذلك قيل عن بعضهم إنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة في أخلاقه فإن وجدوا فيه خلقا رديئا منعوه من العلم أشد المنع وقالوا: إنه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الرديء فيصير العلم آلة شر في حقه. نعم يمكن للعلم أن يكون كذلك، فالبندقية في يد الجندي الذي يحرس الحدود، غير البندقية التي قد تكون في يد قاطع طريق.

ويذكرنا عالم الفيزياء الشهير (ألبرت أينشتاين) أهمية التواضع، كخلق من أخلاق الباحث العلمي مهما كانت المكانة العلمية التي وصل إليها، وقد كان ذلك حين اعتزل التدريس بعد بلوغه الثمانين من العمر، فأقام له تلاميذه حفل وداع كبير، وقاموا يشيدون بمآثره واكتشافاته وإنجازاته العلمية، لكن هذا العالم الشهير قال لهم: يا أبنائي، لا تبالغوا، لقد كنت أمشي على شاطئ المحيط فعثرت قدماي بالصُدفة على بعض الصَدفات، لكن بقي المحيط أمامي يطفح بالجواهر والمعادن والصَدفات ينتظرن من يغوص ويكتشف. وكأنه بكلامه هذا يقبس من قوله تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الإسراء: ٨٥.

لا إبداع بلا أخطاء...

كثير من الناس يمضون حياتهم بأكملها دون أن يكون لهم معرفة حقيقية عن المواهب التي يمتلكونها. وكما هو معروف، فإن أحد أهم أدوار التعليم، هو دوره الحاسم في إيقاظ وتنمية قوى الإنسان الإبداعية. بل التعليم في حد ذاته مهنة إبداعية. والإبداع الآن لا يقل أهمية في التعليم عن القراءة، وينبغي التعامل معه بنفس الاهتمام.

كما إن ما يجب أن نعلمه هو: إذا لم تكن مستعدا لتكون مخطئا، فلن تنتج شيئا مبتكرا. وكم نردد بصورة متكررة المثل القائل: (من لا يعمل لا يخطئ)، فإذا وجد من يعمل ويتعلم ويجرب - وبالطبع يخطئ -، استنكرنا خطأه ولم نتسامح معه فيه، وكان ينبغي علينا أن نتقبل خطأه، لا أن نقف منه موقف الخصم الذي لا يتسامح معه، حتى لا نكون حجر عثرة أمامه، أو عامل تحطيم لمسيرته العلمية أو العملية، بل نوجهه، ونوضح له النقاط التي عليه أن ينتبه لها، ومن ثم يواصل ما بدأ.

إنني أتساءل: كيف يمكن أن يأتي الإبداع والابتكار إن لم تكن هناك أفكار جديدة، وطرق مختلفة غير مسلوكة، وفرضيات مبتكرة، وتجارب غير معهودة، وهذه الأفكار والتجارب والفرضيات قد يكون نصيب البعض ممن يمارسها الخطأ، لكنها ستصحح نفسها بنفسها من خلال إعادة التفكير والتجريب وتقليب وجهات النظر والمناقشة والنقد البناء، ولكننا كما يبدو لي نريد إبداعا وابتكارا وتجديدا خالصا دون أخطاء، وما أظن ذلك إلا بعض تخيلاتنا وتخرصاتنا التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

إنك لن تجد دينا يجعل لك أجرا على مجرد (المحاولة)، بغض النظر عن نتيجتها، فإذا جاءت نتيجتها صائبة صار الأجر أجرين، أقول: لن تجد دينا بهذا المستوى



إلا الدين الإسلامي، حتى وإن كانت النتائج التي يتم التوصل إليها خاطئة فإن المجتهد يحتفظ بأجر المحاولة، وكأن القول النبوي على صاحبه أفضل الصلوات وأتم التسليم، يغري المجتهد والمبدع والمجدد بإعادة المحاولة وتقليب أوجه القضية ومناقشتها ونقدها لكي يحصل على الأجرين، ليس هذا فقط، بل ومع الأجرين الإبداع والابتكار والاكتشاف والتجديد.

إن هذا التوجيه النبوي يدعونا إلى اقتحام العقبة، وعدم التهيب من الخطأ الذي قد يحدث (وهو بالفعل واقع)، أثناء عملية التفكير والتجديد والاجتهاد والابتكار والإبداع والتجريب، فهذه سمة جارية في حياة الإنسان، وعليه أن يواصل السير في هذا الطريق دون أن يخشى أي ملامة ممن لم يدرك هذه السمة في حياة الإنسان.

إن الأخطاء هي أسوأ شيء يمكن اقترافه، ولكن لا بد منها - في بعض الأحيان -، وإلا كانت النتيجة أننا نعلّم الناس بإخراجهم من قدراتهم الإبداعية، خوفا عليهم من الوقوع في الأخطاء، حتى أن بإمكاني القول: إن الأخطاء في سبيل الترقي الحضاري هي خميرة الإبداع والتجديد والابتكار، إذا وجدت هناك عقولا تعشق البحث والتنقيب عن الجديد المتميز، وهذه العقول تتجاوز الأخطاء والقصور البشري وتجعل منهما سلما ترتقي عليه إلى ذرا الإبداع الذي يزيد الإنسان تواضعا مع غيره، وبين يدي ربه القائل: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الإسراء: ٨٥. لقد بنينا نظمنا التعليمية على غرار الوجبات السريعة، وهو يفقر أرواحنا وطاقاتنا، كما تقوم الوجبات السريعة بإبادة أجسامنا.

إلى متى نواصل تبني وجبات (الساندويتشات) التي تصوغها لنا النظم



التعليمية، والتي تقول لنا ـ في ضمن ما تقول ـ أن الطفل البالغ من العمر ٣ سنوات هو نصف الطفل الذي يبلغ من العمر ٦ سنوات!! وقس على ذلك بقية الساندويتشات التعليمية والغذائية التي لا تثري عقلا ولا تغذي جسما.



الطغاة شرط الغزاة

سبحان الله! لا يأمن الناس تهديد الغزاة إلا بترويعهم من طرف الطغاة، وهم بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن يستعبدهم الطغاة، وإما أن يستعبدهم الغزاة. والحق أن الطغاة هم شرط الغزاة! أين في غير العالم العربي يكون النظام المستبد هو الضمان الوحيد للاستقرار والأمن؟ كما يوحي الكثيرون، ألا ساء ما يحكمون.

وهل الفوضى المحتملة بعد ذهاب الطاغية إلا نتاج ما قدمت يداه على مدى عقود طويلة من الفساد والإفساد وتخريب النفوس وزرع الأحقاد وتغييب العقول واستعباد أطراف وعُصَب لأطراف؟ يخوفونك من الغزاة إذا ثرت على الطغاة، وما علموا أن الطغاة هم شرط الغزاة، وأن الشعوب التي أذلها الطغاة غير مؤهلة لمواجهة الغزاة، وقد يصل ببعضها سوء الحال من الطغيان الداخلي أن تتساءل: ما الفرق بين الطغاة والغزاة؟ وقد ينحط بها الحال إلى الترحيب بالغزاة تحت وطأة اليأس؟

شأن المستبد القوي أنه قد يفلح في تحقيق إنجازات عظيمة كما يقول د. وليد سيف، ولكنه لا يستطيع حفظها. إن لم يكن ذلك في حياته، فبعد مماته.

إنها معادلة صعبة، تمتحن فيها الشعوب ونخبها الفكرية، هل يقبلون بالطغاة على عِلاتهم، في سبيل بعض فترات من الاستقرار؟ وإن كان هذه الاستقرار على شفا جرف هار، أم يرفضونهم ويلفظونهم مهما كانت النتائج، لأنها في الغالب لن تكون أسوأ مما ستؤول إليه الأمور بعد تراخي قبضة الطغاة أو ذهابهم؟ إنها معادلة تشبه معادلات أينشتاين في النسبية، وقليلون هم من يفهمون ويدركون طبيعة وأهمية وخطورة مثل هذه المعادلات.

اللغة وبناء الذات

الحقيقة التي لا نستطيع أن ننكرها أن قوة اللغة وسعة انتشارها يعود إلى قوة من يحملونها، فكلما كان حملتها أقوياء، ويقدمون لها خدمات جليلة تعلما وتعليما، ويثرونها باشتقاق المصطلحات وتطوير المعجمات بصورة مستمرة، كلما ارتفع شأن هذه اللغة، حتى وإن كان غيرها أكثر أصالة منها، وأغزر ألفاظا ومصطلحات واشتقاقا، كما هي المقارنة بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية، ولسنا هنا في معرض الدفاع عن اللغة العربية ومقارنة تفوقها على غيرها من اللغات.

فاللغة العربية تحتاج إلى من يحملونها ويكونون في مستواها بالفعل، كما نقول عن الدين الإسلامي سواء بسواء :(يا له من دين لو كان معه رجال)، ويا لها من لغة لو كان هناك من هو أهل لحملها.

المقال يناقش موضوعا من موضوعات الهُوية، والتي يأتي على رأسها اللغة، كأبرز أسس الهوية، والخلفية التي توجه المنهجية الفكرية، وقد طاف بنا المقال شرقا وغربا ضاربا أمثلة عديدة وواضحة.

أتفهم ما أورده دكتورنا الكريم / محمد عثمان المخلافي بشأن موضوع التعريب والتمدرس والبحث باللغة الأم في عالم تهيمن عليه لغة يراد لها أن تكون لغة العولمة المتوحشة. وأقول لأستاذنا الكريم إن العيب لا يعود إلى لغتنا، كما لا يعود إلى تفوق لغة الآخر، وإنما يعود لنا نحن من حيث موقعنا الحضاري، الذي جعلنا نأخذ من الآخر (وليس في ذلك ما يعيب إن أدركنا هويتنا الحضارية)، ولكننا نأخذ من الآخر علومه بلغته ومحملة بحمولة هويته ـ مهما ادعينا أن العلم محايد ـ وهو ما أشار إليه أستاذنا الكريم أ. د/ أحمد الدغشي.

وأتفق مع الدكتور/ محمد عثمان المخلافي في أهمية ومفصلية توطين العلوم، وأن هذه الخطوة ستجعلنا أكثر تعبيرا عن هويتنا وثقافتنا ومن باب أولى لغتنا، لكن واقعنا -أستاذي الكريم- من السوء مما لا يخفى على أحد، كما إن الاستمرار في إحلال لغة الآخر (الإنجليزية تحديدا) لتحل محل لغتنا، ـ ليصل الحال إلى إدخالها ضمن مناهج صفوف التعليم الأولى ـ، يؤدي إلى خطورة ما بعدها خطورة على هويتنا الحضارية.

لهذا كله، ورغم أنني مدرك لصعوبة التعريب لعلوم الآخر، إلا إنني أعدها خطوة ـ وإن كانت متواضعة في نظر البعض ـ إلا أنها أفضل من تشرب ثقافة الآخر (إلى الثمالة) من خلال لغته، وأمام ذلك عقبات وصعوبات وبدايات قد تكون فجة وفيها قصور واضح، والمثال الذي ذكره د. المخلافي واحد منها.

وأعتقد أن بداية تواصلنا بعلوم الغرب أيام نهضتنا ثم تواصل الغرب بنا في بداية نهضتهم هي التعريب والترجمة، وإن وجد تلاقح لدراسة علوم الآخر بلغته لكلا الحضارتين، ولكنه كان تلاقحا في أيام اعتزاز كل بثقافته ولغته وهويته.

أما موضوع اليابان الذي أشار إليه كل من الأستاذين الكريمين في مداخلتهما فهو موضوع يحتاج إلى مداخلة مستقلة، واليابان بحد ذاتها كوكب مستقل في نواح كثيرة، واللغة واحدة من هذه النواحي، ولا أميل إلى أن اليابانيين متعصبون للغتهم، بل هم يعتزون ويقدرون لغتهم من خلال تقديرهم لهويتهم، ولم يمنعهم ذلك من التواصل مع الآخر وخاصة اللسان الإنجليزي بلغته، فهم ـ أي اليابانيين ـ مثال رائع للأمم التي لا يذيبها الآخر في لغته وثقافته، بل هي اليابان المتطورة بثقافتها ولغتها وتقنياتها وعلومها.



أجور الحسنات والإعجاز العلمي

في البداية فأنني آخذ على كاتب المقال خلط الأوراق وإطلاق التعميمات بكثافة، والإيحاء إلى القارئ بطريق غير مباشر أن أوامر الدين ونصوصه (ونقصد هنا الصحيحة الثابتة وليست المدسوسة والمكذوبة، وهنا بالتحديد يأتي موضوع خلط الأوراق) من الأمور التافهة، وفي هذا تجنٍ على الصحيح والثابت من النصوص القرآنية والحديثية، وطرح غير موفق لمناقشة مثل هذه المواضيع، التي لو طرحت بغير هذه الطريقة لكنا اتفقنا معه تماما.

وما ذكره كاتب المقال من أمور يتم تناقلها في وسائل التواصل الاجتماعي صباحا ومساء في موضوع الحسنات يلمسه الجميع، وربما عانت منه المجموعات أو حتى على مستوى الفرد الواحد من التخمة، والتي تؤدي في كثير من الأحيان إلى المرور عليها دون قراءتها وفي أحيان كثيرة حذفها قبل قراءتها.... ولنا هنا وقفة وهي:

موضوع الحسنات والأجور في الأعمال التي صحت نصوصها لا خلاف عليها، وما نختلف عليه هو عملية توظيفها وتقديم بعضها على بعض، وربطها بالجانب الفردي الخاص دون الجانب الاجتماعي التعاوني، إضافة إلى تقديمها (أي الأذكار اللسانية مثلا) على الأذكار العملية والإنتاجية، فالإسلام قد جعل الأذكار القولية حافزا للأذكار العملية والاجتماعية، قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) البقرة: ٤٥، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الأنفال: ٤٥، وقال تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الجمعة:١٠، ومثل هذه الآيات وكذلك الأحاديث التي تجعل من الذكر القلبي أو اللساني حافزا وداعما



للذكر العملي والإنتاجي.

والمشكلة التي أوصلت العقل الإسلامي إلى هذا الحد من الفصام النكد هو في عدم القدرة على استيعاب الإسلام كمنهج شامل وكامل لجميع جوانب الحياة، وقصره فقط على جانب الخلاص الفردي والبحث عن النجاة ودخول الجنة بشكل انفرادي، دون توسيع لنطاقه ليشمل الفرد والمجتمع والأمة والإنسانية والدنيا والآخرة.

ولوجود هذا الفهم القاصر ترى الناس ينشرون ويستقبلون ما ينشر في موضوع الخلاص الفردي بترحاب شديد (إلا من رحم الله)، وكأن هذا هو الإسلام وأنه هو طريق الخلاص الوحيد، وهؤلاء قد ينطبق عليهم قوله تعالى: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) البقرة: ٨٥.

وعندما نتأمل في آخر آية من سورة آل عمران: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران: ٢٠٠، نجد أن كل الأعمال المذكورة سواء كانت أو قلبية أو بدنية تؤدي الوظيفة التي بها يصبح الإنسان من المفلحين، وهي في مجملها، يختلف الذكر فيها من جارحة إلى أخرى، فللقلب ذكره وللسان ذكره ولليد ذكرها وللعقل ذكره، وقس على ذلك بقية الجوارح، والروعة في هذا كله أن يوجد التناغم والتناسق بين هذه الجوارح في ذكرها لله، فهي مكملة لبعضها بعضا، ودافعة لبعضها بعضا.

وفي هذا السياق أنصح بقراءة كتاب (فن الذكر والدعاء عند سيد الأنبياء صلوات الله عليه) للشيخ محمد الغزالي رحمه الله، فقد وفق إلى بلورة هذا الموضوع بصورة رائعة.



أما بالنسبة لموضوع الإعجاز فأعتقد أن فيه طرفين متطرفين، ويمثلان طرفي نقيض: أولهما: الطرف الرافض للإعجاز جملة وتفصيلا، وهذا موقف فيه تحيز واضح، ولا يحتاج إلى مزيد بحث. والثاني: الطرف الذي يدخل كل اكتشاف أو نظرية أو فرضية أو اجتهاد لم يصل إلى مرتبة الحقيقة العلمية على أنه إعجاز، وهذا بالمقابل غير مسدد فيما ذهب إليه وكثيرا ما يقع في تناقض عجيب عندما تخطيء الفرضية أو النظرية، وهذا يحتاج إلى أن يقال له: دع النظريات والفرضيات والاجتهادات حتى تصبح حقيقة علمية ثابتة ثم اجمع بينها وبين الآية أو الحديث إذا كان النص صريحا، وعندها سيبقى لكلامك وزنه واعتباره.

وأمر آخر جدير بالذكر هنا: وهو أن القرآن وصحيح السنة ليسا مطالَبين بأن يوافقا كل حقيقة علمية، وإنما الأصل فيهما أنهما لا يخالفان أي حقيقة علمية واضحة وجلية. وأمر آخر جدير بأن نورده هنا، وهو أن قضية الإعجاز التي تأتينا حقائقها من غير المسلمين، تقيم الحجة على المسلمين أنهم ليسوا في مستوى دينهم ونصوصه، بل الأمر يدعوهم (أي المسلمين) إلى أن يخجلوا من أنفسهم لأن كتابهم العظيم وسنة نبيهم الكريم يكتشف آفاقها غيرهم، وهذا لا يدعو المسلمين إلى الفخر بأنفسهم، بل إلى إعادة النظر في علاقتهم بدينهم، والفخر كل الفخر في هذا يعود لكتاب ربهم سبحانه وتعالى وسنة نبيهم --صلى الله عليه وسلم-- التي يكتشف إعجازها من لا يؤمن بها، ومن يؤمن بها في غيهم يعمهون.

زمن التيه... هموم قارئ عربي

تساؤلات أضعها بين أيديكم إخواني أعضاء منتدى الفكر الإسلامي، وكلي أمل أن تجد لديكم بعض الحفاوة والنقاش والعصف الذهني.

أتساءل: وبكل مرارة وحزن، هل نحن فعلا في الطريق الصحيح من خلال طرحنا ومداخلاتنا ونقاشنا ومشاركاتنا في هذا المنتدى؟ وهل نؤمِّل أن هناك مردودا يمكن أن نحصل عليه على المدى القصير أو المتوسط أو البعيد من خلال هذا الطرح؟ اعذروني إن قلت لكم إن الرؤية ضبابية ويكتنفها الغموض، وأننا نضرب في حديد بارد، إلا إذا كانت هناك ثمرات لم يحالفني الحظ للاطلاع عليها، إنني أسمع جعجعة (بل جعجعات)، ولا أرى طحينا، هل يعود ذلك إلى قصر نظر عندي؟ قد يكون ذلك! ولكني:

إني لأفتح عيني حين أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحدا

أتساءل: هل الغربيون والشرقيون (المتقدمون طبعا)، يستخدمون وسائل التواصل الاجتماعي بالطريقة التي نستخدمها نحن، أم أن لهم طريقتهم الذكية في استخدامها؟ وهل حولوها إلى حلبات صراع وتبادل اتهامات بالخيانة والعمالة، ومكبات قمامة لأفكار عفى عليها الزمن وتجاوزها الحاضر وأصبحت قيودا مكبِّلة بدل أن تكون منصات انطلاق، كما هو حاصل عندنا في الغالب؟ ولأنني لا أدري ما لديهم، لأنه لا يوجد بين يدي إحصاءات أستند عليها، إلا أنني أفترض أن استخدامهم لها غير استخدامنا لها، وأنها بالنسبة لهم شبكات تواصل، أما بالنسبة لنا فشبكات تقاطع، تسهل وتيسر لهم أعمالهم وتساعدهم على حفظ أوقاتهم وأموالهم وجهودهم، لكن هي لدينا ثقب أسود لاستنزاف أوقاتنا وجيوبنا وجهودنا إلا ما ندر.



أتساءل: هل يمكن أن يتحول ما يطرح ويناقش ويحلل ويكتب إلى لبنات لبناء الوعي أم أن هذا الطرح سيبلبل الفكر ويحبط النفس ويزرع الريبة والشك؟ فلا تدري من العدو من الصديق، ومن الصادق من الكاذب، ومن معك ومن ضدك. يأتيك سيل من الأخبار والرسائل والتحليلات والصور ومقاطع الفيديو، هذه تثبت وهذه تنفي، وهذه تتهم وهذه تبرئ، وهذه تجعل تلك الدولة أو الطائفة أو... ملاكا وهذه تجعل منها شيطانا، وأحيانا يدور ذلك داخل الاتجاه الواحد، ويكثر مثل هذا الطرح في المجال السياسي بوجه خاص.

أتساءل: هل ما يطرح هو المناسب للمرحلة التي نمر بها، وهل هو بلسم لعلاجها؟ سيقول لك صاحب كل مقال أو تحليل أو مداخلة أو مشاركة أو فكرة أنه قد طرح القول الفصل، وأن ما طرحه جدير بالاهتمام وحريٌّ أن يطبق وينفذ، ويشعر صاحب هذا الطرح أنه قد أدى واجبه وأبرأ ذمته وقدم لوطنه الكثير، فيعود إلى ذاته يشكرها ويبارك لها عطاءها، ثم ينام قرير العين، لأنه قد أدى ما عليه، وهو بالفعل قد أدى ما عليه ولكن من باب (إسقاط الواجب).

أتساءل: ألا ترون معي أن هناك أمورا وأحداثا في الداخل والخارج لا يختلف عليها اثنان من ذوي الثقافة المتواضعة، فما بالك بذوي الثقافة العالية، ولكننا نجد لها سوقا رائجة للتجاذبات تصل إلى مرتبة الفروق بين (الأسود والأبيض)، وهي في الحقيقة إما أبيض أو أسود لوضوحها ومبدئيتها، ولكننا ندخل في عراك وجدال وأحيانًا سبا وشتما واتهاما، فأوسعنا بعضنا بعضا سبا وشتما واتهاما، وذهب الماكرون الذين أدخلونا في هذا الجدال بالإبل.

أتساءل: عن معارك على صفحات التواصل الاجتماعي ظاهرها البحث



عن الحق والوصول إلى الحقيقة، ولكنها تخفي في طياتها الكثير من حظوظ النفس وتلاعب الهوى وروح التعصب، يمكن أن ينطبق عليها القول: (حق يراد به باطل)، وتحضرني صورة الرجل الذي طعن عثمان رضي الله عنه ١٢ طعنة قائلا: ثلاث لله وتسع لما في نفسي، ولكن الحقيقة والواقع والتاريخ يقول إنها كلها لما في نفسه، كم من طاعنين لجسد الأمة أو الملة أو الوطن يشبهون هذا الشقي، (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف: ١٠٤.

أتساءل: لو أن وسائل التواصل الاجتماعي التفاعلية توقفت، ترى ما الذي سيحدث؟ هل فعلا سنعيش في عزلة؟ أم أننا سنعيد ترتيب أنفسنا بطريقة أخرى ربما تكون أكثر جدية وجدوى، وكيف سنستطيع التخلص من الإدمان الذي اعتدنا عليه مع وسائل التواصل الاجتماعي؟ لقد حولنا وسائل التواصل الاجتماعي هذه إلى غاية بدل أن تكون وسيلة، فأصبحنا نتواصل لذات التواصل لا لشيء آخر إلا في النادر القليل.

أتساءل: هل بإمكاننا أن نحول شبكات التواصل الاجتماعي إلى شبكات اجتماعية حية، تنتج عنها روابط متعدد (رابطة التربويين، رابطة السياسيين، الاقتصاديين، الإعلاميين، المفكرين، .....)، يكون عملها إنجاز بحوث ودراسات وورش عمل، ومن خلالها يمكن تقديم خارطة طريق للجانب السياسي أو الاقتصادي أو التربوي أو الإعلامي أو. ... كما يمكنها أن تقدم حلولا ومقترحات ناضجة خضعت لدراسات متخصصة، ويكون لهذه الروابط كيانات للتواصل مع جهات الاختصاص في الداخل أو الخارج، وأعتقد أن هذا ليس مستحيلا ولكنه بالمقابل ليس سهلا، خاصة ونحن في مرحلة زمنية تكتنفها الفردية والريبة، ولكن لا بد مما ليس منه بد، اليوم أو غدا.

أتساءل: هل بإمكاننا أن نتنبه لحالة (العُري) الثقافي والسياسي الذي يحيط بحالتنا، ونحن نعتقد أننا نرتدي أفخر الثياب وأغلاها؟ هل نحن في حاجة إلى (غُلام) لا زال يملك فطرته السوية ليشير إلينا فاضحا حالتنا، كما حدث في حكاية أحد الملوك مع رعيته عندما أوهمه الشخصان الماكران بأنه يرتدي ثيابا من الذهب والحرير، ولكنه في الحقيقة عارٍ.

أتساءل: هل كل واحد منا على قناعة تامة بأن ما يقدمه هو أفضل ما لديه؟ بالنسبة لي لا أستطيع أن أقول نعم. لأني في مرات كثيرة أقف مع نفسي معنِّفا إياها ومتهما لها أن ما تقدمه لا يساوي شيئا ولا يحرك ساكنا، وأن عليها التوقف عن الكتابة والمشاركة، وأن ما تقوم به هو من باب العادة والمسايرة للآخرين، حيث إن السير مع القطيع مغرٍ ولذيذ، وأن العقل الجمعي يسلب الإنسان استقلاليته ولكنه يمنحه شعورا أنه مع الآخرين (بين إخوتك مخطئ ولا وحدك مصيب)، ثم أسلي نفسي بالقول:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد.

فأعود للكتابة على كل حال، ولسان حالي يردد قول الشاعر:

إذا قلت المحال رفعت صوتي

وإن قلت اليقين أطلت همسي

التساؤل الأخير: قلت من البداية إنها مجرد تساؤلات وعصف ذهني، ولا أملك بين يديّ حلولا سحرية، ربما رميت حجرا فحرك مياها عند أحدهم فانقدح ذهنه بفكرة مشرقة، تضيء طريق التائهين... واعذروني أني أقلقت راحتكم بهذه التساؤلات،

وعكرت مزاجكم بهذه الاستفسارات، لكن هكذا يكون كشف الغطاء في بعض الأحيان مؤلما وقاسيا، فهذا قدرنا وإن كان البعض يحب بل ويعيش على وقع الأغنية المشهورة (لا أفتش مغطى ولا غطي على مفتوش).

السؤال الذي نتهرب من الإجابة عليه: لماذا لم تنجح ثورات الربيع العربي؟

في البداية فأنا لست مع الرأي الذي يحمِّل (بتشديد الميم وكسرها) الشعوب مسؤولية عدم نجاح هذه الثورات، فالشعوب قدمت الكثير وكانت من الشجاعة والتضحية والإقدام في أسمى الصور التي أدهشت البعيد قبل القريب.

أتوقف في نوع من الدهشة والحيرة وأنا أعتصر مكنونات الوعي والإدراك عندي، وأتساءل لماذا نجحت ثورات الآخرين ولم تنجح ثورات ربيعنا العربي؟ فيعود إليَّ صدى السؤال دون رؤية واضحة، وأكرر المحاولة، ولكن دون جدوى، ثم أعود فأقول: نعم هناك أسباب تحتاج إلى أن نحفر لها عميقا، ونواجهها بكل شجاعة.

الشعوب التواقة للحرية والتغيير موجودة... وهي على استعداد للتضحية والبذل... إذن ما الذي يعيقنا؟ الحكام المستبدون... لا أظن، فهم أضعف مما نظن وأوهى من بيوت العنكبوت.... التآمر والكيد الخارجي... لا أعتقد أنه سبب جوهري وإن كان له تأثير لا ينكر... إذا ما الذي ينقصنا لتنجح ثورات ربيعنا؟

أقولها صريحة مدوية... الشعوب التواقة للحرية ينقصها العقول المسدِّدة (بكسر الدال الأولى) لهذه الثورات، فليس من مهمة الشعوب إنجاز النظريات السياسية والرؤى الاستراتيجية وقواعد اللعبة السياسية، وتكوين جماعات الضغط، الشعوب إذا يئست وأحبطت تعفنت في بلدانها الحكومات الاستبدادية لطول بقائها، وإذا ثارت قلبت الطاولة على الجميع لا لتأتي بمنقذ، لأنها لا تعرفه بل لتغير مستبدا قديما بآخر جديد، وتعود الدائرة مرة أخرى.

العقول المسدِّدة (بكسر الدال الأولى) فكرية وسياسية وإدارية وأكاديمية

وثقافية وإعلامية، هي التي تكسر هذه الحلقة، من خلال إنجاز مشاريع سياسية ناضجة تستوعب الحراك الحاصل في هذا البلد أو ذاك، وتوجِد لحالات التغيير مسارات آمنة حتى لا تتحول الثورات إلى حالات فوضى لا تبقي ولا تذر، هذه النخب ذات العقول المسدّدة والمسدِّدة هي التي تجمع الجهود وتكثّلها وتصنع منها مستقبلا زاهرا.

والمؤسف أن كثيرا من هذه النخب يلقون باللوم على الشعوب التي جهَّلوها (بتشديد الهاء الأولى وفتحها) سياسيا، وصار حال هذه النخب مع شعوبها كما قال الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له

إياك إياك أن تبتل بالماء

ما ينقصنا -أيها الأكارم- نخب (محترفة) لا نخب (مغامرة) في جميع المجالات تتقدم الشعوب وتنير لها الطريق، وتصنع بهم حالة تدافع ضد الأنظمة الفاسدة والمستبدة، وتمسك بزمام الأمور حتى لا تخرج الثورات عن مسارها ويتسلق عليها لصوص الثورات وسراق التضحيات.

نحن في حاجة إلى نخب تستخلص لنا من تاريخ الثورات السابقة والحاضرة دروسا وتضعها ضمن نظريات سياسية سواء عبر مراكز الأبحاث أو أقسام العلوم السياسية في الجامعات أو غيرها من الأطر، يمكنها أن تستفيد من طبيعة التغيير النبوي والثورات التي تلت ذلك سواء في البلدان الإسلامية أو غير الإسلامية كالثورة الأمريكية والفرنسية والصينية وثورات أوربا الشرقية والثورة الإيرانية وغير ذلك من الثورات ومشاريع التغيير العالمية، وعندها يمكن أن نقول إن هذه النخب أهل لقيادة

مسيرة التغيير في أوطانها.

غير ذلك... سنبقى كمشاهدي كرة القدم في مقاعد المتفرجين وإن أحسنَّا التشجيع والتصفيق ورفعنا الصوت، لكن سيبقى الدور الذي نقوم به هامشيا مالم ننزل الملعب السياسي، ونديره بطريقة مغايرة لما يقوم به المهرجون والبهلوانيون السياسيون، هذا الميدان الذي يتنزه البعض من النزول إليه ويعتبره رجسا من عمل الشيطان.

الكذب المريح....

يستخدم علم النفس الاجتماعي مصطلح (الإنكار)، وهو يعني التمسك (بكذبة مريحة) أفضل من الاعتراف بحقيقة (غير مريحة)، فهو (أي الإنكار) وسيلة لتجنب هذه الأخيرة (أي الحقيقة غير المريحة)، وهو تفكير يتمسك بالخبرة والأحداث التاريخية في مقابل الدليل والبرهان الحاضِرَين أمامه.

ويبقى السؤال لماذا؟

إن أقرب التصورات هو أن الاعتراف بالحقيقة أحيانا يهدم بناء كاملا، فكثير من أوضاع المجتمعات بنيت على كذبة تاريخية (شعب الله المختار)، قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) المائدة: ١٨، وقال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) آل عمران: ٢٤، وهذه الأمثلة وإن كانت تنطبق على اليهود، فإنها بالمقابل تنطبق على كل من يعيش على الأوهام والكذب المريح وإن تغيرت المسميات، فالبناء الاجتماعي والسياسي والأسس الاجتماعية والدينية، كل تلك وراءها مصالح في الغالب.

ولو استقرت الحقائق الجديدة وقام لها كيـان لانهارت تلك الأبنية الزائفة التي كانت قائمة على الكذب المريح، وقد قيل: إن صاحب العقيدة الخاطئة قد يرجع عنها، إذا وجد الدليل وصدقت منه النية، ولكن صاحب المصلحة لا يرجع عنها، مهما كان حجم الأدلة وقوتها.



وفي محيطنا الإسلامي نجد أننا لم ندرك بعد طبيعة سنن الله في الآفاق والأنفس، فلا يزال كثير من أبناء الأمة يعيشون على الكذب المريح هروبا من الحقيقة غير المريحة، فكثيرا ما نسمع من يردد قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) آل عمران: ١١٠، وكأن تلك الصفة (صفة الخيرية) ملازمة للمسلمين في أي وضع كانوا، دون أن ندرك أن الآية تقرير لحقيقة مشروطة، متى توافرت، توافرت معها الخيرية، ومتى انتفت انتفت معها الخيرية.

والحال ينطبق على كثير من أحوالنا الشخصية والمجتمعية والوطنية، فما زلنا نحب العيش والحديث عن الكذب المريح، في مقابل هروبنا من الحقيقة غير المريحة. متى ندرك أن حبل الكذب (ولو كان مريحا) قصير؟ وأن الحقيقة غير المريحة الآن هي عنوان الوعي وبداية الطريق السليم للوصول إلى عتبات المستقبل.

أمراض التعليم المزمنة...

كأن الحال بنا جميعا يبعث الشجا، كما في رثاء متمّم بن نُويرة لأخيه مالك:

لقد لامني عند القبور على البكا

رفيقي لتَذراف الدموع السوافكِ

فقال: أتبكي كــل قبر رأيته

لقبر ثوى بين اللـوى والدكـادك؟

فقلت له: إن الشجـا يبعث الشجا

فـدعني، فهذا كــله قبر مالك

إن في التعليم أمراضا مزمنة، أقعدت التعليم، وجعلته معاقا، يحتاج إلى تأهيل، ليستعيد حيويته ومرونة أعضائه، والباحثون عن الجودة في مجال التعليم، وفي الحال التي نحن فيها، يريدون من هذا المعاق أن يدخل (ماراثونا) للجري للمسافات البعيدة، وهيهات أن يدخل في سباق الجري معاق.

ما يجول في خاطري هو أن العمليات (التحسينية) التي تأتي في النهاية هي عمليات أيسر وأسهل من عمليات التأسيس والبناء التي تتطلب جهدا وبذلا وتضحية، لا يمكن مقارنتها بالعمليات التحسينية، ويشبه ذلك في وجه من الوجوه عملية التأسيس والبناء لمنزل أو عمارة، فسيكون من السهل إضافة تحسينات هنا أو هناك، أو إضفاء لون معين على هذا الجدار أو ذاك، أو رسم لوحة أو نقش في هذه الزاوية أو ذاك السقف، ولكن هذا لا يتم إلا إذا أصبح هناك بناء قائما بذاته ويحتل حيزا معينا من الأرض.



وهذا يعد أحد الأسباب التي يتجه بموجبها الباحثون إلى العمليات الأخيرة (التحسينات)، دون أن يدركوا أنهم يضعون لمساتهم (الجميلة) في الفراغ، أو على بناء وجدران توشك على الانهيار.

ومن وجهة نظري - وأتمنى أن تكون غير صحيحة - أن كثيرا مما يقدمه الباحثون في الرسائل العلمية لم يعد الغرض منه تشخيص المشكلات الحقيقية وبلورة الحلول الممكنة لتجاوزها، بقدر ما أصبح الهدف هو الحصول على الدرجة العلمية أو اللقب الأكاديمي، أو الحصول على ترقية علمية، وعندما يكون الهدف بهذا المستوى فلا داعي لإرهاق النفس ببحث يستنزف طاقات الإنسان وماله.

مع التأكيد أن هناك من الباحثين الجادين من يسعى جاهدا لخدمة الهدف الأول (تشخيص المشكلات وتقديم مقترحات للحلول)، ولكن يلفهم النسيان وربما كان نصيب غيرهم من أصحاب الهدف الثاني أكثر قبولا وحظا.

إنها معادلة صعبة في بيئة التخلف، تجعل الباحث حائرا، هل يسير مع التيار ويغرد بنغمة القطيع، وينعم ببعض العطايا، أم يسبح عكس التيار، ويغرد بنغمته هو وإن كانت لا تتناسب مع الجو الصاخب في حفلة الحياة الكبير الذي يعيش فيها، حتى وإن أدى ذلك إلى أن يطوي على بطنه الحجر والحجرين، وأن يفرد إفراد البعير المعبد، كما في معلقة طرفة بن العبد التي يقول في بيتين منها:

إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيْرَةُ كُلُّهَا

وأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيْرِ المُعَبَّدِ

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً

عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ.



✍ ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب!

تعرفت على الشيخ عائض القرني قبل أكثر من ربع قرن، وكان ذلك عن طريق شريط «كاست» لمحاضرة له تحمل عنوان (مصارع العشاق)، الذي لم أسمعه مرات فقط، بل سمعته عشرات المرات حتى أوشكت على حفظه عن ظهر قلب في حينه، وفي هذا الشريط سكب القرني من البلاغة والفصاحة والإبداع الفني ما يعجز عنه غيره، وطوّف من خلال كلماته في هذا الشريط شرقا وغربا وشمالا وجنوبا في (ملحمة)، وقطعة أدبية رائعة، ثم بدأت كتبه تزحف على المكتبات وبدأ نجمه يعلو ويسطع، وأصبح ملء السمع والبصر، وما شهرة كتابه (لا تحزن) إلا واحدة من مآثره.

ولست هنا في معرض القول (كان .... وأصبح)، ولكني هنا أتلمس حجم الصدمة التي تعتري المحبين والمبغضين على حد سواء، مع إيماني العميق برسالة العالِم وكونه قدوة وأسوة، وأن ثباته ثبات لأمة، وسقوطه قد يكون أحد أسباب سقوطها.

لقد صار حبنا كلفا، وكرهنا تلفا، كما يقال، ولو أنّا تعاملنا مع الأمر من وجهة النظر التي لا تجعل البشر معصومين، لخفف ذلك من صدمتنا، ولصار حزننا وفرحنا معقولا ومنطقيا، ولم نغالِ في هذا أو ذاك، على الرغم من كوننا نحس بالمرارة والأسف، ولكن هذا هو الحال، فلنتعامل معه بطريقة تبقينا واقفين على الجادة حتى وإن ظهر للحادي طريق لا نرضاه، دون أن نبالغ في الشماتة والقدح، التي هي بدورها رد فعل للحب والمدح المبالغ فيه سابقا. أنا هنا أناقش حالة من حالات قد حدثت، لها أخوات في الماضي، ولن تعدم لها بنات عم في المستقبل، ولا أناقش شخصا بعينه، إلا بقدر أن المناسبة هي التي جعلته محور الحديث.

أقول أخيرا: إننا نتعامل مع نفس بشرية مهما علا كعبها علما وفقها، وقلبها

بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وخوف الإنسان على نفسه، يجعله يتوقف مليا، حتى لا تدفعه العاطفة إلى مجاوزة الحد في النقد لأي انحراف أو سقوط، بل يحكمه الدين الذي يغار عليه من تلاعب الآخرين به أو استخدامه، والتبرير ومجاوزة الحد أخوان بأيهما أخذ الإنسان سقط.

وتأملوا معي أبيات لابن الرومي وجدت فيها بعض الملامح والإضاءات الكاشفة لخبايا النفوس، والتي جعلت من شطر البيت الأخير منها عنوانا لهذه المقالة.

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى ... إلي وأغراني برفض المطالب

فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد ... وإن كنت في الإثراء أرغب راغب

حريصا جبانا أشتهي ثم أنتهي ... بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب

ومن راح ذا حرص وجبن فإنه ... فقير أتاه الفقر من كل جانب

تنازعني رغب ورهب كلاهما ... قوي وأعياني اطلاع المغايب

فقدمت رجلا رغبة في رغيبة ... وأخرت رجلا رهبة للمعاطب

أخاف على نفسي وأرجو مفازها ... وأستار غيب الله دون العواقب

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ... ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب!

المعاونة والمقاولة... هناك فرق

ليس عيبا أن تسدي لغيرك معروفا أو تقدم له مساعدة، فهذه من شيم الكرام، ومن أخلاق النبلاء، خاصة عندما تكون تلك المساعدة بدون مقابل، والأروع عندما تكون مرتبطة بالعلم والبحث العلمي، فهي زكاة للعلم وواجب يقدمه العالم تجاه طلاب العلم من أبناء وطنه أو من غير أبناء وطنه، وحتى في حال اضطر إلى أخذ مقابل مادي نظير هذه المساعدة (وليس المقاولة بالطبع)، والتي تتمثل بإرشاد الباحث إلى المراجع المهمة في هذا المجال، وتبصيره بالطرق السليمة والصحيحة لإجراء البحوث، وتوجيهه إلى المكتبات والمراكز والأشخاص الذين بإمكانهم أن يقدموا له ما يخدم بحثه، وحتى مناقشته في هيكل بحثه ومنهجيته المستخدمة وتقديم اقتراحات تخدم قوة البحث ورصانته، فهذا كله يعد جانبا من جوانب العون أو المساعدة سواء بمقابل أو بدون مقابل.

وفي حال (المعاونة) فنحن نسعى لإيجاد (باحث) متميز، نصنعه اليوم ليجني المجتمع ثمار خيره وعطائه غدا، أما في حال (المقاولة) فنحن نسعى إلى إيجاد (بحث) لغرض من الأغراض (درجة علمية، ترقية، ....)، وهذا يؤدي بدوره إلى تراجع في أعداد (الباحثين) وإن كان هناك وفرة في (البحوث)، القائمة على بعض الباحثين (المقاولين) الذين لن يطول بهم الزمن فإما أن يتقاعدوا برضاهم أو رغما عنهم (بالموت)، فتحدث فجوة لا يستطيع أن يسدها الباحثون (المقاولون) من الدرجة الثانية والثالثة، فتخرج عند ذلك بحوث هزيلة مهزوزة ونكون بذلك قد خسرنا الباحث والبحث في وقت واحد.

أعرف أن الصندوق الاجتماعي للتنمية في اليمن يقدم برنامج سماه (النقد



مقابل العمل)، وهو برنامج يريد من خلاله الصندوق أن يشغل الأيدي العاملة العاطلة في مقابل الأجر اليومي، فالهدف هو تشغيل اليد العاملة وليس الهدف طبيعة العمل والمشروعات المنفذة، فكثيرا ما تكون الأعمال التي تنفذ غير ذات جدوى، بل أحيانا قد تكون هامشية إلى حد بعيد، وأحيانا يشبه عمل بعض المراكز والباحثين عمل الصندوق، فالهدف هو النقد مقابل العمل (أي عمل أي بحث)، والباحث أو المركز (المقاول)، سيعمل (النقد مقابل العمل)، ولكن أي عمل، لأن الأمر لا يهمه وليس معنيا به، قد يهتم بالإجراءات الشكلية للبحث ولكن يبقى البحث فاقدا للمضمون، ولا تسري فيه روح الباحث ولا شخصيته، والمهم أن يحصل من خلاله على درجة علمية أو ترقية.

وأذكر أنني قرأت كتابا يحمل عنوان (أطفال تحت الطلب)، وسمعت أن هناك (فتاوى حسب الطلب)، وأن هناك برامج تقدم لجمهورها (ما يطلبه المستمعون)، فهل وصل الحال بنا أن نسمع ونقرأ أن هناك (باحثين تحت الطلب) أو (أبحاث حسب الطلب)؟

لم يدع المقاولون لنا شيئا جميلا نعتز به، حتى في البحث العلمي دخلت مشكلة المقاولات، وما على من يرغب في الحصول على بحث لأي غرض إلا التوجه إلى أحد المراكز أو الباحثين والاتفاق معهم على طبيعة ونوعية البحث والهدف منه والتكلفة المالية المقابلة لإنجازه خلال فترة زمنية محددة، ومن ثم استلام البحث كاملا حسب المواصفات (تسليم مفتاح).

كما أنني أستغرب الجمع والربط بين صحة البحوث وسلامتها منذ البداية وبين عدم تطبيق توصياتها، حيث إن عدم تطبيق توصياتها قصور وعيب وخطأ من الجهات

المناط بها تحويل هذه التوصيات إلى حيز التطبيق حسب ما هو متاح، وعند إهمال التوصيات لا يعني ذلك أن نأتي إلى الأسس التي تقوم عليها البحوث العلمية فنهدمها بحجة أنه لم يتم تطبيق توصيات البحوث السابقة (بدل أن نكحلها أعميناها).

ما أرغب في الوصول إليه من خلال هذا الطرح أن البحث العلمي يصنع باحثين، وهم بدورهم يصنعون أبحاثا تغير المجتمع وتعمل على النهوض به، ولهم شخصياتهم الاعتبارية التي ينظر إليها المجتمع بنوع من الاحترام والتقدير، وهم في مقام الأسوة والقدوة لغيرهم، لكن عندما يتراجع دورهم إلى مجرد (تجار) جملة أو تجزئة، أو إلى كونهم مقاولين، فإن ذلك يحط من قدرهم، ويجعلهم جسورا (بمقابل مادي)، يعبر عليها الانتهازيون والأنانيون والفاشلون إلى المستقبل ليفسدوا فيه ويدمروه، وإذا كان الباحثون في زمننا هم ملح البلد، فإن ما قاله الشاعر عن علماء الدين الفاسدين ينطبق عليهم.

علماء الدين يا ملح البلد   من يصلح الملح إذا الملح فسد

الفكر الإسلامي تنظير وتطبيق ...

صحيح أن الفكر الإسلامي في أزمة طال أمدها، وكلما طال بها الزمن زادت تعقيدا وتشابكا، لأن هناك تغييرات ضخمة حدثت في عالم اليوم (إنسانا وأنظمة وتشريعات)، وتحتاج إلى البت فيها، واقتحام العقبة لتجاوزها.

والدولة الإسلامية بدأت كنواة صلبة في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وعصر خلفائه الأربعة رضوان الله عليهم، وكانت على مستوى زمانهم رؤية حضارية متقدمة في جميع النواحي، وكانت الشورى واحدة من أسسها الراسخة، إن لم تكن أهم الأسس، وكانت الشورى كذلك على قدر رؤية المجتمع في ذلك العصر.

إن ١٤٠٠ سنة كانت كفيلة بأن تصبح هذه البذرة الصلبة شجرة عملاقة، عميقة الجذور قوية الجذع باسقة الأغصان ندية الأوراق دانية الثمار، ولكن ما حدث لهذه البذرة أنه تم منع تخصيب أرضها مع تقليل ماء سقيها، بل وترك الحشائش الضارة تنبت حولها وعلى حساب مائها وتربتها (التوريث، الاستبداد، الحكم الجبري)، فنمت الحشائش التي حولها حتى صارت أشجارا عملاقة، وبقيت هي تصارع العطش والرياح والعواصف ولا زالت كذلك.

الشورى كرؤية إسلامية ليست رؤية تنفيذية قابلة للتطبيق الفوري، بل هي رؤية تحتاج إلى عقول تدور حول قيم الإسلام العظيمة لتوجد لها آليات وتطبيقات على أرض الواقع، قد تكون هذه الرؤى والتطبيقات قاصرة في زمن ما لكنها ستنمو مع كل فترة حتى تؤتي ثمارها، ومشكلتنا أننا توقفنا عند النص دون أن نوجد له تطبيقاته، فبقي النص يحمل أهميته ومكانته وبقينا ندور حوله مفتخرين ومادحين.



ولم تكن الديمقراطية التي ينعَمُ الغرب بنتائجها رؤية ناجزة منذ بدايتها، بل ربما كانت لها بدايات فجّة، ولكن تعامل العقل الغربي معها وتشذيبه لجميع تطرفاتها، قد أوصلها إلى ما هي عليه الآن في الغرب، سواء توافقنا معهم فيها أو اختلفنا، إلا أنها قيمة حضارية (حتى ولو كانت في إطارهم) يغبطهم عليها الكثير من حملة القيم، التي قد تكون أرقى من الديمقراطية لو أن أصحابها تعاملوا معها بغير العقلية التي جمدتها، وتركتها نصا لا نحميه بل نحتمي به عند الملمات، ولكنه احتماء الطفل الساذج.

ما أريد قوله هو: إننا كمسلمين لدينا من الثوابت والقيم ما يمكن أن يؤسس لنهضة حضارية، ولكنه مع الأسف (جوهرة في يد فحام). متى ندرك أن القيم لا تعمل في فراغ، حتى قيم ديننا العظيمة في حاجة ماسة إلى عقول تحسن التعامل معها، وتوجد لها مسارات وآليات للتطبيق واجتراح الواقع والحوار معه، وإعادة فهم الواقع على نور من النص، والعودة إلى النص بناء على حواره مع الواقع لتجديد فهمه والتعامل معه.

إن دولة إسلامية تتغنى بالنصوص التي تحملها دون أن تجهد ذاتها للتعامل معها بثقة وشجاعة، لهي دولة تحمل اسما لا مضمونا لهذا الدين القويم، وسنبقى ندور في فراغ من الأسئلة الافتراضية عن كون هذه الدولة إسلامية أم لا؟

القيم المطلقة والقيم النسبية ...

العدالة غاية سامية ولأجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب. والقضية ليست إخفاقا للعدالة بل سوء تطبيق لها، خضع لظروف الزمان والمكان والحال، فلماذا نحمِّل القيمة سوء تطبيق من يطبقها، ونرد العيب فيها بأنها أخفقت، ولا نعيب الذين طبقوها.

ثم كيف تكون العدالة التي أمر الله بها، (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) النحل: ٩٠، وحرم الله عكسها وهو (الظلم) على نفسه وعلى البشر، وأقام موازين اليوم الآخر لتكريم من يسير عليها ومعاقبة من يتنكب طريقها، وبالعدالة قامت السماوات والأرض، والعدالة مما تهتدي إليها النفوس السوية والفطرة الخيرة، أقول كيف يكتنفها الكثير من الغموض وهي بهذه المركزية والأهمية في حياة الإنسان، وإذا كانت قيمة كالعدالة يكتنفها الغموض فماذا عن بقية القيم السامية، هل نقول يطويها النسيان.

ثم إن قضية النسبية في القيم المركزية الإسلامية غير واردة، فهي في جانبها التجريدي قيم مطلقة، وكلما أحسنّا تطبيق هذه القيم اقتربنا من الكمال والإطلاقية لهذه القيم، أما إذا اعتمدنا النسبية وفق المنظور الغربي فسنتلاعب بالقيم، فقد تكون العدالة اليوم مقبولة لأننا سنستفيد منها، بينما ستكون غدا مرفوضة لأننا سنتضرر منها، إنها العقلية الغربية المصلحية (البراجماتية) في التعامل مع القيم وفق المنظور الغربي، وإلا فأين العدالة في تعامل الغرب مع أعدل قضية إنسانية وهي قضية فلسطين، لقد جنحت الرؤية الغربية فيها إلى الظلم الفاضح، لأنها لا تؤمن بالعدالة كقيمة مطلقة بل كقيمة نسبية.

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

وقضية أخرى في موضوع العدالة وما في مستواها من القيم، أنها لا تخضع لأهواء الناس وأمزجتهم ليفصِّلوها وفق رغباتهم، لأن الإنسان من طبعه الميل والتحيز، والنموذجان (الشيوعي والرأسمالي) نموذجان متطرفان لتطبيق العدالة، على أساس أنهما يسعيان إلى تحقيق العدالة بهذه الصورة أو تلك، وتطبيقات العدالة في صورتها الشيوعية والرأسمالية أخفقت أيما إخفاق، ولم تخفق كقيمة مطلقة بل أخفقت لأنه تم التعامل معها كقيمة نسبية، وحقيقة الأمر أن الذي أخفق هو المنظور الأعوج والمتطرف والمعاكس للفطرة في تطبيق العدالة في هذين النموذجين.

وجمع الأديان كلها في سلة واحدة في موضوع العدالة، أمر خاطئ، وكأنه لا فرق بين الإسلام كدين حق وبين ما حُرِّف من الأديان، وأن تطبيقات الأديان للقيم ومنها العدالة كان تطبيقا نسبيا، وهذا التطبيق (تطبيق العدالة النسبي صحيح)، لكن العدالة كقيمة سامية هي قيمة مطلقة.

وموقف عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-من حد السرقة كمثال تاريخي مؤشر في هذا الاتجاه، فقد (أوقف) عمر حد السرقة في عام الرمادة ولم (يلغه) كما يقول بذلك بعض العلمانيين، الذين يرغبون في التلاعب بالدين، وما يمكن أن يفهم من هذا المثال التاريخي هو أن تطبيق الحد في تلك الظروف ومع وجود كل تلك الملابسات من جوع وحاجة، يعد بعيدا عن العدالة ودخولا في الظلم، وهذا من فقه عمر لمقاصد الدين وليس فشلا في تطبيق العدالة.



إذا أردنا أن نناقش فكرة أو قيمة أو موضوعا فلنحدد القاعدة والمرتكز والمنطلق الذي ننطلق منه، فإذا انطلقنا من الإسلام فلنجعله مرجعية نستند إليها، ونعاير بموجبها، ونقيس بمقاييسها، أما إذا انطلقنا من سواه (أي غير الإسلام) فسيغرد كل منا في واد مختلف عن الآخر، وسنتحاور حوار الطرشان ولن نخرج بفائدة.

تفسير الإسلام حسب الأمزجة ...

يمكنني أن ألخص هذا المقال من خلال النقاط التالية:

١-هناك توجها لتسطيح الرؤية الإسلامية الشاملة وحصرها في جزئيات وفرعيات خلافية أحيانًا، وأحيانًا أخرى قد قتلت بحثا وتفريعا، بل وأصبح بعضها من المسلَمات، وإعادة طرحها ونبشها من جديد سيكون على حساب قضايا أساسية في الإسلام، وإشغال للناس بقضايا لم تعد مما له أولوية في حياة المسلمين.

٢- صاحب المقال (محمد زكريا لغمام) الذي عنون لمقاله بدعوة المرأة لأن تتم صومها، وإن كانت حائضا أو نفساء، وفي ثنايا مقاله أجاز لها أن تصلي كذلك، فالحيض والنفاس لا يفطر ولا يمنع من الصلاة، وهو بهذا العنوان لا يناقش مسألة يمكن القول إنه مختلف فيها، بل أصدر حكما باتا وفتوى قاطعة بصحة رؤيته ووجهة نظره، رغم تهافت التفسيرات التي أوردها في ثنايا مقاله، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عقلية أصدرت الحكم ثم سعت جاهدة للبحث عن أدلته أو اختلاقها أو تأويل النصوص لإثباتها، وليس العكس كما هو معلوم في البحث العلمي أن الأدلة والبراهين تقود إلى النتائج والتقريرات والأحكام، التي قد يصل إليها الباحث في نهاية بحثه.

٣-تأملت في طرح صاحب المقال من أوله فوجدت الرجل يهاجم الآخرين الذين يخالفون رأيه بضراوة وكأن بينه وبينهم ثأر، فيكيل لهم الاتهامات بالعشرات خلال مقاله، في أسلوب استفزازي إرهابي متعالٍ لا يليق بباحث عن الحقيقة، بل هو أقرب إلى منتقم، وتأمل كلمات (مدنس، تجار الدين، يمارسون الدجل والكذب والخداع، أضلوا الناس، الدجالين، دورهم في تخريب العقول، الضلال الذي يمارسونه، ....، وغير ذلك من الأوصاف التي أطلقها على من يخالفونه)، وإني لأتساءل هل هذه

أخلاق باحث يناقش الموضوع ليصل إلى نتيجة، أم أخلاق وكيل نيابة أو قاضي محكمة يوجه التهم ويصدر الأحكام؟

إن الغرور والتعالي على الآخرين واستنقاصهم وكيل التهم لهم، تنقص من شأن الباحث وتجعل بحثه هزيلا، ومحل نظر، لأنه بدلا من مناقشته للفكرة وإثبات صحتها أو خطئها، توجه للأشخاص ليتهمهم ويستنقصهم، وهذا بالطبع لا يضيف للبحث ميزة وقدرا، فما يميز البحوث هو رصانتها ودقة استدلالاتها، ومحاولة تقديم الأدلة والبراهين المقنعة عليها، وليس أسلوب السب والشتم والاتهام الذي تخلل ثنايا مقال صاحب المقال.

٤-كما قلت سابقا فهناك فرق شاسع بين من يصدر الحكم ثم يبحث له عن الأدلة والبراهين، وبين من يبحث عن الأدلة والبراهين ليصل إلى النتيجة والحكم، وصاحب المقال ممن أصدر الحكم ثم ذهب يبحث له عن الأدلة ومحاولة تكييفها وتأويلها كما يحلو له، لتصبّ فيما يرغب الوصول إليه، أو أصدر فيه الحكم سلفا، ولو أنه تواضع وطرح رأيه للنقاش والمحاورة لكان ذلك أولى له، وربما كسب بعض الاحترام، وإن كان رأيه لا يقود إلى الصواب، ولكن جنوحه نحو الذاتية وبعده عن الموضوعية أوقعه من حيث لا يحتسب فيما وصل إليه مقاله من تهافت وعدم مصداقية.

٥-أتعجب من شخص يسخر من عقول الأمة كلها، ويفتخر بأن ما قاله هو القول الفصل، رغم أن عظماء الأمة وعلماءها ومفكريها لم يقولوا بما قال، وهم أوسع منه باعا في علوم الشريعة والفقه، لا لشيء إلا لأن المسألة مما لا يختلف فيه العالم والجاهل وأدلتها من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تقليب نظر، وقول النبي --صلى الله عليه وسلم--وفعله يسير في هذا الاتجاه ومن بعده سائر الأمة، ولكن، كم يكون من الصعب



توضيح الواضح لمن ترسّخ في ذهنه أمر أو له فيه مآرب أخرى.

٦- الطعن الذي يقوم به البعض في أحكام الدين ناتج - في حال كانت النوايا صادقة- عن عملية انتقاء للنصوص بطريقة مجتزأة، قال تعالى: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) البقرة: ٨٥، فتجد الواحد منهم يتحدث عن قضية معينة، ويقوم باختيار النصوص التي توافق هواه، سواء بالإباحة أو المنع أو الحل أو الحرمة أو التكريم أو التحقير، وقضية المرأة من القضايا الشائكة التي خاض فيها كل صاحب رأي (مع أو ضد)، وكل فريق يدلي بدلوه ويبرز أدلته، ولو أنهم جمعوا كل النصوص التي لدى الطرفين وناقشوها وقارنوها مع بعضها وأسقطوا الضعيف منها وبنوا على القوي منها، دون تحيز، وبرؤية موضوعية، لوصلوا إلى نتائج تصب في صالح المرأة، ومن ثم في صالح المجتمع، ولكن الحماقة أعيت من يداويها، ونحن كمسلمين نعيش في أسوأ معاني الحماقة التي يرتكبها بعض ممن ينتسبون إليه.

٧- اعتمد صاحب المقال في بداية مقاله على دلالة الآيات القرآنية التي تقرر حكما عاما، ولكنه حاول أن يلوي أعناق النصوص لتتساوق مع ما يهوى، فأدخلنا في مقارنة بين المرض والأذى ليثبت أن الأذى ليس مرضا (وهذا معلوم ولا يحتاج إلى إثبات)، وهو يريد أن يصل إلى أن ما ينقض الصيام هو السفر والمرض وما دام أن الأذى ليس مرضا فهو مما يجوز للمرأة معه أن تواصل صومها دون حرج، ثم لما أتى للنصوص النبوية تخير منها ما يريد أن يتأوله ليوافق رأيه، رغم وضوح الدلالة فيها، ففسر الطهر بأنه الوضوء، رغم أن المعنى لها هو انقطاع الحيض، وأن الدم الجاف الذي كان يفرك دم قديم نزل طوال فترة الحيض وليس ابن لحظته، لأنه سيحتاج إلى غسل وليس إلى فرك أو حك كما تذكر الرواية، وهناك أحاديث وروايات أخرى تثبت عكس ما يذهب



إليه صاحب المقال، ولكننا نكتفي بما أوردناه لضيق المساحة والوقت.

٨-ثم لنتأمل في موضوع ما ينقض الوضوء، والذي قد يكون مجرد خروج ريح فقط وليس خروج شيء من أحد السبيلين، ودم الحيض نجس كما هو معروف، ونزوله لا يكون محددا بساعات معينة أو دقائق إنما هو في حكم الدم المستمر في الخروج، وهو مما ينقض الوضوء كما هو معروف، فكيف يبيح صاحب المقال للمرأة أن تصلي في هكذا وضع؟ أرأيتم كيف يقود الإنسان هواه حتى يتجرأ فيبيح ما حقه المنع؟

٩-بعض الأوامر والنواهي في كثير من الأحيان لا تناقش بالعقل، بل تؤخذ في حال كانت صحيحة وثابتة بالقبول والرضا، حتى وإن غابت الحكمة عن أذهاننا، وإخضاع كل أوامر ونواهي وأحكام الدين للعقل مطلقا يعني أننا جعلنا العقل إلها فما أقره عملنا به وما رفضه تركناه، وهذا ما يقع فيه كثير من العلمانيين والعقلانيين والماديين.

١٠-العلم عامة والبحث العلمي خاصة يحتاج إلى عقليات ناضجة سوية تفكر وتتأمل وتناقش وتحاور بتواضع وسعة صدر وتقبل للآخر وتفهم لأدلته، ولكنه بالمقابل بحث يجعل صاحبه ذا نفس نبيلة تخلو من التعصب وترجع إلى الحق وإن كان عند غيرها إذا بانت حجته ووضح دليله.

ما قصدته في هذه المقالة ليس الرد على صاحب المقال فقط، بل الإشارة إلى أن هناك تلاعبا بالعقول وجرها إلى معارك هامشية ليست هي معركة الأمة، قد يكون وراء ذلك سذاجة ممن يدبج هذه المقالات بحسن نية، أو قد يكون وراء ذلك أياد خفية تستنزف طاقات العقول المسلمة فيما لا طائل من وراء مناقشته. وفي الأخير فإن ما أدليت به هو ما رأيت أنه الصواب وقد يكون في بعض ما قلت قصور أو عجز، وهذا يعود إلى أني لست من المتضلعين والمتخصصين في علوم الشريعة، وهناك من لهم باع في ذلك وهم أهل لأن يدلوا بدلوهم.

من شوقي إلى غائب ... الحقيقة غائبة

قرأت المنشورين اللذين ينسبان إلى الأخوين شوقي القاضي وغائب حواس (وما أدري أيهما فاتَنِي؟)، توقفت عندهما مليا، وهناك مقالات ومنشورات تشبه هذين المنشورين، فوجدت أننا يمكن أن نتماهى ونذوب في مواقفنا إلى درجة التلاشي (شوقي نموذجا)، وفي المقابل يمكننا أن نتصلب ونتجمد إلى درجة أنه لا وجود لأي لون في هذا الوجود إلا الأبيض والأسود حصرا (غائب نموذجا).

فعندما تقرأ بعض منشورات الأخ شوقي القاضي لا تشعر بأن ثمة فوارق أو فواصل أو حدود، فالكل مخطئ والكل صادق من وجهة نظره، وما علينا إلا أن نأخذ نظارة الآخر إذا أردنا أن نفهمه، وليس أن نصل إلى الحق والحقيقة سواء معنا أو معه، وإلا فقد تجاوزنا الحدود، وصرنا حسب توصيفه (وهو توصيف خاص به ويعشش في ذهنه، وله علاقة بتواصله مع المنظمات الخارجية التي توحي بهكذا طرح)، هذا التوصيف الذي وصف فيه أن الإسلاميين (وهو منهم كما يقول) بأنهم (رسول الله)، والآخرين هم (كفار قريش أو منافقي المدينة)، وهذا لم يقل به أحد ولم يخطر إلا برأس الأخ شوقي وبعض المتطرفين في العالم الإسلامي.

نحن مطالبون وفق الرؤية (الشوقية) ألا نتخذ موقفا وإن كان الصواب حليفنا، خوفا على مشاعر (كفار قريش ومنافقي المدينة)، ومطالبون أيضا بألا نقول كلمة الحق الفاصلة في موضوع ما حتى لا نسيء إلى جناب (كفار قريش ومنافقي المدينة). وكأن النبي --صلى الله عليه وسلم-- لم يقل لا أو لم يتخذ موقفا لا يرضي (كفار قريش ومنافقي المدينة)، وكأن القرآن لم يضعنا على حقائق القوم الذين حاورهم وجادلهم وأقام عليهم الحجة ودمغهم بما يستحقون من صفات، ليس تعنتا منه، بل لأنهم أهل

لذلك ويستحقونه عن جدارة، بل إن الله أمر النبي --صلى الله عليه وسلم-- في قرآنه أن يتخذ منهم موقفا، بل وعاتب النبي لأنه لم يتخذ منهم موقفا، قال تعالى: (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) التوبة: ٤٣.

أنا لا أطالب بالحدية والصرامة والأسود والأبيض في علاقتنا بغيرنا سواء في الداخل الإسلامي أو الخارج، بل أطالب بأن توضع الأمور في نصابها، وأن يقال للكاذب يا كاذب وللمدلس يا مدلس إذا كان هذا فيه، وكان من الحكمة أن نقول له ذلك. إن مسك العصا من الوسط لا يعني الوسطية باستمرار، ولين القول والتبرير في موقف الجد والحزم ضار والعكس صحيح.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

أما الأخ غائب فنحن ندرك حجم الوجع الذي يكنه، وما يخرج عنه من شرر متطاير هو دليل نار عظيمة تتأجج في حناياه، وهو ثوري وجمهوري لا يبارى، ويملك لسانا في جزالة وقوة صمصامة عمرو بن معد يكرب. ولديه أَنَفَة واعتزاز بالذات يصل إلى درجة النرجسية والأنا المرضية، ومن يتابع صفحته يعرف ما أقصده، فهو لا يقبل تعليقا لا يتماشى مع ما يطرح، وربما رد بعبارات قاسية صادمة وربما حذف من يتابعه.

رؤية (غائب) تقوم على العكس من رؤية (شوقي)، فهما على طرفي نقيض، ففي حين لا يبقي الأول حتى شعرة معاوية ولا حتى يعترف بأن هناك شعرة بالأصل، يحاول الآخر أن يضع بجانب شعرة معاوية شعرات ليكوِّن منها حبلا غليظا يلويه أحيانا على رقاب من هو منهم كما يقول.

الموضوع الذي يدندن حوله غائب (العنصرية والسلالية)، وهو موضوع شائك، ولا يحل بالهجوم الشرس الذي يشنه، بل هناك طرق يجب أن يتواصل فيها غائب مع غيره كي يصلوا إلى حلول لها، فما كل القضايا تحل بالصراع والسيف والرمح.

إنني لأتخيل غائبا وقد صار ذا سلطة ونفوذ وصار الأمر في يده، ثم أتخيل ما الذي يمكن أن يعمله، فإذا كان الآن لا يقبل من يخالفه في صفحته في الفيسبوك فماذا سيكون حاله مع من يخالفه في قراراته وتوجيهاته، لا أظنه إلا سوف يفتك به، وربما صنع به ما يصنعه اليوم المتطرفون من كل الأطياف بمن يقعون في أيديهم.

القوة تحتاج إلى لجام مجتمعي قانوني لا يمكن التنازل عنه، وعندها يمكننا أن نختلف في وجهات النظر، ويبقى اختلافنا في إطاره الفكري أو السياسي لا يتعداه. أما أن يكون مظلوم اليوم هو ظالم الغد فهذا ما لا نريده أن يستمر، لأننا سنكون وقوده حاضرا ومستقبلا. فهل إلى خروج من سبيل؟ وما بين الرؤية (الشوقية) والرؤية (الغائبية)، هناك رؤى متعددة تقرب من هذه وتلك، وقد يحالف بعضها الحظ فتكون أقرب للوسطية.

صناعة الهالة ... تحجيم للنقد

هناك فارق كبير بين إعطاء الإنسان ما هو أهل له من المدح، وبين المبالغة في المدح وصناعة (الهالة) حول هذا الشخص أو ذاك، أو هذه الجماعة أو الحزب أو المذهب أو...، والفارق بين الاثنين أن الأول يعطي للإنسان أو الكيان حقه مع الاعتراف بكون بشريته حاصلة ومن ثم انتفاء عصمته، في حين أن الثاني يرفع من شأن هذا الإنسان أو الكيان إلى مستوى يتهيب الآخرون من نقده أو إبراز عيوبه، نظرا لأن الهالة التي صُنِعت حوله قد بهرت من يريدون القيام بذلك.

وفي تاريخنا القديم والمعاصر على حد سواء نجد نوعا من صناعة الهالة حول كثير من الأشخاص (زعماء، وعلماء، وأدباء وفنانين، ورياضيين، و ...) وحول كثير من الكيانات (جماعات، وأحزاب، ومذاهب، وطرق، ودول)، حيث تجد من يصنع هالة حول زعيم ما فيصفه بأوصاف ضخمة نخمة براقة، فهو الزعيم الملهم الذي عقمت النساء أن يلدن شبيها له، وأنه الذي صنع المعجزات وأتى بما لم تأت به الأوائل، ومثل ذلك ما يكون مع العالم، فهو الفقيه الأصولي الجامع لصفات الاجتهاد، فهو العلامة والحبر الفهامة، والبحر الذي يفيض على الجميع بأنوار علمه، والذي لم يأت الزمان بمثله، فقد فاق من قبله وأعجز من بعده...... إلى آخر الألقاب والصفات التي تكال له بغير حساب، وقل مثل ذلك في الآخرين أشخاصا أو كيانات.

لقد حذرنا النبي -صلى الله عليه وسلم- من صناعة الهالات المبالغ فيها حتى مع شخصه الكريم، وكأني به صلوات ربي وسلامه عليه يضع ميزان الاعتدال في موقف أو مواقف رأى أن من أصحابه من تجاوز الحد فيها مع شخصه الكريم، فأراد أن يعيد من حوله إلى ميزان الاعتدال، فقال مخاطبا صحابته رضوان الله عليهم: (لا تطروني

كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ولكن قولوا عبد الله ورسوله)، والحديث رواه الإمام البخاري، إنه بهذا الحديث ينطلق من ميزان الحق الذي وجهه به ربه سبحانه وتعالى عندما أمره أن يقول للناس جميعا: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) الكهف: ١١٠. فهو -صلى الله عليه وسلم- بشر مثلنا إلا أنه يوحى إليه.

ومبلغ العلم فيه أنه بشر

وأنه خير خلق الله كلهم

إننا في أمس الحاجة إلى أن ننزل الناس منازلهم، فلا تقديس ولا تبخيس، إنما هو التقدير والاحترام لمن أحسن، وبيان للتقصير والعيوب لمن أساء، وبهذا نحد من صناعة الهالات الزائفة ولا نبخس أهل الفضل فضلهم، ونؤسس أرضية لخُلق التواضع من جانب، وإيقاف لجماعة المدّاحين الذين يكسرون ظهور العظماء، كما جاء في معنى حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما علق على قول مادح لممدوح (كسرت ظهر أخيك).

إن من يصنع الهالات حول الزعماء والعلماء والكيانات ليسوا هم الزعماء والعلماء والكيانات أنفسهم، بل يصنعها بعض أتباعهم ومريديهم وحاشيتهم والمعجبين بهم، قد تكون أحيانا كنوع من اندفاع العاطفة والسذاجة والافتتان بالممدوح، وقد تكون في أحيان أخرى بدافع التعصب والغلو واحتكار صفات التبجيل والسمو والفخامة لمن يتعصبون لهم، وهؤلاء الأتباع هم من يصنعون الطغاة والبغاة والمستبدين من الحكام، وهم من يصنعون المتعصبين والمغالين والمتشددين من العلماء والأدباء والفنانين والرياضيين والجماعات والأحزاب والمذاهب.

إن من قرأ حول من ذكرهم أستاذنا الفاضل أ. د سعيد إسماعيل علي في منشوره أو منشوراته الأخرى، وتحدث عنهم بنوع من التبجيل والتقدير الكبير (كطه حسين) لم يسلموا في حياتهم ممن انتقدهم بل وبالغ في نقدهم، ومن يقرأ كتاب (تحت راية القرآن) للرافعي في رده على طه حسين، وكتابه الآخر (على السفود) الذي خصصه لعباس العقاد، يجد أنه في نقده قد نكل بالاثنين معا، (ومسح بهم البلاط) كما يقال، رغم المكانة التي يحتلها العقاد فيما كتبه عن الإسلام. والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا نحاول صناعة الهالات المبهرة التي ترينا ميزات هؤلاء وتحجب عنا عيوبهم وتقصيرهم؟ لنتعامل معهم كبشر يصيبون ويخطئون، يقربون من الإسلام ويبعدون، ثم نزنهم بميزان ثوابتنا التي لا نستطيع تجاوزها.

أقول في نهاية هذا المقال إن من واجبنا أن نبقي ملكة النقد وأحيانًا (الجرح والتعديل) على مذهب أهل الحديث قائمة وحيّة، دون أن نضع أمامها سور التفخيم والتقديس و(الهالة الزائفة)، التي تحوِّل المتأخر إلى قزم في مقابل العملاق في الزمن الغابر، وبهذا نحط من شأن المتأخر وإن كان عملاقا ونرفع من شأن المتقدم وإن كان قزما.

لننطلق من قوله تعالى: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الأنعام: ١٥٢، ويمكننا أن نفهم من كلمة (قربى) أنها ليست علاقة النسب فقط، بل يمكن أن تكون علاقة (قربى) في العلم أو الفكر أو الجماعة أو المذهب أو الحزب أو غير ذاك.

في البداية أقدر لك حرصك على الموضوعية والبعد عن التحيز والعاطفة والانفعال (والتشنج)، والذي لم أجده إلا في صاحب المقال، ولعلك لاحظت حجم التهم والتهجم الموجود في المقال، ولا أدري لماذا أغفلت هذه الملاحظة عندما تحاملت على من ردوا عليه بجزء يسير مما كاله من تهم وقاله من تهجم، (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الأنعام: ١٥٢.

ثم إني استغرب من وصفك لهذا المقال بأنه (بحث فقهي مستند على نصوص مرجعية)، أفكلما أمسك أحدهم بنص ودار حوله يجمع له الشواهد التي يراها مؤيدة لما يريد الوصول إليه قلنا إن ما جاء به (بحث)، لأننا بناء على ذلك يمكن أن نقول عن الخوارج إنهم استندوا في خروجهم على نص مرجعي، (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) الأنعام: ٥٧، فهل أقرهم الصحابة على ذلك؟ اللهم لا!

إن الإسلام لا يُفهم من مجرد انتقاء نصوص والبناء عليها دون أن تكون منسجمة مع كليات الإسلام وقطعياته، وهذا وجه الاستغراب من وصفك له بأنه (بحث فقهي مستند إلى مرجعية)، وقد ذكرت في ردي السابق أن الأمر كان مقبولا منه على شذوذه، لو أنه تواضع وطرح وجهة نظره وابتعد عن القطع والتهجم الذي لا أدري كيف غاب عن بالك الحصيف.

وهناك أمر ذو بال، علينا أن ندركه جميعا، إن هناك قضايا فقهية محلها الإجماع والقطع، والأصل في هكذا مسائل إن كان هناك إعادة طرح لها أن يكون هناك بالفعل مستجدات تتطلب أن يعاد البحث فيها ومناقشتها وإعادة النظر والاجتهاد في نصوصها وأدلتها بنوع من الموضوعية، وهذا ما لم يتم في هذا المقال، بل تم الأمر

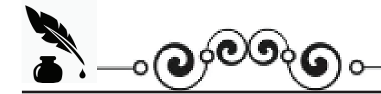
بصورة (بهلوانية) وبمقدمات هشة وتأويلات غير موفقة، لتأتي النتائج وفقا للمقدمات متهالكة. مع الأخذ في الاعتبار أن عموم الأمة يأخذون موضوع ما تطرق إليه صاحب المقال على أنه من الواضحات والمعلومات بالضرورة، وهذا الأمر يدركه العامي قبل المتعلم، أما القضايا الاجتهادية الفقهية فلا أظننا نختلف في اعتبار وجود الاختلاف فيها وارد.

أما مؤاخذتك على من ردوا على صاحب المقال بأنه ترك الأولى وأن ما تطرق إليه بحث فرعي، وأن ما ذهبوا في ردهم عليه ليس بسديد، فهل السديد في رأيك هو ما قام به صاحب المقال من تجريف وإسفاف وليٍّ لأعناق النصوص وانتقاء ما يوافق هواه؟ ثم إن من حق أي باحث أن يقوم بتقييم جهد الآخرين دون أن يبخسهم حقهم بناء على ما يراه في واقعه وفي زمانه من أولويات، ويبدي رأيه دون تعصب، أمْ أنّ هذا صار محظورا إلا على أصحاب هذه (الفرقعات) التي تظهر بين حين وآخر؟

وما دام أن إقناع الأقارب ليس مدركا من مدارك النظر الفقهي الصحيح كما تفضلت، فلماذا صار مدركا من مدارك النظر الفقهي عندك أن يقتنع من ردوا على المقال، وأن يوافقوه فيما ذكر (وليسوا أقاربه بالطبع)؟ لماذا تأخذ على من ردوا عليه ولا تأخذ عليه هو أم أنه محصن بسياجات تشبه سياجات (شحرور وأركون وأمثالهم)؟

أعجبتني عبارتك (خذوا الأمر بسعة أفق وطول بال)، وتمنيت أن تأخذ نصيبك منها، لا أن تقف منافحا عن صاحب المقال، وكم كنت أتمنى أن تقدم بين يدي نقدك للردود على صاحب المقال، أن توضح وجهة نظرك على المقال نفسه، وعندها سنسلم لك ونأخذ الأمر بسعة أفق وطول بال.

وقد تبسمت كثيرا عندما ذكرت الذين يمثلون (أبو فاس المعرفة)، لأني



سمعت هذا الوصف سابقا، وهو علاج مشهور عند اليمنيين، ومعاذ الله أن يتحول كل من يرد على هذا المقال وأمثاله إلى (أبو فاس)، على ما في العبارة من غمز ولمز، ومع هذا فقد كان قصارى ما قام به أصحاب الردود أنهم ردوا على من تجرأ عل أمر من أمور دينهم يعتبر من الوضوح بمكان، وهو جزء من دينهم وتدينهم، وليس نظرية في الفلسفة أو علم الاجتماع لا تعنيهم من قريب أو بعيد، فلماذا يتحول من يحاول أن يرد (ولو كان رده ناقصا أو قاصرا) إلى خانة (أبو فاس المعرفة) حسب وصفك.

ثم إني أتساءل لماذا لا يتم مناقشة من وصفتهم (بأبي فاس) مناقشة علمية هادئة موضوعية ليرجعوا إلى جادة الصواب ممن لا نرى مداخلاتهم إلا عندما تأتي مثل هذه المقالات الشاذة مدافعين عن أصحابها ولائمين من ردوا عليها. وقد صدقت في كلمتك الأخيرة التي قلتها نقلا عن عمر عبيد حسنة وأوافقك عليها جملة وتفصيلا، ورحم الله إنسانا عرف قدر نفسه وعقله.

المنهجية.... علم بيان الطريق

بالفعل نحن في أمس الحاجة إلى أن نتواصى بلزوم المنهجية حتى يتم تحجيم فجوة الخلاف من جانب، والاحتكام إلى مرجعيات يمكن الرد إليها في أي اختلاف أثناء الحوار.

فالمنهجية إذا ما أحسنت صياغتها واختيارها تمكِّن الباحث من الدخول للواقع من أقرب الأبواب المؤدية للحقيقة، وتعيد فرز الحقائق الواقعية وترتيبها وتحديد مقدماتها من نتائجها، وتوضيح أيها يؤثر وأيها يتأثر ... إلخ.

وما ندركه من الواقع في أزمانه المختلفة وأماكنه المتباينة ليس هو الواقع ذاته وإنما هو خلاصة تفاعل عناصر ثلاثة حسب ما ذهب إليه د. نصر محمد عارف: هي المسلمات الكامنة في أذهاننا أو هي المنهجية التي نعتمد عليها، والأدوات أو المناهج المستخدمة في الدراسة والحقائق الواقعية، وكل تلك العناصر تمر من خلال وسيط إنساني يختلف من شخص لآخر ومن بيئة لأخرى حتى لنفس الشخص، ومن ثم فالبحث القائم على منهجية سليمة متسقة لا يعني أنه ينقل الحقيقة كما هي بصورة كاملة، بل ينقل أقرب صورة منها، ولا يعني أنه يقول الكلمة الأخيرة في الموضوع، وإنما يقول فيه قولا قد يختلف عليه ومعه آخرون، ومن ثم دائما هناك، (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) يوسف: ٧٦، ودائما نقول والله أعلم.

والمنهجية تعني ضوابط للفكر الإنساني تستقى من إطار مرجعي صالح لأن يقوم بتحديد طرق إنتاج الأفكار وتوليدها واختبارها. والمنهجية تخرج العقل الإنساني من حالة (التوليد الذاتي) للمفاهيم القائم على (التأملات والخواطر الانتقائية) وتحمله على اكتشاف إطار مرجعي يرجع إليه من خلال منهج يمثل خلاصة لقوانين وسنن

تم رصدها وملاحظتها ثم تحولت إلى نظريات وقواعد ليصبح النسق الناظم لتلك النظريات إطارا مرجعيا يضبط حركتها فلا تتناقض ولا تتضاد ولا تتنافى ولا يضرب بعضها بعضا فتنداح دوائر الأفكار من حولها ثم تعود إليها كأنها مشدودة إليها بعقال. كما أشار إلى ذلك د. طه جابر العلواني

إن المنهجية ـ بعبارة مختصرة ـ علم بيان الطريق والخطوات اللازمة لاجتيازه باتجاه غاية معرفية محددة، وتعتبر المفاهيم اللبنات الأساسية التي تقوم المنهجية عليها، ويعتبر الإطار المرجعي الناظم الذي يتيح وضع المفاهيم موضعها ويعمل على تشكيلها وتشغيلها بشكل يحقق المقاصد المعرفية منها، وإذا كان الإطار المرجعي ـ وفق تأكيد د. العلواني ـ يمثل ناظما للمفاهيم فإن الإطار المرجعي يقوم على دعائم تمثل تلك المفاهيم.

آمل أن نجد في صدور بعضنا متسعا لقبول الاجتهادات المبنية على منهجية واضحة، وأن نكون بنفس الصدور الرحبة عندما نتواصى بالعودة إليها (أي المنهجية) عندما تأخذنا الانطباعات والخواطر والتأملات بعيدا عنها.

ترشيد الفرح...

من طبيعة الإنسان التي غرسها الله فيه، أنه يتأثر فرحا وحزنا وغضبا وحبا وبغضا... حسب الحالة والموقف الذي يواجهه، وهي حالة طبيعية محمودة إن بقيت في حالة الاعتدال، ولكنها في حالة التجاوز تعد مذمومة مرذولة.

وكما ندعو إلى ترشيد الغضب ومحاولة التغلب عليه وتوظيفه وإدارته، فالأمر ينطبق على الحزن حيث نحن مطالبون بعدم المبالغة فيه وتحويله إلى حالة انكسار للنفس، وصبغ للعالم بالسواد.

ومثل ما قلناه عن الغضب والحزن يمكن أن نقوله عن بقية الحالات النفسية ومنها الفرح، فإن تحوله إلى حالة من النشوة المبالغ فيها، والتي بدورها تحول إلى نوع من التشفي والسخرية وإثارة الأحقاد المستقبلية، التي تتحول إلى وقود يعمل على استمرار المعركة إلى ما لا نهاية.

لقد لاحظت كما لاحظ غيري نوعا من الفرحة التي قد تصل إلى درجة الشماتة والتشفي، كردّات فعل نفسية غير منضبطة ولا محسوبة العواقب، ولا تمتُّ إلى الحكمة في كون الأيام دول وأن فرحتك التي تحولت إلى شماتة اليوم ستنقلب عليك غدا.

سيقول قائل: ألا ترى شماتتهم وسخريتهم وفرحهم المبالغ فيه عندما تكون الدائرة لهم؟، فأقول نعم إني لأرى ذلك بوضوح وأسف ولكنا لسنا مثلهم ولا نرضى لأنفسنا بأن نكون صدى لأفعالهم وتصرفاتهم، بل نحن من يملك مشروع وطن ويكيِّف كل انفعالاته من غضب وحزن وفرح على ضوء ذلك، وإلا فقد صرنا مثلهم،

وفرضوا علينا أجندتهم.

لا أحب أن يفهم من كلامي أنني أجحر أو أسعى إلى إيقاف الفرحة بتراجع الأشرار وانكسار مشروعهم، فهذا ما لا أقصده، إنما ما أقصده هو ترشيد حالة الفرح بحيث يكون إيجابيا ذا مردود، يريح النفس من جانب ويشفي الصدور من ناحية، ولكنه من ناحية أخرى لا يصنع مآسيَ مستقبلية ويبذر بذورا للحقد والبغضاء التي لن يطول عليها الزمن حتى تطل بقرونها.

إن التحكم بالحالات النفسية هي سمة العقلاء الحكماء، ولا أرى مانعا أن يحد الإنسان من غلواء حالته النفسية (غضبا أو حزنا أو فرحا أو حبا أو بغضا)، إذا رأى ببصيرة ثاقبة أن هناك مصلحة شرعية أو سياسية مترتبة على ذلك، وخير مثال على ذلك ما قاله المصطفى -صلى الله عليه وسلم- لأهل مكة عندما دخلها فاتحا: (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

إنني أحاول بشتى الوسائل أن أقنع كثيرين أنهم في المكان الخطأ، ولهذا أبحث عما أظنه أدلة وبراهين على سلوك طريق التوسط والاعتدال في ردود الأفعال، وأعلم كذلك أني أسبح عكس التيار وأضرب في حديد بارد، ولكن واجبي يملي عليَّ أن أقول ذلك وإن لم يعجب أناسا أو أغضب أناسا آخرين، فأن تعيش اللحظة منتشيا، فليس هذا ما هو مطلوب منك، بل ما هو مطلوب منك أن يسبق عقلك انفعالات نفسك وزلات لسانك وقلمك.

أيضا لا أريد من كلامي هذا أن نتحول إلى مجرد آلات يمكن التحكم فيها بالدقة المعهودة في الآلات، فهذا غير ممكن ولا منطقي، وإنما علينا أن نحقق الحالات النفسية المختلفة بطريقة متوازنة (قدر المستطاع).

والآية القرآنية: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) القصص: ٧٦، لا تشير دلالتها إلى التوقف عن الفرح أو كراهية ذلك، ولكنها تشير إلى نوعية من الفرح المُطغي المستعلي المتكبر الذي يشمت بالآخر ويتشفى به ويعيِّره. .... وهذا الفرح مما لا يحب الله أصحابه. ترشيد الفرح يحتاج إلى نفوس وعقول تتجاوز اللحظة الآنية إلى الرؤية المستقبلية.

ترشيد الفرح يحتاج إلى صدور تملك مساحات لامتصاص الفائض من الحالات النفسية وتعمل على عدم إظهارها بغرض توظيف نتائجها في الحاضر والمستقبل.

ترشيد الفرح هي إشارة إلى امتلاك مشروع لا ينتهي بالانتقام والتشفي، بل إشارة إلى مشروع يبدأ بضبط النفس ومنعها من التجاوز حفاظا عليها وعلى خصمها. ترشيد الفرح هي ابتسامة الكبار لا قهقهة المتشفين.



الصدمة .... استيعاب وتجاوز

معظم الناس ليسوا في حاجة إلى ما يحميهم من الصدمة، بل لعلهم في حاجة إلى صدمات أشد وأكثر بكثير مما يتعرضون إليه الآن، وكأن وعْيَنَا بحاجة بين الفينة والفينة إلى صدمة كي يفيق من سباته، ويستعيد وظيفته في بناء الحياة الجديدة، ثم من قال إن الشعور بالصدمة بين الفينة والفينة ليس ضروريا لاستقامة حياتنا الفكرية وحمايتها من التبلد والتحجر؟

أقول ذلك وأنا أحس بهول الصدمة عند البعض نتيجة لما حدث في اليومين الماضيين من قبل إحدى دول التحالف، وكأننا كنا نتوقع أن تسلمنا مفاتيح مخازن الأسلحة قبل أن تأخذ عصاها وترحل، وهذه عادة التوقع من الآخر، ثم الصدمة حين تسير الأمور بخلاف ما توقعنا، هي ثمرة لنقص فهمنا للآخرين، ولذا علينا ألّا نرفع سقف التوقعات ثم نصاب بالصدمة عندما لا يتحقق ما نريد، فلا زالت جولاتنا الأصعب مع بقية دول التحالف ذاتها عندما نقرر أن نقول لها: يكفي حان وقت الرحيل.

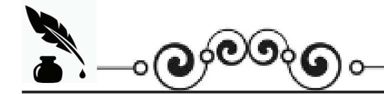
لقد أورد جودت سعيد في إحدى كتبه تجربة لأحد علماء النفس السلوكيين، الذي كان يقوم بتجارب على الحيوانات لدراسة كيفية تكون الشرط المنعكس وزواله، فكان يربط بين (ضوء دائري) وتقديم الطعام، فإذا أنير الضوء قدم الطعام للحيوان، و(ضوء بيضاوي) آخر فإذا أشعله صدم الحيوان بصدمة كهربائية، فصار الحيوان بعد التجارب يفرح بالضوء الدائري المرتبط بالطعام، ويسيل لعابه، ويرتعب من الضوء البيضاوي، ويهرب منه، ولكن المدرب بدأ يحول وببطء الضوء البيضاوي إلى دائري حتى اختلط البيضاوي بالدائري، فلم يعد الحيوان يميز بين الضوئين، واختلط عليه الأمر

فهو لا يدري هل سيصاب بصدمة كهربائية أو سيقدم له طعام؟ فأصيب الحيوان بالجنون والخمول واستسلم لليأس لأنه فقد قاعدة التمييز بين النافع والضار. وفي هذه التجربة عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن التجارب التاريخية المشرقة في تاريخنا ما قام به المجاهد ألب أرسلان عندما أسر في إحدى المعارك إمبراطورا أوروبيا هو أرمانوس، وكانت حالة أرمانوس ـ الإمبراطور الأسير ـ مريعة، وقد ظهر منه هذا إلى حد أن السلطان ألب أرسلان قرر أن يُطلق سراحه... فالذي تلقى (صدمة الهزيمة) أنفع للمسلمين وهو في الحكم من إمبراطور جديد قد يطلب الثأر.

فالقاعدة أن القيادات المنهزمة المنهارة أفضل لعدوها من القيادات الجديدة الناشئة. وقد رأى ألب أرسلان بفراسته أن أرمانوس هذا لن يفكر مرة أخرى في حرب المسلمين، فقرر إطلاقه، مقابل جزية سنوية (مليون ونصف المليون دينار) وإطلاق كل أسرى المسلمين لدى الروم، وهدنة خمسين سنة... وقد وافق على هذا كله، ثم نظر ناحية بغداد ـ حيث الخليفة ـ وانحنى كعلامة على الخضوع والتعظيم.

ثم حدث العكس من ذلك في العصر الحديث، وهو ما أورده لنا المفكر مالك بن نبي في كتابه (القضايا الكبرى، ص١٧٠) موضحا وقع الصدمة على بعض مثقفينا فقال: لقد أحدثت هذه الصدمة (التفوق الغربي)، عند كثير من المثقفين المسلمين، شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية، حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي، وألقوا أسلحتهم في الميدان، كأنهم فلول جيش منهزم، في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التَّزَيِّي بالزّي الغربي، وينتحل في



أذواقه وسلوكه وكل ما يتسم بالطابع الغربي، حتى ولو كان هذا الطابع ليس إلاّ مظهراً لا شيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية.

وبعض الناس يحب العيش في الأمنيات، وإن لم يتحقق منها شيء، فقد ترتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب وتعيش أياما في نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية، ولذلك يمكننا القول: إن الصدمة التي ستلحق بهذا الإنسان بعد ذلك ستدمره، فأحلام اليقظة لا تحقق، لأنها لا تقوم على أرضية من الواقع، وهي لا تعطي الإنسان إلا نوعا من البعد عن الحقيقة، ويصير حال هذا الإنسان كما قال الشاعر:

مُنَى إِنْ تَكُنْ حقاً تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى

وَإِلاّ فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْدَا

أماني من ليلى حسان كأنما

سقتنا بها ليلى على ظمأ بردا

إننا إذا ضبطنا تصرفاتنا ومواقفنا وانفعالاتنا وجعلناها خاضعة لمؤشر الثقة بربنا وذاتنا، فإنه سيحولها من السلب إلى الإيجاب، وإذا بالصبر الذي ينزل على النفس ثقيلا، ثقالة السبب الذي أنشأه، يتحول إلى منهج لاستيعاب الصدمة بغية استدماجها كشرط ضروري لتجاوزها والانتصار على تبعاتها القاتلة، وإذا العفو الذي يُظن أنه صادر عن ذات ضعيفة لم تقدر أن تنتصف لنفسها ينقلب أداة لتوبيخ الآخر وإيلامه لدرجةِ إكراهه معنويا على طلب العفو والمغفرة.

إنما العاجز من لا يستبد ...

بالطبع تعرفون قصة بطش هارون الرشيد بالبرامكة، فيما يرويه المؤرخون عن هذه الواقعة وسببها، ولا أجزم بصحة تفاصيل هذه الحادثة التاريخية، لكني أوردتها هنا لمناسبتها لبعض مجريات الواقع، دون الإيمان بقيمة الاستبداد المذكورة في شطر البيت الذي أوردته كعنوان للمقال، فهي قيمة سلبية، لكني آخذها في هذا السياق كانتصار للكرامة والعزة، وركون إلى الاستعلاء والشموخ الذي لا يتناقض مع قيمنا الإسلامية.

ولنتأمل في سجل التاريخ لنأخذ العبرة، فعندما اجتاح المغول مدينة بخارى إحدى بلاد خراسان المسلمة، عجزوا عن اقتحامها فكتب جنكيز خان لأهل المدينة: أن من سلَّم لنا سلاحه ووقف في صفّنا، فهو آمن ومن رفض التسليم فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه. فانشق صف المسلمين إلى صَفين اثنين: فنهم رافضٌ له وقائل: لو استطاعوا غزونا لما طالبوا التفاوض معنا!! فهي إحدى الحسنيين، إماَّ نصرٌ من الله يُسَرُّ به الموحِّدون، وإماَّ شهادة نُغيظ بها العدو. أماَّ الصنف الثاني، فجُبِنوا عن اللِّقاء وقالوا: نريد حقن الدماء ولا طاقة لنا بقتالهم ألا ترون عددهم وعدتهم؟؟!! فكتب جنكيز خان لمن وافق على الرضوخ والتسليم، أن أعينونا على قتال من رفض منكم، ونولِّكم بعدهم أمر بلدكم، فاغتر الناس بكلامه رغباً ورهباً من بطشهم، فنزلوا لأمره ودارت رحى الحرب بين الطرفين، طرف دافع عن ثبات مبادئه حتى قضى نحبه، وطرف وضيع باع نفسه للتتار فسيَّره عبداً من عبيده!! في النهاية انتصر طرف التسليم والعمالة، ولكن الصدمة الكبرى أن التتار سحبوا منهم السلاح، وأمروا بذبحهم كالنِّعاج. وقال جنكيز خان مقولته المشهورة: (لو كان يُؤمَن جانبهم، ما غدروا بإخوانهم من أجلنا ونحن الغرباء!!). العبرة: لا تقتلوا أسودكم فتأكلكم كلاب عدوِّكم!! ليتنا نعتبر.

والعجيب أنه لن يعجز أحد عن صناعة المبررات، وحتى الخونة لديهم منطقهم في ارتكابهم للخيانة، واللحظة التي تختل فيها معايير القياس فيُسَوَّق الفشل على أنه نجاح هي لحظة الضلال الكبير، وفي مثل هذه اللحظة تكثر الحاجة إلى المثقفين والفلاسفة وأصحاب القلم، أولئك الذين لديهم القدرة على قلب الحق باطلا. كان عبد الناصر يحتاج إلى هيكل لتحويل لحظة النكبة الكبرى إلى مجرد «نكسة»، وفي حاجة إلى أحمد سعيد لتحويل «النكسة» إلى انتصار باعتبار أن إسرائيل لم تستطع إسقاط الزعيم، وطالما بقي الزعيم فقد انتصرنا، حسب وصف الأستاذ/ محمد إلهامي.

هكذا حساب الزمن يطول ويتطاول على العاجز والضال، ويقصر ويتلاشى أمام القدرة والعزم. وكثيرا من النفوس تمرض وتُنهك بسبب عجزها عن اختيار ما تريد. وقد وجد إبراهيم الخولي (كما يروي عنه د. زكي نجيب محمود) نفسه بعد عودته من إنجلترا محاطا بجماعة من أصحاب النفوس الفقيرة، التي تعوِّض خواءها الداخلي بقتل من يصادفها في الطريق. إنها نفوس عاجزة ويُعزِّيها عن عجزها أن ترى العجز في الآخرين، إلا أن للفقر صورا شتى.

لقد عانى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من أمثال هؤلاء العَجَزة، فقال قولته المشهورة: (قصم ظهري اثنان جَلدُ الفاجر وعجزُ الثقة)، هذا في حال كون العاجز ثقة، فما بالك إذا لم يكن كذلك.

وعاجز الرأي مضياع لفرصته   حتى إذا فات أمر عاتب القدرَ

وبتكثيف أكبر يقول ابن القيم: "العاقل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه".

وفي عالم الحيوان توجد الحمير الصابرة ولكن دون هدف، فليس لديها الإدراك



الذي يدفعها إلى التفكير. وليس أمامها والحالة هذه إلا أن تصبر في بلادة، لماذا تصبر؟ كيف لها أن تدرك وهي لا تدري، المهم أن تتمسك بالصبر، فالصبر فيه غنمٌ وغرمٌ، الغُنمُ إذا كان بديلا عن شيء يُعدُّ ويجهَّز، وغرمٌ إذا كان بديلا عن العجز عن القيام بفعل أي شيء. ومن لم يقدّمه حزم أخّره عجز، كما يقول أبو حيان التوحيدي. والعظماء كالأشجار الشامخة العملاقة يموتون واقفين:

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ

فمن العجز أن تموت جبانا

إن من ينتظرون من الرئيس هادي موقفا تاريخيا فارقا لم يقرؤوا تاريخ الرجل ولم يتعرفوا على شخصيته بعد، فالعجز كامن في شخص هادي، وشخصيته وتاريخه يظهر ذلك بوضوح (وأتمنى أن أكون مخطئا في تقديري)، ولو جاد في زمانه السابق لأملنا أن يجود الآن، وفقا للمثل اليمني المتداول (الذي لا يجود أول شبابه فلن يجود والرأس شايب)، ومع هذا يمكننا القول: إن ما يلجئ هادي أو يلجئ الآخرين لخصوم للعودة إليه، هو إيجاد تيار شعبي قوي ضاغط، تمثله كل شرائح المجتمع (متفرقة ومجتمعة)، من نقابات ومنظمات ومؤسسات ومنتديات ... إلخ. تنطلق ضاغطة بكل الوسائل الإعلامية والجماهيرية والحقوقية، لتقوية موقفه ليتخذ موقفا أو قرارا قويا يحسب له من يمسكون بأطراف اللعبة ألف حساب.

وأختم مقالي هذا بإحدى روائع جبران خليل جبران، التي يصف فيها من يعيشون حياة الأنصاف (جمع نِصْف)، فلهم نصف حياة، ونصف موقف، ونصف قرار، ونصف ... أترككم مع عبارات جبران فهي أبلغ وأكثر دلالة.

لا تعش نصف حياة، ولا تمت نصف موت.

لا تختر نصف حل ولا تقف في منتصف الحقيقة.

لا تحلم نصف حلم، ولا تتعلق بنصف أمل.

إذا صمت فاصمت حتى النهاية.

وإذا تكلمت فتكلم حتى النهاية.

لا تصمت كي تتكلم.

ولا تتكلم كي تصمت.

إذا رضيت فعبر عن رضاك ولا تصطنع نصف رضا.

وإذا رفضت فعبر عن رفضك لأن نصف الرفض قبول.

النصف هو حياة لم تعشها ...

وهو كلمة لم تقلها، وهو ابتسامة أجلتها.

وهو حب لم تصل إليه... وهو صداقه لم تعرفها.

والنصف هو ما يجعلك غريبا عن أقرب الناس إليك.

وهو ما يجعل أقرب الناس إليك غرباء عنك.

النصف هو أن تصل وألا تصل.

أن تعمل وألا تعمل.



أن تغيب وأن تحضر.

النصف هو أنت عندما لا تكون أنت لأنك لم تعرف من أنت!

النصف هو ألا تعرف من أنت؟

ومن تحب ليس نصفك الآخر ... هو أنت في مكان آخر في نفس الوقت.

نصف شربة لن تروي ظمأك ... ونصف وجبة لن تشبع جوعك.

ونصف طريق لن يوصلك إلى أي مكان ...

ونصف فكرة لن تعطي لك نتيجة.

النصف هو لحظه عجزك وأنت لست بعاجز ... لأنك لست نصف إنسان.

أنت إنسان، وُجِدتَ كي تعيش الحياة ... وليس كي تعيش نصف حياة.

عندما....... فاعلم

١-عندما ترى أن هناك من يلف الحبل حول عنقه لشنقه (شخصا أو نظاما)، وهو يسعى إلى ساحة الشنق بقدميه، فأعلم أن سنة الله هي التي تقوده إلى حتفه.

٢-عندما ترى أن هناك من يرى سبيل النجاة في طريق معين، ثم تراه يتنكب هذا الطريق ويسعى بظلفه إلى حتفه، فاعلم أن مشيئة الله قد نفذت فيه ليأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

٣-عندما ترى أن هناك من تمد له يد العون لتنقذه من الغرق، فيرفض الاستعانة باليد الممدودة، وربما ردها وأساء إلى صاحبها، مفضلا الغرق على النجاة، فاعلم أن لله حكمة في أن يجعله عبرة، كما حدث لفرعون.

٤-إذا رأيت أن هناك من يقدم له النصح الخالص قائلين له: (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) القصص: ٢٠، ومع ذلك لا يلقي لهذا النصح والتنبيه والتحذير بالا فاعلم أنه قد استوفى نصاب زواله أو كاد، والمسألة مسألة وقت ليس إلا.

٥-عندما تشاهد من تتناوشه الذئاب من كل جانب، وتتربص به الضباع من كل ناحية، وهو مستمر في مصاحبتها والركون إليها، فاعلم أن الله قد أذن بزوال أمنه وربما ملكه من حيث يظن أنه يأوي (إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) هود: ٨٠.

٦-عندما تطالع أن كل المعطيات التي تظهر حتى للإنسان العادي، والتي تقول إن هناك من يريدك فريسة، ويعمل على استنزافك، وأنت تتخذ غيره عدوا، في نوع من الحماقة التي ليس لها حدود، فاعلم أن أمر الله قد نفذ، وإذا نزل القضاء ضاق الفضاء.

٧-عندما تراجع تاريخ هذا الشخص أو النظام وترى سواد ما صنع، وتراه لا زال واقفا، فاعلم أن قدرة الله تدخر له سقوطا مدويا لم يخطر له على بال.

٨' عندما تتأمل في حال (شخص أو نظام)، وتمعن في مدى حلم الله عليه وإمهاله رغم جرائمه، فاعلم أن (لله جنودا من عسل) تسري في جسم هذا الشخص أو النظام حتى تسقطه صريعا، (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) المدثر:٣١.

٩-عندما ترى حقائق الواقع أمامك تكاد تنطق بحالها وواقعها ودلالتها، ثم ترى هذا الشخص أو النظام يتعامى عنها ويتحامق ويتغافل ويتغابى، ويظن أن ما يقوم به ذكاء وحنكة، فاعلم عندئذ أن الله قد أعمى بصيرته حتى ينفذ فيه قدره (وإذا نزل القدر عمي البصر).

١٠-عندما يرى هذا الشخص أو النظام سنن الله وأقداره لا تتبدل ولا تتخلف، وقد رأي بأم عينيه جريان هذه الأقدار والسنن على من كانوا أكثر منه قوة وأكثر جمعا، ومع ذلك يسير في نفس المسار الذي ساروا فيه، فاعلم أن هذه أيضا سنة من سنن الله لأخذ الظالمين حينما (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) الحشر: ٢.

اللغة الأم هي الأم ....

اللغة كائن عجيب فهي تحمل دائما في طيها سرا مكنونا، ومن أغرب أسرارها، أنها لا تؤدي لك وظيفتها إلا إذا جاوزتها إلى شيء خارج عنها، أي (تنتقل من مجرد الاستماع إلى اللفظ وتكراره إلى العمل بمقتضاه).

ولكل لغة عقلها وإطارها الفكري الذي يعطي لمفاهيمها دلالات وظلالا لا يمكن أن تتطابق مع أي لغة أخرى، ومن يتقن أكثر من لغة يدرك ما أعنيه من الاختلاف بين لغة وأخرى.

وبين الفكر واللغة علاقة وثيقة، لأن الفكر يبحث في اللغة عن صورة تعبر عنه، واللغة تبحث في الفكر عن فعل عقلي معادل لها. ومن العبث فصل الأفكار عن الألفاظ المعبرة عنها فصلا تاما، لأن الفكر والتعبير يسيران جنبا إلى جنب.

إن العلاقة التي تربط الفكر بالكلمة علاقة حميمة، فالفكر والكلمة جسم واحد، فلا يحصل فكر دون لغة، ولا تحدث لغة لا تكون ذاتها فكرا، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه (مسؤولية الكلمة).

واللغة مشحونة بالقيم التي بثت فيها خلال العصور التي استخدمت فيها، ودراسة الإنسان للغة الإنجليزية (مثلا) كما هو الحال في اللغة العربية يتطلب أن يدرس الإنسان (تاريخ اللغة، وعلم اللغة، وربما أيضا فقه اللغة)، ومن مجموع تلك القيم المبثوثة في ثنايا ألفاظ اللغة (العربية أو غيرها من اللغات) يتكون وجدان الأمة، أي أمة.

واعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بينا، حيث إن من أهم ما يميز الإنسان في مجال اللغة، هو سرعة اكتسابه ذوقا خاصا في لغته، بحيث يعرف

ابن اللغة ما يجوز وما لا يجوز استعماله من تراكيب لغوية، ومن هنا نرى الفرق بين ابن اللغة وبين الأجنبي الذي يتعلم تلك اللغة، ففي حين ترى ابن اللغة قادرا على تنويع التراكيب للمعنى الواحد بتذوق لغوي يفرق به بين ما يصح وما لا يصح، ترى الأجنبي الذي تعلم تلك اللغة مقيدا بما سمعه أو قرأه، دون أن يكون له ـ إلا بعد ممارسة طويلة ـ ذلك الذوق اللغوي الذي يمكنه من التصرف المبتكر في حدود ما يجوز قوله عند أهل اللغة الأصليين، كما يؤكد على ذلك د. زكي نجيب محمود.

وفي إشارة ذات دلالة يخبرنا الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن: (كل لسان بإنسان)، وهو يعني هنا أن إتقان الإنسان للغة أخرى يصيِّره أكثر من واحد، بمعنى أنه كلما كثرت اللغات التي يتقنها الإنسان كلما أصبح إنسانا بعدد اللغات التي يتقنها، فبقدر ما تمتلك من اللغات بقدر الأشخاص أنت.

ولم يعد مصطلح اللغة مقتصرا على الألفاظ التي نرددها، بل صار لكل مجال من مجالات الحياة (لغة)، وجزءا مما يجعل الإنسان خبيرا في مجاله هو تمكنه من (لغة) ذلك المجال، وأن جزءا من أساس حكمنا بأن إنسانا ما يحذق مجالا معينا يكون قائما على ملاحظتنا أن ذلك الإنسان متمكن في اللغة المتداولة في ذلك المجال، أي متمكن في آداب ذلك المجال.

واللغة ليست صناعة فقط، اللغة طبع، اللغة ملَكة، اللغة وجدان. (اللغة) يا صديقي العزيز طريقة حياة، قبل أن تكون لغة. ومن يتقن لغة قوم ويتثقف بثقافتهم، لا بد أن يشعر بالاقتراب منهم والتماهي معهم، وهنا أذكركم بحديث المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه الذي تعرفونه جيدا (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم)، لتدركوا هدف تعلمكم لهذه اللغة. كون الهدف ليس فقط أن نأمن مكرهم، كما يفهم من ألفاظ



الحديث، بل إن الحديث يشير إلى ما هو أبعد من ذلك كي نأمن مكرهم، وهو أن نتعلم من خلال لغتهم أسباب نهضتهم، وطرق وأساليب تقدمهم العلمي والتكنولوجي، لنأخذ بها، وننطلق إلى آفاق المستقبل جامعين بين أصالتنا وشروط النهوض لعصرنا.

وأقول لكم (طلاب قسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية والألسن/ جامعة عمران)، كونكم سفراء اللغة العربية (اللغة الأم)، والمتقنين للغة الأخرى (الإنجليزية)، أن لغتكم الأم في حاجة إلى أن تكونوا بارين بها فتنقلوا جمالها وقيمها من خلال لغتكم التي أتقنتموها إلى غير الناطقين بها، إذ لا معنى للغة إن لم تستطع أن تنقل حمولتها إلى اللغات الأخرى وتحمل معها قيمها.

وهم الحياد العلماني

عندما كنت في الهند لدراسة الدكتوراه احتجت إلى السفر إلى إحدى المدن الهندية (مدينة بشجني) للسكن مع أسرة بغرض تعلم اللغة الإنجليزية، وبالفعل سكنت مع أسرة بريطانية بصحبة ستة طلاب متعددي الجنسيات، هذه الأسرة مكوّنة من رجل وزوجته تجاوز عمرهما ٧٠ سنة (عائلة المستر جيمس)، وكانا في غاية الدقة والنظام والاحترام، وكانا يعطيانا دروسا يومية بشكل فردي (تيوشنات) في الفترة الصباحية، إضافة إلى الحوارات والمناقشات التي تحدث أثناء الاستراحات أو طلب بعض الحاجات، وكانت العطلة بالنسبة لهم السبت والأحد كما هو معروف، وكان مستر جيمس يصعد إلى غرفتنا كل ليلة أحد بعد العشاء لنتناقش ونستفيد من لغته، مع العلم أن هذا كان خارج الاتفاق معه، فيما يتعلق بتعلم اللغة (بمعنى أنه لم يكن مطالبا بذلك)، وكنا نفرح بذلك لأن مثل هذه المناقشات تكسبنا لغة حيَّة، خاصة عندما نسمعها من أحد أبنائها، وكان محور حديثه إلينا طوال الساعتين اللتين كان يقضيهما معنا في الغرفة حول السيد المسيح عليه السلام وفق الرؤية المسيحية وأنه ابن الله وأنه المخلِّص ....، وقصص الأنبياء الآخرين من إبراهيم إلى عيسى، وعقيدة التثليث ... إلخ، باختصار كان الحديث يدور في مجملة كعملية (تبشير) بالنسبة لطلاب مسلمين جاؤوا لتعلم اللغة الإنجليزية، وأن الأمر بالنسبة إلى المستر جيمس (رسالة) قبل أن تكون مصلحة، وكنا بالفعل نحاول الرد عليه بما تسعفنا به لغتنا، وقد طلبنا منه في إحدى المرات أن يفتح لنا إحدى القنوات التي تستخدم اللغة الإنجليزية لنستفيد منها في وقت محدد، وبالفعل استجاب لطلبنا وفتح لنا إحدى القنوات (التبشيرية) بعد أن مدحها لنا، وكانت القناة تبث نفس الأفكار التي كان يقولها لنا مستر جيمس في غرفتنا، سواء كانت محاضرات أو حوارات، ومع ذلك لم ييأس المستر جيمس،

واستمر معنا هكذا كل ليلة أحد على مدار خمسة أسابيع التي قضيتها أنا مع هذه الأسرة.

الشاهد أننا سألناه في مرة من المرات لماذا يحاول أن يوصِل لنا هذه المعلومات بالذات دون غيرها، فقال: هذه وصية السيد المسيح، وهذا واجبي في أن أخرجكم من حال الضلال، وإنني مدين للسيد المسيح بالدعوة إلى دينه، ففهمنا أنه يريد أن يبرئ ذمته بإبلاغنا رسالة عيسى عليه السلام، رغم علمه أننا لسنا مقتنعين بما يقول وأن ديننا على العكس من كثير مما قال.

الذي دعاني لسرد هذه التجربة التي عايشتها بنفسي، بين يدي هذا المقال، هو الصراحة التي أبداها أحد الإخوة المتداخلين في مقاله الأخير (التعليم في الدول الديمقراطية العلمانية)، وهي صراحة يشكر عليها، سواء كان متبنيا لهذا الطرح، أو سائقا له على سبيل التجارب التي نسمع بها فيمن حولنا، وإن كنت أرجح الأولى، والفصل في ذلك عائد لصاحب المداخلة. وملاحظة جديرة بالذكر هنا، وهي أني عندما أنقد بعض الأفكار التي أوردها المقال، لا يعني ذلك أن ينسحب النقد بالضرورة على كاتبها، لأن الغرض هو نقد الأفكار لا الشخص.

وبداية يمكنني القول: أن العلمانية التي تم (تعريبها) تعيش حالة من البؤس والوهم على حد سواء، فلا هي بالعلمانية حسب بيئة نشأتها أو مصدرها، ولا هي بالعلمانية التي استطاعت أن تستقل بذاتها وتبني أصولها، متوافقة مع البلد الذي نقلها إليه (الحداثيون والعلمانيون العرب والمسلمين).

لقد أعجبتني عبارة أوردها أحد المفكرين حول البؤس الذي يعيشه حداثيو الأمة وهي عبارة رائعة وصادقة وهي قوله: «العلمانية في جوهرها محاولة استنبات أمراض أوروبا، لإيجاد مبرر لاستيراد الدواء الأوروبي، في حالة غفلة شديدة عن

خصوصيتنا الثقافية ومشاكلنا المختلفة عن أوربا».

وهْمُ الحياد الذي يعيشه العلمانيون وينظِّرون له باستمرار لا يقوم على أرض صلبة، فالعلماني يريد أستاذا على شكل (روبوت)، ينقل للطالب الرؤية العلمانية، دون الرؤية الدينية (عاش زمن الحياد والاستقلال)، والهدف ألا يعطيه الأستاذ الدين، ولا يوصله إلى الإلحاد، وذلك أمر عجيب في الرؤية العلمانية (وكل أمور العلمانية عجائب وغرائب).

وقد حاول الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله -وهو من هو في تشريح العلمانية، حاول أن يشرح لإحدى العلمانيات الفرق بين الإنسانية والعلمانية الشاملة، ولكنها أصرت على أن ما تنادي به هو العلمانية الوحيدة والحقيقية، وأنها مع ذلك تفعل الخير وتؤمن بالقيم الأخلاقية المطلقة. فقال لها ضاحكا: في هذه الحالة ستذهبين للجنة وستذهب أفكارك إلى النار. وهذا الحال ينطبق على كثير من بني قومنا، ممن تشربوا العلمانية.

إن أحد أهم أسباب رفضنا للعلمانية هو أنها لا يمكن أن تكون أخلاقية، فالعلمانية مرجعيتها المصلحة والمنفعة، وهو أمر منطقي ومفهوم بالنسبة لمن هذه عقيدته، فإذا كان الإنسان علمانيا فإن الأخلاق التي تقف ضد مصلحته هي خرافة وهراء، بل هي شيء مزعج أيضا! فالأخلاق كما يقول علي عزت بيجوفيتش ليست «حقيقة علمية» بل هي قيمة دينية، والذي سيحذف الدين من حياته لن يرى أي شيء يدعوه للتمسك بأي أخلاق. ودعك مما يتشدق به العلمانيون في الغرب وبعض من علمانيي المسلمين، من الحديث عن القيم الإنسانية كالسلام والمحبة والتعايش ....، فالواقع يقول لنا عكس ذلك، و(الماء يكذب الغطاس) كما نقول في أمثالنا المتداولة.

والأمر الذي نعيبه على العلمانيين هي حالة الوهم الذي يعيشونه، ذاك الوهم الذي أشار إليه د. زكي نجيب محمود بأنه: الاعتقاد الخيالي بصحة أمر ما، والإيمان به، ثم المبالغة في تأكيده، من دون أن يكون له أي إثبات في الواقع. والعجيب أن الأطروحات العلمانية تجاوزت المائة عام من حين وفدت على عالمنا العربي والإسلامي، وعندما نبحث عن ثمارها نجد العلقم والحنظل، ولا زال آخر العلمانيين كأولهم، (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) الذاريات: ٥٣.

إن الأمة الإسلامية التي هي الحاضنة للإسلام لا تحتضن مولودا لا ينتسب إليها، ولذلك فهي لم تتقبل العلمانية منذ أكثر من قرن رغم الدعاية المتكررة لها، ولن تتقبلها كأمة مهما كانت المغريات ومهما كان الدعاة لها، وستبقى حاضنة لدينها وعقيدتها، وإن كثر المدندنون حول أفكار ونظريات خارجة عنها.

ويبشرنا العلمانيون -كعادتهم-أننا عندما نؤمن بالعلمانية ونطبقها في جميع شؤوننا، فإننا سنكون كفرنسا وأمريكا والسويد وباقي دول أوروبا، وهذا وهمٌ يعشش في أذهان هؤلاء العلمانيين، فلن تكون مصر أو السعودية أو الجزائر فرنسا أو بريطانيا، كما لا يمكن أن يحدث العكس. العلمانية كفلسفة هي نتاج غربي بامتياز تتوافق مع البيئة التي نشأت فيها، ولذلك لن تتصادم مع الفلسفات الأخرى هناك، أما في عالمنا العربي والإسلامي فنحن نعيش وفق فلسفة أخرى، واقتلاع العلمانية من تربتها ومحاولة غرسها في التربة العربية والإسلامية محاولة بائسة، ولكن ماذا تقول للعلمانيين؟ (وعقول من حولي حجر).

لقد قامت العلمانية، في معظم الأحيان، وفي عالمنا العربي والإسلامي، على مرتكزات سطحية، حيث زعمت أنها تتطابق مع عصر العلم والواقعية والتقدم، بينما

اتهمت الدين بترويج القيم المضادة لتلك القيم، وهي مزاعم أبعد ما تكون عن الحقيقة. ودعوى العلمانية هذه دعوى (منافِقة)، وفق توصيف أ. د. إسماعيل الفاروقي -رحمه الله-في أغلب أحوالها. فلا يوجد مجتمع يستطيع أن يدّعي استبعاد القيم على الإطلاق في تقرير شؤونه، أو أنه يقرر شؤونه بقيم ليست نابعة بالمرة من تراثه الديني. وهو ما صرح به بن جوريون بأن خير مفسر للتوراة هو الجيش الإسرائيلي، فالمسألة علمانية داروينية محضة، وجمعٌ بين قوة الفكرة وقوة المدفع.

والعلمانيون العرب في أغلبيتهم (منافقون)، ونادرا ما تجد الشجعان والجريئين من بينهم، بل تجدهم في حالة تلون، فلا هم قادرون على إظهار علمانيتهم على حقيقتها لأن مجتمعاتهم سترفضهم وتلفظهم، ولا هم كانوا أوفياء مع قيمهم ومبادئهم، ولهذا فهم يحاولون أن يأخذوا من العلمانية ما لا يتعارض مع دينهم أو هكذا يتوهمون، وكثيرا ما يؤولون ويبررون، وعندما يشتد عليهم الخناق يتراجعون، ولكن حنينهم إلى العلمانية لا ينقطع، ويتحينون أي فرصة للامساك بزمام الأمور وتطبيق العلمانية كما فعل سلفهم الهالك (كمال أتاتورك)، ولكن هيهات، فالعلمانية مهما كبرت فهي تشبه (الحمل الكاذب)، أو الحمل خارج رحم الأمة، وما أسرع ما يتضح كذب هذا الحمل في الحال الأول وسقوطه في الحال الثاني.

وهناك طرفة، أوردها الدكتور عبد الوهاب المسيري قرأها في أحد الصحف الإسرائيلية عن طفل أتى إلى والده بشهادته المدرسية وهي مليئة بعلامات الرسوب وقدمها له وهو يسأله: هل تظن أن العناصر البيئية هي التي تسببت في ذلك أم أنها الجينات؟ بمعنى أنه يتنصل من المسؤولية تماما، ويفسر إخفاقه على أساس (براني مادي)، وهذا هو تصور العلمانية للشر. هذا التصور للشر، تصور علماني، فالعلمانية ترى أن الشر يمكن تفسيره على أسس اقتصادية أو بيولوجية (مادية) ومن ثم يمكن القضاء عليه من خلال إصلاح البيئة أو إجراء عملية جراحية! ولكني اكتشفت (والكلام

للدكتور المسيري) من خلال « تجربتي أنه لا يمكن تفسير الشر على أساس بيئي أو اجتماعي أو بيولوجي (أي أساس مادي خارجي) وإنما تحققت من أنه مكون أساسي في النفس البشرية». فمتى يدرك العلمانيون مثل هذه النتيجة التي وصل إليها د. المسيري؟ نتمنى أن يكون ذلك قريبا حتى لا يطول تيههم ومحنتهم في صحراء العلمانية القاحلة.

العلمانية ليست طائر العنقاء، وبإمكاننا حين نقف على أرضنا الفكرية والقيمية والمبدئية، أن نخي اللفظ جانبا ونشتبك مع المضمون، فنقوم بتشريحها ونطرح الأسئلة ونقدم الإجابات التي تتفق مع أرضيتنا التي نقف عليها، وربما نحن واجدون ما يمكننا أن نستفيده منها، أما حالة التبعية والاستيراد الاستهلاكي (من المصنع إلى المستهلك)، فهذه غير مجدية وتزيدنا خبالا إلى ما نحن فيه.

والبحث عن حماية الدين من عبث العلمانية، وحماية المواطنين من بطش الدولة، يوجب علينا نوعا من فك الارتباط بين ثنائيات في الدولة نحتاج إلى أن نفصل بينها، ومن هنا لا بد من فك الارتباط القانوني بين الرئيس ودار الإفتاء، حتى لا تتحول دار الإفتاء إلى محلل ومحرم ومبرر للرئيس، وبين الدولة والتعليم الديني، حتى لا يصبح التعليم ألعوبة بيد الدولة تكيِّفه كما تشاء، فهو رأسمالي عندما تكون الدولة كذلك، وهو شيوعي عندما تتغير وجهة الدولة، فالتعليم فلسفة أمة بكل مقوماتها، وبين وزارة الشؤون الاجتماعية وأحوال التكافل وصلة الرحم، وبين الحزب الحاكم وإدارة السياسة في المحليات، حتى لا يختلط الحابل بالنابل وتضيع الحقوق وتتغول الدولة على حساب المواطن.

في الأخير يمكن القول دون مواربة: إن الإنسان الصالح صناعة الدين، وثمرة الأخلاق، ونتيجة التربية الطويلة عبر الأيام والليالي والسنين. والله أعلى وأعلم.

رؤية ملكاوية في الإصلاح التربوي المعاصر

كعادته عندما يكتب الدكتور / فتحي حسن ملكاوي، يحاول أن يعطيك حول الموضوع الذي يتحدث عنه العمق والجدة. هو مهموم بقضايا أمته، ويحاول بكل ما منحه الله من رؤية وفكر أن يدل أمته وبني قومه على طريق الرشد والرشاد، فيعتصر فكره وخبرته وتجربته الطويلة المفتوحة على مجالات متعددة، ليمنحنا خلاصة مركزة (كاملة الدسم) حول الموضوع الذي يتطرق إليه، بحيث أنك تحس كقارئ أنه يفرغ كل ما في جعبته، وكل تراكم لديه في هذا الموضوع، ولذلك فأنت كقارئ في حاجة إلى أن تقرأ مقالته لأكثر من مرة، لتكتشف أن هناك ما فاتك عند قراءتك الأولى أو الثانية.

وكأن د. فتحي يريد أن يلقي بكل حمولته الفكرية، وزبدة معاناته في هذا المقال أو ذاك أو في محتويات هذا الكتاب الذي أصبح جزءا من عقيلته ونفسيته وأعصابه، وكأني به يريد أن يلقى الله (بعد عمر مديد) وقد أفرغ كل أعطاه الله من مواهب وإمكانات مادية ومعنوية في جسم أمته وخدمة حضارته، وهذا يذكرني بعنوان كتاب للكاتب الأمريكي تود هنري (مُت فارغاً Die Empty !!!) (والذي أنقل لكم بعضا مما أوردته عنه بعض المواقع)، وهذا الكتاب صدر للمرة الأولى في عام ٢٠١٣، واستلهم الكاتب فكرته أثناء حضوره اجتماع عمل، عندما سأل مدير أميركي الحضور قائلا: ما هي أغنى أرض في العالم؟

فأجابه أحدهم قائلاً: بلاد الخليج الغنية بالنفط، وأضاف آخر مناجم الألماس في إفريقيا.

فعقّب المدير قائلاً: بل هي المقبرة! نعم، إنها المقبرة، هي أغنى أرض في العالم، لأن

ملايين البشر رحلوا إليها «أي ماتوا» وهم يحملون الكثير من الأفكار القيّمة التي لم تخرج للنور ولم يستفد منها أحد سوى المقبرة التي دُفنوا فيها.

لقد ألهمت هذه الإجابة تود هنري لكتابة كتابه الرائع «مُت فارغاً» والذي بذل فيه قصارى جهده لتحفيز البشر بأن يفرّغوا ما لديهم من أفكار وطاقات كامنة في مجتمعاتهم وتحويلها إلى شيء ملموس قبل فوات الأوان، وأجمل ما قاله تود هنري في كتابه: «لا تذهب إلى قبرك وأنت تحمل في داخلك أفضل ما لديك، اختر دائماً أن تموت فارغاً».

مت فارغاً، بمعنى سلّم كل الخير الذي في داخلك قبل أن ترحل. إذا كنت تملك فكرة نفذها. علم؛ بلّغه. هدف؛ حققه. حب؛ انشره ووزّعه. لا تكتم الخير داخلك، فتموت ممتلئا متخما، وتكون لقمة سائغةً لذيذة لدود الأرض!

أن تموت فارغا يعني أن تعطي كل ما تملك، وتبذل من الطاقة أقصاها، ومن العمل أفضله، ومن الإبداع أروعه، تسعى أن تكون فارغا قبل رحيلك حتى تسمو روحك، وتحلّق عالياً!!

هذا ما تخيلته وأنا أقرأ مقال الدكتور فتحي ملكاوي، وقد استوقفتني في المقال بعض الأفكار التي طرحها، وهي كثيرة، ولا يمكن استيعابها والتعليق عليها من خلال هذا المقال، ومنها:

١-بداية من العنوان، الذي يختصر هدف المقال، ويلخص غايته، فهناك اتجاه (نحو) حضور بكل ما تعنيه كلمة حضور من معنى، وإن كنت أعتبر من وجهة نظري أن كلمة شهود أكثر دلالة وشمولا من حضور، وهذا الحضور ليس ساكنا بل فاعلا للرؤية



الإسلامية في الإصلاح التربوي المعاصر.

٢-الهمّ التربوي الذي ينظِّر له الدكتور فتحي وإخوانه، يعد هماً بحجم أمة، والجهود الفردية فيه، على أهميتها، يمكن اعتبارها بداية خطوات جادة مباركة، ولكنها غير كافية، وتحتاج إلى جهود مؤسسات وأكاديميات ومراكز أبحاث ترعاها الأمة رعاية كاملة.

٣- الرؤية المستقبلية التي طرحها الدكتور فتحي في حاجة ماسة إلى دراسة للتجربة التاريخية في جميع جوانبها وعلى رأس ذلك الجانب التربوي، دراسة لما لها وما عليها، دراسة فاحصة ناقدة، تستخلص من خلالها دعائم الرؤية المستقبلية، حيث إن في تجربتنا التاريخية التربوية انكسارات وتشققات، كما فيها إشراقات وإضاءات، ولا بد من وقفة، تمسك بمبضع جراح، يستأصل الأورام الخبيثة التي تراكمت على مدى قرون، وينظِّف الجروح التي تقيحت من كثرة الإهمال، ويعقم المناطق المفتوحة حتى تتماثل للشفاء، ويمنحها مضادات حيوية تقتل الجراثيم التي تعشش في خلايا هذا الجسم التربوي، وقبل هذا منحها الغذاء الذي يعيد لها صحتها ورونقها.

٤- ذكر الدكتور فتحي في ثنايا مقاله أن أصل علاقتنا مع الآخر هي السلام لا الحرب، على الرغم من أن هناك رؤية خرج بها فريق البحث العلمي في مشروع العلاقات الدولية في الإسلام الذي تبناه المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أن أصل العلاقة مع الآخر هي (الدعوة)، وليست لا السلام ولا الحرب، وإنما هما وسيلة تتبناها الدعوة حسب موقف الآخر منها، ومهما يكن، فإن علاقتنا بالآخر في مجملها مختلة، ولا يمكن أن نحكم عليها بالسوية، سواء تمثلت في كون أصلها السلام أو الحرب، وأن الأمر يحتاج إلى رؤية واضحة تضع الأمور في نصابها فيما يتعلق بعلاقتنا بالآخر.



٥-تركيز الدكتور فتحي على التربية الفكرية فيه إشارة ذكية، تستهدف إصلاح الخطوط العريضة للفكر والعقل الإسلامي، الذي بذل فيه المعهد العالمي للفكر الإسلامي جهودا مشكورة، ونحن في أمس الحاجة إلى البناء عليها وتجاوزها إلى ما بعدها، والتنظير للفكر والفكر التربوي خاصة ليس بالأمر الهين، الذي يمكن أن تقال فيه كلمة الفصل في مقال أو كتاب أو حتى عشرات الكتب.

أخيرا، أتمنى أن أكون قد أوضحت بعض مرامي المقال، وهو بالفعل يحتاج إلى وقفة أطول، ونقاش مستفيض يمد بعض آفاقه، ويستكشف بعض خباياه، وما قمت به هو نوع من تسجيل الإعجاب بين يدي أحد عمالقة الفكر الإسلامي المنهجي، سائلا الله أن يكتب للجميع الإخلاص والصواب. والله من وراء القصد.

سذاجة التفاؤل وعدمية التشاؤم ... مجرد رأي

السياسة علمتنا ألا نأخذ أبدا بظاهر الأمور مهما كانت مشتعلة إعلاميا، فالحقيقة لا تجدها في وسائل الإعلام ولا في التصريحات السياسية النارية، بل تجدها على أرض الواقع. وقد أخبرنا الفلاسفة الإغريق ألا نركِّز على ما (يقوله) الساسة، بل على ما (يفعلونه) على الأرض. وعلينا أن ندرك جيدا أن الإعلامي قد لا يهتم بالحقيقة، والسياسي تكفيه نصفها، أما الباحث الصادق فهو يريد الحقيقة كاملة غير منقوصة.

والمجتمعات ذات الثقافة السياسية الناضجة يهتم الناس فيها (بمبادئ) الحكم أكثر مما يهتمون (بأشخاص) الحكام، وبعبقرية (النظام) السياسي أكثر من عبقرية (القائد) السياسي، ويدركون أن بناء مظلة دستورية تضمن العدل والحرية للجميع أهم من فوز أي طرف سياسي، حتى ولو كان حزبهم أو طائفتهم. ولا يَخفى الأمر على ذي فِطنة، أنه في حال انتصَرت السياسة لمذهب أو رأْي، فالويل للمُخالفين ولو كانوا على الحقِّ المُبين.

والإرادة السياسية كفاعل مهم في التغيير وضابط مفصلي لدرء الانحرافات السلطوية، هي عند رجل الغرب أقوى منها عند الرجل المسلم، حيث إن الرجل الغربي يوطِّن نفسه على موقف معين، يجعل به حركة الزعماء والحكام تبعا لحركته هو، في حين أن الرجل المسلم ينسحب من الميدان رأيا وفعلا، فتكون حركته تبعا لحركة زعمائه وحكامه، إنها كلالة في الإرادة السياسية يسلِّم بها نفسه لهم ليفعلوا به ما يشاءون، حتى وإن كان ذلك في اتجاه خاطئ لا يأتي بخير.

والكاتب الحق ليس بائع أفكار، ولا مسوق نظريات، كما يصفه الدكتور

عبد الكريم بكار، ولكنه إنسان غلب الشعور الجمعي فيه على الشعور الفردي الأناني، فهو في الحقيقة يكتب لنفسه أولا، لأن معاناته مشتقة ـ على نحو ما ـ من معاناة من يكتب لهم، وهو يأمل أن يرمِّز المعاناة، وينقلها من دائرة الانفعال والشكوى إلى رؤية تعيد التوازن إلى نفسه، وتعبِّد دروب الفعل أمامه وأمام جماعته على حد سواء.

إن روح الكاتب الحق مسكونة بسذاجة الطفولة، وهذه السذاجة هي مصدر تفاؤله، حيث يؤمن بإمكان نقل الناس من الضياع إلى الرشاد، ومن اللامعقول إلى المعقول، وهذا يجعله دائمًا في مكان بين الواقع والممكن، والحاضر والمستقبل، والمبدأ والمصلحة.

وإذا كان الإسلام يدعو الناس إلى ألا يركنوا في حياتهم إلى تشاؤم أو تفاؤل غير مبني على مؤشرات واضحة، فمعنى ذلك أنه يدعوهم إلى حساب المستقبل حسابا علميا ليعرفوه قبل وقوعه. فالتفاؤل والتشاؤم إنما يكونان في المواقع التي لم نحسب حسابها. وفي هذه الحالة يكون كلٌّ من التشاؤم والتفاؤل ناتجين عن جهل الإنسان بمجرى الأحداث في حاضرها أو في مستقبلها، وفق تعبير الدكتور زكي نجيب محمود.

والمبالغة في حالات التفاؤل والتشاؤم توجدها حالات الانحباس الذي تفرزه حالات الصراع والأزمات السياسية طويلة الأمد، وتتمثل من خلال (تعظيم) بعض بوارق الأمل، ومن خلال (تقزيم) بعض المشكلات الكبرى، متخذة منها نافذة لاستعادة بعض الثقة بالنفس، وبعض التفاؤل بالمستقبل، لكن ذلك مع الأسف لا يكون إلا مؤقتا، كما إن هذه العقلية التفاؤلية الساذجة تصبح حِلْيَةً لمجالس العاطلين عن العمل.

وفي مقابل ذلك، فإنه في حالة اليأس والإحباط من تغيير الواقع، يتعرض



الفرد إلى تغيرات سلبية في التفكير والشعور. ففي مجال التفكير، تقل أمام العقل الخيارات والمحاولات والحلول للتغلب على العوائق، أما في جانب الشعور والإحساس، فإن الفرد في حالة اليأس والإحباط، يغلب عليه التشاؤم والشعور بنقص الكفاءة والانهزامية، فينخفض مستوى الروح المعنوية، وينعدم الأمل في المستقبل، وقد يتجه الفرد -بناء على ذلك-إلى التفكير العدواني المنحرف لعلاج المشكلات، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال الشخصيات العدمية والسوداوية، التي ترى الآفاق مسدودة والآمال معدومة، فتجنح للعنف كطريق إجباري للتغيير.

والذي يحتاج إلى معالجة وتوجيه هو الشعور بالتفاؤل وإمكانية تحسن الأوضاع، إذ أننا لن نكسب من وراء اليأس إلا انحسار الذات وخمود النشاط وارتباك الوعي، ومن المهم في الظروف الصعبة أن تستخرج الإيجابيات وخمائر الإصلاح والصلاح، أما تعداد السلبيات فهذا يستطيعه كل أحد، كما يؤكد على ذلك الدكتور عبد الكريم بكار، وحين يطل التشاؤم علينا من النافذة يخرج العقل والمنطق والذوق السليم من الباب.

والمشكل في التعاطي مع الأحداث والاتفاقيات والتفاهمات التي نعايشها على أرض الواقع، لا يتمثل في جنوح بعضهم إلى التشاؤم فحسب، وإنما هناك شكل آخر، هو جنوح بعض المتحدثين إلى تفاؤل ليس له أي مسوِّغ، وقد ساد في الأوساط العلمية شعور بأن التفاؤل المفرط، هو أول خطوة في طريق التشاؤم والعبث، وانقطاع الرجاء. والعقل البشري في بنيته ميال إلى التشاؤم، وهو أقدر على رؤية السلبيات منه على رؤية الإيجابيات، ولذلك فالعقل يحتاج منا إلى عملية نعيد له من خلالها قدرة التحكم المتوازنة حتى لا ينساق وراء متاهات اليأس والإحباط القاتلة.

والتشاؤم أصلا حالة نفسية مرضيّة ضارة على الصحة الجسمية والنفسية والعقلية، ولهذا يقول بعض علماء النفس (د. عبد العزيز فريد): «أن الإنسان يتحمل بفعل اتجاهه التشاؤمي متاعب هي أشد وقعا على نفسه وأعصابه من وقع الكوارث أو الملمات أو المآسي التي يتوقع حدوثها، ويستهلك اتجاهه التشاؤمي من الطاقات النفسية والعقلية والجسمية الشيء الكثير، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في اتجاهه الخاطئ بإعمال قوة الإرادة، ذلك أن بواعث التشاؤم هي أبعد وأعمق من أن تنالها الإرادة الواعية».

وفي حديث يرويه (الإمام أحمد) عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يتفاءل، ولا يتطير، ويعجبه الاسم الحسن. والذين يتأملون هذا السلوك منه -صلى الله عليه وسلم-، يدركون أن التفاؤل إنما هو ثمرة لرؤية إيجابيات الواقع وجماليات المحيط، وهو ضد التشاؤم، الذي لا يرى صاحبه سوى القبح والسلبيات، وأيضا هو غير السذاجة، التي لا يبصر صاحبها إلا الإيجابيات أو السلبيات منفصلة إحداهما عن الأخرى، أو لا يراهما معا، فالتفاؤل موقف إيجابي من جماليات الحياة وإيجابيات المحيط دون إفراط وسذاجة.

ولكي نُحدِث تغييرا جوهريا، فيجب علينا أن نتحاشى التفاؤل المفرط فلا نتوهم أن التعديل الذي نظنه شاملا يكفي لإحداث التغيير الشامل، كما نتحاشى كذلك التشاؤم المفرط فنعتقد بأن أي تعديل نقوم به لا يحرك ساكنا في الأحداث إذا خيّم عليه الجمود.

لقد سئل أحدهم: هل أنت متشائم؟ فأجاب مبتسما: لا أملك أصلا مزيّة التشاؤم، فمن يفقد الأمل يمكنه أن يترجل ويعطي ظهره لكل شيء ويستريح، وأنا ليس بوسعي أن أفعل هذا أبدا.

عود على بدء ...

من خلال اطلاعي على تداعيات مغادرة أحد أعضاء المجموعة للمجموعة، بعد جولات حوارية ومداخلات متعددة من قبله ومن قبل الآخرين اتضح لي الآتي:

١- طلب الحقيقة والرغبة في الوصول إليها غاية سامية تُضرب لها أكباد الإبل وتفنى من أجل الحصول عليها الأعمار، وتحتاج إلى نوع من الصدق والتجرد والموضوعية مع تواضع جمٍّ وأدبٍ رفيع واستعداد للتراجع عما سقط دليله وتبني ما ثبت دليله، ولكن يتضح من خلال السياقات التي يطرح فيها البحث عن الحقيقة أنها عملية تغطية لقناعات معينة وآراء محددة مطلوب من الآخر أن يسلِّم بها ويشكر المتنورين على تفضلهم بها في مقابل أفكار ومسلمات أصبحت من التاريخ وعفى عليها الزمن، في عملية لا تلزم الآخر بحجة أو بينة مقنعة أو بدليل من ثوابت تواضع عليها الناس وأصبحت جزءا من عقيدتهم ومسلماتهم الراسخة، كل هذا الكم من الطرح يجري تحت لافتة البحث عن الحقيقة، وكم هي مسكينة هذه الحقيقة التي تغتال ممن يدّعون أنهم يدافعون عنها، ويسعون لبلوغها.

٢-عندما تكون بالفعل باحثا عن الحقيقة راغبا في الوصول إليها، فأنت في هذه الحالة تطلب من الآخرين أن يساعدوك على الوصول إليها، فتطرح كل ما لديك بكل تواضع واحترام وتقدير لمن ترجو منهم أن يبصِّروك، لا أن تدخل بقناعات مناهضة لرأي الكثيرين ممن تحاورهم، فإذا حاولوا أن يدلوك على برهان أو حجة قلت: إنني غير مؤمن بهذا، ولا أوافق على هذا، وأرفض هذا، ولا أعتمد هذه المرجعية، ولا أتقبل هذا الطرح، ولا ولا.... في سلسلة (لاءات) لا تنتهي، هذا وجه من الصورة، والوجه الآخر من الصورة الذي يعكس حالة التعالي والتعالم التي يعيشها البعض، وأن القضية

ليست بحثا عن حقائق بقدر ما هو محاولة فرض رؤية معينة، فإما أن تقبلوها وإلا فأنتم منغلقون ولا تفهمون العصر الذي تعيشون فيه ووووو .... إلى آخر الأسطوانة التي نسمعها في نهاية كل حوار من العاشقين للجديد على عِلَّاته والرافضين للقديم على حسناته، رغم أن المنطق يقول لنا خذوا أجمل وأصدق ما في القديم والجديد.

٣- كنت أحبذ أن تصل للأخ الذي غادر رسالة من الإخوة (الصامتين)، إما بتوضيح طرحه ودعمه بالأدلة ليقتنع من يناقشه أو أن يناقشوه في بعض أفكاره الجانحة أنه ليس على صواب، ليعرف أنه أخطأ فيها، ولكن هذا لم يحدث وبقي يناقشه مجموعة صغيرة جدا ربما لا تتعدى ٥٪ من قوام المجموعة، وهذا ما أوحى للأخ العزيز بأن الجميع (وهذا ما قاله في واحدة من مداخلاته) يتفهّم طرحه، وربما هم على قناعة بهذا الطرح، وأن هذا هو الطرح المتحرر الشجاع الجريء، وأن من يقف مفندا لأفكاره هم (شرذمة قليلون)، تجاوزهم الزمن، فكان الصمت علامة الرضا (كما فهمها الأخ الذي غادر المجموعة).

والآن، وفي سؤال يتبادر إلى الذهن، من الذي جنى على الأخ المغادر؟ هل من حاول أن يبين له ويقدم له الدليل ويناقشه بكل رويّة وإن قست بعض ألفاظه أم من صمت وكأن كلامه لا غبار عليه وأنه الحق الصراح (حسبما يخيل للأخ المغادر)؟ سؤال يحتاج إلى إجابة صريحة. فكم تظلم الحقيقة في أحيان كثيرة من قبل الصامتين عنها أكثر من المهاجمين لها، وكم ينعش الصمت الأفكار الهدامة أكثر مما ينعشها الترويج!

٤- كنت أتمنى على (المنتفضين) على مغادرة الأخ الذي غادر، أن يعتبروا الطرف المقابل له لهم حق الاعتراض وحق النقد وحق أن يرفضوا الإسفاف الذي استمر لأكثر من أسبوعين، دون أن يصل جميع المتحاورين إلى نقاط ولو قليلة يُجمِعون عليها،



فلما غادر الأخ العزيز المجموعة بعد أن قيل له إما أن تأخذ بآداب الحوار أو توجد حلا آخر حتى لا يستمر سيل الحوار العقيم والإسفاف على ثوابت أصبحت من المسلمات، فكان أن احترم رأي من يحاورونه وغادر (مقتنعا أو غير مقتنع)، فالقضية اختيارية في البقاء أو المغادرة، ثم أتساءل لو غادر آخرون من الطرف الذي يحاور الأخ المغادر هل ستحدث مثل هذه (الانتفاضة)؟ أم أن الأمر في هذا الحال طبيعي ولا يحتاج حتى لمجرد الاحتجاج، وكأن الاحتجاج والوقوف صفا واحدا حلال على الأفكار التنويرية التحديثية ومن يتبنونها، وأن من يتبنون الرؤية الإسلامية لا يستحقون حتى مجرد التضامن معهم، وخير مثال ما جرى في المجموعة قبل أيام في موضوع الشيخ عبد المجيد الزنداني (اتفقنا معه أو اختلفنا في بعض رؤاه)، وما طاله من تهجُّم، وعندما كان يرد البعض مدافعا كان هناك من يرد بأنكم تقدسون فلانا وهو بالنسبة لكم خط أحمر...... إلخ، مما جعل البعض يغادر ومن ضمن من غادر ابنة الشيخ الزنداني كما أظن، فأين ذهبت (الحنّية) التي نراها اليوم من أن هناك إقصاء وطرد وتعنت ووووو..... إلى آخر ما طرح.

٥-أريد أن أتساءل لماذا هذه الحفاوة بالفكر المخالف المهاجم للثوابت في مقابل اللامبالاة في قضايا الإسلام والدين، وكأننا نريد أن نثبّت ديننا من جديد ونطرحه على بساط البحث لكل عابث ولاه، بحجة أن هناك حرية رأي، وما هي بحرية رأي، إنما مجرد هجوم لا يخفى على صاحب بصيرة، وهذا الدين يحتاج منا أن نفعّله في حياتنا ونوجد له الآليات التي تمهد له ليصبح صابغا لحياتنا كلها، لا أن نعيد اكتشافه عن طريق المقولات والأفكار الملفقة والمستوردة التي تطرح كمسلمات للتنفيذ، لا كشبه تحتاج إلى تفنيد.

أخيرا أتمنى أن نكون أكثر حرصا على الخروج بفائدة من تلاقح الأفكار وألا



يكون الهدف مجرد (الحوار للحوار والجدال للجدال)، فهذا نوع من العبث وأوقات الناس أغلى من أن تهدر في مثل هذا الطرح........ هذه بعض قناعاتي ولا ألزم بها أحدا، ولكني لست مستعدا أن أبقى صامتا على طرح لا تحترم فيه ثوابتي ولا تحترم فيه آداب الحوار، وعندما أجد الدليل مع محاوري فسأنزل صاغرا لهذا الدليل، وفي المقابل سأدافع بقوة عما أعتقده حقا حتى يثبت لي أنني كنت على خطأ. والله أعلم.

بين نقد ونقد... يكمن البناء والهدم

طالعت مقال الكاتب أكرم عطا الله، ماذا لو اختفى العرب؟ برأيك ماذا سيخسر العالم؟ وقبله مقال عبد الله القصيمي الذي مر مرور الكرام في المجموعة رغم كونه أشد وطأة وأحدُّ نقدا، ويدور في نفس الإطار، وأحببت أن تكون لي مداخلة، ما دام الموضوع قد تشعب، وتباينت الآراء حول المقال الأول خاصة، ويمكنني أن أشارك ببعض الأفكار على عجالة، وإلا فالموضوع يتطلب شرحا أوفى ومساحة أوسع.

في البداية لا بد أن نقول: إن عدم تقبل النقد وضيق الصدر منه لا تحسب للمفكر المنصف ولكن تحسب عليه، وتسحب من رصيده وتجرده من كثير من المزايا وتجعله أمام الآخرين هشّ البناء.

والنقد كما هو معروف يظهر مساحات الجمال في الموضوع المنقود كما يبين مكامن الخلل وثغرات القصور، وإن كان النقد قد أخذ مسار البحث عن العيوب ومكامن الخطأ. ومع هذا تبقى مرارة النقد المنصف عند من يدرك أهميته أحلى من حلاوة المدح الذي يقال ويكال أحيانًا بلا حساب وبكرم حاتمي، وإن كنا كبشر نفضل الثاني على الأول.

والنقد الموضوعي والمنصف والذي يُظهر العيوب، يزرع لدينا الحصانة ويرفع لدينا مستوى الوعي، ويمكننا من مغادرة استراحة الاسترخاء الفكري، إنه يرسخ لدينا قاعدة أن الزاوية التي نرى منها ليست الزاوية الوحيدة، بل ليست الزاوية الأوسع والأوضح والأصفى لرؤية هذا الموضوع أو ذاك، وأن زوايا الرؤية لدى الآخرين، وكذا وجهات نظرهم ربما تكون الأقرب إلى الصواب، وإن حزَّ ذلك في نفوسنا وتقبلناه على مضض.

ولذا كثيرا ما نعجب من حملات النقد القاسي لدى الغربيين في حواراتهم ونقاشاتهم، ولكنها تبقى في إطار النقد المقبول أو المرفوض مع بقاء التواصل والتعاون والانسجام في جماعة العمل الواحدة، وهذا يدل على أنهم استطاعوا أن يؤسسوا للنقد قواعد تتجاوز العواطف ولا تلغيها، كما أنهم استطاعوا أن يوجدوا نوعا من الحصانة التي تقيهم الانزلاق إلى مربع القطيعة أو رفض الآخر المحاور مع نقده.

وفي أحيان كثيرة قد يشبه النقد في تأثيره مرض الإيدز، عندما يتصدى له نقاد لا هم لهم إلا تتبع الثغرات، دون أن يخطر ببال هؤلاء أن هذا مجتمعهم وهم جزء منه، وهذا المرض (الإيدز/النقد) الذي يهاجم جهاز المناعة في الجسم، ثم يترك هذا الجسم يواجه مصيره دون أي خطوط دفاع.

قد نقبل من الآخرين النقد الذي يقوِّي جهاز المناعة ويرفع مستواه وإن كان فيه قسوة مبضع الطبيب، لكن فيه رفع مستوى المناعة، ولكن الذي يحدث أن هؤلاء النقّاد يحملون سكين الجزار الذي يقطع الأوداج ليسيل دم الذبيحة لا ليعزز مناعتها بل ليفقدها الحياة. والإسلام والحمد لله يحمل مناعته فيه وإن ضعف بنوه، وكم من معاول تكسرت على صخرته الصماء، وكم من موجات للإضرار به تلاشت على شواطئه. (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) يوسف: ٢١.

ومن الإنصاف الذي لا بد أن يتحلى به الناقد إذا أراد أن يقدم نقداً لأي خطاب، هو أن يكون مُلِمّاً بواقع هذا الأمر، وأن يحدد بدقة محل النقد، وأما الاكتفاء بالحديث العام العائم فهي طريقة كسولة، وتفكير ضعيف يحسنه كل أحد، وهو مبني على فراغ كبير في الذهن.

فأي إنسان يستطيع بكل سهولة أن يقول: إن العرب والمسلمين لم يقدموا

شيئاً يذكر، وأن كل المشاريع والكتب الموجودة هي مجرد جهود قام بها الآخرون، وأن ما يكتبونه هو ترجمات لما عند الغرب من دون أي إضافات حقيقية، ويمكن أن تكرر نفس هذه الأسطوانة مع كل مجال من المجالات التي أخفق فيها العرب كعلم الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، ويمكن أن تمدد أيضاً إلى بقية العلوم بنفس الطريقة، فهي طريقة كسولة رخيصة لا تكلف الشخص أي مجهود يذكر سوى اختيار الكلمات المناسبة وحسن رصّ العبارات، لكن من يحترم العلم ويقدر الموضوعية يخجل من مثل هذه الإطلاقات، لا لأن العرب والمسلمين ليس لديهم هذه العيوب والنواقص، ولا لأن هذه العلوم التي لديهم سليمة من النقد، بل لأن شروط النقد تتطلب العلم بالواقع وليس التمدد وفق فراغات كبيرة من ضعف الإدراك.

وأمثال هؤلاء النقاد لا يرون في الطعام اللذيذ إلا الشعرة التي سقطت فيه سهوا، ولا يبصرون في الثوب النظيف إلا قطرة الحبر التي أصابته خطأ، ولا في الكتّاب المفيد إلا خطأ مطبعيا تسرب إليه. ونحن هنا لا نقول إن هناك شعرة بل هناك شعرات، ولا نقول إن هناك قطرة حبر بل هناك قطرات، ولا نقول إن هناك خطأ مطبعيا واحدا بل هناك الكثير من الأخطاء، ولكن هذا لا يعني أن نرمي الطعام أو نتنازل عن الثوب أو نعرض عن الكتّاب، بل نحن مطالبون كنقاد ننتمي إلى هذه الأمة بأن نُرِي أمتنا بعد أن نضع يدها على الشعرات في طعامها كيفية التخلص منها، ونرشدها إلى كيفية البحث عما يزيل البقع التي تشوِّه ثوبها، وأن عليها أن تتحاشى الأخطاء المطبعية في إصداراتها القادمة.

ما يمكنني أن ألخصه في النهاية، هو أن نجنح إلى النقد المنصف المسؤول الباني لا الهادم، حتى لا تتحول نخبة النقاد كجيش الذباب الذي لا يقع إلا على الجروح ليزيدها التهابا، فكيف ننتظر منه أن يعالجها أو يوقف تدهورها؟ بل يكون سببا في



زيادة تقيحها وتوسعها وانتقالها إلى أعضاء أخرى في الجسد الاجتماعي.

بإمكان أي ناقد باحث عن الثغرات أن يؤلف فيها مجلدات وأن يقول في العرب والمسلمين ما لم يقله مالك في الخمر، وقد يكون محقا في كثير مما قال، ولكن ماذا بعد؟ وهنا يظهر من بكى ممن تباكى، ومن ينقد لذات النقد وإبراء للذمة، ومن ينقد ويتحمل المسؤولية بداية من الإنصاف في تشخيصه ونقده، ثم في تحمله مسؤولية هذا النقد ومساهمته في البناء وإيقاف الهدم، وإلا فيؤسفنا أن نقول لهؤلاء النقاد الذين يحبون الظهور على حساب توسيع جراحات أمتهم، ويستمدون حبر أقلامهم من دمائها المسفوحة، إننا لم نجد خيركم، فكفوا عنا شركم.

قد يئسنا منك خيرا فكفانا الله شرك

وهل يصلح العطّار ما أفسدَ الدهر؟

نحن في بلادنا نتعامل مع قضية التربية والتعليم على مستوى الحوار والنقاش، وعلى مستوى الواقع المعاش كمن لديه شجرة هزيلة ذابلة، تتساقط ثمارها المُرّة المعطوبة، فأخذ يهذِّب أغصانها، ويشذِّب أوراقها، وينظف ثمارها، ظنا منه أن هذا سيعالج ضعفها البادي، ويمنع سقوطها الوشيك، دون أن ينظر إلى جذع الشجرة المنخور، ولا إلى جذورها الممتدة خلال التربة البُور!

تذكرت هذه المقولة للدكتور /علي أحمد مدكور وأنا أطالع الحوار والنقاش والمداخلات حول موضوع واقع التربية والتعليم في بلادنا ـ وغالبية الدول العربية والإسلامية بالطبع ـ وكيفية إصلاحه والنهوض به، فتكشف لي أننا لا زلنا نعيش ظِلال هذا التشبيه، ولا زلنا نبكي على أطلال التربية والتعليم، دون شدّ الرحال إلى البدايات والجذور وجرثومة المرض بدلا من معالجة الأعراض، التي وإن اختفت لفترة إلا أنها سرعان ما تعود إلى الواجهة من جديد، لأن الجذر مصاب وفي حالة علة لم يبرأ منها.

ولهذا لا بد أن ندرك أن هناك فروقا كثيرة بين مفهوم (المنهج) ومفهوم (البرنامج)، فمفهوم المنهج يتبع المدرسة الإنسانية، التي تؤكد على ضرورة أن يبدأ البناء المنهجي من الفلسفة والأسس النظرية، التي تتحول إلى تطبيق عملي، في صورة أهداف، ومحتوى، وطرائق وأساليب للتدريس والتقويم والتطوير. أما مفهوم البرنامج فهو يتسق مع مفهوم المدرسة المادية السلوكية، التي لا تهتم كثيرا بالفلسفات والنظريات، وتبدأ البناء المنهجي بالجانب العملي، ابتداء بالأهداف، فالمحتوى ... إلخ. وما يدور حوله الحوار والنقاش في الغالب هو موضوع البرنامج لا المنهج، وإن تم التطرق إلى المنهج فيتم



المرور به مرَّ الكرام.

وهذا ما يجعل حواراتنا تتم في الطابق الأول والثاني حسب توصيف (ت. مور، في كتابه النظرية التربوية)، الذي تحدث عن طبيعة العلاقة بين الفلسفة والنظرية التربوية، حيث يشبه العملية التربوية بالبناء المكون من عدة طوابق، ففي الطابق الأول توجد مختلف الأنشطة والممارسات التعليمية، كالتدريس والتدريب والتخطيط، وكل الممارسات التي يشترك فيها المدرسون والطلاب والإدارة المدرسية. وفي الطابق الثاني توجد النظرية التربوية التي يمكن اعتبارها مجموعة من المبادئ والإرشادات التي تهدف إلى توجيه وإرشاد الممارسات التعليمية الجارية في الطابق الأول. وفي الطابق الثالث أو الأعلى، توجد فلسفة التربية التي تُعنى بكل ما يدور في الطابقين الموجودين أسفل منها، إنها تحلل المفاهيم مثل التربية، والتعليم، والخبرة، وتحدد المعاني التي تدخل في بناء النظرية في الطابق الثاني، وتوجه الممارسات في الطابق الأول.

وهذا يقودنا إلى التأكيد على أن مفهوم الأصالة والمعاصرة يختلف من منظومة حضارية إلى منظومة حضارية أخرى، ففي المعاجم العربية نجد أن الأصالة في الرأي: تعني جودته، والأصالة في الأسلوب: تعني ابتكاره، والأصالة في النسب: تعني عراقته، وأصل الشيء: يعنى أساسه الذي يقوم عليه، ومنشؤه الذي ينبت منه، وأصول العلم: تعني قواعده التي تُبنى عليها أحكامه، وبناء على ذلك، فالأصالة في التربية تعني اعتمادها على القواعد والأسس الأصيلة التي تقوم عليها، والأرض التي تنبت فيها، وأصالة التربية تعني أن يجيء التفكير التربوي بجميع ألوانه وأنماطه متسقا مع التصور الإيماني لحقيقة الألوهية وحقيقة الكون، وحقيقة الإنسان، وحقيقة الحياة، فهذه هي القواعد التي تقيم نظم التربية وتهدي إلى مثلها، وطرائقها وأساليبها.

وقد ترسخ اتجاه في البحث التربوي والاجتماعي عموما، يقوم على عدم الإيمان بقيمة البحث إلا إذا كان (إمبريقيا)، وإلى تركيز الجهود والطاقات في البحث على دراسة الواقع بطريقة مباشرة، والتحديد الإجرائي للمصطلحات، ودراسة العلاقة بين متغيرين أحدهما مستقل والآخر تابع، وتصميم الاستبانات على هيئة تحقيقات جنائية في معظمها، حسب وصف الدكتور أحمد المهدي عبد الحليم، في كتابه (نحو صيغة إسلامية للبحث الاجتماعي التربوي).

ولقد أدى كل هذا إلى إهمال التنظير، فلا البحوث تبدأ من نظرية معينة، ولا هي تنتهي إلى بلورة نظرية خاصة بنا ... وبمرور الوقت نمتْ الاتجاهات المعادية للتنظير، على أساس أنه (كلام إنشائي) أو (عبارات خطابية!) واعتبرت دراسة الماجستير والدكتوراه تدريبا على استخدام أدوات البحث، كأن التنظير لا يحتاج إلى تدريب، ولهذا اختلطت الأمور، واتجهت الأمور إلى معالجة الأعراض على أنها الأمراض، وتم الاهتمام بالموضوعات المحددة الصغيرة، لأنها أكثر مناسبة لاستخدام أدوات البحث.

والخلاصة التي نؤكد عليها هي: أن التصور الإسلامي لمناهج البحث العلمي لا يقف بمصادر المعرفة عند المنهج التجريبي وحده، إنه لا يهمله، ولا يقلل من شأنه ولا من شأن ثمراته المعرفية وإنجازاته التقنية الرائعة، فهو أحد ثمرات الحضارة الإسلامية الرائعة للإنسانية كلها. لكنه لا يقول بأنه السبيل الوحيد للمعرفة؛ فهناك المعرفة الربانية اليقينية المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهناك المنهج الاستقرائي الاستنباطي، وهناك المنهج العلمي للنظر العقلي، وهو منهج التفكير القائم على العلم والخبرة، وتمحيص الحقائق وعدم التأثر بمقررات سابقة لا برهان عليها، وعدم الاعتماد على الظن، وطلب الدليل في كل اعتقاد.

إن هناك فرقا كبيرا بين (المسؤولية الجماعية) وبين (المسؤولية الاجتماعية)، كما يقول الدكتور علي مدكور، «فالمسؤولية الجماعية إحساس الجماعة ككل بمسؤوليتها عن أفكارها وأفعالها وأفرادها، أما المسؤولية الاجتماعية فهي المسؤولية الذاتية نحو الجماعة، فالمسؤولية هنا مسؤولية ذاتية والإنسان مسؤول أمام ذاته عن الجماعة». ولا شك أن شرف المسؤولية من أسمى المقاصد في بناء المجتمع والمحافظة عليه.

ومن خلال ما سبق فإنني أعتقد أن التربية والتعليم تعبر عن (مشروع أمة)، وهي الوصيَّةُ على هذا المشروع، وأنه ما تم اختراق الأمة إلا من قِبَل أنها سلّمت زمام أمرها في كل المجالات (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية) لحكامها وحكوماتها، فتلونت كل حياتها بلون حكامها، على مدى العقود والقرون.

لقد أدرك الغرب في فتراته الأخيرة محورية دور الأمة (الشعب)، فبقي الشعب هو مصدر السلطات بالنسبة له، فالشعب هو الذي يمنح السلطة عندما يريد، وهو الذي يسحبها عندما يُساءُ استخدامها، وهو أيضا الوصيُّ على مؤسساته بشكل عام، حتى لا تتغول في الشعب الفردية والجهوية، وهو ما كان معمولا به في بعض صفحات التاريخ الإسلامي المشرقة، وخاصة في مجال التربية والتعليم، حيث كانت الأمة أقوى وأكثر استقرارا في جميع المجالات وأبعد عن التبعية لغيرها، عندما كانت مؤسسات الأمة بيدها، وكانت تتراجع ويتسلط عليها غيرها عندما تكون هذه المؤسسات بأيدي الحكام ومن يوالونهم، وعند ذلك تفقد هذه المؤسسات عوامل بقائها لأنها لم تعد مشروع أمة بل مشروع حكومة أو جماعة أو مذهب.

وعندما تستعيد الأمة وصايتها على مؤسساتها وعلى رأس ذلك مؤسسة التربية والتعليم، عند ذلك يمكنها أن توظفها لصالحها، وتؤسس من خلالها بنيان حاضرها،



وتستشرف بها ومن خلالها مستقبلها ومستقبل أجيالها، وعند ذلك - أيضا - لن تحتاج إلى الترقيع الذي سرعان ما يؤول ثوبه للتمزق، فكثيرا ما نقرأ ونسمع ونشاهد من ينادون بتبني الرؤية اليابانية أو الأمريكية أو الفنلندية أو الغربية عموما في مجال التربية والتعليم أو غيرها من المجالات، في حالة من التماهي والاستلاب والتبعية لا تنبئ عن بحث جاد عن حلول لمشكلاتنا من بيئتنا ومن بين ثنايا ذاتنا وتربتنا الحضارية، وعندما نكون على مستوى ديننا وهويتنا الحضارية عندها سنستفيد مما لدى الآخر من رؤى وطرق لتحسين العملية التربوية التي صار أصلها ثابت وفرعها في السماء.

إن داء التربية والتعليم ودواءها منها وفيها، فهي التي تزرع بذور نهضتها وتجني حصاده في حال أدركت هدفها وغايتها والأسس التي تبنى عليها، وهي التي تبذر بذور اضمحلالها وفنائها، وتجني حصاد ذلك تراجعا وتدهورا وانتكاسا، في حال تَخَرَّج من تحت يدها ساسة وحكاما وقادة ونخبا تشربوا أساليب الاعوجاج فيها، فلما تمكنوا وصار لهم صولة وجولة انقضوا عليها، فنقضوا غزلها من بعد قوة. ويمكن أن نشبِّه حال التربية والتعليم بما قاله الشاعر:

دواؤك فيك وما تشعر　　　　وداؤك منك وما تبصر

وحتى لا يفهم من عنوان هذا المقال أني أدعو إلى اليأس والقعود وعدم المحاولة، فإني أبادر إلى القول إن هذا ليس مقصدي، وأن جُلَّ ما أريده هو توضيح أُسِّ الداء ومكمنه، حتى توجه إليه كل الجهود، بدلا من استنزاف الجهد والوقت في أعراض المرض، بينما الأصل استهداف المرض ذاته، وإلا صار حالنا كمن يعيبون على المأمون والمعتصم نصرتهم لطائفة، وينسون في غمرة فرحتهم المتوكل الذي نصر طائفة أخرى، بغض النظر عن أيهما أقرب إلى الصواب؟ وهذا ما أكد عليه بعض



المتداخلين الفضلاء موافقة أو رفضا.

وأختم بالقول إني لا أزعم أن هذا المقال أو هذه الرؤية قد جمعت أطراف الموضوع، فالقضية أوسع من حصرها بمثل هذه المساحة الضيقة، وهي في حاجة إلى جهود جبارة تزيح عنها تراكمات السنين وثقل القرون، حتى يتمكن العطار من إصلاح ما أفسد الدهر، ولا أقصد (بالعطار) هنا فردا، بل أقصد جماعة أو نخبة ينوبون عن الأمة ويستشيرونها في إصلاح فساد التعليم وإعادة الأمور إلى نصابها فيه. والله من وراء القصد.

غربة اللغة العربية بين أبنائها

الذين يعملون في التربية والتعليم، أو التعليم العالي يدركون ما أرمي إليه، وما أقصده بغربة اللغة العربية بين أبنائها وأجيالها المعاصرة والمستقبلية. فاللغة كوعاء للفكر وكأداة للتواصل، أصابها التآكل في أغلب إن لم يكن كل مهاراتها، قراءة وكتابة وتعبيرا وإملاء وخطاً، وهذا أمر يُشعر المرء بالمرارة والأسى والأسف.

أبناء اللغة العربية الذين درسوها على مدى ١٢عاماً (المرحلة الأساسية والثانوية) لا يستطيعون التكلم بها بشكل صحيح، ناهيك عن الكلام بها بشكل فصيح، ولا يتقنون خطها وإملاءها بشكل سليم، فخطوطهم لا تُقرأ، وأخطاؤهم الإملائية فاحشة لا يمكن السكوت عنها، أما التعبير بها قولا أو كتابة فهي مما لا يوصف ولا يعبر عنه، لكونه قد فاق ما يقال. وما يقال عن خريجي الثانوية يقال عما بعدها (الجامعة)، ولا يمكن استبعاد حتى خريجي أقسام اللغة العربية في الجامعات إلا ما ندر منهم.

هذا الاغتيال المسكوت عنه، والوأد المتغافل عنه، ليس في صالح اللغة العربية ولا في صالح الهُوية العربية الجامعة، وله ما بعده من الانتكاسات، التي تبدأ باللغة لتتبعها بقية المجالات.

هناك اهتمام بالغ بلغات أخرى على حساب اللغة العربية، بل ويأخذ من رصيدها، ويحصرها في حيِّز ضيق كلغة مرتبطة بدين ولا تمتُّ إلى العلم والحضارة والمعاصرة بصلة، ويتم ذلك من خلال تشجيع تعلم اللغات الأخرى، ودعم هذا التوجه، وافتتاح معاهد لتعلمها، بل وسعي بعض المدارس الخاصة للتعليم بها، منذ الصفوف الأولى للسلّم التعليمي، على الرغم مما في ذلك من خطورة على (اللغة الأم) للطالب وإفراغ لهويته، ونحن هنا لا نرفض تعلم اللغات الأخرى، بل نحبِّذ ذلك،

ولكن شريطة ألا تكون على حساب اللغة العربية، ولا سحبا من رصيدها، وأن يتم السعي أولا للتمكن من اللغة العربية، ثم بعد ذلك لا حرج من تعلم لغات أخرى، أما أن يتقن الطالب اللغة الأجنبية قبل لغته العربية فهنا تكمن المشكلة.

أعتقد أن غربة اللغة العربية في هذا الزمان عائدٌ إلى غربة الأمة الحضارية، وغربة الدين الذي تحمله، فقوة اللغة من قوة من يحملها، ورقيّها من رُقي حملتها، وتطورها من تطورهم.

ليس أمامنا كحراس على أبواب التربية والتعليم، كمعلمين وأساتذة جامعات، ويأتي في مقدمة أولئك معلمي وأساتذة اللغة العربية، أقول ليس أمام الجميع إلا أن يتحملوا المسؤولية التاريخية تجاه لغتهم، من خلال إصلاح المعوج من اللغة في أبنائهم وطلابهم في المدارس والجامعات.

سيبقى الحب الخالد للغة العربية، هو التمكين لها لتصبح لغة حياة، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى واتساع، وسيبقى التغني بالعربية شعرا ونثرا، هو العمل على تحويلها إلى خط جميل وإملاء سليم وتعبير فصيح وقراءة طليقة، أما غير ذلك فيعني أننا نغني على غير (ليلانا) ونسلم على غير (ضيفنا) ونتوجه إلى غير (قبلتنا).

السلوك ثمرة التربية وهدف لها

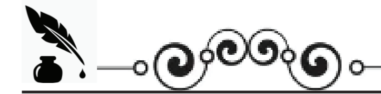
تابعت خلال الأيام الماضية النقاش والتجاذبات حول موضوع إضافة السلوك كمادة في المرحلة الأساسية والثانوية عدا الحلقتين الأخيرتين منهما، وكنت مشغولا، ولم تتح لي الفرصة لأشارك المتحاورين الفضلاء مداخلاتهم، فأحببت المشاركة ولو متأخراً، وأن تأتي متأخراً خير من ألا تأتي كما يقولون.

ويمكنني أن أضع مداخلتي في هذا الإطار من خلال نقاط سريعة ومختصرة، محاولا التركيز على لبِّ الموضوع قدر المستطاع، على الرغم من كون الأمر من الأهمية والخطورة محتاجا إلى بسطه بصورة أوسع وأعمق. وإليكم النقاط التي أراها جوهرية.

١-أؤكد في البداية بأنه سبق وأن نشرت قبل فترة قصيرة مقالا بعنوان (وهل يصلح العطّار ما أفسد الدهر؟)، والذي أعتبر هذه المداخلة امتداد له وتوضيحا لبعض جوانبه التي تحتاج إلى توضيح، ويمكنكم العودة إليه لتكتمل الصورة لديكم.

٢-أصارحكم القول إن التربية والتعليم ليست بخير، كحال بلدنا وأمتنا، معلماً ومنهجا ًوطالباً وبيئة مدرسية ومجتمعية، وأن هناك متلازمة بين تخلف المجتمع وتخلف تعليمه، فالمجتمع الضعيف والمفكك، ينتج تعليما مساويا لوضعه، والتعليم الضعيف الهزيل ينتج مجتمعنا ضعيفا مفككا، في عملية دائرية تنتقل من السيئ إلى الأسوأ.

٣- التعليم النظامي العام والجامعي في عالمنا العربي والإسلامي، والذي مضى عليه أكثر من قرن من الزمان، وتربّت على مائدته عدة أجيال، لا أراه من وجهة نظري تعليما يخدمنا ويبني نهضتنا، بل أراه يخدم أعداءنا أكثر مما يخدمنا، وإن وجدت فيه أو من خلاله هنا أو هناك بعض مدارس نادرة أو أفرادا (طلابا ومعلمين) نابهين، استطاعوا



التحليق بعيدا عن قيود هذا التعليم، وانتقدوه بقوة وشدة لا تخلو من قسوة، بل وصل الحال بالبعض اعتبار هذا التعليم على الكيفية والتراتبية القائم عليها سبباً مباشرا في إعاقة الأمة للخروج من الهيمنة الغربية.

٤-عندما يتم تبني منهج تربوي قائم على فلسفة المجتمع الذي صدر عنه، فإنه يضع في حسبانه أنه من خلال هذا المنهج يغرس ويؤسس ويعزز لسلوكيات مرغوبة، ويمنع أو يحاول تحجيم سلوكيات غير مرغوبة، تبعا للفلسفة التي يؤمن بها هذا المجتمع. وهذا يقودنا إلى القول إن ثمرة المناهج التربوية وهدفها هي تحويل مفرداتها النظرية إلى جوانب تطبيقية وسلوكيات حاضرة في حياة من نربيهم ونعلمهم، فالأمر ليس حفظا لمعلومات وترديدها أو استعادتها أثناء (الملحمة الامتحانية) بقدر ما هو توظيف لهذه المفردات في تعديل السلوك.

٥-قد تتباين الرؤى في كيفية قياس سلوك من نربيهم، لكننا لن نختلف على أن التربية والتعليم التي نهدف إليها هي رؤية من نربيهم يتحلون بالأخلاق التي ربيناهم عليها، فنجدهم حاضرين فيما نحب، ونفتقدهم فيما نكره، وهذا يتطلب من وجهة نظري أمرا يتعدى ما نسميه (مادة السلوك)، إلى أن يتحول المنهج إلى نظرية متكاملة قابلة للتطبيق في الحياة، من خلال التطابق بين (أقوال) من يربُون (كمنظومة مجتمعية)، وبين (أفعالهم وأحوالهم) التي يشاهدها من يتربَون بأم أعينهم متحققة في الواقع المعاش.

٦-الإنسان يعبَّأ منذ طفولته الباكرة، بأفكار وصور للسلوك يربيه عليها أبواه، ومن عسى أن يصادفه في محيطه، ثم تأتي المدرسة وتعليمها ووسائل الإعلام وشحناتها، إلى آخر تلك القائمة الطويلة فإذا هو في آخر الأمر (إنسانا مصنوعا) من الناحية الفكرية على أيدي

الآخرين. وهذا من أبرز مخاطر التربية ومنزلقاتها، كما هو من جوانب ميزاتها وأهميتها إذا تم التعامل معه بمسؤولية، كما هو معروف. وهذا بعض ما يشير إليه حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- (يولد المولود على الفطرة ...)، فالحديث صريح في فعالية التأثير الذي تمارسه البيئة المتمثلة في تقاليد الآباء وسلطة المجتمع في توجيه سلوك الأجيال الناشئة وإخضاعها لما تعارفت عليه تلك التقاليد، وهو صريح أيضا في أن المولود البشري يولد أول ما يولد وهو مستقل عن المجتمع الذي يوجد فيه وأخلاقه وعاداته، وأن هذه العادات أمر طارئ في حياته.

٧-السلوك بصفة عامة هو حركة لها (مصدر)، وتسعى إلى تحقيق (هدف)، وتعبر عن وجودها بمظاهر مختلفة (سلوك). وفي هذا دلالة واضحة على ما يمكن أن يصنعه المنهج (إذا صدقت النيات وتطابقت الأقوال مع الأفعال) من نهوض بالمجتمع لا يخفى على من لديه أدنى وعي، من خلال السلوكيات التي يبثها المنهج وتجد لها سبيلا في حياة الطلاب وفي حياة مجتمعهم. وفي حال تنكر المجتمع لقيمه التي يربي عليها أجياله من خلال المنهج النظري، عندها لا يلوم المجتمع إلا نفسه، فسيجد نفسه أمام أجيال يتصفون بسلوكين أحدهما (ظاهر) وهو ما يرغب فيه المجتمع، ولا يؤمن به الفرد، وآخر (كامن) هو ما يؤمن به الفرد، وقد يتناقض مع أهداف المجتمع، والذي لن يطول عليه الزمن حتى يظهر، إذا توفرت البيئة الداعية إلى ظهوره. فالأخلاق والمبادئ والقيم (المتأصلة في النفس) يحملها المرء معه أنّى ذهب، فتوجّه سلوكه، وتضبط حركته، لذا كانت المجتمعات الزكيّة الراقية هي التي تقوم على الأخلاق قبل أن تقوم على القانون.

٨-الإنسان يتميزُ بعقله. وسلوكِه هو الذي يدلُّ على ارتفاعه أو انخفاضِه. ويرتبط سلوكُ الإنسان في الحياة بأفكاره عنها، وتتكيف بحسب مفاهيمه عنها ارتباطاً فكرياً حتمياً وتكيفاً لا ينفصل عنهما؛ لأنَّ الإنسان يكيِّفُ سلوكَهُ وتصرفاته تجاه الأشياء بما عنده

من فكر عنها وعن الحياة. وهنا تكمن الخطورة للمرة الثانية، فالإنسان أسير الفكر الذي في رأسه، وبقدر ما تقوم التربية والتعليم بإحسان التعامل مع (مدخلات) فكر الإنسان، فإنها تصنع منه إنسانا يحمل صفة وأخلاق الإنسانية، وإلا فإنها في حال أساءت قد تجني عليه أولا، وعلى المجتمع ثانياً، ونحن هنا أمام مسارين: الأول يسير باتجاه تطابق المنهج مع الواقع (إيجابا أو سلبا)، والثاني اختلاف المنهج من واقع السلوك، وفي المسار الأول يمكننا أن نبني وننهض، أو ندمّر ونتراجع وفق طبيعة المدخلات، وفي المسار الثاني نحن أمام حالة انفصام، ونتائج هذا الانفصام كارثية كما هو معروف، وأعتقد أن تعليمنا العربي والإسلامي في أغلبه (إن لم يكن في مجمله)، يسير في هذا الاتجاه والمسار (المسار الثاني).

٩-الانتقاد للمنهج الذي ينتج السلوك، حتى وإن كنا نسلم بصوابه من الناحية النظرية، مهمة لا بد أن يقوم بها أعلام الفكر التربوي، وأن تكون لديهم الجرأة لطرح السؤال المحوري والجذري القائل: هل المنهج الموجود مؤهّل للنهوض بالمجتمع؟ وهل مخرجاته تتطابق مع أهدافه؟ ثم أين تكمن المشكلة بين هذا وذاك؟ أمّا أن نستمر في تبادل الاتهامات وتحرير المقارنات بين منهج ومنهج، فأظن أن من الواجب علينا أن نتوقف، وأن نشرع بكل مسؤولية في الإجابة على التساؤلات السابقة. ويمكننا في حالة الوعي المتيقظ الاستفادة من مناهج الغير (القريب والبعيد)، دون التماهي معها، أو محاولة تطبيقها كما جاءت من بلد المنشأ، وأظن أن هذه واحدة من الأخطاء التي علينا التخلص منها سريعا.

١٠-من يدرك طبيعة التربية يدرك أن مفاتيح التغيير تبدأ منها وتنتهي إليها، ولهذا يحدثنا التاريخ عن التوظيفات التي قامت بها الدول والأحزاب والمذاهب والأيديولوجيات لتلوين المستقبل القريب والبعيد بلونها، من خلال فرض رؤيتها على التربية، كما يحدثنا

التاريخ أن هذه التوظيفات لم تعمّر طويلاً، إذ سرعان ما تأتي توظيفات أخرى بديلة لتحل محلها، وهكذا في دورة تاريخية (تصنع الدّوار)، ولا تستقر على حال.

١١-التربية هي الرحم التي تنمو فيها أجنة المستقبل، وأي تلاعب بهذه الرحم يعني أن تصاب هذا الرحم بالعُقم، أو تشوّه الأجِنّة، أو الدخول فيما يسمى بالحمل الكاذب، الذي يُعتقَد معه أن هناك حمل، وليس هناك حمل بالفعل، إنما هي بعض أعراض الحمل ولا حمل، وهو حال التربية والتعليم في أوطاننا العربية، نظن أن رحِمنا التعليمي واعد بأجنة سليمة، ولكننا نكتشف أنه لا أمل في وجود أجنة، وأن الحمل مجرد حمل كاذب وإن ظننا أن هناك بعض أعراض الحمل. كما أن هناك ملحظا آخر في هذا الإطار، وهو أنه لا يمكن أن يحدث حمل خارج رحم الأمة وفلسفتها وهويتها، وأن أي حمل من هذا القبيل لا يمكن نسبته للأمة، بل هو أقرب للرحم التي نشأ فيها.

١٢-أحياناً يتطلب الأمر في إطار المنظومة التربوية التدخل، لإصلاح خلل ما في مسار التربية والتعليم، وهذا أمر مطلوب ومرغوب، إذا بُنِيَ على مراجعات سليمة ورؤى صائبة، ولكن هناك أمراض تربوية مستعصية، وفي أحيان كثيرة أمراض خبيثة، تحتاج إلى بصيرة التشخيص وبراعة الجراح، فمرض كالسرطان، يحتاج في استئصاله إلى تشخيص سليم وتدخل حذر، وإلا تحول التدخل الذي كنا نؤمل من خلاله استئصال السرطان، إلى انتشاره في الجسم بكامله، وهناك أمراض في التربية شبيهة بهذا المرض وفي حاجة إلى التشخيص المتقن، والتدخل السليم.

١٣-أمر أخير جدير بالذكر في هذه المداخلة، ويتمثل في السؤال التالي: من الوصي على التعليم الأمة أم الدولة؟ وأعتقد أن الإجابة الصريحة على هذا السؤال جزء من الحل، فكون التربية والتعليم تحت وصاية الأمة يعني أن تبقى بعيدة عن التجاذبات والتلونات



التي يمكن أن تكون إذا كانت تحت وصاية الدولة، وهذا ما يجب على الأمة القيام به وتحمل مسؤوليته، بدلا من إلقاء المسؤولية على نخب أو حكومات قد لا تحسن التعامل مع هذا المجال، التعامل الذي يخدم الأمة.



✍ مات محمد شحرور... ماذا بعد؟

أحدث موت محمد شحرور مؤخرا موجة من الردود المتباينة، ما بين مادح وقادح، فهناك من بالغ وغالى في المدح فجعل محمد شحرور مجتهدا ومفكرا إسلاميا من الطراز الأول، وصيَّر فكره حجة على كل المفكرين على الساحة الإسلامية، وهناك بالمقابل من جعل من الرجل شيطانا رجيما، وملحدا، بل وحكم عليه البعض بالكفر والزندقة والمروق من الإسلام.

أمام هذين الاتجاهين المتناقضين في تقييم شخصية واحدة، لا بد أن نقف بروِيّة وموضوعية، ونناقش الموضوع بنوع من الوعي، بعيدا عن العاطفة المشبوبة حبا أو بغضا، فلن يدخله حب محبيه الجنة، إن لم يكن من أهلها، ولن يدخله كره وبغض من يبغضه النار، إن لم يكن من أهلها، ثم إن دخوله الجنة أو النار لن يحل مشكلتنا مع أفكاره لمن يعارضونها.

أدرك أن طبيعة التباين حول شخص محمد شحرور، والاتهامات المتبادلة حوله لن تستمر طويلا، فبعد أيام قليلة ستخف ويطويها النسيان، ولكن يبقى الفكر الذي أنتجه الرجل، وصار له اتباع ومريدين، أقول سيبقى هذا الفكر (بعد أن يعود المادحون والقادحون إلى قواعدهم سالمين) يعمل في عقول الأجيال المخدوعة بفكر التحرر ورفع سقف الاجتهاد ومسايرة العصر، وهذا ما يجب أن يوليه المفكرون جلّ اهتمامهم، أما مصير محمد شحرور وأمثاله فهو بالنسبة لنا لا يقدم ولا يؤخر، إذا أدركنا الخطورة التي يمكن أن يصنعها فكره، وقد صنع فكره الكثير من الاتباع، وبلبل في المحيط الإسلامي أيما بلبلة.

الأمر أبعد مدى مما نقوم به غِيرة لمنهج الله وذبّا عن سنة رسول الله -صلى

الله عليه وسلم-، فمواجهة الفكر لا تتطلب كيل التهم وإصدار الأحكام، حتى وإن كانت تلك التهم والأحكام صائبة، ونظن أننا عند إصدارها قد أقمنا الحجة وأسقطنا الواجب الذي على كواهلنا، وهذا يحتاج إلى مراجعة صارمة، فمعاركنا مع شحرور وغيره على الساحة الإسلامية، لا تُحلّ من خلال إقامة حملات لا تبقي ولا تذر، ثم بعد ذلك للكعبة رب يحميها، فالثغور التي دخل منها شحرور وأمثاله لا زالت مفتوحة وتحتاج إلى المرابطة فيها، وهذا هو الواجب الذي علينا أن نقوم به وبجدارة.

إن مما يحسب للعلمانيين بكل طوائفهم أنهم يركزون جهدهم من خلال أفكار وأشخاص محددين، ويستمرون في دعمها أو دعمهم وتعزيز مواقعهم والترويج لهم والتعريف بهم، وتقديمهم في كل المحافل، وإظهارهم كمظلومين ومضطهدين ومطاردين، في مظلومية زائفة تستدر عطف الآخرين وتضامنهم، سواء من الداخل الإسلامي أو من الخارج، وما احتضان الغرب للعديد ممن يناهضون الإسلام إلا مؤشر واضح على ذلك.

بينما نجد في الطرف الإسلامي نوع من العشوائية، والجزر المعزولة، وأحياناً المناكفات والمشاحنات، إذا هدأت معركتهم مع التيارات المعادية للإسلام، اشتعلت بينهم، متمثلين قول الشاعر:

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

هذا التوجه الإسلامي في حاجة إلى أن يعيد ترتيب صفوفه، ويرابط في ثغور الأمة المهمة، ويدخل في المعارك التي لا يفرضها الخصم عليه، ومن خلالها يستنزفه، ويستثمر أخطاءه.



والسؤال الذي نحتاج أن نجيب عليه بصراحة هو: إلى متى تستمر ردود أفعالنا ضد أي شخص أو فكرة، بهذه العشوائية والسطحية التي قد تصل إلى حد السذاجة؟ متى نستطيع أن نكون نحن من يصنع الفعل لا أن نكون صدى لأفعال الآخرين؟ متى يمكننا أن نتقدم خطوة أو خطوات على العلمانيين حتى لا نستهلك طاقتنا في الردود عليهم، وعلى المسائل التي يختارونها هم؟

أخيراً علينا أن نستثمر هذه الغِيرة على ثوابتنا بطريقة واعية، فنحوِّل هذه الغيرة إلى دراسات جادة تفضح زيف هؤلاء المتقولين، ونحولها أيضا إلى مراكز أبحاث تبلور التوجه العلماني في العالم الإسلامي، واقتراح برنامج عملي للفعل وليس لرد الفعل، ونحوِّل هذه الغيرة إلى رابطة أو روابط للرواد، ممن يهمهم أمر الإسلام، لتقديم رؤى ناضجة لا تستجيب للعواطف بقدر ما تجعلها وقودا للإنجاز في دحض شبهات المدلسين، عندها يمكن أن نقول أننا استثمرنا هذه الغيرة النبيلة، وحولناها إلى مؤسسات، ووضعنا أقدامنا على جادة الطريق الصحيح، إمّا هذا أو سيكون حالنا كما قال ذاك البدوي عندما أخذ اللصوص إبله، وعندما سئل عن خطته الاستراتيجية في دفعهم قال: (أوسعتهم سبا وساروا بالإبل)، وما نخشاه هو أن نوسع العلمانيين سبا وشتما واستنقاصا، ونصدر عليهم الأحكام الدنيوية والأخروية، ويستفردون هم بشباب الأمة ويسوقونهم إلى مسارات التيه والتبعية. والله من وراء القصد.



تساؤلات لا تنقصها الصراحة

أعتقد أن التصنيف والأحكام المسبقة على بعض الأشخاص وبعض الاتجاهات، تجعلنا نصدر الحكم بارتياح بالغ، فهم حسب رؤيتنا لهم (يُصدِرون صكوك العقلانية والغيرة)، وهم (عقليات كسيحة)، وهم أيضا (عاجزون عن المناقشة العلمية)، وبعد أن نصدر الحكم نسدل الستار ونعود إلى منطقة الارتياح التي أصدرنا حكمنا من خلالها.

قلت سابقا، أننا قد نختلف مع هذا أو ذاك، جزئيا أو كليا، ولكننا مطالبون بأن لا نسلبه حق التصريح برأيه، دون أن تناله على هذه الآراء كلمات التشنيع والإرهاب، وإلا ما الفرق بينه حين ينتقد فلانا ويهاجمه لأفكاره وبين من ينتقد فلانا الآخر ويهاجمه لأفكاره أيضا؟ أظنهما متساويان وإن قيل غير ذلك.

ثم دعوني أذكر أمرا أتعجب منه، وهو أنه كلما قيلت انتقادات لمحمد شحرور أو غيره انتفضت أقلام للدفاع عن شخصه وأفكاره (بحجة الموضوعية والعلمية والإنصاف ومناقشة الفكرة دون قائلها)، وتجهيل من ينتقده، ووصمه بأقذع الأوصاف، وأنه لا يعي ما يقول، وكأن محمد شحرور صار من الثوابت والخطوط الحمراء أو من المعلوم من الدين بالضرورة. وأتساءل مرة ثانية: ما الفرق بين من ينتقد شحرور لتجاوزه وتقوّله على ثوابت ومعلومات من الدين بالضرورة، وبين من ينتقد ويهاجم من يردون على شحرور ويكيلون له الصاع صاعين، وقد يكون هؤلاء محقين في كثير مما قالوه، ومتجاوزين في البعض الآخر، يحكمهم في بعض أحكامهم العقل والمنطق والبرهان الشرعي والعلمي، ويحكمهم في البعض الآخر ردة الفعل والجانب العاطفي والسطحية.

ومع هذا وذاك، كلما أراد أحد ما أن يفنّد أو ينتقد أو حتى يهاجم بعض



أفكار شحرور، طالبه البعض بانتهاج المنهجية العلمية، التي ضرب بها شحرور نفسه عرض الحائط، وقال كلاما وأصدر أحكاما لا تمت إلى العلمية بصلة، فكيف تريد من الآخرين أن يناقشوا ما لم يتم بناؤه على منهجية علمية، وتطالبهم أيضاً أن يكونوا علميين ومنهجيين في أمور واضحة وجلية وأحيانا قطعية ولا تحتاج إلى فرضيات ولا إلى مقدمات، إلا أن يقال فيها أنها في واد والإسلام في واد آخر، وأنها تطعن الإسلام في الصميم، يقول ذلك العالم والفيلسوف والإنسان العادي.

هناك فارق كبير بين من يبحث عن الحقيقة، ويطالبك بأن تحاوره، لتعينه على الوصول إليها، فالحقيقة غايته ومطلبه، يحاور الآخرين ليصل إليها، فإما أن يزداد يقينا بما لديه، وإما أن يتراجع عنه، وآخر لا هم له إلا أن ينشر فكره بغض النظر عن صوابه أو خطئه، وما على الآخرين إلا استقباله بالترحاب، فما ينشره (مرسل للتنفيذ) لا للمناقشة، وهذا ما قد ينطبق من بعض الوجوه على فكر شحرور والمدرسة التي ينتمي إليها، فليس لديهم استعداد للحوار أو تقبل الرأي المغاير لهم، بل يصدرون أحكاما ويقولون كلاما ليس له سند يُقيمه، فإذا رد عليهم من يختلف معهم (وقد يكون في بعض الردود قسوة وشدة وصرامة)، ادّعوا المظلومية، وأنهم مستهدفون في أفكارهم وأشخاصهم، ومن خلال هذه المظلومية تقوم دور النشر ووسائل الإعلام وأحيانا الدول بتبني رؤيتهم وتسويقهم كمفكرين مطاردين من أناس متحجرين وظلاميين وسطحيين لا يفهمون الإسلام العصري، ثم يأتي بعد ذلك حتى من داخل التيار الإسلامي من يدافع عنهم باستماتة، وكأن صفحتهم بيضاء وسجلهم نقي، ولو تأمل المتأمل المنصف فيما كتبوا وهاجموا وشنعوا بثوابت الأمة، وقارنه بما قيل عنهم من خصومهم لوجد أن سجل خصومهم أكثر نصاعة من سجلهم، ولكن نحن في الزمن الذي لا تنقضي عجائبه، نرى القشة في عيون من يردون على شحرور وأمثاله جذعا، ولا نرى الجذع في أعين من



لم يعطوا للإسلام بكل ثوابته أي اعتبار إلا قشة صغيرة علينا أن نغض الطرف عنها، (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى) [النجم: ٢٢].

أقول أخيرا، إننا مطالبون أن ننتصر لقيم ديننا وثوابته ومبادئه بوعي ورشد ومسؤولية، لا أن نصرف جهدنا للانتصار لفلان أو علان، بحجة العلمية والمنهجية، فهناك قضايا يقال عنها (حق) بالفم المليان، وهناك قضايا يقال عنها (باطل) وبالفم المليان أيضا، دون الدخول في متاهات العلمية والمنهجية المغرقة في الاستدلالات، لأنها من الوضوح بمكان ولا تحتاج إلى مثل هذا الجدال الذي قد يسطِّح القضية أكثر مما يجليها.

هل لدينا الشجاعة العلمية لنقول لما لا يحتاج إلى أخذ ورد هذا كذا وهذا كذا (صحيح وخطأ أو حق وباطل)، دون البقاء في المنطقة الرمادية التي لا تقول شيئا، بقدر ما تزيد الأمر غموضا والأوراق اختلاطا، ثم بإمكاننا أن نختلف كيفما شئنا، وتكون لنا وجهات نظر متعددة، فيما حقه الاختلاف، أما أن نختلف ابتداء فيما هو واضح وجلي فهنا تكمن المشكلة، وهنا أيضا تكمن مشكلة أخرى وهي أنه قد ينشأ عندنا نزوع لنبرر ونسوّغ، ونقول كلاما يجافي الحقيقة والإنصاف، فيمن تجاوز، كما يمكننا أن نقول عنه أنه أصاب كبد الحقيقة، أو أنه مجتهد وله أجر أو أجرين، وبالمقابل يمكن أن نقول لمن وفِّق للقول الفصل أو قاربه إنه يحاكم الآخرين ويقول عنهم ما لا يقال، رغم أنه لم يقل عنهم إلا ما يقولوه هم عن أنفسهم.

الإنسان المتأمل تستوقفه بعض المحطات الفكرية، فيراجع فيها نفسه أولا، ويقيِّم ما حوله ثانيا، فيوفَّق أحيانا ويخفق أحيانا أخرى. يرى نجوما لامعة في سماء الفكر، كما يرى نجوما (تجوّزا ومن باب المشاكلة) باهتة لا تكاد تظهر للعيان، ويتعجب



كثيراً، عندما يرى من يحوِّلون تلك (النجوم) الباهتة إلى أقمار إن لم تكن شموسا ساطعة، في حالة من رد الفعل السجالي لا غير ولا سوى، وإلا فإن نجوم العلمانيين التي يروجون لها بكل ما أوتوا من إمكانيات مجرد دخان ارتفع إلى الأعالي، ومكانه معروف، بينما تواضع خصومهم جعلهم يظهرون على سطوح مائية أرضية وأماكنهم في الأعالي، ولعل البيتين الشعريين يعبران عن ذلك بوضوح:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر

على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه

إلى طبقات الجو وهو وضيع

وليس في هذا هجاء للعلمانيين بقدر ما هو تقرير لحقيقتهم، فالعلمانيون لا يرتفع شأنهم (إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) آل عمران: ١١٢، وهم (كالخشب المسنّدة)، التي لا تقف وحدها بل تبحث عما تستند عليه، وإن كان هناك بعضا من العلمانيين الشرفاء في طرحهم وخصومتهم مع ثوابتهم ومن يخالفونهم، فهؤلاء قلة نادرة يثبتون القاعدة العامة.

حماس بين شعوب مُحِبة وأنظمة مُبغِضة

موازين السياسة والعلاقة بالآخر دقيقة جدا، هذا في الوضع العادي، فما بالك بالأوضاع الاستثنائية والطارئة، والتي تحتاج إلى موازين أدق وتوازنات أكثر دقة. من خلال مفهوم العبارة السابقة تابعت كغيري التحليلات والمقالات التي يُقَيِّم فيها موقف حماس من مقتل قاسم سليماني، ما بين مستنكر ومبرر ومقدّر للظرف الذي تعيشه حماس، وما يحاك لها من مؤامرات من الداخل والخارج.

وتجد أن الجميع (المستنكر والمبرر والعاذر) كلٌ يدلي بدلوه، فالأول ينطلق من منطلق المبدئية غافلا عن الواقع فيجور في الحكم، والآخر يحكِّم الواقع والتكتيك متغافلا عن المبدئية ولو إلى حين، والثالث يرد الأمر إلى تقدير حماس واجتهادها ويعذرها في اتخاذ ما تراه أوفق لها وأرفق بحالها ووضعها، فهي تفقه المبدأ وتدرك الواقع، ولديها من الفقه ما تستطيع به أن تناغم بين المبدأ والواقع.

حماس كمشروع مقاومة ورأس حربة للإثخان في العدو والصبر على وحشيته وإجرامه، وتقديم التضحيات التي أبهرت وأربكت الصديق والعدو، أقول إنها كمشروع مقاومة لها في قلوب الشعوب العربية والإسلامية مكان المحبوب الذي من حقه أن ينصر ويُفدى بالغالي والنفيس، ولكن ما باليد حيلة، فهناك من يقف بينهم وبين نصرة من يحبون، وما كل محب قادر على الوصول إلى خندق من يحب، إلا أن يشاء الله، (لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) الطلاق: ١.

وحماس كمشروع مقاومة لم تستسغها الأنظمة الذليلة التابعة، التي قد تصل تبعية بعضها إلى العمالة، لأن حماس على قلة إمكانياتها تعملقت، بينما تقزّم هؤلاء إلى درجة الاضمحلال والتلاشي، فهم يقفون لها بالمرصاد ويريدون لها السقوط كما سقطوا

والاستخذاء كما استخذوا (فيكونون سواء)، ولكن هيهات، فقد أثبتت حماس أنها كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وبناء على ما سبق، فحماس في عيون من يحبونها مبرَرة مواقفها معذورة في تحالفاتها، وأغلب أصحاب هذه التقييمات من الشعوب، أما الطرف الآخر من المستنكرين فأغلبهم ذوِي توجهات متماهية مع أنظمتهم، وهؤلاء أغلب المستنكرين والناقدين الناقمين (في موقف حماس من مقتل سليماني أو غير ذلك من المواقف)، وهناك قلة قليلة نحسب أنه لا زال بهم نبل وشهامة الناصح المخلص وإن قسا، وهؤلاء يُرَحَب بنقدهم ويؤخذ على محمل الجد ويناقش مناقشة مستفيضة وهادفة.

لنأخذ في الحسبان أن الناقمين على حماس لن يرضوا عنها مهما كانت المواقف التي تتخذها، ولذلك يستفاد من نقدهم بقدر موضوعيته، ويرمى ببقية أحقادهم وتحيزاتهم في براميل القمامة، وبالمقابل فإن المحبين لحماس سيغفرون لها كل موقف، وإن وُجد من يقدم النصح من هؤلاء على مرارته فهؤلاء قلة، وربما صنّفهم البعض مع طائفة الناقمين.

وهنا يجب أن تعيد حماس تقييم مواقفها لا على استنكار الناقمين، مع الاستفادة من نقدهم، ولا على تبرير المحبين وتسويغهم على ما في ذلك من خطورة إن ترك فيه الحبل على الغارب، ولكن على حماس أن تقيِّم مواقفها على ضوء مبادئها التي استقتها من ثوابت دينها، ومن واقعها الذي عليها أن تفهمه بكل تعقيداته في ضوء مبادئها ثم تجتهد ما وسعها الاجتهاد (فلكل مجتهد نصيب).

ما أحب الوصول إليه في الختام، هو أن تقييم مواقف الآخرين بناء على قوالب جاهزة من النص أو الواقع قد لا يكون موفّقا، خاصة إذا أدركنا أن للواقع حركيته



المتغيرة التي تتطلب فقها متجددا يواكب حركية هذا الواقع، وهذا يتم في ضوء الثوابت الهادية، أما الجمود فليس لديه المقدرة على الاستفادة لا من ثبات النص ولا من حركية الواقع، فقد ينزّل نصا على غير الواقع الذي من المفروض أن ينزل عليه، ويفهم واقعا بصورة معوجة يلوي لها أعناق النصوص، فلا هو حافظ على مكانة النص ولا هو استطاع إيجاد حلول للواقع المتحرك، وهذا ما يقع فيه كثير من أصحاب التحليلات والمقالات فيشرقون ويغربون، ويظنون أنهم على شيء، ولكنهم في النهاية يكتشفون إن ما كانوا يظنونه ماء هو في الحقيقة سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.

عندما يكون خصوم نصر حامد أبو زيد مخطئين دوما...

يمكنني أن أختصر مداخلتي من خلال النقاط التالية:

١- في البداية يمكنني أن أتفق معك على أن هناك من يستغل العاطفة الدينية عند أغلب الإسلاميين، ويوجه مسارها أو يجني نتائجها لصالحه، وهي من نقاط الضعف كما تفضلت، على شرط أن لا يكون الحكم على إطلاقه، فكثير من القضايا والأحداث التي تم استغلال عاطفة التيار الإسلامي فيها هي في حقيقتها صحيحة وصائبة، والموقف الذي واجهها به التيار الإسلامي صحيح، ولو وِفّق التيار الإسلامي لجني ثمارها، وكان ذلك رصيدا مشرفا له، ولكنه غاب أو تم تغييبه عند جني الثمار، أو تفجيره من الداخل (أفغانستان نموذجا)، وهذا يدل على صدق العاطفة بداية وتراجع الفقه والفكر والوعي والرشد أثناء أو في نهاية المطاف، وقد لقي التيار الإسلامي من تراجع الفكر وعدم إدراك مكر الأعداء ودهائهم العنت الكثير، الذي لا زالوا يجنون بعض مرارته مع عدم اعتبار بعضهم من نتائجه.

٢- العاطفة الدينية، تلك التهمة التي تلصق بالتيار الإسلامي، وكأن هذه التهمة سُبة يختص بها الإسلاميون دون سواهم، وكأنهم الوحيدون الذين تسوقهم العاطفة، أما غيرهم فعقلاء وفطناء وحكماء، ويخططون لكل صغيرة وكبيرة بخطط ليس للعاطفة فيها أثر ولا نصيب، وهذا من باب المغالطة، ورمي التهمة على الغير مع وجودها فيمن يرميها، وإن كان لديه القدرة على استثمارها وتوظيفها، نظرا لمكره ودهائه، ثم إن العاطفة ليست تهمة على طول الخط، فمن خلالها تستنهض الهمم، ويعلى من شأن الإقدام والجرأة والنبل والتضحية والغيرة والحميّة، وفي كتاب الله وسنة وسيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شواهد كثيرة على ذلك، ولذلك نحن في حاجة عند الحديث



عن ترشيد التيار الإسلامي، إلى ضبط هذه العاطفة بضوابط العقل والمنطق، حتى لا تصبح عاطفة هوجاء، ولا تستغل أو توظف من قبل الآخرين في الداخل والخارج، وأن نضع نصب أعيننا التركيز على جني ثمارها والحصول على النتائج المرجوة منها.

٣- حديثك عن د. نصر حامد أبو زيد الذي أخذ جزءا كبيرا من المنشور، أوحى إليَّ بأنك محام بارع في الدفاع عنه وتحميل الآخرين كل نقيصة، وكأن من وقف ضد د. أبو زيد في حينه مجرد أميين وجهلة وسوقه لا يفقهون من الإسلام شيء، ولو أنك أنصفت الطرفين لكان لطرحك مصداقية أكثر، حيث أنك في أكثر من موضع منحت د. أبو زيد ألقابا وأوصافا تُشعر القارئ بأن من ردوا عليه (اتفقنا أو اختلفنا معهم أو مع بعضهم) قد خاضوا حسب قولك (تجربة شاهدة على حجم الخطيئة التي وقع فيها الإسلاميون في مصر وكيف استغلت عاطفتهم الدينية دون دراية أو وعي بمن يقف خلف هذه القضية بالذات ويمسك بأطراف اللعبة)، وكأنك تحدثنا عن مجموعة من الحمقى والسذج، وقعوا في شراك السلطة، وكان الأولى بهم أن يتركوا د. نصر يصول ويجول حتى لا يقعوا في هذه الخطيئة، فهل هذا ما قصدته؟

ثم تأمل معي أنك جعلت ما جرى بين د. نصر ومن يواجهونه معركة (مفتعلة)، وحملتهم كامل المسؤولية دون أن تلوم د. نصر حتى مجرد لوم لأنه فجّر معركة وأثار قضايا كان الأولى أن تناقش بغير الصورة التي ناقشها وطرحها بها.

٤- الحكم بين طرفين يتطلب الإنصاف وهذا ما غاب عن منشورك، فقد مدحت د. نصر مدحا مبالغا فيه في مقابل الاستنقاص من خصومه، وعدم ذكرهم إلا بكل ما هو شائن، وتأمل معي ما قلته أنت بالنص في حق د. نصر وخصومه، لترى مدى ما يمكن أن يبلغه الحب لطرف في مقابل البغض لطرف آخر: (لقد خسرت مصر



واحد (واحدا) من المفكرين الكبار في تواطؤها (تواطئها) على نفيه بعيدًا عن وطنه ووضع عراقيل وهمية لعودته، إلى جانب خسارة الإسلاميين أنفسهم ابتداء باستغلالهم وإلصاق تهم محاربة الإبداع والتفكير وتسجيل ذلك عليهم بالصوت والصورة، وانتهاء بوأد (بوأدهم) لواحدًا (لواحدٍ) من المجتهدين الذين أصروا على الاجتهاد والتأويل والتطوير والتحديث من داخل الفكر الإسلامي ذاته لا من خارجه.) وقلت أيضاً:(ليس ذلك فحسب، بل سيكتشف الإسلاميون بالتحديد حجم الجرم الذي مارسوه بحقه على المستوى الشخصي وحجم الخطأ في إرهاب وإبعاد مفكر من الحجم الثقيل بحجم الدكتور أبو زيد عليه رحمة الله).

فمصر كلها خسرت لأنها تواطأت على نفيه، وهنا إما أن يكون كلامك صحيحا أن مصر تواطأت وعند ذلك يكون د. نصر قد غرّد خارج ما أجمعت عليه مصر ولذلك تواطأت على نفيه، وإما أن يكون في كلامك مبالغة وعندها لا بد من مراجعة الحكم والتعميم الذي أصدرته.

أما حجم الجرم الذي ألصقته بالإسلاميين لأنهم مارسوا نوعا من الإرهاب ضد د. نصر في شخصه والهجوم الذي تلقاه من قبلهم بحسبانه حسب وجهة نظرك المفكر والمجتهد الكبير والمفكر من الحجم الثقيل، بينما الآخرين من خصومه سيعضون أصابع الندم لأنهم وقفوا في يوم من الأيام أمام هذا الحجة الذي لا يشق له غبار وليس له مثيل، إلى آخر المرثية التي أوردتها في منشورك، الذي أظن أن الهدف منه هو الإعلاء من شأن د. نصر حامد أبو زيد في مقابل تسفيه وتحميق أي رأي لخصومه من الإسلاميين.

٥- في الأخير علينا عندما نطرح مراجعات أن تكون هذه المراجعات منصفة، فكما

تقدم العيوب عليها أن تقدم المزايا، وعندما تقارن بين الخصوم يجب أن يكون ميزان العدل هو الحاكم، فتذكر عيوب الطرفين معا كما تذكر ميزاتهما، (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الأنعام: ١٥٢، كما أن علينا أن نقف كمفكرين ينتمون لهذا الدين، مع ثوابت وقطعيات ديننا، لا أن نبرر لهذا أو ذاك تجاوزهم وهجومهم عليه، سواء كان صديقا أو مناوئا، مع الأخذ في الاعتبار أن أغلب من ندافع عنهم أو نبرر لهم لا يلقون بالا لأسس البحث العلمي، حيث يرمون بها عرض الحائط، واضعين في الاعتبار أن وجهة نظرهم واجتهادهم هو الصواب، وأن من يقف أمامهم هو متعصب وعاطفي ومتشدد وظلامي إلى آخر الأسطوانة التي نسمعها عندما يرد على د. أبو زيد أو أركون أو شحرور أو غيرهم.

أتمنى أن أكون قد أوضحت وجهة نظري عن الموضوع المطروح، مع إيماني أن الحوار الذي يبني ويهدي هو الحوار الذي يقول (لا ونعم) ويتفق ويختلف مع من يحاور، أما الاتفاق مطلقا أو الاختلاف مطلقا فلا يمت للحوار بصلة. والله من وراء القصد.

عدنان إبراهيم وظاهرة الموسوعية.

الموسوعية، وكون الشخص دائرة معارف، كل ذلك لا يعطي لهذا الشخص جواز مرور ليحكم على كل صغيرة وكبيرة، ويتجاوز الحدود في بعض القضايا المعلومة من الدين بالضرورة، وخاصة فيما يتعلق بأمهات المؤمنين والمرضيِّ عنهم من الصحابة.

ثم من قال إن العلم مجرد موسوعية فقط، العلم خشية وتواضع وبعد عن طريق الظالمين، (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ) هود: ١١٣، فكيف يكون مع موسوعيته راكنًا لمن تبين ظلمهم وفجورهم وإجرامهم بل والدعاية لهم ومدحهم، العلم ليس امتلاك ناصية المعلومة، بل ما الذي توظف فيه، وما ينتج عنها من مردود على الفرد ذاته أو على مجتمعه، فإذا تحوَّل العلم والموسوعية إلى بلبلة وتشكيك وإثارة وتسويق للمجرمين، حتى وإن لم يكن كله كذلك، فقد مشروعيته الأخلاقية.

يطالبك البعض عندما ترد على أحد المجدفين بأن عليك أن تقرأ له كل صغيرة وكبيرة لتحكم عليه، وأقول يكفيني أن أقرأ عنه ما يمكنني من معرفته إجمالا دون الدخول في التفاصيل، لأني لن أقدّم حوله رسالة علمية، بل رأياً وموقفا، ثم إنه ليس لدي الوقت والجهد الكافي لأتابع تفاصيل كل المجدفين لأني عندئذ احتاج إلى عمر نبي الله نوح عليه السلام كي أستطيع أن أصل إلى الصغيرة والكبيرة لكل واحد من هؤلاء.

أخيراً وحتى لا نقف مبهورين أمام كل موسوعي أو دائرة معارف، فإن علينا أن نتحلى بالثقة في أنفسنا وأنه قد يكون عندنا ما ليس عند هؤلاء، فنقف أمامهم وقفة الواثق الذي يلزمهم حدهم لا أن تبهرنا أضواء موسوعيتهم فنتجاوز عنهم ولهم، فإنما العلم



الخشية، وهذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

ما أحببت التركيز عليه من مداخلتي هو غاية العلم التي تكسو صاحبها جلال العلماء وصفاتهم النبيلة، لا أن يصبح التقييم على أساس موسوعيته وعملقته، وغيرها من الصفات التي قد تلبس البعض ثيابا فضفاضة. وتصريحه بأنه ليس رجل سياسة مردود عليه، لأنه بالفعل لم يلتزم بهذا إلا حين تطلب الموقف منه قول الحق في قضايا معينة، أما مواصلته لمدح المجرمين والترويج لهم فلم يتوقف عنه، فلماذا يحل السياسة في جانب ويحرمها في جانب، ألا يجرح هذا في الثقة به. أما الاستفادة منه ومن غيره فلا جدال حولها، فيمكن للإنسان أن يستفيد من كل أحد مسلما كان أو غير مسلم، بل ربما يستفيد الإنسان حتى من الشيطان نفسه.

ما أخلص إليه هو أنني لا أرفض حسنات الرجل لوجود سيئات فيه هنا وهناك، ولا يمكنني قبوله بالكلية بغض النظر عن هفواته لأن لديه حسنات وهو موسوعي وعملاق. سأقول لحسناته مرحبا، وأقول لهفواته بعدا وسحقا، وإذا تطلب الأمر أن أقول رأيي فيه سأقوله منصفا له وعليه، لكن عتبي على البعض أنه يريد أن يبهرنا بالرجل حتى ندخل عليه وقد امتلأ روعنا مهابة وجلالا له، ما هكذا تورد الإبل، ومن أراد أن يقف أمام هذا الرجل موقف المتهيب الذي يظن أن الرجل قد أتى بما لم تأت به الأوائل فهذا شأنه، أما بالنسبة لي فسأقيمه وفقا لثوابتي ومبادئ التي أؤمن بها.

أتساءل في الأخير: ما الذي يراد ممن يختلف مع الرجل في القليل أو في الكثير؟ هل يراد منه أن يسلِّم له أنه حجة الإسلام أو أن يجعل منه شيخ الإسلام، أو أن يتعامل معه كبشر، ويقف منه كما وقف هو ممن هم خير منه على التحقيق موقف الناقد بل والمجرِّح والمدلِّس أحيانا.



تهافت تعارض القرآن وصحيح السنة.

بداية لا بد أن نؤمن عن يقين أن القرآن هو المهيمن على ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان القرآن يعاتب النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض الأمور التي حدثت، كما سورة عبس وموضوع عبد الله بن أم مكتوم، وفي قصة الأسرى في غزوة بدر، وغيرها من المواقف، بمعنى أن القرآن كان يتنزل في حال اتخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- موقفا خلاف الأصل ليوجهه إلى الطريق الأصوب، وفي هذا دليل أنه في حال ثبوت ما جاء عن النبي من قول أو فعل أو تقرير فإنه يدخل تحت التوجيه القرآني صراحة أو ضمنا، وإلا لكان لكلام الله المنزل (القرآن) موقفا واضحا بيِّنا، وفي حال عدم ثبوت الحديث أو وجود علل فيه تخرجه عن الصحة، عندها لا يمكن أن يقارن بالنص القرآني من حيث المبدأ، ثم إن سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت على نور القرآن ولم تكن مخالفة له، ومن قال غير ذلك فليراجع دينه، (كان خلقه القرآن).

أما أمر الشبهات التي يتم تجميعها، فليست وليدة اليوم، بل كثير منها بضاعة المستشرقين والطاعنين في الدين الإسلامي منذ زمن طويل، وإنما تم تجميعها في الطروحات وترتيبها وضم بعضها إلى بعض لتبدو منطقية من جهة، وقوية في الإقناع لكثرة شواهدها من جهة أخرى.

والملاحظ على هذه المقارنة بين ما سماه صاحب المقال بمحمد في القرآن ومحمد في السنة، وكأننا أمام شخصيتين مختلفتين، أو شخصية مزدوجة لها وجه قرآني ووجه حديثي مختلف عن الأول كما يروِّج لذلك هذا المقال، وهي بهذا الخصوص تفتقد للرؤية الكلية التي جاء بها القرآن، الذي يمثل عمود الإسلام ومصدره الأول، فالقيام

بعملية التجزيء والانتقاء، وتوجيه سياق النصوص بحيث تخدم اتجاها معينا، ليس سلوكا علميا كما هو معروف، فالإسلام لا يفهم بطريقة الانتقاء التي سماها القرآن (عضين)، (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) الحجر: ٩١، أي مجزّأ ومفرقا، يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعض، وهذا ما أدخل الإرباك في عقول كثير من المثقفين والمفكرين، ولو اتسعت رؤيتهم للإسلام بشموله، ما توقفوا أمام هذه الأمور التي تبدو بعضها في ظاهرها متعارضة، ولكنها في حقيقة الأمر تدخل تحت الرؤية الكلية، ويمكن فهمها بهذا الأفق، لا كما يريد صاحب هذا المقال أن يوهمنا أن هناك تعارضا وتناقضا، وهذا عائد لقصور فهمه لا لتعارض بعض ما ذكر.

وكمثال واحد يمكن أن نستقيه من ضمن الأمثلة التي ضربها صاحب المقال، ذكره موضوع الصفح فيمن أساء في حقه -صلى الله عليه وسلم-، وهذا صحيح، ثم أتي بحديث عن زيد بن حارثة.... دون أن يذكر لنا موقف النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذه الحادثة في حال ثبوت هذه الرواية وخلوها من العلل القادحة، ودون أن يدرك الفرق بين صفح النبي فيما يتعلق بحقه، وفيما يتعلق بحق الله، فقد عاتب الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- على أخذه الفداء في أسرى بدر، وكأن القرآن يوجهه إلى أن الأولى غير ذلك، فلماذا لم يشر صاحب المقال لذلك؟ لأن هذا ليس السياق الذي يريد الوصول إليه.

والذي لا يخفى على ذي لب أن هناك سعي حثيث من خلال كتابات تشابه هذه لإسقاط حجية السنة من خلال إظهار تعارضها مع القرآن، أو من خلال تناقضها مع بعضها، ولأننا ندرك أن الهدف ليس التحقيق والتثبت والبحث عن الحق بأسلوب علمي، وإنما الغرض مشبوه ومدخول، وله أغراض تخرجه عن كونه بحثا عن الحقيقة، وإنما رمي للكلام على عواهنه، وأحيانا خدمة لأجندة تسعى لهذا المسعى،



ولها أغراض قد تخفى عن مثقفين كثر يخدمونها بحسن نية وربما بسوء نية أدركوا ذلك أم لم يدركوا.

أخيرا أنصح كاتب المقال ومن يسير على نفس النهج، أن يعيدوا التعرف على دينهم من جديد، من خلال دراسة القرآن والسنة بكل صدق وتجرد وشفافية، وسيجدون إجابات شافية وافية عن كل تساؤلاتهم، أما التجديف والبلبلة والتشكيك، فهي بضاعة مزجاة، لم يعد لها رواج إلا عند أنصاف المتعلمين وعند المستشرقين وأذنابهم، ويمكن التوسع في هذا الموضوع من خلال قراءة كتب الدكتور منير شفيق الماركسي سابقا والمفكر الإسلامي حاليا، وخاصة كتابه (الإسلام)، وكذلك كتب الدكتور عبد المجيد النجار والدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وكتب الدكتور عبد الوهاب المسيري وخاصة كتاب السيرة الذاتية، ولا أنسى كتاب الدكتور وليد سيف الشاهد والمشهود، والله يتولانا بعفوه، ويهدينا سبيل الرشاد.

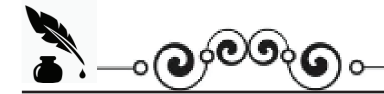
الطيب... الذي اختلف حوله الفضلاء.

لا أقصد بالطيب (طيب) تركيا، الذي فارقته (ال) التعريفية، لأنه صار معرفة بغير (ال) التعريف، وإنما أقصد (أحمد الطيب) نزيل القاهرة وشيخ الأزهر، الذي اختلف حول موقفه الأخير فضلاء كثيرون، ما بين مادح له على موقفه، وما بين قادح له، كون موقفه الأخير من باب ذر الرماد في العيون.

ولأنني لم أجد فرصة للمداخلة في حينه، إلا إنه يمكنني أن أدلي بدلوي، من باب أن تأتي متأخرا خير من ألا تأتي. أقول: إن من اعتبروا موقف الشيخ أحمد الطيب إيجابيا ويحسب له لا عليه، وفيه نصرة لقضايا الإسلام انطلقوا من كون الطيب لم يصدر عنه في أحداث الانقلاب وتداعياته ما يستوجب إدانته، وأنه لا ينسب لساكت قول أو رأي أو موقف، مقارنة بمن جاهر وفجر في الخصومة (علي جمعة نموذجا)، وأن مواقفه الأخيرة، ومنها موقفه الأخير تمحو ما قبلها، من باب (أن التوبة تجب ما قبلها).

أما من اعتبر ما صدر عن الشيخ أحمد الطيب سلبيا ويحسب عليه لا له، وأن هذا كان بضوء أخضر من قيادة الانقلاب لذر الرماد في العيون، وأن الأمر ليس شجاعة أو نصرة للإسلام، بقدر ما كان توزيعا للأدوار، لتجميل وجه النظام المتسخ، وكان دور الطيب هو ما قام به مؤخرا، وما سكوته عن الانقلاب وجرائمه المتتابعة إلا دليلا على تبعية الأزهر الذي يمثله شيخه الطيب لقادة الانقلاب، ولذا فقد اعتبر أصحاب هذا الرأي الدوران في فلك الانقلاب جريمة لا تغتفر، من باب (ليس بعد الكفر ذنب).

والذي أراه أن المكانة التي يحتلها الإنسان تتناسب طرديا مع المواقف التي عليه



أن يتخذها، فكلما ارتفعت مكانة الإنسان ومناصبه ترتبت على ذلك مواقفه وما يصدر عنه، وكما نقول في أمثالنا (من كبرت له كبرت عليه)، ولذا فإن ضريبة المكانة العالية ليست هينة، ومن تنعم بمغانم المكانة العالية فلا بد أن يدفع مغارمها، أما أن يقتصر على الأولى فقط فهو ليس صاحب موقف بل يعتبر المكانة مغنما لا مغرما، وهذا ما استند عليه أصحاب الرأي الثاني، من كون أن وقوف الرجل مع الانقلاب قد أعطى الانقلاب شرعية، وأضعف الطرف الآخر الذي قد يكون أكثر قربا للحق منه.

والموقف الأخير للطيب اعتبره الطرف الأول صحوة ضمير وانتفاضة متأخرة، وقياما بواجب الوقت، رغم ما في ذلك من مخاطرة، وإن كانت لن تصل إلى مخاطرة الرجل لو كان له موقف مغاير في أحداث الانقلاب، ففي الأخيرة (موقفه من الانقلاب) كان سيفقد روحه، بينما في الأولى (تصريحاته الأخيرة) سيفقد وظيفته كشيخ للأزهر في أسوأ الاحتمالات، هذا إذا لم يكن هناك توزيع أدوار على رأي الطرف الثاني.

ما أخلص إليه في هذه المداخلة هو: أن نفرق في تقييمنا وحكمنا على شخص ما بين ما قام به أو موقفه من حدث ما، أو تعبيره عنه بالكلام أو الموقف، وبين ردات فعلنا النفسية تجاهه، وإن كان الفصل بين هذه وتلك من الصعوبة بمكان، ولكن لنحاول أن نقوم بذلك، حتى لا نحول الطيب إلى ملاك أو شيطان، فمن يكره الطيب لموقفه من الانقلاب لن يقبل منه صرفا ولا عدلا، ولو تعلق بأستار الكعبة، ومن يرى في موقفه الأخير موقفا شجاعا، فيه نصرة للإسلام وقيمه، يدخل سيئته السابقة (دعمه للانقلاب) في بحر حسنته اللاحقة، فيفصل بين الأولى والثانية، ليصل إلى نتيجة أن الموقف الأخير هو المعتمد، وأن الله يتولى حسابه في موقفه الأول.

وحتى لا نرفض كل شيء ممن سلفت منه جريمة وذنب عظيم، أو نبرئ ساحة من فعل ذلك لما بدر عنه من بوادر فيها خير في حاضره، فإن علينا أن نرتقي بوعينا أكثر، فنرفض منه كل ما أجرم فيه وندينه به، وإن كنا نحبه، وإن بقيت له بقايا من احترام في نفوسنا، وأن نقبل منه كل ما أحسن فيه ونصر به الدين في أي موقف من المواقف، وإن كنا نكرهه أو لا زال في قلوبنا بقايا من بغضه، شريطة ألا يكون موقفه الذي نقبله منه - على مضاضة ما يعتمل في نفوسنا-، ليس من باب المخاتلة أو المخادعة أو تبادل الأدوار أو ذر الرماد في العيون، أو تلميع لسلطة ظالمة بمواقف وتصريحات في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب. والله أعلى وأعلم.

التكفير.... وقفات لا بد منها

١-التكفير أمر شرعي، فلا يطلق على أحد إلا بضوابط شرعية وقانونية، ولعظم خطورته وما يترتب عليه استعظمه العلماء الربانيون وتهيبوه.

٢-الرغبة في تكفير الناس وانتقاص أقدارهم وترويج التهم حولهم مرض نفسي خبيث، وأصحابه يتناولهم الوعيد الإلهي بلا ريب، (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النور: ١٩.

٣-لا يجوز تكفير مسلم بأمر تسعه الشريعة بتأويلاتها واعتباراتها، وإن تكفير المسلم بشبهة أو أمر تتسع له الشريعة الغراء بتأويلاتها واعتباراتها يعد إلزاما بما لا يلزم، وذلك لتعذر تحقيق المناط مع وجود الخلاف في النظر والاستدلال، فربما كفر شخص شخصا بشبهة لا تتعين إلا في نظره بسبب قصوره في الاستدلال أو سوء طويته، وغلبة سوء الظن عليه، والظنون لواقح الفتن.

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم

٤-الحذر من المسارعة في التكفير، إذ لا يجوز الإقدام على التكفير والمسارعة بإطلاق الحكم فيه دون تثبت البتة إلا في الأشياء الظاهرة الواضحة. وهناك قواعد وضوابط كثيرة يمكن الرجوع لها في مظانها.

لكني أتساءل ومن خلال متابعتي للسجال الدائر حول موضوع التكفير، أن الأمر قد تجاوز الحد من موضوع إطلاق صفة الكفر على الأفعال والأقوال التي توجب ذلك إلى الإسراف والاستسهال في إطلاقه دون ضوابطه وقيوده على

الأشخاص والجماعات، في توجه يمكن الحكم عليه بأنه أصبح ظاهرة، وأن الأمر انتقل من كونه تحري روح الشريعة في هذا الأمر، إلى الإدانة دون توفر الشروط الداعية لإطلاق مثل هذه الصفة، نظرا لعدم اكتمال الأركان التي بموجبها يمكن إطلاق كلمة الكفر، والقصور في جانب من يطلقها، قد يكون أحد دوافعها سياسي وعدائي.

أنا هنا لا أدافع عن طرف بعينه، بقدر ما أحب توضيح أن استسهال إطلاق كلمات الكفر والفسق والتبديع والرفض والنصب وغيرها من الألفاظ تحتاج إلى تحرز شديد، وإلا أصبحت مجالا لتبادل الإدانات بين الناس أفرادا وجماعات، وهان أمرها وفقدت أهميتها وخطورتها بشكل أو بآخر، كما أن كثرة طرحها وإطلاقها بهذه الكثرة والسهولة يفقدها معناها لتصبح مجالا للمكايدات السياسية والطائفية.

نحن مطالبون بأن ندرك الواقع والظرف الذي نعيشه، وننزل عليه من الأحكام ما يصلحه أو على الأقل يوقف تدهوره، وكم من أشخاص وقضايا من حقها أن يقال فيها حكمها ولكن الظرف غير موات وغير دقيق في طرحها، وبدل أن يصبح الحكم على هذه القضية أو الشخص أو الجماعة إصلاحا لها أو ردعا لها، ينقلب الأمر إلى فتح معارك تزيد الطين بلة وتخلط الأوراق.

أقولها صريحة مشكلة أهل السنة مع أنفسهم وفيما بينهم قبل أن تكون مع طائفة أخرى، والأحرى بهم أن يصلحوا ذات بينهم ويعيدوا ترتيب أوراقهم وأوضاعهم وعندها لن يحتاجوا إلى حملات التكفير التي تظهر بين حين وآخر، والتي لن تتوقف عند تكفيرهم للطوائف الأخرى بل ستصبح سارية المفعول فيما بينهم، وهو ما نراه اليوم بوضوح لا يحتاج إلى دليل.

رأيي أن الفتاوى التي تطلق من هنا وهناك بالتكفير لن توقف الطرف الآخر

بل تزيده شراسة، وسيستخدم نفس سلاح التكفير، وهو أكثر انضباطا وتماسكا ومرجعية من الطرف السني، وأنا هنا لا أقول بالتوقف عمن انطبقت عليهم شروط التكفير، ولكني أقول هل لذلك من مقصد شرعي؟ أم أن المسألة إطلاق للأحكام وليكن ما يكون، فهذا مناف لمراد الشرع الذي أمر المسلمين بالتوقف عن سب المشركين إذا كان ذلك يترتب عليه سب الذات الإلهية، (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام: ١٠٨.

أخيراً متى ندرك أن ديننا أوسع وأعظم وأجل من أن نحصره على الرفض والمفاصلة والمقاطعة وإخراج الناس من حظيرته لإسقاط حقوقهم في الدنيا وتخليدهم في النار؟ إذ في الأمر رؤى أخرى أقرب إلى روح الإسلام، وإن رأى فيها أصحاب المفاصلة نوعاً من القبول بالآخر الكافر، ففي الأمر تفصيلات كثيرة وليست متوقفة على الأبيض والأسود، وفيها كذلك الأمر العقدي والسياسي والمصلحي والثابت والمتغير. ونسأل الله أن يهدينا سبيل الرشاد.

فقه النص والواقع وفقه التنزيل

ما أقصده من العنوان هو أن نفهم النص ونفهم الواقع ونفقه التنزيل، حتى نوقف شراسة العدو الذي كلما زدناه سبا وشتما وتكفيرا كلما التهم جغرافيا جديدة من أراضينا.

ليست المسألة أن نصدر عليه حكما معينا، وليكن الكفر، ولكن المسألة ماذا بعد؟ لا بد من رؤية استراتيجية غير هذه الرؤية العدمية (والمراجمة) بالفتاوى التي يستفيد منها أكثر مما نستفيد منها، بل ويجيرها لصالحه ويزرع في جسدنا من يطبقها علينا لا عليه، داعش والقاعدة والجامية وطائفة من السلفية تعمل في هذا الاتجاه. أتمنى أن نفكر بقدر من الروية والعقلانية والمسؤولية للخروج من هذه البوتقة التكفيرية المهلكة.

دعنا نفترض أنه كافر، فإما أن يكون كافرا مسالما أو حربيا، ولا بد أن نتعامل معه بأحد الوجهين، أن تصادقه في حال المسالمة أو توقف بغيه في حال عدوانه، أما أن تستمر في إطلاق صفة الكفر عليه ثم تنتظر ردة فعله، عندها لا تلوم إلا نفسك فقد ألّبت على نفسك من لا يرعى فيك إلا ولا ذمة.

الأمر أبعد من التمترس في الخندق العقدي، فنحن مطالبون بأن نواجه الخصم بما يوجعه فعلا ويفت في عضده، لا بما يزيده شراسة.

بم يكفر المسلم؟

ويمكن أن أذكر لك ما قاله بعض العلماء في هذا الشأن، والمسألة تحتاج إلى تفصيل، ومختصرها كالآتي: الكفر يكون بواحد من أربعة أمور:

١-إما بالقول

٢-أو بالفعل

٣-أو بالاعتقاد

٤-أو بالشك.

وكما قلت سابقا أن الأمر يتطلب الحرص الشديد عندما يتعلق الأمر بتكفير الأشخاص والجماعات بأعيانهم، فيمكننا الجزم بأن الفعل الفلاني أو القول الفلاني أو..... يدل على الكفر أو هو كفر لكن تنزيله على أشخاص أو جماعات بأعيانهم هو ما يحتاج إلى تروي وتثبت، فتكفير أعيان الأشخاص والجماعات يترتب عليه نتائج وجزاءات وأمور شرعية وقانونية، ثم قبل هذا وذاك يجب استصحاب روح الإسلام ومقاصده السامية عند الشروع في هذا الأمر.

والمسألة ليست مسألة موضات كما يبدو للبعض، ثم من يقول بعدم تكفير الكافر إذا استوفى جميع شروط التكفير؟

ولتحرير محل النزاع يمكن القول إن الفعل الفلاني أو القول الفلاني أو الاعتقاد الفلاني قد يكون كفرا كما أشرت إليه في مقالك، وهذا لا نختلف فيه معك، ما قد نختلف فيه معك هو تكفير أشخاص وجماعات بأعيانهم، فهذا الأمر ليس كسابقه بل



يحتاج إلى توقف وترو وتثبت فإذا استوفى الشخص أو الجماعة شروط التكفير وانتفت جميع الموانع عندها يمكن القول بتكفير الأعيان.

والوعظ والكلام الإنشائي ليس فيه عيب إلا إذا دعا إلى غير قيم الإسلام السامية، وأظن أن الوعظ والكلام الإنشائي -إن صحت تسمية ما كتب من ردود بذلك -إذا كان حريصا ومتحرزا عن تكفير الآخرين بأعيانهم هو أفضل من التأصيل (الذي يحتاج إلى تفصيل) الذي يخرج الآخرين بأعيانهم من دائرة الإسلام، فأن نخطئ في التبرئة من الكفر خير من أن نخطئ في التكفير.

أعود فأقول إن المسارعة إلى فكر التكفير دون استكمال جميع أركانه مرض أصاب بعض رذاذه الحركات الإسلامية وعلى رأس ذلك بعض رواد حركة (الإخوان المسلمين) قديما وحديثا، نظرا لتأثرهم بالفكر السلفي، الجناح المغالي الذي خرج من عباءته الجاميون، وقد تأثروا به أثناء محنتهم مع بعض الأنظمة في مصر وسوريا وهجرتهم إلى بعض دول الخليج، ولكنه ليس ظاهرة بادية للعيان، ولكن تجد له صوتا هنا وصوتا هناك.

أصدقك القول إن التكفير بين الفرق التي تنتمي للسنة أكثر منه بين السنة والشيعة، وأنا وأنت وكثير غيرنا من وجهة نظر الطوائف المتشددة في الدائرة السنية خارج دائرة الإسلام، لأننا لا نوافقهم في اجتهاداتهم ولا نكفر من يكفرون.

لو كانت مشكلة السنة مع الشيعة والعكس هي مسألة التكفير لكانت المشكلة قد حلت من زمان، ولكن الأمر غير ذلك، وأضيف إلى ذلك أن كثيرا من القضايا التي قد يكفر بها السنة الشيعة أو العكس هي قضايا وتمترسات وتخندقات طائفية مذهبية، يحاول كل طرف أن يسندها بالنصوص الشرعية، وما القنوات التي تتبادل



الاتهامات بالكفر من الطرفين إلا أحد الأدلة، وكم يمول الطرف الشيعي من قنوات ليظهر لنا فلان من الناس ويأتي بكلام تحس من ورائه، وتشم من خلاله رائحة التخندق المذهبي والطائفي ولا تجد للإسلام فيما يقول أدنى رائحة، رغم سماعنا لآيات قرآنية محكمة، وأحاديث قد تكون صحيحة، وبالمقابل تجد دول الخليج تمول قنوات على شاكلة أختها الشيعية، فتجد مثل عدنان عرعور ومن على شاكلتهم ممن يزعمون تقدمهم في الصفوف للذب عن سنة أبي القاسم صلوات ربي وسلامه عليه، ولو ظهر محمد بن عبد الله لما رضي بما هم فيه من تهريج يضحك منه العدو والصديق على حد سواء.

التكفير سيف ذو حدين أن لم نضبطه بضوابطه الشرعية الصارمة، حتى يمكن التحكم بمساره، فسيجني علينا أيما جناية، وعندها لا يجدينا نفعا أن نقول كما قال صاحب المثل: بيدي لا بيد عمرو.

أتمنى أن يتسع صدرك الرحب لهذه المداخلة الهادئة، وأن يجنبنا النيران الصديقة التي قد يصلنا بعضا من دخانها، ومع كل هذا فأنت بالنسبة لنا علم لا تنكر جهوده، ولا يمكن المساس بمكانته ومنزلته، لكننا نخالفك الرأي، والود السابق لا يلغيه خلاف في الرأي اللاحق. والله وليّ الهداية والتوفيق.



المواطنة المقدسة ... عندما تكون التبعية مؤصلة.

لم أجد فرصة لأعلق على المقال الطويل حول موضوع المواطنة التي جعلتها نموذجا للقيم الحضارية التي خلدها القرآن، وتعجبت كثيرا من كون اثنين من المتداخلين قد أشادا بالمقال، الأول من خلال إعادة نشره دون أي تعليق في إشارة إلى قناعاته بما طرح، والثاني أشاد صراحة بالمقال، إضافة إلى بعض التعليقات الأخرى.

وملاحظاتي على المقال كالتالي:

١-بداية لو أنك ناقشت الموضوع مناقشة يفهم منها القارئ طبيعة المقارنة الناقدة لكان ذلك أجدى، ولكنك جعلت موضوع المواطنة وكأنها قيمة حضارية خلدها القرآن، ثم سقت أدلة حاولت من خلالها أن تعزز هذا الحكم، من خلال إقحام نصوص واستدلالات لا وجه لكثير منها للتأصيل للمواطنة كقيمة حضارية خلدها القرآن.

٢-رغم علمك وطرحك أن المواطنة مصطلح وافد وحديث النشأة، إلا أنك حاولت تسويقه وكأنه مصطلح قرآني خالص، من خلال الاستدلال بالنصوص القرآنية التي تتحدث عن الديار، وهذا المصطلح القرآني (الديار) لا يعني المواطنة بالطبع، مهما حاولنا أن نسوغ لذلك.

٣-لا أدري ما الذي يدعونا إلى تأصيل بعض المصطلحات الوافدة؟ ولماذا لا نناقشها كمصطلح وافد نشأ بظروفه وتطور حسب البيئة التي نشأ فيها حتى وصل إلينا بهذه الصورة؟ وهو شبيه بمصطلح الديمقراطية والليبرالية والمجتمع المدني والحكم الرشيد، هل المطلوب منا منح هذه المصطلحات جواز مرور إلى الداخل الإسلامي من خلال أسلمتها وتعريبها ويمننتها إن تطلب الأمر؟ فتصبح هناك اشتراكية إسلامية وديمقراطية



إسلامية وليبرالية إسلامية ومواطنة إسلامية إلى آخر ما يمكن أن يقال في هذا السياق.

٥-لماذا السعي الحثيث من قبل كثير من المفكرين الإسلاميين المتنورين للبحث عن النصوص الإسلامية من القرآن والسنة والتراث كلما ظهر مصطلح جديد، وكأن هذه المصطلحات صائبة في حقيقتها، ولا بد أن نوجد لها تأصيلات من ديننا، حتى وإن اضطررنا إلى لي أعناق النصوص لتتوافق مع هذه المصطلحات، في عملية بائسة لمتابعة الآخر حتى في مصطلحاته التي قد تقرب أو تبعد من الرؤية الإسلامية.

٦- ما خطر ببالي وأنا أقرأ مقالك أن هناك من يفكر كالتالي: مصطلحات القوي لا بد أن تكون قوية ومصطلحات الحضاري المتقدم لا بد أن تكون حضارية ومتقدمة، والعكس صحيح، وفي هذا نوع من التماهي مع الآخر إلى درجة أننا نحاول إدخال منظومته الاصطلاحية في قاموسنا الإسلامي، ولكننا نحتاج قبل ذلك إلى أسلمتها حتى تكتسب الشرعية، وهذا ما يقوم به البعض، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على شدة انبهار بالآخر وإنجازاته وحضارته، مما يوجد لدى بعض المفكرين حالة انفصام في قبول أو رفض هذه المصطلحات، فيفضل قبولها ولكن تأنيب الضمير لا يتركه وشأنه، فينتقل عندها إلى المرحلة الثانية وهي محاولة أسلمة هذه المصطلحات على علاتها، وهذا يذكرني بالذين كانوا يتحرجون من أكل الدجاج المجمد الذي يأتي من الخارج، وهل يذبح أم يصعق؟، ففطنت الشركات لهذا الأمر وصارت تكتب على غلاف الدجاج المجمد (مذبوح على الطريقة الإسلامية)، وانطلت الحيلة على الجميع، وصرنا نتناول مثل هذا الدجاج وضميرنا مرتاح، فهل هذا ما يريد أن يوصلنا إليه بعض المفكرين؟

٧- وحتى لا يسارع البعض إلى اتهامي بأني أرفض التفاعل مع مصطلحات الآخر، أسارع إلى القول أن هذا ليس هدفي ولا ما أؤمن به، لأن ما أؤمن به أن مصطلحات

الآخر ليست (مقدسة) كما يحلو للبعض أن يصفها، ولا أن مصطلحاتي لم تعد صالحة للاستخدام، وعلى هذا المنوال أتعامل مع مصطلحات الآخر في ضوء النصوص الحاكمة التي أؤمن بها في ديني، ومن خلال مقارنتها بمصطلحاتي إن تطلب الأمر، لعلمي أن هذه المصطلحات نشأت وتطورت في تربة غير تربتي، وتحمل تحيزات متعددة نظرا للخلفية التي صدرت عنها، وبناء على ذلك سأقبل منها وأرفض، باعتبارها تجربة إنسانية تستحق أن يستفاد منها.

٨- وحتى لا يقال بأني أتجنى على البعض عندما أرد عليهم بعض أطروحاتهم، لعدم الاختصاص أو عدم المعرفة، فقد كانت أطروحتي للماجستير والدكتوراه حول المواطنة، أشرف عليَّ في الماجستير كلا من البروفيسور عبد الغني قاسم الشرجبي والبروفيسور أحمد الدغشي، وكانت تحت عنوان (العوامل المؤثرة على قيم المواطنة)، والدكتوراه أشرف عليَّ فيها أحد البروفسورات الهنود، وكانت تحت عنوان (دراسة واقع تربية المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية بأمانة العاصمة صنعاء)، ومع هذا لم أصل إلى النتائج التي وصل إليها صاحب المقال في آخر مقاله، بل أجد نفسي الآن، لو قدر لي أن أرجع إلى الأطروحتين ناقدا ومفندا لوجدت ما يستحق التوقف عنده من جديد وربما نقضه، ولذا كان استغرابي شديدا من لغة الحسم والقطع التي ختم بها صاحب المقال مقاله.

٩-وعند الحديث عن المواطنة فإننا نتحدث عن حالة انتماء إلى أرض (جغرافيا)، تحدها حدود معينة، ويتمتع فيها الفرد بالحقوق التي كفلها الدستور، وتقع عليه بعض الواجبات بموجب هذا الدستور، وهو ملزم بهذه المواطنة (في حال كانت فاعلة) داخل وطنه له وعليه، أما إذا غادر فقد سقطت عنه، إلا فيما يتعلق بالجنسية، بمعنى أن الانتماء هنا محصور بالأرض والتراب والجغرافيا فقط، ولا يوجد انتماء إلى فكرة أو

دين أو عرق أو... لأن هذه ليست داخلة في دائرة الانتماء المواطنية. والسؤال: هل هذا يتفق وروح الإسلام الإنساني العالمي، الذي يؤسس الانتماء على الفكرة والمبدأ أولا، ثم لتأتي بعد ذلك بقية الانتماءات، وهنا يختلف الإسلام عن الأطروحات الغربية حول حقوق الإنسان، التي حولوها إلى حقوق المواطن، فالمواطن داخل أوطانهم له حقوقه وكرامته، ولكن خارج بلدانهم نجد هذه الحقوق تتبخر عن الآخرين لأنها لم تعد حقوق مواطنة بل حقوق إنسان وهذه خارج إطار المواطنة، وهذا الأمر لا يعنيهم من قريب أو من بعيد. ولهذا يُدخِلون العالم في صراعات، وتحصد أسلحتهم الآلاف هنا وهناك، وما الصراعات الجارية عنا ببعيد. فهل هذا يجعل المواطنة من القيم الحضارية التي خلدها القرآن؟ اللهم لا.

١٠-الخلاصات الثمان في آخر المقال تحتاج إلى مراجعة، فمهما جزمت ومهما كانت صيغة العبارات صارمة، فلا يعني أنها موفقة وصائبة، بل قد يكون العكس هو الصحيح، وسأورد نص بعضها وأعلق عليها تعليقا مقتضبا:

- قولك إن (مفهوم المواطنة إحدى السنن المتصلة بمقاصد القرآن)، وأقو: هل بالفعل صارت المواطنة إحدى المقاصد العامة للقرآن، وهل أغفلها من كتب في المقاصد إن لم يكن قديما فحديثا؟

- قولك إن (مفهوم المواطنة تضمنه القرآن بدلالات أقوى وأوضح)، وأعتقد أنك حاولت، ومع ذلك لم تكن الدلالات لا أقوى ولا أوضح.

- قولك إن (مفهوم المواطنة مبدأ مقدس). وهذا أمر عجيب وقد كررته أكثر من مرة، فماذا أبقيت للقرآن والسنة وقيمك ومصطلحاتك إذا كانت المواطنة مقدسة، أم هو من باب الكعبة المشرفة والنجف الأشرف.



- قولك إن (مفهوم المواطنة سنة من السنن الحاكمة للاجتماع). وكأننا نعيش قبلها في فوضى، وأن منظومتنا الاجتماعية كانت قاحلة فيسر الله لنا المواطنة لتسد الخلل.

- قولك إن (مفهوم المواطنة هو قضاء الله الكوني وأمره الشرعي، وانتهاك هذا المفهوم عدَّه القرآن كفرا، ورتب عليه عذابا وخلودا أبديا). أمام هذه فلا أجد مجالا للتعليق عليها، فهي من الشطحات التي تحتاج أن نقول معها، اللهم سلم سلم، وزكنا يا رب عقولنا.

- قولك إن (مفهوم المواطنة مبدأ مقدس في كل الشرائع السماوية). في كل الشرائع قديمها وحديثها سماويها وأرضيها.... ما أعجب هذه التعميمات، وما أجرأ البعض على إطلاقها.

١١- أخلص إلى القول أننا في أمس الحاجة إلى أن نتواضع قليلا ونبتعد ما استطعنا عن التعميمات والأحكام القاطعة، والتقريرات الباتة، وأن لا تبهرنا أضواء الآخر الاصطلاحية، مما يجعلنا نجر إلى طريقة تأصيلها بصورة متعسفة، كما كان يعمل بعض من جعلوا من الإعجاز العلمي ألعوبة، فعندما كان يظهر اكتشاف، يظهر لنا أحد هؤلاء ليقول لنا أن القرآن قد سبق العلم الحديث، في عملية استجداء محزنة تستدعي الشفقة، كما أن علينا أن نثق في مصطلحاتنا ونحاول تأصيلها، ونوجد لها آليات لتعمل في الميدان، ونستفيد من إنتاج الآخر في جميع المجالات في غير ما تبعية وتماهي، بل بطريقة يظهر من خلالها أن لدينا أرضية نقف عليها، ومن خلالها نقبل ونرفض. والله أعلى وأعلم.



عقلي ليس للبيع وليس متحفا للعرض

طلب إليَّ أحد الفضلاء أن أزيد الأمر في هذه التغريدة وضوحا وتفصيلا فيما يتعلق بآراء الشخص الناتجة عن قناعاته والناتجة عن قناعات غيره. فما أمكنني إلا تلبية طلبه لما في ذلك من الفائدة المرجوة.

فأقول موضحا ذلك في نقاط:

١-بداية هناك ثوابت في حياة الإنسان الفكرية والعقلية لا تتغير جذريا بل تتطور وتتوسع وتزداد تفصيلا، كلما ارتقى وعي الإنسان، وتوسع اطلاعه وتعمقت نظرته لما حوله، ويمكن أن نطلق على هذه الأفكار (الحقائق الرئيسية)، التي على ضوئها يفسر علاقته بالإله والكون والحياة، ومن الصعوبة تغييرها إلا في أندر الحالات عند الانتقال من دين إلى دين أو من أيديولوجية إلى أيديولوجية أو من مذهب إلى آخر.

٢-لا يمكن الجزم بأن الإنسان نتاج أفكاره الخالصة، بل قد يكون العكس هو الأكثر حضورا، فالإنسان في الغالب تشكله الأفكار المحيطة به، ويكون تأثره به واضحا وبينا، وهذا ما لا يختلف عليه اثنان.

٣- يبدأ الإنسان مشواره الفكري وتكوينه العقلي معتمدا على الآخرين، وخلال هذه المرحلة يبقى متلقيا في الغالب إلا من بعض الرؤى الاستقلالية التي تقل وتكثر من شخص لآخر، وعندما يصل الإنسان إلى مرحلة معينة (تختلف من شخص لآخر)، يبدأ بعض النابهين في غربلة حصيلته من الأفكار، فيقبل منها ويرفض ويقدم ويؤخر، في عملية تتوقف على حالة التوهج العقلي له، وطبيعة المدخلات التي يغذي بها عقله، وهناك من يحتفظ بما حصله من الأفكار خلال رحلته العمرية، ويحاول عدم

الاقتراب منها لا تفنيدا ولا تطويرا، بل تحول لديه كمية الأفكار التي جمعها على مدى عمره إلى (موميات محنطة)، يحاول الاحتفاظ بها وصيانتها، والبحث عن أماكن صالحة لاستمرارها، فيصبح عقله عندئذ شبيها بالمتحف الذي يحتوي على القطع النادرة وأحيانا الشاذة، وتقتصر وظيفته مع هذه الحصيلة على العرض والحفظ والصيانة، وقد تكشف له الأيام أن هذا المتحف الذي يحمله في رأسه، هو عبارة عن مستودع لقطع قد تكون رائعة الجمال ولكنها ليست ملكا له، وقد تكون قطعا مشوهة وأحيانا ضارة، ولكن طول إلفه لها جعله لا يفرط فيها مهما كان تأثيرها السيئ عليه.

٤- التطور الذي يجعل الإنسان يعيد النظر في منظومته الفكرية وقناعاته العميقة هو التطور الإيجابي، ولا يعني هذا أن نسير في الاتجاه الذي يقول أن التطور يعني التنازل عن هذه الأفكار والقناعات بشكل كامل، فكل تطور يُحدِث في الفكرة أو القناعة حراكا إما إلى الأمام أو إلى الخلف، إما بالإضافة أو الحذف، وإما بالتقديم أو التأخير، وإما بالتوسيع أو التضييق، بمعنى أنه يعيد صياغة الأفكار والقناعات التي قد يكون جمعها عفوا، إلى أفكار وقناعات أكثر رسوخا وثباتا مما كانت عليه من قبل قبولا أو رفضا، دون أن يعني هذا أنه قد وصل إلى نهاية المطاف مع هذه الفكرة أو القناعة، بل التطور حاصل والتغييرات واردة، وهكذا يستمر الحال حتى يلقى الإنسان ربه.

٥-ليس العيب أن نتبنى أفكار الآخرين أو نستفيد منها، فهذا الأمر هو الذي يجري عليه الحال في الانتقال الثقافي والحضاري بين الأجيال، وكثير من الناس يتوقف جهدهم عند هذه المحطة، ودون أن يكلفوا أنفسهم مهمة المراجعة التي تكسبهم ملكية هذه الأفكار والقناعات، بعد أن حصلوا عليها (بعرق الجبين)، وإن كانت لهذه الأفكار والقناعات امتدادات من آخرين، وبالمقابل ستكون لها امتدادات مع أناس آخرين يعيشون مع هذا الإنسان أو سيأتون بعده. أما من يكتشف هذا الأمر (المراجعة



وامتلاك الخاصية النقدية) مبكرا فسيهنأ ويسعد بامتلاكه ثروة فكرية عالية المستوى، ويملك معها صكا بملكيته لها مكتوبا بجهده وكده وعرقه وتأمله الفكري.

وأخيرا يمكن القول إن هذا الأمر يحتاج إلى تأمل كثير ونظرات عميقة، لأنه من الأهمية بمكان، وجزء كبير من عجزنا الحاصل هو تحول الكثير من أبناء أمتنا إلى (ناطقين رسميين) باسم هذا أو ذاك من العلماء والمفكرين والمثقفين والفلاسفة والأحزاب والمذاهب، بحيث تحول هؤلاء إلى نسخ مكررة وأحياناً مشوهة ممن سلموا لهم عقولهم، فلا هم بالذين كانوا في مستوى من قلدوهم ولا هم بالذين استطاعوا أن تكون لهم شخصياتهم المستقلة.

القرآن حاكم والسنة الصحيحة شارحة

ما دام هناك نصٌ مُوحى وعقل مخلوق، فإن التفاعل بينهما لا ينتهي، ذلك التفاعل الذي يثري ويمكّن من عالمية الدين وخلود رسالته، ولا شك في أن الوهن الذي أصاب الأمة بدأ في الفصام بين النص والعقل، كما يقول العلواني (العقل وموقعه من المنهجية الإسلامية)، والقول بنسبية المعرفة البشرية لا يعني الاستخفاف بحجج العقول والحسبان واليقينيات والتجريبيات، وإنما يؤكد أن أيّ علم ورثناه، ولو كان نتاج نخبة من العلماء المتقين ممن فتح الله على بصيرتهم، وأصبحت مصنفاتهم مآل المسلمين لقرون طويلة، هو علم مفتوح مبتلى بالمحدودية الزمانية، وإمكانية فهمه وإدراك مراميه في كل زمان ومكان ليس بالأمر السهل، ويحتاج إلى بحث وغوص في فهم النص، دون أن يعني ذلك أن ما توصل إليه هذا الباحث أو ذاك هو القول الفصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا ما قد يفهم من كلام البعض، وخاصة عندما يتعلق الأمر بكلام الله وما صح عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهذه المحدودية صفة بشرية دائمة، وأي علم يصح فيه ـ بل يجب ـ الاستدراك والتنقيح والبناء على ما مهّده السابقون، وهذا أعظم شرف لهذا العلم ومن مهّد له، واعتراف بفضل سبقه وفتحه.

ومن طبيعة الإنتاج البشري أن يبتلى بالقصور، وأن من الواجب أن يُغنى بالمراجعة والزيادة والاستدراك، فهذا ما يزيد الحقل المعرفي قوة وثراء. والمراجعات الجيدة هي النقدية غير الاعتذارية، ولا تخدش رفعة أي علم جليل هذه المراجعات، فالعلم يزدان شرفه بزيادة تفحصه ومراجعته.

كما ينبغي التنبيه إلى أن أي علم مهما علت منزلته وعزَّ شرفه يبقى نتاجا بشريا



أنتجته عقول بشر. ومع أنه لا خلاف في هذا، يبدو أن لحال العلوم الشرعية مع علمائها سيكولوجية متميزة، حسب وصف الأستاذ مازن موفق، وذلك أن الحرص الكامل لعلماء الشريعة على أن لا ينسبوا للدين ما ليس منه يجعلهم يتريثون ويراجعون أقوال من قبلهم باحترام بالغ، ويفضلون تأويل القديم والتحصن به عن النظر إلى الجديد من خلال كليات الدين. غير أنه في غمرة الاحتياط هذه والحرص على عدم التقوّل يبدو أنه يتسرب موقف نفسي/ فكري فيه إشكال كبير: ألا وهو نسيان أن العلوم الشرعية ومصطلحاتها هي نتاج بشري أولا وأخيرا. ومهما رأينا من انطباق بين المراد من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والعلوم الشرعية ومصطلحاتها، فإن هذه الأخيرة لا تعدو أن تكون أحسن اجتهاد أتت عليه الأمة. وكأي تنظير بشري، فإن قيمته تكمن في مدى فائدته في البيان أو الضبط، وفي تحقيق أهداف أخرى صيغ هذا العلم من أجلها. ولا يمكن للفكر البشري أن يتصف بالإطلاق مثل ما هو تنزيل العزيز الحميد، ويبقى الفكر البشري ـ ولو كان إعمالا في فهم الوحي المطلق ـ مبتلى بالنسبية الزمانية والمكانية.

بناء على ما سبق، ومن خلال اطلاعي على بعض الردود، لاحظت أن هناك نوعا من اتخاذ المواقف المسبقة، دون اللجوء إلى مناقشة الفكرة المطروحة بتواضع وهدوء بعيدا عن الفوقية أو النرجسية أو ردات الفعل العاطفية، التي تزيد الأمر ضبابية، هذا إن لم توجِد في القلوب نفورا، وهذا ليس من بركة العلم، ولا من شرف الدوران حول كلام الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويمكنني أن أضيف نقاط أراها من وجهة نظري ضرورية، حتى يعاد الأمر إلى نصابه.

١- بداية لنفترض أن السنة لم تجمع ولم توثق، ولم يقم عليها جمعا وتمحيصا أناس من أمثال العلماء المشهورين بذلك، ماذا سيكون عليه الحال؟ هل سيكون للفقه الإسلامي

وجود؟ وهل ستقعّد قواعد لأصول الفقه؟ وهل ستنبثق علوم لها علاقة بالسنة؟ آمل أن يؤخذ هذا الافتراض بعين الاعتبار عند من لا يلقون للسنة بالا، وهذا ما يريد البعض الوصول إليه، من خلال طرحه لتاريخية السنة وأنها ليست من الدين، رغم طرحه، ومحاولة جعل كلامه منطقيا ويخاطب العقل.

٢- الاحتفاء بالسنة لا يعني أن نقبل منها مالم تتحقق فيه شروط الصحة رواية ودراية، بل الأصل أن تحكمنا في ذلك منهجية واضحة كأشد ما يكون الوضوح، كون الأمر له علاقة بنصوص شرعية تعبدية، وأن تكون للقرآن في تصوره الكلي هيمنته الصارمة، فلا مساواة ولا تعارض، فالنص القرآني حاكم والنص النبوي شارح، مع يقيني أن ما صح في السنة لا يتعارض مع القرآن، وإن ما يطرأ من تعارض قد لا يعود إلى النصين (القرآن والسنة)، بل في طريقة وطبيعة فهمهما، وهذا يتطلب مزيدا من البحث والتجرد والإخلاص للحقيقة التي يتم الوصول إليها وإن خالفت بعض القناعات والأهواء التي تعتري الإنسان كبشر.

٣- البعض يتعامل مع السنة كما يتعامل من (يرمي الطفل مع ماء غسيله)، ولهذا فإن وجود بضع أحاديث في البخاري ومسلم فيها إشكالات عند البعض، في مقابل آلاف الأحاديث الصحيحة التي لا يجد من يطعن في البخاري ومسلم غضاضة من الاستشهاد بها هنا وهناك، ومشكلة البعض هي أن هذه الكم الكبير من الأحاديث الصحيحة يذهب مع الريح بسبب أن هناك بضعة أحاديث أشكلت عليه، وكان عليه إن كان منصفا أن يبحث فيما أشكل عليه بصدق وتجرد، في ضوء أن ما في البخاري ومسلم مما تلقته الأمة بالقبول، وهذا ما لم يوفق له البعض، فعمم التشكيك على كل كتب السنة ورماها وراء ظهره قائلا: (بيننا وبينكم كتاب الله)، وكأن من قيل عنه الحديث غير من نزل على قلبه القرآن.

٤- قد يمنح الله البعض منا معولا، يمكن أن يكون فكرا أو منطقا أو بلاغة أو حجة أو... فيستخدم هذا المعول في هدم صروح الباطل ودحض شبههم، وقد يصبح هذا المعول نفسه هادما لبعض بنايات الإسلام بدل تمتين جدرانها، بفكر ناضج ومنطق سليم، ونقاش دقيق، ولا مانع أن يستخدم هذا المعول في هدم ما ألصق بالإسلام وليس منه، وبنفس الطريقة الحوارية الهادئة المتواضعة المستصحبة للدليل والبرهان، والتي لا تبخس الآخرين أشياءهم، ودون أن يكون هناك قناعات مسبقة مما سيقوله الآخرون، وموقفهم مما سيطرح، وهذا ما نجده لدى البعض، فهو يطرح وجهة نظره، ويستبق ردة فعل من يظن أنه سيقرأ له، فيعاجله بالتنقيص والتسفيه وقلة العلم والفهم، دون أن يترك له حرية اتخاذ الموقف وردة الفعل التي يراها مناسبة بناء على ما أدلى به صاحب الرأي من وجهة نظر، وأتعجب أشد العجب ممن يريدك أن تقرأ له ما كتب، وهو يحكم عليك مسبقا بأنك سترفض، والسؤال: ما دمت مقتنعا بوجهة نظري وردة فعلي وموقفي مما تكتب فلماذا كتبت لي ذلك؟ أراك تقول: أكتبه لمن هو مقتنع بما فيه، وعندها أقول لك: أنت تبحث عمن يسلم لك ويتبع قولك لا من يناقشك ويخالفك، وقد يرد عليك بما تحب وبما لا تحب.

٥- الحديث حول السنة وحجيتها ليس حديثا عابرا، قال به وناقشه أناس مغمورون، بل هو مما ناقشه وتحدث عنه كبار العلماء سواء ممن يرى الحجية للسنة أو من ينكرها، وتجد أن المنكرين لحجية السنة في الغالب ممن يقفون من الإسلام موقفا مناهضا، ويأتي على رأس أولئك العلمانيون أمثال جورج طرابيشي في كتابه (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث)، وغيره ممن لا يتسع المجال لذكرهم، وفي المقابل هناك ممن يرون الحجية للسنة، يجمعون الغث والسمين منها ويريدون من الآخرين أن يقبلوا منهم ذلك جملة واحدة أو يرفضونه جملة واحدة، وبين هؤلاء وأولئك ضاع صوت الوسطية الذي يبقي للسنة



الصحيحة مكانتها ومقدرتها على التناغم مع القرآن لهداية الناس للتي هي أقوم، مع استبعاد ما لم يصح سنده أو يتعارض صراحة مع القرآن. والله أعلى وأعلم.

النخب المثقفة .... ومسؤولية الكلمة

أحيانا يصل الإنسان إلى مرحلة يكتب فيها بكل خلاياه، ويستجمع كل ملكاته، ليصوغ بعض القطع الفكرية التوعوية، فهو ينحت من أعصابه ومن تلافيف خلاياه قطعة يضمنها كل آماله وآلامه وأشواقه وأحزانه، وتطلعاته وانكساراته، ثم يقدمها لأبناء وطنه، هذه صورة ملحمية للمثقف المسؤول.

دعونا نتحاشى الحديث عن موظفي الثقافة والفكر، ومن يبادلون رغيف الخبز بالمقال والموقف والتصريح، فهؤلاء من الكثرة بحيث لا تخطئهم عين، وما تفضلت بالحديث عنهم هم النخبة المثقفة المسؤولة، وهم ليسوا على ما يرام في ظل هذه الأوضاع، يحاولون أن يصارعوا الأمواج في بحار شديدة المد والجزر، بضاعتهم مزجاة، لأن عِجْل السامري قد سلب العقول والأبصار، يقف أحدهم كأحد جبال اليمن الشاهقة ناصحا ومحذرا وداعيا إلى طريق البناء، وجيبه أشد فراغا من فؤاد أم موسى، وهناك من بائعي ومزيفي الوعي والثقافة والفكر من انتفخت كروشهم وجيوبهم وارتفعت في البنوك أرصدتهم، ولا زالوا لجهنم يطالبون بالمزيد.

نحن نبحث وننادي هذه النخبة المثقفة، التي صار الأمر والنهي بيد غيرها، نحن في شوق لأن تكون هي حادي قافلة الأوطان، ولكنها هي ذاتها بغير حادٍ يقودها ويكَلِّل جهودها، يعيش أفراد هذه النخبة في جزر معزولة، تتواصل حينا وتنقطع أحيانا كثيرة، ليس لها برنامج وخطة جامعة، إنما كل يغرد في فضاء غير الفضاء الذي يغرد فيه صاحبه، ويغني على ليلاه التي يشتاق إلى لقياها، ولكن هيهات، فتغريداته تضيع في زحام الصخب، وغناؤه يتلاشى في زحمة الضوضاء.

النخب المثقفة ليست أفرادا، بل مؤسسات وجمعيات ومنتديات وملتقيات

وروابط فكرية وثقافية وأدبية وإعلامية وسياسة واقتصادية وتربوية...... إلخ. بها تبلور الأفكار والخطط والبرامج والحلول، وبها يجد المفكر والمثقف نفسه، فتتحول الجهود إلى برامج عمل وجماعات ضغط وتكتلات تستعصي على القوى المستبدة.

لا زال هناك من يعتقد أن المثقف والمفكر المسؤول هو الذي يدبج مقالا تحليليا أو يشارك في مقابلة تلفزيونية أو يجيب على أسئلة محاور في جريدة أو صحيفة ورقية أو إلكترونية، أو يطل بين وقت وآخر من خلال مواقع التواصل ليكتب وجهة نظره في هذه القضية أو تلك، وقبل ذلك لا ينسى أن يهتم بهندامه ويحلق ذقنه ويلمع حذاءه ويصبغ شعره، ويتأكد من تناغم لون (رباط عنقه) مع الطقم الذي يلبسه، وأمثال هؤلاء كثيرو الظهور على القنوات والشاشات، وفي مواقع التواصل.

ما أحب الوصول إليه، هو أن علينا قبل أن نطالب المثقف أو النخبة المثقفة بقيادة المجتمع، علينا أن نحررهم من أشياء كثيرة، ومن ضمن ذلك أنانية ذواتهم، وضغط الحاجة التي تلجئهم إلى مسايرة الوضع، وتحريرهم من ضغوط العادات والتقاليد المجتمعية التي قد توظف بعض مواهبهم لصالح كيانات صغيرة، وأخيرا تحريرهم من العمل الفردي، وتعمل على دمجهم وصهرهم ضمن عمل مؤسسي، يصنع من خلالهم تيار يواجه بجحافل الجهل والظلام، ويرد جيوش التزييف والخداع، ويردع الطفيليات التي تمتص المجتمع وتعيش على دمائه.

الكلام عن النخب المثقفة كلام ذو شجون، ولولا الإطالة لسال القلم.

وليس الذي يجري من العين ماؤها   ولكنها روح تسيل فتقطر.



فردوس العلمانية المفقود...

يخيل إليك عندما تقرأ أو تسمع من يتحدث عن العلمانية أنها فردوس العرب والمسلمين المفقود، ولولا حماقتهم وسذاجتهم (أي العرب والمسلمين) لكانوا دخلوا هذا الفردوس منذ زمن طويل، عندما بشر بها الأوائل من دعاة العلمانية في ديارنا.

هناك عشق عجيب وإن كان من طرف واحد للعلمانية الغربية، هذا العشق نراه لدى البعض من بني جلدتنا، في مقابل أن الغرب لا يلقي لهم بالا، إلا ليستخدمهم في خلخلة مجتمعاتهم، وصناعة أطراف متصارعة، يقوم بتوظيف صراعاتها لصالحه، في معارك عدمية نرى رمادها في كل قطر عربي وإسلامي، ومع ذلك لا زال جلد الذات مستمرا وبصورة صارمة، وكأننا لا يمكن إلا أن نكون تابعين وأذيالا للآخرين، ولا يمكن أن تكون لنا شخصيتنا وهويتنا المستقلة القائمة على ثوابتنا والمستفيدة مما لدى الآخر في إطارها.

العلمانية منظومة نبتت في بيئة الغرب وهي صالحة له، لأنها نتاج مخاضات استمرت مئات السنين، بينما يريد العلمانيون العرب أن يزرعوا هذه المنظومة في تربة غير التربة التي نشأت وترعرعت فيها، ولذلك يكون حصادها مرا.

لقد مر على العالم العربي والإسلامي عشرات إن لم تكن مئات التجارب العلمانية تحت مسميات متعددة، وكلها تتجه بأنظارها للتجربة الغربية، وقد باءت كل هذه التجارب بالفشل الذريع، ومع هذا نجد من لا زال يبشر بها ويمنينا بفردوسها بين وقت وآخر، دون أن يأخذ في الحسبان التجارب العلمانية المريرة عربيا وإسلاميا، والتي لا زلنا نعيش مرارة بعضها حتى الآن.

وكلما طالبت العلمانيين العرب بتجربة فريدة للعلمانية في بلادهم، أشاروا عليك بالتجارب العلمانية في الغرب، وكأن لسان حالهم يقول: إن أردتم أن تصبحوا علمانيين فكونوا أولا غربيين، وهذا محال، لأن العلمانية هي ثمرة زرعهم هم، ونقلها بقضها وقضيضها إلى ديارنا لن تنتج إلا حنظلا وشوكا، فالتربة غير التربة والثقافة غير الثقافة والدين غير الدين، فمتى يفهم العلمانيون أنهم يحرثون في البحر؟

هناك من ينتقي بعض المواقف التاريخية ليدلل بها على العقلية العربية والإسلامية، وأنها عقلية سطحية ساذجة متناقضة ترفض الجديد في البداية ثم تقبله وتسوغ له في النهاية، ثم يبني على هذه الانتقاءات تعميمات لا تبقي ولا تذر، على الرغم من كون هذه الانتقاءات لا تمثل إلا بعض جماعات أو مشيخات أو أحزاب، أما عموم الأمة فلا يلقون لذلك بالا.

والسعي لفصل الديني عن السياسي ديدن البعض وشغلهم الشاغل، وكأن المتدين لا يمكن أن يكون سياسيا، كما لا يمكن للسياسي أن يكون متدينا، وأن الدين له مجال لا تتدخل فيه السياسة، وللسياسة مجالات لا دخل للدين بها، في عملية فصل لا هوادة فيها، وأن من أراد أن يتدين فهذا شأنه، ولكن لا يقحم تدينه في أمور السياسة، ولا تدري عندما يحدثك هؤلاء أو تقرأ لهم، هل يتحدثون عن الإسلام أم عن المسيحية، وهل لهم صلة بهذا الدين (الإسلام) الذي يريدون فصله عن السياسة مبدئيا ثم عن الحياة في نهاية المطاف أم لا؟

في الحقيقة لم أجد أجبن من العلمانيين العرب، فلم يجرؤا على إظهار علمانيتهم ورفضهم للدين جملة وتفصيلا، بل يحاولون بشتى الوسائل الدخول في معارك جانبية مع حملته ودعاته الذين يصيبون ويخطئون، فإن رأوهم أصابوا سكتوا، وإن رأوهم اخطؤوا



سلقوهم بألسنة حداد، تجدهم ينافقون العامة ويجاملونهم فيما يتعلق بالإسلام، ويطعنون في الإسلام أكثر مما يطعن فيه من يناصبونه العداء.

والتجربة الإسلامية في تدينها بالإسلام ليست معصومة، وقد يسيء إليها دعاتها وحملتها في كثير من المواقف، ومع هذا فإن على الإنسان المنصف أن يقيِّم هذه التجربة ويرشِّدها إن كان صادق الانتماء إليها، لا أن يسعى إلى تدميرها في مقابل أوهام الفردوس العلماني المفقود.

عندي يقين أن من يقرأ العلمانية ويتعرف عليها بكل صدق وتجرد، فإنه سيرفضها وينقضها من أساسها، وهذا ما فعله كبار المفكرين العرب كعبد الوهاب المسيري ومنير شفيق وغيرهما، وأن من لا زالوا مفتونين بالعلمانية ويعتبرونها سفينة النجاة إنما هم أناس بهرتهم بعض الأضواء العلمانية القادمة من الغرب فأغشت أبصارهم فهم يعمهون.

يا هؤلاء... إلى متى نكرر القول إن أمة الإسلام لا يمكن أن يزرع في تربتها إلا الإسلام، فإما أن نجعله الإسلام الذي يحافظ على الإنسان وعقله ونهضته وتقدمه، وإما أن نسيئ تمثيله من خلال نماذج هنا وهناك تعمل على تشويهه والصد عنه، والتمثيل الراقي لهذا الدين لا يتم بمهاجمته أو استبداله بغيره، بل بصدق تمثله والسير على هداه، ويا له من دين لو كان معه رجال. والله أعلى وأعلم.



كورونا.... انطباعات قارئ متابع

تابعت - كغيري - خلال الأيام الماضية تفاعل الناس مع كارثة فيروس كورونا، سواء عبر مواقع التواصل، أو عبر التواصل الشخصي من خلال اللقاءات العابرة عند الخروج للضرورة، وتبين لي مدى ما نعانيه من قصور وتراجع في الوعي، ويمكن أن أجمل ذلك في النقاط التالية:

١- هناك صنف من الناس استقبل هذه الكارثة (فيروس كورونا)، بصورة مبالغ فيها من الخوف والهلع، إلى درجة أنه يكاد يخبرك أن الفيروس قد أصبح متفشيا، ويسرد لك من الإشاعات والشائعات ما يؤكد به قوله، على الرغم من أن أكثر هذه الإشاعات كاذبة ولا أساس لها من الصحة.

٢- وهناك صنف من الناس على عكس الصنف السابق، يتعاملون مع كارثة الفيروس باللامبالاة وبروح السخرية، وتجد أحد هؤلاء يسخر من الاحترازات التي يتخذها البعض، ويشكك في جميع الأخبار والإحصائيات وخطورة الفيروس، ولا يتورع عن حث الناس على عدم التصديق، وربما وصل الحال ببعض أفراد هذا الصنف التشكيك في وجود المرض، وأن الأمر لا يعدو كونه دعاية أو مؤامرة خبيثة من بعض الدول، بل وصل الحال ببعض هؤلاء إلى تحويل ظاهرة هذا الفيروس إلى نكات ونوادر، يتندر بها ويضحك بها الآخرين، وشر البلية ما يضحك في هذا السياق...

٣- أظهر هذا الفيروس بجلاء كم نحن عاطفيون وانفعاليون مع أو ضد هذه الكارثة، حيث يتعامل الكثير مع كل ما ينشر بعاطفة ساذجة، وبدل أن نمرر ما نسمع أو نقرأ أو نشاهد على العقل لتمحيصه، مررناه مباشرة على العاطفة واستقبلناه استقبال من يعتقد أنه حقيقة لا جدال فيها، رغم وجود التناقض الصارخ في كثير مما ينشر

وخاصة في وسائل التواصل الاجتماعي، وهذا الأمر يشمل الصنفين اللذين ذكرناهما سابقا.

٤- أظهر التعاطي مع هذا الفيروس أن لدينا قابلية عجيبة لتلقف المعلومات من كل مصدر وتصديقها، دون أن ندرك أن لكل مجال أهل اختصاصه وخبراؤه (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) الفرقان: ٥٩، والخبراء في هذا المجال هم أهل الاختصاص في مجال الصحة بشكل عام، والذين لديهم دراية بعالم الفيروسات بشكل خاص، سواء كانوا أشخاصا أو هيئات، والحال الذي يرثى له أن الجميع تحوّل إلى خبير ومفتي في هذا المجال، بداية من الإنسان العادي مرورا بالصحفي والأستاذ والتاجر إلى شيخ العلم الشرعي... والقائمة تطول.

٥- أظهر التعاطي مع هذا الفيروس أن لدى البعض قدرة تخيل واسعة، وقدرة على التحليل، ومعرفة بخفايا وخبايا انتشار هذا الفيروس، تجعلك تقف مستغربا ومتسائلا إلى أي درجة وصلنا في عقلية المؤامرة، وضرورة أن يكون وراء هذه الكارثة أهداف ومخططات، وإن لم يكن هناك مثل هذه الخلفيات التآمرية، فعندنا المقدرة التحليلية على تجميع الإشارات من هنا وهناك والربط بينها حتى نصل إلى نتيجة مؤسفة تدل على أن هناك تحليق بعيد عن خطورة هذه الكارثة.

٦- كما أظهر التعاطي مع كارثة فيروس كورونا أن هناك من يتطوعون عن جهل وحماقة بنشر وصفات للوقاية أو العلاج لهذا الفيروس، وهم ليسوا من أهل الاختصاص، بل قد يكون ما ينشرونه من وسائل وطرق ضارا أكثر من كونه نافعا، ودخل في الخط كثير من الهواة وبعض مشائخ الدين ومن يرغبون في الشهرة، وغاب في الغالب صوت أهل الاختصاص، وأصبح الناس يتلقون الإشاعات ويتناقلونها، وقد لا تكون بعض

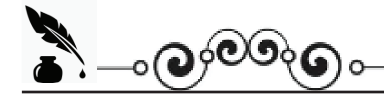
الإشاعات بريئة حيث يستغلها أصحابها لبيع صنف ما من العلاجات أو الأغذية بسعر مرتفع بحجة أنها وقاية أو علاج لهذا الفيروس.

٧- وأظهر التعاطي مع الفيروس كم نحن سطحيون وطيبو قلوب بدرجة كبيرة، حيث يمكن لأي شخص أن يقول كلاما أو يكتب منشورا حول الفيروس ولو لم يكن هذا الشخص من أهل الاختصاص، فنتلقى كلامه بترحاب وبنوع من التسليم، بل ولدينا استعداد لنشر ما قال أو كتب على أوسع نطاق، لنكتشف بعد وقت قصير أن ما نقلناه كان خاطئا ولا يمت إلى الحقيقة بصلة.

٨- وأظهر التعاطي مع كارثة هذا الفيروس أن لدينا استعدادا نفسيا عجيبا في تفضيل وتقديم الأخبار والمنشورات والأقوال الغريبة والعجيبة والمبالغ فيها، وأحيانا التي نعتقد كذبها على الأخبار والمنشورات والأقوال التي تتحدث عن الفيروس بمهنية واحترافية، نظرا لكون الأخيرة ليس فيها إثارة ولا تحتوي على العجائب والغرائب التي نحن مولعون بسماعها وتناقلها والاستمتاع بنشرها وانتشارها.

٩- أظهر التعاطي مع هذا الفيروس أن هناك أناسا وخاصة من أهل العلم والدين ممن لا يستطيعون التفريق بين انطباعاتهم الشخصية التي لا تستند إلى دليل في أحيان كثيرة، وبين الأمور الثابتة والواضحة في العلم والدين، فتجد البعض منهم يحاول بشتى الوسائل ومن خلال لي أعناق النصوص العلمية والدينية ليثبت أمرا معينا حول هذا الفيروس، رغم أن ما أورده بعيد كل البعد عما يسوقه إليه تفكيره، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ضحالة في فهم العلم والدين من جانب أو فهم هذا الفيروس من جانب آخر، أو عدم الفهم لكلا الأمرين.

١٠- أظهر التعاطي مع هذا الفيروس أن أصحاب الأقلام الواعية والمسؤولة، والذين

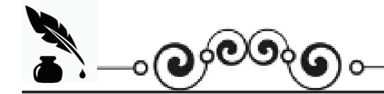


يحترمون تخصصاتهم قليلون جدا، وصوتهم خافت، في مقابل طوفان الإشاعات والشائعات والتخرصات التي ملأت الفراغ الذي تركه غياب أهل الاختصاص، مع وجود رغبة عند أكثر الناس على تداول وتفضيل الإشاعات على غيرها من الحقائق والوقائع الصادقة، كما سبق الإشارة إلى ذلك في إحدى النقاط السابقة.

١١- أظهر التعاطي مع هذا الفيروس أن هناك جهلا بسنن الله في التعامل مع النوازل والكوارث، تتطلب من الإنسان أن يفهمها ويتعاطى معها، من باب قوله صلوات ربي وسلامه عليه (اعقلها وتوكل)، والمؤسف أن البعض يفكر بطريقة عجيبة في هذا الأمر وبصورة يرثى لها، ويسوّق للناس أوهاما وأمنيات ليس لها صلة بدين ولا علم، مع الأخذ في الاعتبار أن تقوية المناعة النفسية مطلوبة ومرغوبة، ولكن ليست على حساب المناعة المادية ولا بديلا عنها، وهناك من يقوم بمثل هذه الطرق كنوع من الهروب من تحمل المسؤولية وليس كنوع من اليقين والثقة بما عند الله وبأنه الشافي جل جلاله.

١٢- أظهر التعاطي مع هذا الفيروس أن هناك أناسا لا يستطيعون التفريق بين عواطفهم نحو الظَلمة والمجرمين وبين عامة الناس، فتجدهم يفرحون عند سماع الوفيات نتيجة فيروس كورونا في هذه الدولة أو تلك، بل وتجد البعض يتمنى أن يعم الفيروس في هذه الدول فلا يبقى ممن يتمنى لهم الهلاك أحدا، وفي هذه النفسية نوع من السادية المرفوضة دينا وعقلا وإنسانية، فالفيروس لن يفرق بين الناس بسبب الدين أو اللون أو الجنس أو السن، فليراجع هؤلاء أنفسهم وليتقوا الله فيما يضمرون أو يقولون.

وأخيراً فإن من واجبنا جميعا أن نكون على قدر المسؤولية وأن نأخذ أمر كارثة هذا الفيروس مأخذ الجد وأن نتعاطى معه بوعي وإدراك، وأن نتحاشى تداول



وتمرير الإشاعات والغرائب حوله، وأن نكون على بينة أن توعية الناس تكون بتزويدهم بالأخبار والإحصائيات الصحيحة والسليمة المصدر، وأن نبتعد عن التهويل والتهوين ما استطعنا، ولنحاول بقدر المستطاع أن نكون عونا لمن يسعون لمحاصرة هذا الفيروس، حتى نجنب أنفسنا وبلادنا شره وآثاره الكارثية المدمرة.

حفظ الله البلاد والعباد وسائر بني الإنسان من شر هذا الفيروس الذي لا يرحم أحدا، ولا يفرق بين صغير وكبير ولا غني وفقير، ولا يفرق بين أتباع دين ودين، ولا بلد وآخر.



العلم منزوع القيمة... كارثة محققة.

(يتبدى تاريخ البشر أكثر وأكثر كسباق محموم بين التعليم ووقوع الكارثة)، هذه مقولة للكاتب والروائي البريطاني (هلبرت جورج ويلز) في روايته الخيالية (تحرير العالم).

قرأت هذه العبارة في كتاب (جون هيرسي) في كتابه (هيروشيما حكايا ستة ناجين من كارثة القنبلة الذرية)، ترجمة عبد الله العجيري، صادر عن مركز تكوين في العام ٢٠١٩م، ويتكون من ٢٩٠ صفحة، وخرجت منه بثلاث اقتباسات، إحدى هذه الاقتباسات ما ذكرته في بداية هذا المقال، ورغم قلة ما يمكن أن يخرج به القارئ لهذا الكتاب من معلومات وأفكار، إلا إنه ومن خلال قراءته لحالة النماذج التي ذكرها الكتاب يمكن أن يخرج بالانطباعات التالية:

١- إنه لمن اليسير أن تكون طيبا في أحوال السلم، لكن مظاهر الانضباط الأخلاقي إنما تظهر وتتجلى في أحوال الحرب والانفلات الأمني، هناك حيث تغيب سلطة الرقيب، وتعمل الأهواء والرغبات الشخصية عملها في النفس، حينها فقط تتكشف الحقائق، وتمايز الرؤى والأيديولوجيات، وهذه كانت الفكرة الثانية التي استقيتها من الكتاب.

٢- وثّق (تشارلز دارون) في مذكرات رحلته (البيجل)، فقال ملخصا تاريخ الغرب: «أينما خطا الأوربيون فإن الموت يطارد سكان البلد الأصليين»، وليس القصد - هنا - اتهام كل فرد غربي بأنه مجرم، أو يؤمن بأيديولوجية تجرُّ صاحبها إلى الإجرام، كلا، فنحن ندرك أن هناك شرفاء صادقين يرفضون هذه الممارسات والأيديولوجيات؛ بل الحديث هنا عن قاطرة الحضارة الغربية نفسها، والتي تسير على سكة معينة وفي اتجاه معين، نعم، يمكنك أن تختار لنفسك أحيانا المقعد الذي يناسبك في هذا القطار، كما

يمكنك أن تحرك أحيانا وتتنقل في جنباته، بل يمكنك أن تجلس وتصرف وجهك بعكس اتجاه سيره، لكن سيظل القطار متجها دوما في خطه المرسوم دون أن تحرف مساره خياراتك هذه. وهذه هي الفكرة الثالثة التي وقفت أمامها وأنا أقرأ الكتاب.

٣- أثبتت التجارب التاريخية أن فصل العلم عن الإيمان قد أدى إلى أضرار لا يمكن تعويضها، وبفصل العلم عن الإيمان يتحول العلم إلى سيف بيد زنجي سكران، وسراج في منتصف الليل بيد لص لسرقة أفضل البضائع. ولهذا فإن الإنسان العالم بلا إيمان اليوم لا يختلف عن الجاهل بلا إيمان في الأمس، والاختلاف بينهما قد يبدو من حيث طبيعة الأساليب والأفعال وماهيتها.

٤- شخصية الإنسان كإنسان تتجلى في خصائصه الأخلاقية والنفسية، فإذا لم تكن خصائص الإنسان الأخلاقية والنفسية متسمة بالخصائص الإنسانية في الخلق والنفسية، بل اتسمت بخصائص حيوان مفترس، أو بهيمة، فهذا هو المسخ الذي يمكن أن يدمر العالم في لحظة سكر وغرور.

٥- عندما تنظر إلى الكائنات تجد أن لكل منها صفة لا تنفصل عنها، فقد نقول: النمرية للنمر، والكلبية للكلب، والحصانية للحصان، إذ ليس بالإمكان العثور على حصان لا حصانية فيه أو كلبا لا كلبية فيه، أو نمرا لا نمرية فيه. ولكن الإنسان، هو وحده الذي يمكن أن يكون إنسانا لا إنسانية فيه، وذلك لأن الأمور التي نعتبر أنها هي إنسانية الإنسان، تلك التي تمنح الإنسان خصوصياته الإنسانية والتي تعتبر المقياس الذي يقاس به، لا الأشياء التي تدل على شخص الإنسان، ليست مجموعة من الأمور التي تصنع ببنية الإنسان المادية، فهي ليست مادية ولا محسة، على الرغم من أنها تخص الإنسان البشر، وترتبط بهذه الدنيا، فهي بعبارة أخرى، من المعنويات لا من الماديات.



٦- ينظر المرء إلى ميدان المعركة بعد انطفائها، فيجد أشلاء ودماء وطعنات، ووسائل شريفة، وأخرى ليست كذلك، ويدري أن العراك يستخرج أسوأ ما في النفس الإنسانية من معاني الأنانية والعدوانية والظلم والجهالة، وهذا ما تصنعه الحروب والصراعات التي يحكمها العلم المنزوع القيمة أو الجهل لا فرق في ذلك، وتغيب عنها قيم الإيمان والإنسانية.

٧- العقلية التي تحكم الغرب قبل أو بعد الحربين العالميتين لا تختلف إلا في تطوير وسائل الدمار، فصار العلم يخدم الإجرام، ويزيد من قوة المستكبرين والمستبدين، ويرفع من مستوى معاناة الإنسانية، وواقع الحال خير شاهد، والحرائق التي تديرها الرأسمالية لا تخفى على ذي عينين.

أساس التغيير.... البداية قلبية

إذ اعتبرنا التغيير مراتب أو درجات، فإن التغيير بالقلب هو البذور والجواهر التي لا يقبل الإسلام زوالها من قلب الإنسان، لأنه لا وجود للإيمان بعد زوالها، وذلك حتى تبقى جذوة التغيير في حال عدم التمكن من التغيير باللسان أو اليد حية متقدة، حتى يأتي وقت انبثاقها من تربة (القلب) الخصبة عندما تهطل عليها أمطار الاستطاعة والقدرة والإمكانية، وهي لا شك قادمة (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) الحج: ٥.

أتأمل حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده.....)، فأجده حجة على الصغير والكبير والقادر والعاجز والعالم والجاهل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أرى فيه أن التسلسل الطبيعي لتغيير المنكر بعكس ترتيب الحديث، وليس كما يفهمه البعض أن أعلى درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي اليد ثم اللسان ثم القلب، وهذا الفهم على ما فيه من أغراء للاقتناع به، إلا أنه إذا جاء بترتيبه المذكور (اليد ثم اللسان ثم القلب)، فقد يُدخل المسلم في صعوبات جمّة هو في غنى عنها، وقد تترتب عليه نتائج لا تحمد عقباها، وقد يكون هذا الفهم عكس الفهم السائد، ولكن بإمكاني (على فقر ما عندي) أن أوضح وجهة نظري، وهي تلزمني بالطبع ولا تلزم غيري إلا إذا اقتنع بها، كما أني لا أضع الفهم الآخر في خانة الخطأ، ولكني اعتبره اجتهادا قابلا للأخذ والرد.

ومن هذا المنطلق ومن خلال التأمل في الحديث، أرى أن البداية (قلبية) ثم تكون (اللسانية) و(اليدوية)، فالأفكار العظيمة إنما تنبع من القلب، وقل مثل ذلك عن المواقف العظيمة، ولأن القلب قائد واللسان واليد تابع، فإن عمل اللسان والقلب

دون إذن القائد يعتبر خروجا عن التسلسل القيادي من جهة، وبداية تمرد من جهة أخرى (إذا صح التعبير).

إن التغييرات العظيمة التي قادها العظماء، وعلى رأس هؤلاء محمد -صلى الله عليه وسلم-، بدأت في داخلهم قبل أن تتحرك بذلك ألسنتهم أو أيديهم، فالحفر العميق في الداخل (القلب) يؤسس لمداميك البناء الشاهق لعمل اليد واللسان بعد ذلك، لأن البناء تم على أساس صلب وليس على شفا جرف هار.

أقول لك بكل صدق، إن التغييرات التي استندت على اليد أو اللسان وأهملت القلب تغييرات هامشية سطحية هشة، سرعان ما تشرق عليها شمس الحقيقة فتذيب ثلوجها، وقد اطلعنا التاريخ على نماذج تغييرية اعتمدت اليد أو اللسان أو كليهما وأهملت القلب، وكيف انهارت بين ليلة وضحاها، وكأنها لم تكن ملء السمع والبصر، وما التجربة الشيوعية عنا ببعيد، وستلحق بها أختها (الرأسمالية) طال الزمن أو قصر، ولا أظنه سيطول كثيرا.

إن التغيير باليد أو باللسان في غياب التغيير القلبي، هو تغيير (إكراهي)، يعتمد القوة التابعة لليد، والتزييف والتلاعب بالعقول التابع للسان، وهذا ما يرفضه الإسلام قلبا وقالبا ف (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) البقرة: ٢٥٦، بل إن الله جل في علاه لم يطلب أبدان العباد بل طلب قلوبهم، ولم يطالبهم فيما يتعبدونه به سبحانه وتعالى أشياء بل معاني، قال تعالى: (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) الحج: ٣٧، والتقوى محلها الصدر (مكان القلب) كما صح عنه -صلى الله عليه وسلم-.

وحتى لا تطول عبارات هذه المداخلة، يمكنني أن ألخص ما ذكرت، في كون عملية التغيير (للمغير والمتغير) تبدأ من الأصل وهو (القلب) لتصل إلى الفروع (اللسان واليد) وليس العكس كما يتوهم، وأتساءل: كيف يمكن أن يحدث تغيير حقيقي لمن يريد أن يغير بيده ولسانه وقلبه فارغ من ذلك؟ إلا أن يكون هذا التغيير قائما على هواه، ومستخدما لمصلحته، وكيف للمتغير أن يقبل بالتغيير الحقيقي الذي تم تحت هيمنة اليد واللسان وقلبه خواء منه؟ إلا إذا كانت له نية مبيته لينقلب على هذا التغيير في أول منعطف للاستطاعة والقدرة، مبديا ما كان خافيا، وقالبا لهذا التغيير ظهر المجن، كما يقولون.

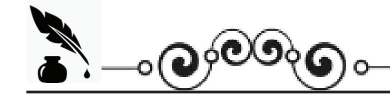
إذن كيف نفهم قول المصطفى -صلى الله عليه وسلم- في نهاية الحديث (وذلك أضعف الإيمان)، حيث أن الفهم الذي يتبادر إلى الذهن من أول وهلة، هو أن تغيير المنكر بالقلب هو أضعف الإيمان، بينما تغيير اللسان أقوى من القلب، وتغيير اليد أقوى من اللسان، وفي رواية أخرى للحديث (وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)، وهنا لا بد أن ندرك، وبناء على ما سبق أن ذكرناه آنفا، أن أي تغيير يغيب فيه القلب لكلا الطرفين (المغير والمتغير)، هو تغيير لا أساس له، وإن خدعتنا بعض هياكله، فهي خشب مسنّدة وأعجاز نخل خاوية، ويمكن أن يفهم من الحديث أن القلب هو الأرضية التي يستند عليها التغيير، والخريطة التي توضح جغرافية هذا التغيير، والبوصلة التي تحدد شمال هذا التغيير، ثم يأتي بعد ذلك تغيير اللسان واليد، ليبني على هذا الأساس ويتمدد على جغرافيا الخريطة المعدة سلفا، ويتجه أفقيا ورأسيا مستهديا بالبوصلة المحددة مسبقا.

ثم إن دلالة أخرى للحديث وفق الروايتين (وذلك أضعف الإيمان، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) تشير إلى أن لب التغيير وجوهره مبني على الإيمان،



والإيمان والتوحيد والإخلاص محله القلب، فلا إيمان بلا قلب ولا قلب بلا إيمان، قال تعالى: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) الحجرات: ١٤، وأيضا لا تغيير بلا قلب يسكنه الإيمان، وعليه فالقضية هنا ليست قضية تفضيل بين (قلب ولسان ويد)، كما يبدو، بل هي تحديد مسؤوليات ووظائف تقوم إحداها على الأخرى، وينفرط عقد الثانية إذا غابت التي قبلها.

أخيرا، ورغم يقيني أن الموضوع يحتاج إلى تأمل أعمق، وأدلة أوضح وأبين، إلا إنني مقتنع (حتى الآن)، بهذا الفهم الذي سبقت الإشارة إليه، ولا أمانع، بل وسأقف صاغرا إذا تبين لي بالدليل والبرهان أن فهمي خاطئ، فالحق أكبر وأقدم مني ومن غيري، ونحن طلاب حقيقة وإن كانت على حساب كرامتنا (المزعومة)، ولسنا طلاب كرامة مدّعاة على حساب الحقيقة. (وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) الأحزاب: ٤.



الأحكام المسبقة، والتصنيف والفرز المسبق، يؤثر بشكل أو بآخر على تقييم الأشخاص والهيئات، ومن الصعب أن تجد الإنصاف عند مختلفي الرؤى، إلا من رحم ربي، وكأن الأحكام المسبقة تسحب نفسها على مجمل التقييم الذي قد يصدره الإنسان على خصمه، وهذا من الغبن، وعدم التوفيق.

متى يدرك من يريدون نمو الفكر وتلاقح الأفكار، أن عملية النمو تأتي من اختلاف وجهات النظر وليس من تطابقها؟ فما يثري ويخصب تربة الفكر وينميها هو التنوع والرؤى المتغايرة ووجهات النظر غير المتطابقة، وغير ذلك يعتبر وهما، وحملا كاذبا.

وبغض النظر عن سياق المقال وذكره لباحثين محددين أو اتجاه معين، إلا أن ما يدور على الساحة الفكرية لا يسر من يريد للفكر نموا وخصوبة، فهناك نوع من التخندق وإقامة الحواجز وإغلاق لقنوات التواصل والتثاقف والتلاقح التي ينمو من خلالها الفكر، وتنضج من خلالها الرؤى، وترشد من خلالها الحركة، بحجج لها أول وليس لها آخر، وترى كل طرف يتترس خلف رؤاه ووجهات نظره، زاهدا فيما لدى غيره، ولو حالفه التوفيق لأدرك أن ٢٣ كروموسوما لا يتخلق منها إنسان بل تحتاج إلى ٢٣ كروموسوما أخرى، كما هو معروف في خلق الإنسان، وكذلك حال الأفكار، تحتاج إلى عملية تلقيح وتثاقف من كل الأطراف، حتى يتخلّق فكر يمكن أن نطلق عليه أنه فكر خلاق، ينمو وتنمو معه الحياة.

وعملية التلاقح هذه صعبة ولها آلامها وأوجاعها، وفترة حضانتها، وهو ما لا يريده من ينشدون الراحة، ويهربون من (وجع الرأس)، ويحبون الأشياء المستعجلة

التي لا تحتاج إلى أخذ ورد (كلمة وعشر سواء). بينما بقاء كل فكر على حِدة هي عملية (عقم)، لا يرجى من ورائها حياة ولا نموا، وهذا ما يفضله البعض من باب (لكم فكركم ولنا فكرنا)، على غرار قوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) الكافرون: ٦، والفرق شاسع بين هذه وتلك، فالأولى فيها مجال للتلاقح والتثاقف، بحكم وجود عوامل مشتركة كثيرة، بينما الأخرى تحتاج إلى جهد مضاعف لإيجاد أرضية مناسبة لهذا التلاقح، الذي من الممكن أن يكون تلاقحا وتثاقفا طبيعيا وله نتائج مثمرة إذا وجدت مصداقية وإنصاف من جميع الأطراف، أو قد يتم اللجوء إلى التلقيح الصناعي (أفكار الأنابيب) على غرار (أطفال الأنابيب)، إن صح التعبير، وهذا التلقيح غير مأمون النتائج ولكن يتم اللجوء إليه إذا انعدمت كل فرص التلقيح الطبيعي.

خلاصة ما أحب الوصول إليه هو ضرورة البحث عن الطرق التي يتم من خلالها فتح أبواب التلاقح والتثاقف مع الجميع بلا استثناء، سواء كان قريبا أو بعيدا، وعملية التواصل مع كل طرف تقدر بقدرها في عملية التواصل الذاتي والحضاري، مع الأخذ في الاعتبار أن الذرائع التي أغلقت بموجبها أبواب كثيرة بحجة سد هذه الأبواب، لما ينتج عنها من مفاسد، يجب أن يتم السعي إلى إعادة فتحها بصورة واعية تواكب زمنها وتلتزم بمنهجها الرباني، وأن يبقى (سد باب الذرائع) حالة استثنائية يتم اللجوء إليها عند الضرورة، وأن يبقى الأصل هو الفتح وليس الإغلاق.

قد أكون مغردا خارج سرب المفاصلة والتمترس، وداعيا لإعادة تقييم مصطلح الولاء والبراء عند من يرون الأمور بلونين فقط (أبيض وأسود)، وقد أكون ممن يرون أن امتلاك الحقيقة المطلقة هي حصر على رب العالمين، وأن البشر مهما علا قدرهم محتاجون لغيرهم سواء كان قريبا أو بعيدا في الماديات والمعنويات، وأن اكتمال الصورة ونصاعة الحقيقة قد لا يكون إلا باجتماع كل ما لدى الأطراف وليس برؤية



طرف بعينه، وأن الفكر النقي نقاء تاما (عيار ٢٤)، ليس موجودا في سوق ذهب الأفكار، بل قد يكون المرغوب والمطلوب في سوق ذهب الأفكار هو الذهب الذي به بعض الشوائب القليلة التي لا تخرجه عن مسمى الذهب (عيار ٢١، ١٨ مثلا).

أتمنى أن يتم رؤية ما طرحت في إطار أن الله رب العالمين، وأنه قسم الأرزاق على جميع خلقه، ومن هذه الأرزاق رزق الفكر والتأمل والتحليل، فلنكن أهلا لجمع الرحيق من كل بستان ومن كل زهرة لينتج عن ذلك عسل مصفى فيه شفاء للناس. والله وليّ الهداية والتوفيق.

ما نعتاده من الفوضى أنها مناقضة للنظام والاستقرار، وأنها تخلق فضاء لعبث العابثين وفوضى الفوضويين، لكن ما اعتدنا عليه من الفوضى، التي يمكن أن نسميها (الفوضى الصلبة)، قد صار من الماضي الكلاسيكي، والأجيال القديمة للفوضى، وأن العولمة قد أفرزت لنا أجيالا أحدث للفوضى، فجاء الجيل الثاني للفوضى أكثر حداثة من سابقه، وهو ما أطلق عليه اسم (الفوضى الخلاقة).

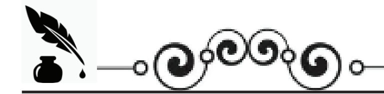
وهذا المُصطلح (الفوضى الخلاقة) يعتبر أحد أهم المفاتيح التي أنتجها العقل الاستراتيجي الأمريكي في التعامل مع القضايا الدولية، حيث تمت صياغة هذا المصطلح بعناية فائقة من قبل النخب الأكاديمية وصناع السياسة في الولايات المتحدة، وعلى خلاف مفهوم الفوضى المُثقل بدلالات سلبية كعدم الاستقرار، أُضيف إليه مصطلح آخر يتمتع بالإيجابية وهو الخلق أو البناء، ولا يُخفى خُبث المقاصد الكامنة في صلب مصطلح (الفوضى الخلاقة) لأغراض التضليل والتمويه.

وحسب ما كشفته تسريبات ويكليكس، فإن المُؤسسات العالمية الأمريكية وفي طليعتها وزارة الخارجية الأمريكية ومؤسساتها الاستخباراتية، ومؤسسات بحثية أُخرى، تقوم بجمع الكثير من المعلومات في جميع الجوانب، ومدى تأثيرها فيما يتعلق بالخلافات المحلية وأطرافها ورموزها وأسبابها وحجمها. ولا يقف الأمر عند حد الخلافات، بل يتعداه إلى قراءة تركيبة القوى الاجتماعية ومطالبها وطبيعة الأنظمة والقدرة على استجابتها لتلك المطالب أو عجزها عن ذلك. لقد طورت الولايات المتحدة الأمريكية هذا النهج، وصاغته في نظرية تعامل استراتيجي، تتيح لها ألا تضطر للجوء إلى العمل العسكري المباشر إلا كخيار أخير، خاصة بعد التجربة الفيتنامية.

إنّ الفوضى الخلاقة هي عبارة عن فجوة وفراغ ينعكس عن استقرار المجتمع وتماسكه، وهو نتيجة رغبة في التغير أملتها تطلعات الفاعلين إلى تحقيق الحراك والتغير في شتى المستويات وخاصة منها السياسية والاقتصادية، وهي غالباً ما يتم تمويلها من الخارج، حسب وصف أحد الكتّاب. حتى وإنْ كانت عوامل التغيير داخلية فإنّه يتم استثمارها وتطويعها بما يخدم مصالح الآخر الغربي الذي يسعى إلى الحفاظ على مصالحه. وعلى هذا النحو فإنّها، أي الفوضى الخلاقة التي هي على حد تعبير صموئيل هنتنجتون: «الفجوة التي يشعر بها المواطن بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، فتنعكس بضيقها أو اتساعها على الاستقرار بشكل أو بآخر».

ثم جاء الجيل الثالث من الفوضى، الذي يمكن أن نطلق عليه اسم (الفوضى السائلة)، وقد استطاع هذا الجيل من الفوضى أن يستفيد من الجيلين السابقين، ويتجاوزهما بمسافات شاسعة، فقد أصبح كل شيء يتعلق بالفوضى سائلاً، زئبقي الحركة، متعدد الألوان، لا يستطيع الإنسان أن يتخذ منه موقفا، بل هو في حالة حيرة شديدة في التعامل معه، يرى الفوضى تتغذى على النظام والاستقرار، ويرى النظام والاستقرار يتغذى على الفوضى، ولا يستطيع أن يسمي الأشياء بمسمياتها، فالفساد ليس كما يخيل إليه، والفوضى ليست كما يعتقد، والاستقرار ليس كما يبدو له، والدولة ليست بتلك الصلابة والمثالية التي يتصورها، فكل شيء سائل ومتحول ومتعدد، حتى الأفكار والعقائد تصبح في خضمِّ هذه السيولة في حالة ميوعة، يمكن أن تكون (لا ونعم) في نفس الوقت، وحق وباطل، في الحالة نفسها، وخير وشر في المواقف ذاتها.

لقد كان غسل الأدمغة بالطريقة التقليدية يستهدف تطهيرها من آثار المعنى والمنطق القديم ليجهزها لبناء معنى ومنطق جديدين، وأما غسل الدماغ في الوقت الحاضر فيُبقي الموقع فارغا وقاحلا دوما، فلا يسمح بدخول أي شيء أكثر نظامية،



بل يبقي الأمر في حال من البعثرة والعشوائية، وكأنها الخيام يسهل نصبها بقدر ما يسهل خلعها، فلم يعد غسل الدماغ عملية هادفة مرة واحدة وللأبد، بل عملية مستمرة تجعل من استمراريتها هدفها الوحيد.

إن من أخطر الفقرات التي سيجدها القارئ في كتب (زيجمونت باومان)، والذي تحدث فيها عن سيولات كثيرة (الخوف السائل، الحداثة السائلة، الحب السائل، المراقبة السائلة، ...)، عن أنه من الممكن افتعال الحروب، وعن سهولة تضليل الرأي العام وإقناعه بأن الحرب ضرورية، بل ومرغوبة للغاية، فما عليك إلا أن تفتعل أزمة، وأن تضحي ببعض عشرات من الأرواح البريئة قربانا سياسيا، وأن تزيد من إحساس الناس بعدم الأمان، وعندئذ وبين عشية وضحاها، سيرغب الناس في الخضوع ليد مسيطرة باطشة، وفي خطابات سياسية خشنة، بل وربما في شن الحرب.

ولطالما سأل المرء نفسه مع كل مشهد حرب مروعة أو قتل مجاني أو عنصرية بغيضة سؤالا متكررا: كيف يمرر الناس العاديون كل هذه الوحشية بل ويسهمون فيها؟، وفق تساؤل أوردته د. هبة رؤوف عزت.

وقد سعت دراسات كثيرة لتقديم تفسيرات لهذا التساؤل، لكن ما يمكن استخلاصه هو أن الشر والفوضى تكمن في التفاصيل اليومية حتى تبلغ حد الاعتياد، ولا شك أن المدن الحديثة هي البوتقة المركزية لصهر القيم والأخلاق والتطبيع مع الشر والفوضى، في نسختها السائلة.

حجية السنة النبوية

تابعت كغيري ما جرى من نقاش بين بعض أعضاء المجموعة، وكمتابع يمكنني أن أشارك بمداخلة ليست تخصصية بقدر ما هي أفكار تدور في ذهني، أتمنى أن تلقى لها مكانا بين ما طرح، وسأركز مداخلتي في عدة نقاط هي:

١- ما أؤمن به - وأظن الجميع يوافقني في هذا الإيمان - هو أن حواراتنا حول ديننا الإسلامي بشموله وعمومه هو نقاش بناء لا هدم، وأن أفكارنا تنصب في كيفية فهم هذا الدين، كي تصلح به الحياة، وهذا هدف كل طرف في الغالب الأعم، وإننا عندما نرفع معاول الهدم فإننا نوجه هذه المعاول إلى تحطيم الأساطير والخرافات والخزعبلات وما شابهها، وعندما نختلف في الفهم فلا بد أن يكون لنا مرجع نحتكم إليه ومعيارا نحاكم إليه أفكارنا، وهو كتاب ربنا سبحانه وتعالى وكلام نبينا -صلى الله عليه وسلم-، دون أن نسقط فكرة لأن فلانا قالها، بل لأنها بالفعل تستحق السقوط نظرا لتهافتها.

٢- أعتقد أنه لا يوجد دين أو أيديولوجية يناقض فيها مؤسسها نفسه، فيقول كلاما يعارض الكلام الذي قاله نصا (وهو هنا في حالتنا القرآن الكريم الموحى به)، لا أعتقد أنه سيناقضه بشروحه وتوضيحاته، التي نقلت عنه بصورة صحيحة حسب الأصول التي اتبعها أصحاب السنن، وهو منهج في الإسناد والتحري والدقة، بحيث يسلِّم به كل من يريد أن يصل إلى حالة الاطمئنان والوثوق.

٣- لا يعني أنه في حال وجدت بضعة أحاديث عليها علامات استفهام أن نسحب الحكم على جميع دواوين السنة، بحجة تعارض هذه الأحاديث التي قد يكون النقد لها في محله، أتساءل بصدق: لماذا لا نضع الأمور في نصابها ونناقش الأحاديث التي فيها إشكال بطرق منهجية تثبت صحتها أو زيفها، في ضوء أحكام الإسلام ومقاصده العليا؟



بدلا من إسقاط حجية السنة لأن هناك بضعة أحاديث لا يمكن التسليم بما جاء فيها.

٤- الصدق مع النفس هو الذي يحرِّض الإنسان على توجيه النقد لذاته ومنهجه وطريقة استدلاله، قبل أن يوجه النقد لغيره، وليعتبر أن ما يطرحه فرضية يسعى مع غيره لإثباتها أو دحضها، ويعتبر الآخرين عونا له في ذلك، وواضعا في اعتباره أنها فرضية وليست حقيقة، أي أنه كما يبحث عن إثباتها بالأدلة، فهو أيضا لا يتجاهل الأدلة التي قد تنقضها. إنها حالة إنصاف النفس قبل إنصاف الغير.

٥- أمامنا تحدي كبير أمام مصادر ديننا، وما يتبع ذلك من تراث نتج من التعامل مع هذه المصادر، هذا الدين الذي ندين به، ونعتبره منهج حياة، يحتاج منا أن نتعاون على فهمه، وأن نتواضع لبعضنا عندما تختلف رؤانا حوله، فربما يكون الحق، أو جزء منه على الأقل عند من نرى أنه على الباطل. إن التحامنا بهذا الدين وانتماءنا له يوجب علينا أن نثق في أصوله عن علم وبينة ووعي، وأن نسعى جميعا إلى الإعلاء من صرح بنائه، وترميم ما تمزق من ثوبه دون تلفيق أو تسطيح، وأن نشحذ فكرنا في الانتصار له وفق منهجية علمية واضحة بيضاء نقية، ليس فيها ضبابية ولا تدليس، عندها نكون في مستوى هذا الدين، ونستحقه عن جدارة.

٦- إن ما يعانيه الإسلام من بعض المنتسبين إليه يفوق أحيانا ما يعانيه من أعدائه، سواء كان هؤلاء الذين ينتسبون إليه يقومون بذلك عن حسن نية أو عن سوء نية، فالأمر سيان في المحصلة النهائية والنتيجة الختامية، وهذا ما يجب أن يدركه من يظنون أنهم يخدمون الإسلام بهدمه.

٧- في أحيان كثيرة قد يكون ترسيخ مفهوم وتثبيته وتمكينه من العقول والقلوب (دون تلفيق أو تسطيح أو تبرير)، أكثر جدوى وأكثر مردودا على صاحبه وعلى المنهج



الذي يؤمن به، من قيامه بالنقض والهدم، الذي قد يكون مغريا ويمنح صاحبه شهرة، لأنه يسبح عكس التيار، وليست كل سباحة ضد التيار محمودة ومرغوبة لا لصاحبها ولا لمنهجه ومجتمعه، إلا إذا كانت هذه السباحة ضد تيار الكهانة والزيف والخرافة، فهذا أمر محمود ومرغوب، ويخدم المنهج مثله مثل سابقه.

٨- أخيرا، أتمنى قبل أن نناقش موضوعا أو نعيد نقاشه من جديد، أن يكون مستحقا لإعادة طرحه، وقد استجدت فيه أمور جديرة بأن تبحث من جديد، لا أن نعيد الشبه السابقة، التي عليها بالفعل ردود سابقة في زمنها أو في الزمن التالي لها، لماذا نحب أن نبدأ من الصفر في كل حواراتنا نقضا أو إثباتا؟ لماذا لا نستغل هذه الطاقة الفكرية التي تعيد طرح القديم في الزمن الجديد بنفس حججه السابقة؟ علينا أن نتحمل المسؤولية جميعا، وأن نحترم جهد غيرنا ووقته، وألا ندخل أنفسنا وغيرنا في معارك قد حدثت أخوات لها قبل عشرات إن لم تكن مئات السنين، وهذا هو الذي يحز في النفس، أن نستنزف جهودنا، ونواصل النزيف في ثغور كان غيرها أولى بالمرابطة فيها. والله وليّ الهداية والتوفيق.

السلف مرحلة مباركة وليست مذهبا واجب الاتباع.

الله سبحانه وتعالى تعبدنا بالامتثال لكلامه، وما صح من كلام نبيه الكريم -صلى الله عليه وسلم-، ولم يتعبدنا بالامتثال لأي كلام بعد ذلك إلا ما كان فهما صحيحا صريحا لهذه النصوص ولا يخالفها، وما عدا ذلك فهي اجتهادات بشرية يسري عليها الصواب والخطأ.

واستغرب تركيز البعض على مصطلح السلف وكأنه مذهب إسلامي واجب الاتباع وليس مرحلة تاريخية مباركة. أتساءل لماذا نريد أن نسلب المتأخرين نعمة التفكير في فهم النصوص التي استند إليها السلف، ونعتبر أن فهم السلف لهذه النصوص هو الفهم الذي ليس بعده فهم؟ ما أظن أن هذا الطرح سوف يسعدهم، بل إن ما يسعدهم - من وجهة نظري - أن يروا أن من يأتي بعدهم يأخذ بمنهجيتهم في فهم النصوص، وإن وصل إلى اجتهاد يخالف اجتهادهم، بعد أن يستفرغ الجهد، أما الحجر على الناس ومنعهم من إعادة التفكير في الأدلة والبراهين التي استند عليها السلف بحجة أن هذا الأمر لم يعد فيه اختيار، فقد أجمعوا عليه ولا مجال للاجتهاد فيه بعد ذلك، فهذا تضييق لواسع في هذا الدين العظيم، فهل نريد أن نغلق باب الاجتهاد (الموصد أصلا)، وكل من حاول أن يقترب من بعض المسائل شهرنا عليه سيف الإجماع والسلف، حتى نسكته دون أن نقنعه، وستبقى في نفسه غصة لم نسمح له بإخراجها ولم نقنعه ببطلانها، وما قضية دخول الجني في الإنسي عنا ببعيد، والتي تريد أن تقنعنا بها غصبا، رغم وجود أدلة أخرى لا ترى ما وصلت إليه، وكلما نوقشت في ذلك شهرت في وجه من يخالفك سيف الإجماع والسلف، وهذا ما تقوم به في أكثر من مسألة تتم مخالفاتك فيها.

إذا أردنا بالفعل أن نكون في مستوى ديننا، فلنكن في مستوى المنهجية التي يضعها للبحث العلمي، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة تؤكدان على أهمية إعمال العقل في معظم القضايا عدا قضايا قليلة يقف العقل عاجزا أمامها، وهي من الأمور الغيبية التي لا طاقة للعقل بالدخول فيها، أما بقية القضايا فهي مطروحة على بساط البحث المنصف والمتجرد من الأهواء (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). البقرة: ١١١.

والأمر في البحث، والإتيان بالبراهين والأدلة ليس مقتصرا على السلف (على مكانتهم وجلالة قدرهم)، ولكنه يلزم كل مسلم في كل العصور، لأن العقل مناط التكليف، (وإذا توصل الإنسان إلى الإيمان، فسيكون مقصرا ومهملا إذا لم يستخدم التفكير ليكون مقتنعا بمضمون الإيمان).

لقد أورد لنا القرآن حوار الله مع نبيه إبراهيم عليه السلام في موضوع إحياء الموتى، وأورد لنا حوار كليم الله موسى عليه السلام مع ربه في الرؤية، وأورد لنا تساؤل عزير عن كيفية الإحياء بعد الإماتة، وغير هؤلاء بالطبع، ولم يخبرنا القرآن بأن الله أسكتهم وشهر عليهم سيف الجلال والعظمة بل مكّنهم من فهم ذلك عن طريق تفسير ذلك أمامهم، فاطمأن إبراهيم، وارتاحت نفس موسى، وتيقن قلب عزير. ترى لو قيلت هذه التساؤلات بين يدي بعض علماء اليوم ماذا سيكون الحال؟ أترك لكم تخيل ما سيحدث.

الإسلام دين قوي، ولا يخاف من التساؤلات ولا يخشى البحث النزيه، ولا يقف حائلا أمام من يريد الوصول للحقيقة بل يدعمه ويشد على يده، فلماذا نحوّل هذا الدين إلى دين يخاف من تفتح العقول ويخشى من تساؤلاتها، ويشهر في وجه كل من

يحاول التفكير سيف المروق والزندقة ووو..... في سبيل الدفاع عن بعض القضايا التي في أحيان كثيرة لا تمت إلى الإسلام بصلة لا من قريب ولا من بعيد، والعجيب أننا ننتصر لمثل هذه القضايا ولو على حساب ديننا الذي يحترم العقل، ويرفع منزلته ليصبح مناط التكليف والتعرف على الخالق العظيم جل في علاه (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) آل عمران: ١٩١، وتأمل قوله تعالى (ويتفكرون) وسيتضح لك الأمر بكل جلاء.

الإسلام لا يخاف من السؤال، ولا يتردد في الإجابة عليه، لأنه بالفعل يملك الإجابة، ولا يخشى من نتائج البحث الجاد، لأنه متيقن أن نتائجه ستوصل أصحابها إليه (أمطري حيث شيئت فإن خراجك سوف يأتيني)، لقد واجه الإسلام الإلحاد والشرك والوثنية، وحاور المشركين واليهود والنصارى وأفحمهم بالحجّة والبرهان حتى خضعوا صاغرين، قال تعالى: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) الرقان: ٥٢، نعم، لقد حاورهم القرآن وأجاب على تساؤلاتهم وألزمهم الحجة لا بالسيف ولكن بالدليل، فما بال البعض اليوم يريدون أن يغلقوا هذا الباب الذي هو بالأصل ما يجعل الإسلام صالحا لكل زمان ومكان، ويجعل لهذا الدين حيويته، بدلا من تحويله إلى دين يخاف من التفكير في بعض المسائل، ويخشى من الباحثين أن يكتشفوا مثالبه التي يغطي عليها بسيف القبول بما قال السلف وإن خالف النصوص المعصومة.

الإسلام يعتبر السؤال والبحث قوة يفتخر بأنه أسس مداميكها، ولا يعتبر ذلك محاولة للنيل منه كما يفهم البعض. السؤال يصب في شرايين هذا الدين دماء جديدة تعيد له شبابه، (إن الله يبعث في هذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدد لها شبابها)، ثم يأتي الجواب المرحِب أصلا بالسؤال ليزيد الأمر قوة إلى قوته ونورا إلى

نوره، كما تأتي نتائج البحث لتكون لبنة أخرى في صرح الإسلام الشامخ.

أقول لكم بصدق، لا تخافوا على الإسلام من المتسائلين والباحثين الصادقين المتجردين، فهؤلاء مدد هذا الدين وقوته، ولكن خافوا على الإسلام ممن يُسكِتون الناس ويشهرون في وجوههم سيوف الإرهاب حتى تبقى أسئلتهم بداخلهم، وممن يقفون حجر عثرة أمام كل باحث يريد الوصول إلى الحقيقة، التي قد يخشى البعض ظهورها، لأن لديه حولها أقوالا لا يمكنه التنازل عنها.

أخيرا، فإن ما أتمناه هو ألا نكون أوصياء على الآخرين، بل أن نكون أعوانا لهم ليصلوا إلى إجابات على أسئلتهم، تطمئن بها قلوبهم، وعونا لهم على أبحاثهم التي يأملون أن يقطفوا ثمارها فتقر بذلك أعينهم. نعم، قد يخطئون وقد يتعسفون في السؤال، وقد يسير بهم بحثهم شرقا وغربا، ولكنهم في نهاية المطاف وبفضل الله وتوفيقه أولا، وبحسن التوجيه من قبل المخلصين سيصلون إلى بر الأمان، وعند ذلك تشرق الأرض بنور ربها، ويجد المؤمنون ما وعدهم ربهم حقا. والله وليّ الهداية والتوفيق.



الخوف على التراث يكون بتحقيقه لا بتقديسه.

لا بارك الله في الحداثيين والعلمانيين ومن سار على نهجهم، فقد حاولوا العبث بتراث الإسلام وحتى بأصوله، ولم يكن هدفهم علميا ولا قائما على منهجية علمية، بل كان قائما على الطعن والثلب، وإظهار تعارض النصوص، وتصيد الثغرات هنا وهناك، لتكون المحصلة النهائية لهذا العبث كله، إسقاط مكانة النصوص الإسلامية (قرآنا وصحيح سنة)، من قلوب المسلمين وعقولهم، كي يتسنى لهم السير على طريق العلمنة والحداثة، الذي يرغبون في الوصول إليه، والذي لا يقف أمام تحقيقهم لهذا الغرض إلا الأصول الإسلامية، والتراث الإسلامي، الذي يرغبون في إهالة التراب عليه.

ولكن الأخطر في هذا الأمر، هو أن الحداثيين والعلمانيين أوجدوا من خلال طرحهم هذا رد فعل أو حالة نفسية لدى المدافعين والغيورين على النصوص الإسلامية والتراث الإسلامي، استطاعوا من خلالها أن يرفعوا مستوى هجوهم وعبثهم، وهذه الحالة النفسية تمثل في رفض، بل وعدم قبول أي طرح أو مقترح له علاقة بمراجعة التراث وتحقيقه بشكل خاص، ومحاولة الوقوف على اجتهادات السلف لنصوص القرآن والسنة ومدى تمثلها لروح هذا الدين ومقاصده والجمع بين نصوصه، وقد تكون مثل هذه الدعوات للتحقيق والمراجعة من أناس صادقين ومخلصين، ولا يقدح في نياتهم أحد، في كونهم يريدون أن ينتصروا لأساسيات دينهم وتراثهم ممن يحاولون العبث بها، ولكن، ولوجود ردة الفعل والحالة النفسية التي ذكرناها سابقا، قوبلوا بالرفض، وأحيانا بالاتهام، ولم يفهم طرحهم واقتراحاتهم إلا بكونها تصب في خانة أولئك الذين يريدون العبث بالإسلام من خلال العبث بنصوصه وتراثه، وهذا هو ما جعل الكثير من الغيورين، والذين لديهم توجهات صادقة نحو تراثهم بغرض تحقيقه والاستفادة منه وإسقاط بعض مثالبه وخرافاته، ومحاولة الإلمام بالاجتهادات التي قالها

سلف الأمة في فهمهم للنصوص المعصومة تفسيرا للآيات وشرحا للأحاديث، والجمع بين هذه الاجتهادات للوصول إلى أرشدها، أو البناء عليها للوصول إلى ما هو أرشد، أقول هذا ما جعل هؤلاء يحجمون عن الإقدام على مثل ذاك مخافة أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من تخوين واتهام.

وبهذا كسب العلمانيون والحداثيون كسبا وفيرا، فهم لم يتوقفوا عن الطعن والإثارة ومواصلة طرح الشبهات، بكل الوسائل المتاحة لهم، وكسبوا إلى جانبهم بعضا من أبناء هذه الأمة، فصار هؤلاء يسايرونهم فيما يقولون، وينشرون عبثهم بين أبناء المسلمين، وهذا بدوره أحدث بلبلة لا يخفى على ذي لب أثرها، وبالمقابل وجدوا في حالة تشدد المدافعين والغيورين سندا ومعينا لهم، فهم من جهة يعبثون، ومن جهة ثانية يروجون لكلام هؤلاء الغيورين بأنهم يقدسون ليس التراث الصحيح بل ويقدسون في التراث بعض الخرافات والأساطير، ورغم علمنا أن الهدف الأساس للعلمانيين والحداثيين هي إسقاط الإسلام جملة وتفصيلا، وليس فقط ما ليس صحيحا فيه، ولكنهم وجدوا في تشدد الغيورين مدخلا فقاموا باستغلاله.

ودعوني أوضح نقطة ذات أهمية، وهي ما الذي يمنع أن يكون هناك مجمع علمي أو حتى مجامع علمية متعددة يقوم عليها خيار علماء الأمة ومفكريها، يحققون من خلال اجتماعهم تراث هذه الأمة، ويقفون على اجتهادات أعلامها الفضلاء في فهمهم لكتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، حيث وقد تيسرت لهم من الوسائل ما لم يتيسر لمن سبقهم، وسيصلون حتما إلى اجتهادات قد تسحب البساط من تحت أقدام العلمانيين والحداثيين وتعريهم، ولا يعني ذلك أن هذه الاجتهادات التي توصل إليها علماء الأمة من خلال هذه المجامع هي الصواب والرأي الجامع، بل هي أفضل ما أمكن الوصول إليه في تحقيق التراث، وفهم النصوص المعصومة حتى الآن، ويبقى



الباب مفتوحا لاجتهادات مستقبلية تواكب ما يستجد للمسلمين، وتحافظ على نصوصهم المعصومة كونها صالحة لكل زمان ومكان.

ودعوني أضرب مثالا واحدا، وهذا المثال يؤكد على أهمية التحقيق ومكانته في خدمة القرآن والسنة أولا وفي خدمة التراث الإسلامي ثانيا، وهذا المثال هو ما قام به الإمام الألباني رحمه الله من جهود عظيمة في تحقيقه لكتب السنة، والحكم لبعض الأحاديث بالصحة ولبعضها بالضعف، حتى على مستوى كتب الصحاح، وقد قام بذلك من خلال تفعيله لنفس المنهجية التي سار عليها علماء الحديث، ولم يخترع منهجية جديدة، وقد تلقت الأمة جهوده بالترحاب والقبول.

أقول: إذا كان هذا الجهد المبارك قد قام به شخص واحد، فكيف ستكون ثمار مجمع علمي يضم عشرة أو أكثر من أمثاله، وتوضع بين أيديهم من الإمكانيات ما يسهل لهم هذا العمل. ويمكن أن يقال هذا مع تراثنا في التاريخ، وما قام به العلامة محمود محمد شاكر خير مثال، فلماذا لا تتحول مشاريعنا التي لها علاقة بنصوص الأمة وتراثها من كونها مشاريع واجتهادات فردية إلى مشاريع جماعية، سيكون لها مردودها الكبير على حاضر الأمة ومستقبلها.

ومن وجهة نظري فإني لا أرى مبررا لهذا الخوف الذي يبديه بعض الغيورين من التحقيق والمراجعة من خلال مجامع علمية معتبرة، فالأكثر جدوى وتأثيرا للأمة هو إنشاء مثل هذه المجامع ودعمها وتشجيعها، والمساهمة في وضع أهدافها، وترشيد مسيرتها، وانتخاب أفضل أهل الاختصاص ليكونوا أعضاء فيها، وبهذا نكون قد قدمنا خدمة لأمتنا وأصولها وتراثها، وأوقفنا عبث العابثين بها وبأصولها وتراثها. والله وليّ الهداية والتوفيق.

نظرية التطور عند دارون... عنزة ولو طارت

من يطالبنا بتصديق نظرية التطور يريد منا أن نصدق القصة القصيرة، التي قرأتها قبل فترة وهي: كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، كان هناك أسماك في البحر لها زعانف وخياشيم، فانحسر البحر عنها، وقيل أنها خرجت منه، ورغم ذلك بقيت على قيد الحياة بخياشيمها وزعانفها، ثم كان بعضها محظوظا فتعرض لطفرة جينية، وإذا بالزعانف تصبح أرجلا، والخياشيم تتحول إلى رئتين، فنشأت أنواع جديدة من الزواحف، وما زالت تلك الزواحف تتعرض لطفرات على مر السنين، فنشأ منها ما لا يحصى من الكائنات، منها ما تحولت أرجلها إلى أجنحة، فأصبحت طيورا، ومنها ما أصبح زرافات وقردة وفيلة، حتى أصبح آخر أحفادها بشرا سويا، يفكر ويخطط ويتكلم، ويحب ويكره ويغار، ويبتسم ويضحك ويبكي، ... وتوتة توتة خلصت الحتوتة!!

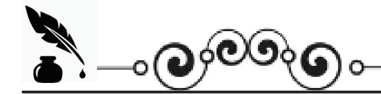
لقد قيل إن الإنسان الشرقي ينظر إلى السماء دائما على أنها سبب الخليقة، بينما ينظر الإنسان الأوروبي دائما إلى الأرض، وقد لا يكون هذا صحيحا دائما، إلا أنه ليس خطأ أيضا فهو يشير بوضوح إلى الفلسفات المادية التي نشأت في أوروبا وبقيت تظهر بين الحين والآخر على مر التاريخ كلما كانت الظروف الاجتماعية تسمح بذلك. ويدّعي أحد المؤمنين بنظرية دارون (ريتشارد داوكنز) أن تطور الكائنات ليس إلا نتيجة أخطاء، تشبه ما يرتكبه الطباخون، عندما يحضِّرون وصفة مكتوبة، فينتج عن أخطائهم أطباقا جديدة لذيذة، أهذا هو العلم الذي يتبجح به الداروانيون؟

إن الأصل في النظريات أنها باطلة حتى تثبت. كما يقول: (فداء الجندي، في كتابه العلم يؤكد شكوك دارون، الكون مادة وطاقة وشيء آخر)، ونظرية دارون

لا زالت في طور النظرية، وإن الحياة تتألف من مادة وطاقة ومعلومات، وكلما كان الحدث أكثر تعقيدا، كانت الاحتمالات الناتجة عنه أكثر. وما نعرفه من تجاربنا البشرية، وخبراتنا المتراكمة على مر العصور، وما يقوله العقل والعلم والمنطق، أن كتابة الشعر أو النثر ذي المعنى، وبشكل عام الحصول على أي معلومات منسقة ومرتبة وذات فاعلية أو وظيفة تؤديها، لا يتم إلا إذا كانت خلفه إرادة واعية وعقل مفكر، ولا يكون بطرق عشوائية لا إرادة ولا عقل وراءها، وهذا ما لا يريد الداروانيون الاعتراف به، لأنه يقودهم إلى الإله الحق، وهم لا يؤمنون بالغيبيات كما يزعمون.

وقد كان علم الوراثة وعلم الكيمياء الحيوية واكتشاف الحموض النووية، واكتشاف أن الخلايا ليست مادة فحسب، بل تحتوي على معلومات وخطط وبرمجيات، كانت كل هذه الأمور هي المسامير الأخيرة التي تم دقها في نعش نظرية دارون القديمة منها والحديثة، حسب وصف الجندي، لأنها لم تستطع (ولن تستطيع) أن تقدم إجابات علمية مقنعة ومعقولة عن كل الأسئلة التي تطرح عليها، وعجز هذه النظرية عن الإجابة يجعلها باطلة ومن مخلفات التاريخ، لأن تصنيع البروتين هو من أهم، إن لم يكن أهم العمليات والتفاعلات الحيوية التي تحدث في كل خلية حية، والتي لا بد منها لاستمرار الحياة. وما يحدث في نواة الخلية المتناهية الصغر أمر يدعو للدهشة: معلومات مخزنة، وبرمجيات معقدة، وتعليمات مرتبة، واتصالات متبادلة، وتنقلات محسوبة، وأوامر دقيقة، ونسخ وترجمة، وعمال يشتغلون، وخطوط إنتاج، وأشياء أخرى دقيقة معقدة. فهل يحدث هذا من خلال الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي الذي يتشدقون به؟

إن سجل الأحافير هو لغة الأرض، والأرض لا تكذب، وأمام التطوريين تحد كبير، وهو أن يأتوا بأحفورة واحدة فقط لواحد من آلاف الأجيال المفترضة من



الحيوانات الانتقالية التي تفصل بين جيل وجيل. وسجل الأحافير يعجز تماما عن إثبات التطور، ويؤكد وجود فجوات هائلة بين أنواع الكائنات الحية.

وعند تمحيص الآراء والأدلة المطروحة من قبل التطوريين تبين لنا أن الوضع يختلف اختلافا جوهريا عما هو شائع، وعما يريد هؤلاء العلماء لنا أن نعتقد، فالأدلة العلمية قليلة ومبعثرة ولا يمكن بأي حال من الأحوال بناء نظرية معقدة كأصل الحياة عليها، وفق تأكيد الدكتور طالب الجنابي، في كتابه نظرية التطور الداروينية خرافة باسم العلم. ونتيجة لذلك فإن الذين يؤمنون بالتطور تعثروا كثيرا بطرح نظريات خاطئة ثم تخلوا عنها بمرور الزمن، وليس هناك اتفاق بين العلماء على نظرية واحدة إلى يومنا هذا، كما أنه لا توجد نظرية تمتلك سندا فلسفيا كافيا. وفي الواقع فإن التطور أصبح مجرد اعتقاد، فإما أن تؤمن به أو لا تؤمن، وبالنسبة لأولئك الذي يعتقدون به فإنهم يؤمنون بهذه الفكرة ويبحثون عن أدلة لتبريرها وليس العكس (أي إيجاد الأدلة التي تكشف أن فكرة التطور واقع)، كما هو الحال مع الاكتشافات العلمية في حقول العلم الأخرى.

ونظريات التطور في تفسير أصل الحياة لا تمتلك أي دليل علمي لإسنادها على الإطلاق (والكلام للدكتور الجنابي)، ولا تتعدى أن تكون مجرد استقراء مبني على أساس أن فكرة التطور صحيحة، ومنها يرجع العلماء إلى الوراء لطرح بعض الآراء على هذا الأساس. وهذا يشير إلى أن فكرة التطور طرحت على عجل، وبدون تمحيص للتعقيدات والتبعات الفلسفية التي تصحبها، ذلك لو أن أيا من الكائنات الحية يتم تمحيصها بعناية، فإن الصعوبات التي سوف تواجه الباحث هي نفسها، كتلك التي واجهها التطوريون مع الإنسان.

لقد قال التطوريون أن هناك أدلة دامغة وقاطعة على صحة النظرية، منها أن



الشمبانزي والإنسان يشتركان في ٩٠٪ من الجينات، وأن هذا التطابق بينهما دليل على أن لهما سلفا واحدا، ونقول باختصار: ولماذا لا يدل ذلك على أن لهما صانعا واحدا وخالقا واحدا؟ وأين هذا السلف المزعوم؟ ولماذا كان حظنا من الطفرات أن نصبح بشرا وحظ أبناء عمنا (الأبناء الآخرين لذلك السلف) أن يكونوا قرودا؟

وبعضهم قال إن خروج الفراشة من اليرقة نوع من أنواع التطور، فلماذا ننكر ذلك المبدأ؟ ونقول: وكذلك خروج الصوص من البيضة، وخروج الضفدع من الشرغوف، بل وخروج الإنسان من النطفة الأمشاج، هذه يا سادة آليات متعددة للتكاثر، سبحان من أبدعها، وليست تطورا، كما يخيل للبعض.

ونظرية داروين على سبيل المثال، وحسب وجهة نظر الدكتور مراد هوفمان، تجعل البعض يؤمن بأن كل شيء ما هو إلا نتيجة لسلسلة من التطورات تقع بمحض الصدفة، والتي يمكن إعادتها بطريقة عكسية. وبالاستناد إلى نظرية النسبية لإنشتاين، يعتقد البعض أنه لا يمكن الثقة بأي شيء. أما ستيفن هاوكنج (عالم أمريكي بريطاني الأصل كسيح له كتاب مشهور عن بداية العالم)، فيجعلهم يعتقدون أنه لا أهمية لوجود الله لتفسير بدء الخليقة، حيث يستبدل بذلك الـ (Big Bang، بمعنى الانفجار الكبير). أما الوصول إلى سر الحياة والروح والوعي، فهو مسألة وقت لا غير، كما يراها رجل الشارع العادي، وستتكفل الكيمياء الحيوية وعلوم الكمبيوتر بحل هذه الألغاز.

ولم يقف (الدجل العلمي) عند هذا الحد، فمن أجل البرهنة على ما تقدم، راحوا يبحثون في فصائل الدم، ولون العيون والشعر، وحجم الجمجمة، ولون البشرة، ويصنفون البشر كما لو كانوا أنواعاً من الذباب أو البعوض. ولحسن الحظ فإن الطب أثبت أن فصائل الدم محدودة، وهي تختلف في العائلة الواحدة، وأن أشكال الرأس

لا تختلف كثيراً.

لقد شوِّه العلم وسخر لأغراض غير شريفة ولا نبيلة، وهي تنزل بالإنسان إلى مستوى الحيوان. فمن المبررات الخلقية لاستخدام الحيوان عدم فهمه، فجاء من يزحزح الإنسان، أو بعض أجناسه بحيث يكون قريباً من الحيوان، وعندها يمكن استغلاله والتحكم فيه، ولا بأس بالكذب، والقول بأنه يريد (تمدينه)، فكل المستعمرين كانوا يتذرعون بأن هدفهم من الاستعمار تمدين شعوب المستعمرات، وحين رفضتهم الشعوب، فتحوا النار عليها وقتلوها، وهذا ما يجب التفكير فيه أثناء الحديث عن نظرية دارون، فالتصديق بها له ما بعده.

ومن الجائز أن يكون دارون لا يدري مدى الخطورة من وراء قوله بأن الأجناس كلها من أصل واحد، وأن الإنسان من أصل حيواني، فهو بهذا قد فتح بابا خطيرا من الشُبه، التقطه أعداء الإنسانية، وساروا به للدعوة إلى حيوانية الإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه. وقد كشف باحثون أن الداروينية قد استُغلت في محيط السياسة، مما أدى إلى إيجاد جو مضطرب، أطلت منه مذاهب العنصرية، فقد كان قول دارون، بأن العناصر الضعيفة يجب أن تموت أو تستأصل، مما استغلته حركة الاستعمار العالمي، كنظرية قابلة للتطبيق على البلاد المحتلة. (محمود الشنقيطي، الداروينية حين تحزم بالقرآن).

وبناء على هذه النظرية وغيرها من الفلسفات الوضعية، توصل الدكتور محسن عبد الحميد إلى مؤشرات كانت نتائج لهذه النظريات والفلسفات، فقد تعددت المدارس الاجتماعية في مفاهيمها حول الإنسان وأخذت نظرتها طابعا جزئيا وأحاديا، فالإنسان الماركسي هو مجرد (سلوك متغير) حسب تغير أدوات الإنتاج، وهو مجرد من شموليته



ومن إرادته، وهو جبري مستسلم لحتمية التاريخ، والإنسان السوسيولوجي الوضعي (صورة معقدة) من صور الظواهر الفيزيائية والظواهر المادية، يخضع لجبرية المجتمع وقهره الاجتماعي، فالمجتمع هو الذي يشكل له قيمة ويحدد له سلوكه. والإنسان الأنثروبولوجي ليست له طبيعة متميزة بقدر ما هو (استعدادات) تتشكل وفق المؤثرات البيئية. والإنسان في المذهب البراجماتي إنسان (مصلحي)، يهدف إلى تحقيق مكاسبه الذاتية بمعزل عن القيم ومبادئ الحق والعدل. والإنسان الفرويدي (كومة من الغرائز الجنسية)، وكل ما ابتدعه الإنسان من فنون وحضارة وتاريخ هو نتيجة الكبت. والإنسان في المذهب الدارويني مجرد (حيوان اجتماعي) متطور ليست له صفات وقيم خلقية أصيلة.

لقد قالها الدكتور عبد الوهاب المسيري بصدق وهو يتحدث عن خطورة الفلسفة الداروينية في موسوعته (الجزء الثاني، ص ٧٤، ٧٥): لعله لا توجد فلسفة أثرت في عصرنا الحديث أكثر من الفلسفة الداروينية، كما لا توجد فلسفة بلورت الرؤية العلمانية للكون أكثر من الفلسفة الداروينية لسببين:
١- لأن الفلسفة الداروينية رسخت أفكار الواحدية المادية التي تذهب إلى أن العالَم إن هو إلا مادة واحدة صدر عنها كل شيء، مادة خالية من الغرض والهدف والغاية، ولا توجد داخلها مطلقات متجاوزة من أي نوع. فالعالَم طبيعة، والطبيعة محايدة لا تعرف الخير أو الشر أو القبح أو الجمال. ولا توجد أية ثغرات في الكون إذ أن المنطق المادي حتمي شامل يشمل كل شيء. ولا توجد ثنائيات في الكون إذ يُرَد كل شيء إلى المادة ويُفسَّر كل شيء بالتطور المادي. ومع هذا، توجد الثنائيات الاجتماعية الصلبة: الأقوياء/الضعفاء - الأثرياء/الفقراء - السادة/العبيد - القادرون على البقاء/ضحايا الصراع.

٢ ـ الإنسان إن هو إلا جزء من هذه الطبيعة وهذه المادة، وقد صدر هو أيضاً عنهما من خلال عملية التطور، إذ لا يوجد سوى قانون طبيعي واحد يسري على الإنسان والأشياء، فالوجود الإنساني نفسه يتحقق من خلال الآليات التي يتحقق من خلالها وجود كل الكائنات الأخرى، أي الصراع والقوة والتكيف. وهو وجود مؤقت، تماماً مثل مكانته في قمة سلم التطور، إذ أنه حتماً سيفقد مكانته هذه من خلال سلسلة التطور التي دفعته إلى القمة. بل يمكن القول بأن الأميبا من منظور تطوري صارم أكثر تميزاً من الإنسان لأنها حققت البقاء لنفسها مدة أطول من الإنسان. والإنسان، شأنه شأن الأميبا، لا يتمتع بأية حرية ولا يحمل أية أعباء أخلاقية، فالقوانين الأخلاقية هي مجرد تَطوُّر لأشكال من السلوك الحيواني الأقل تطوراً والحرص الغريزي على البقاء البيولوجي.

وهذا يعني أن القانون الأخلاقي، وكل القوانين، هي قوانين مؤقتة نسبية، ترتبط بحلقة التطور التي أفرزتها، ولذا يتم الاحتفاظ بالقوانين طالما أنها تخدم المرحلة. ومن ثم فإن الأخلاق المطلقة تقف ضد التقدم العقلاني المادي، وخصوصاً إذا كانت أخلاقاً دينية تدعو إلى حماية الأضعف والأقل مقدرة إلى الإشفاق عليه والعناية به. وهذا يعني أن كل الأمور نسبية تماماً ولا توجد أية مطلقات، ولذا يمكن القول بأن النظرية الداروينية هي الأساس العلمي للفكر النسبي. وإذا كان التطور يتم أحياناً عن طريق الصدفة، وتحدده الحوادث العارضة، فيمكن القول بأن النظرية الداروينية هي أيضاً أساس الفكر العبثي.

وهذا هو ما جعل المفكر على عزت بيجوفيتش يفرق بين العقوبة وحملات التطهير التي كان يقترفها مجرمو العالم: فحملة التطهير هي سلوك (تجاه شيء)، أما



العقوبة فهي سلوك (تجاه إنسان). ولكي يتعرض الإنسان للتطهير، فلا بد أن يتوقف عن أن يكون إنسانا، ليصبح عندئذ شيئا أو حيوانا، وبهذا المعنى كانت الداروينية شرطا أساسيا للستالينية والهتلرية، فلا يمكن أن تظهر حملات التطهير بهذه الصورة المتعمدة المنهجية إلا في عالم لا يعترف بوجود الله، ومن ثم لا يعترف بوجود الإنسان كذلك. ومنذ تلك اللحظة المشهودة، لم يعد ممكنا لإنسان أن يختار بين أن يكون حيوانا أو إنسانا، إنما اختياره الوحيد أن يكون إنسانا أو لا إنسان. وبذلك ربط بيجوفيتش بين الإنسان وبين الله، بمعنى أن الإنسان لا يمكن أن يكون إنسانا إلا بوجود الله، فإن مات الله (كما يزعمون في الحضارة الغربية) مات الإنسان، أو إننا نسينا الله، كما قال تعالى: (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) التوبة: ٦٧، (نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الحشر: ١٩.

والأدلة العلمية الحديثة بينت أن الإنسان ليس مجرد مادة، وأن الروح موجودة، وأن الخلق بواسطة الله تعالى هو التفسير الوحيد المعقول والذي لا يتناقض مع الأدلة العلمية. وأن أصل الإنسان لا يمكن أن يكون ماديا، كما بين ذلك علي عزت بيجوفيتش، فهو ليس نتيجة تطور مادي، فالعنصر الروحي في الإنسان الذي يستعصي على التفسيرات المنطقية المادية لا يمكن أن يوجد إلا بفعل الخلق الإلهي، والخلق ليس عملية مادية وإنما فعل إلهي، ليس شيئًا متطورًا، وإنما هو فعل فجائي (كن فيكون). وإذا صح أننا نرتفع من خلال المعاناة ونحط بالاستغراق في المتع، فذلك لأننا نختلف عن الحيوانات. إن الإنسان ليس مُفصلاً على طراز «داروين»، كما أن الكون ليس مفصلاً على طراز «نيوتن».

والكائنات الحية، كما يزعم الداروانيون ناتجة بزعمهم عن أصل واحد مشترك،

ولكنه تطور بفعل تراكم الطفرات العشوائية، ثم بفعل قانون الانتخاب الطبيعي، الذي عمل عليها فأبقى الأصلح منها، فأي قوة هذه التي نسميها بالانتخاب الطبيعي، إن لم تكن هي إرادة الله العليم الحكيم. وهذا يقودنا إلى القول بأن القضايا التي تثار حول الإلحاد ليست حقيقية، وإنما هي هروب من الاعتراف بوجود إله يدبر هذا الكون بما فيه ومن فيه، والأقرب أن عملية الإلحاد منطلقها مصلحي، وتذكر بقول أحد الغربيين: (إذا لم يكن الله موجودا فكل شيء مباح).

وهناك من يتأوّل قوله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) آل عمران: ٣٣، على أن الله اصطفى آدم من المملكة الحيوانية، أو من المملكة البشرية (حسب وصف د. أبو القاسم حاج حمد، والذي يعتبر أن الإنسان تطور من كونه بشرا إلى أن صار إنسانا، باعتبار أن البشرية مرحلة أدنى من الإنسانية، وهذا ليس صحيحا)، وعليه، فهل كان نوحا أيضا وآل إبراهيم وآل عمران في المملكة الحيوانية المسماة بالبشر، ثم اصطفاهم الله من ذلك الصنف؟

ولأن هناك من يستفيد من نظرية التطور، فقد تم إرهاب العلماء الذين يقولون بعكس نظرية دارون، وقد ذكر أحد الأعضاء في إحدى مداخلاته مقولة البروفيسور ج. شين، وهو عالم صيني شهير على مستوى العالم، ومتخصص في علم الأحافير والكيمياء الحيوية، والذي استدعته إحدى المؤسسات العلمية الأمريكية كمحاضر زائر في قسم الجيولوجيا بجامعة واشنطن، وعندما بدأ يحاضرهم ويشرح لهم كيف أن اكتشافه يقوّض نظرية دارون، عندها قاطعه بروفيسور أمريكي كان حاضرا، وقال له بلهجة لا تخلو من التحذير: أليس عجيبا أن يقوم عالم صيني بنقد دارون ونظريته؟ وهو يلمّح إلى أن الصين بلد ليس فيه حرية فكرية، فابتسم البرفسور شين وقال: (في الصين لا نستطيع أن ننتقد الحكومة، ولكن نستطيع أن ننتقد دارون

ونظريته، ولكنكم في أمريكا تستطيعون أن تنتقدوا الحكومة، ولكنكم لا تستطيعون أن تنتقدوا دارون ونظريته)، ثم تابع محاضرته دون أن يجرؤ أحد من الحاضرين على نفي كلامه هذا، لأنه كان مصيبا فيه.

وقد مارس علينا أحد الأعضاء - سامحه الله- أثناء مداخلاته إرهابا من هذا النوع، ولكن بنوع من الذكاء والكياسة والفكاهة، حتى جعل البعض من أعضاء المجموعة يسلم له بما قال، والبعض توقف على استحياء فلم يقل نعم أو لا، والبعض وافقه إجمالا إلا في جزئية صغيرة، وهناك من لم يوافقه، ومن عباراته الإرهابية قوله: (لكن نرجسية الإنسان تأبى أن ينسب لأصله القديم، ويرى أن يد الإله عجنته في تنور بمفرده كما تقول التوراة!)، وقوله: (وهنا ثارت نرجسية الناس، وحاصوا حيصة الحمر الوحشية)، وقوله: (آخر الاستطلاعات العلمية تؤكد أن ٩٨٪ من علماء الطبيعة حول العالم، يؤمنون بالتطور)، وقد تنبه أحد الأعضاء إلى هذا الإرهاب الذي يمارس على من يرفضون النظرية على مستويات عالية، وأن النسب والأرقام التي تقال، واحد من أهدافها هو إسكات العلماء، وتكميم الأفواه حتى يتم استثمار هذه النظرية إلى أقصى حد.

وفي الأخير، ومن خلال رجوعي إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وبالتحديد عند كلمة (خلق)، التي وردت في أكثر من ٢٠٠ موضع بجميع تصاريفها، وجدت أن القرآن يركز على هذا الموضوع بشكل واضح، وينسب الخلق في غالبية المواضع لله سبحانه وتعالى حصرا، ومن ذلك قوله تعالى: (الله خالق كل شيء)، (ألا له الخلق والأمر)، (وخلق كل شيء فقدره تقديرا)، (والذي خلق الأزواج كلها)، (خلقكم من نفس واحدة)، (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)، وعشرات الآيات غيرها تصب في هذا الاتجاه، وكم أتعجب عندما نستظهر هذه النصوص (نجعلها وراء ظهورنا)، ونسعى خلف نظريات قائمة على الصدفة والطفرة والعشوائية والافتراضية

والتخمينية، تزعم أننا خلقنا وفقا لعملية تطورية، ألا تكفينا هذه النصوص لنزهد في تلك النظريات، أم أن بريقها قد خلب أذهاننا، وجعلنا لا نستطيع التفريق بين الغثاء وما ينفع الناس؟

إن كنت قد أصبت فيما طرحت فمن الله، وإن كنت قد أخطأت فذاك من نفسي والشيطان، وأسأل الله لي ولكم التوفيق والسداد.



البخاري وصحيحه... وقفة لا بد منها.

على مدى أيام، وبعض الإخوة الأفاضل في المجموعة يتحاورون ويتناقشون حول موضوع بعض الأحاديث التي يرى البعض أن فيها إشكالات، أو أنها لا تليق بمقام النبوة، ثم تطور الأمر إلى وضع علامات استفهام على صحيح البخاري نفسه وغيره من كتب الصحاح والأسانيد، ولا ندري إلى أين سيصل الحوار حول هذا الموضوع، ولذا فإني أستأذنكم في طرح بعض النقاط، بين يدي ما دار ويدور حول هذا الموضوع:

أولا: أتساءل بكل صراحة وصدق، ما هو الهدف من مثل هذا الحوار؟ هل الهدف هو نقد بعض الأحاديث والروايات التي تبدو فيها إشكالات عند البعض، أو قد لا تتوافق مع مقام النبوة أو لا تنسجم مع الروح القرآنية، وهي بضعة أحاديث يمكن النقاش حولها ونقدها بروح علمية، وتقبل وجهات النظر فيها، وهذا الهدف لا خلاف عليه باعتبار ألا معصوم إلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أما إذا كان الهدف هو وضع كل كتب الصحاح في دائرة الشك، والبدء من جديد في توثيقها فهذا ما يجب أن نتوقف عنده، ونرفضه جملة وتفصيلا، وإذا كان الهدف الأول (نقد بعض الأحاديث)، مدخلا ومقدمة للهدف الثاني فهو مرفوض أيضا، وإنما جاء القبول به عندما كان في إطار وحيز البحث العلمي الذي لا يجعل من بشر معصوما غير الأنبياء، وأن من أتى بعدهم يؤخذ من كلامه ويرد، وليس أن يرد كل كلامه، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، وخاصة إذا تعلق الأمر بشرع نتعبد الله به، كما هو الحال إذا ما جاء في صحيح ما جاءنا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ثانيا: النقد والتقييم عندما يتم لشخص أو جماعة أو قول أو موقف يجب أن يأخذ في



الحسبان ظروف الزمان والمكان والإمكان، وخروج النقد عن هذا الشرط هو نقد بشروط زمان ومكان وإمكان زمان آخر سواء كان قديما أو حديثا، فمحاكمة الحاضر لظروف الزمان والمكان الماضي وإمكاناته ظلم للحاضر، وكذلك محاكمة الماضي بالظروف الزمانية والمكانية والإمكانية للحاضر ظلم للماضي، وعندما ننصب من الماضي أو الحاضر أو من أنفسنا وعقلياتنا حكاما نكون قد جعلنا الماضي أو الحاضر أو أنفسنا مرجعا ومعيارا، كما هو حاصل مع أمريكا التي تجعل من نفسها أصلا وبقية العالم فروعا، وتجعل نفسها المركز وبقية العالم هوامش، والمتقدم هو من يكون صورة طبق الأصل لأمريكا والمتخلف هو من يخالفها، فلا ينبغي لنا أن نسير في هذه الخطوة لأنها تشعرنا أننا في الطريق الصحيح، ولكننا قد نكون في الطريق الخاطئ.

ثالثاً: عندما أقوم بتنصيب نفسي مثالا ومعيارا للقبول أو الرفض، وأردد بيني وبين نفسي أن هذا غير معقول وغير مستساغ وينافي الذوق، ولا يمكن أن يصدر من مثل هذا الشخص، أكون قد جعلت من نفسي ومزاجي وعقليتي ومنطقي حاكما على من أقوم بتقييمه، بمعنى أنني جعلت المنقود تبعا لهواي ولم أجعل من نفسي تبعا له، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وما صح عنه، وهو القائل: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)، ولا يعني هذا أننا نقول بالحجر والمنع من التفكير واستخدام العقل وتعقل الأحكام الشرعية (حاشا لله)، ولكن الأدب مع مقام النبوة أنما يكون كما جاء في القران:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الحجرات: ١، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) الحجرات:٢، ودعوني أضرب مثالا من السيرة توقفت أمامه كثيرا، وهو ما حدث بعد معركة الخندق ونقض اليهود للعهد وحكم معاذ رضي

الله عنه فيهم (يقتل مقاتليهم وتسبى نساؤهم وتقسم أموالهم)، وتصديق النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذا الحكم واعتباره حكم الله من فوق سبع سموات، أقول: لو صدقت نفسي (وربما هو حال غيري)، لقلت أن هذا الحكم قاس وشديد وحرب إبادة واستئصال للآخر المختلف معنا دينيا، وانتصارا للنفس ووووو... ولكن وقائع التاريخ وقانون الحروب ليس على مزاجي الرومانسي الإنساني، بل له منطق آخر، وهو المنطق الحق والصواب الذي أكد عليه الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ولا مجال هنا لقول أن الأولى كان كذا، وأن الأجدر بالنبي الرحيم عدم القيام بذلك... إلى آخر الأسطوانة التي نسمعها من المبشرين بالتسامح والتعايش في غير موضعه، وبناء على ذلك اتهمت نفسي وقدمت ما قدم الله ورسوله.

رابعا: بمقدور الإنسان أن يكون باحثا منصفا إذا تجرد من أهواء النفس، وعندها سيضم بحثه مساحات النقد الذي يظهر العيوب والقصور، ولكنه بالمقابل سيظهر مساحات الصواب والكمال والروعة، ثم إن استطاع الحكم بعد ذلك لهذا أو لذاك فسيكون ذلك على بينة، وإن لم يستطع فقد بذل جهده وترك لغيره ومن يأتي بعده المجال ليكمل ما بدأ ويوفي ما نقص، وهذا ما كان يسير عليه أغلب علمائنا السابقين، فقد كانوا أحيانا يأتون بالرأيين المتناقضين تماما، وقد يتعجب من يقرأ لهم أنهم فعلوا ذلك، ولماذا لم يحذفوا أحد الرأيين، أم أنهم لا يفكرون، أو أنهم يشبهون حاطب الليل، وهم في الحقيقة ليسوا لا هؤلاء ولا هؤلاء، بل إنهم قد قاموا بذلك لأنهم منصفين متجردين ولا يتعصبون لرأي ولو كانوا على خلافه، فأوردوا كل الأقوال بأسانيدها في الغالب وبعد أن نقدوها وبينوا التضارب فيها، وأحيانا يتوقفون في الحكم عليها ويتركون ذلك لمن يأتي بعدهم فربما تتيسر لهم ظروف أفضل من ظروفهم وربما يحصلون على دليل لم يصلهم فيرجح قولا على قول، بمعنى آخر أنهم كانوا يتركون الباب مواربا إن



لم يكن مفتوحا، ولسان حالهم ليس كما يقال (ما ترك الأول للآخر شيء)، بل لسان حالهم (كم ترك الأول للآخر)، ونحن نريد في موقف أو لحظة انفعال ونزق أن نلغي هذا الباب وأن نحذف هذا الحديث وأن نمحو هذا الاجتهاد وأن نسقط هذه الفتوى وأن نشطب هذا الكتاب، ما أظننا وفّقنا إن سرنا على هذا الطريق!

خامسا: عندما يدخل الإنسان من باب التحيز وعدم الموضوعية فإنه إما أن يجنح للبحث عن كل ما له صلة بالتوثيق والتقوية والمزايا للشخص والرأي الذي يحب، أو يبحث عن العيوب والنواقص والمثالب للشخص أو الرأي الذي يكره، وهو هنا قد جانب الصواب، فمن يبحث عن المزايا ويتعامى عن المثالب يشبه صاحبه الذي يبحث عن المثالب ويتعامى عن المزايا، والملاحظ أن البعض يتخصص في أحدهما، فتراه يبذل جهدا كبيرا باحثا عن المثالب من هنا وهناك بل ويغوص في أعماق الكتب والمراجع باحثا عنها، وصانعا منها جبلا كبيرا يفاخر بأنه قد أفنى زهرة شبابه في صناعته، وهذا ما فعله المهندس زكريا أوزون في ثلاثيته (جناية البخاري، جناية الشافعي، جناية سيبويه)، حتى ليبدو لك أن هذا (مدعي عام أو وكيل نيابة)، وليس باحثا، ومن يقرأ ثلاثيته سيجد العور الذي نقصده، فقد تتبع المثالب - مهما كان مصدرها- ليصنع منها حكما سماه (جناية)، وهذا ما نخشى على أنفسنا الوقوع فيه بتجميع مثالب وعيوب وقصور هذا أو ذاك (شخصا أو جماعة أو كتابا)، بل إن البعض ليوثق عيبا من عالم معتبر لشخص أو كتاب، مع أن هذا العالم قد قال في هذا الشخص أو الكتاب عشر مزايا، ولكن المتحيز لا يرى العشر المزايا بل بصره حديد في العيب الذي ذكره، وكمثال على ذلك ما قام وما خدم به ابن حجر العسقلاني صحيح البخاري الذي سماه (فتح الباري)، إضافة إلى إسهاماته الأخرى في علوم الحديث وغيره، وقد مدح البخاري وصحيحه بما لا مزيد عليه، وتعامل معه تعامل التلميذ الذكي والباحث الناضج، وكانت له



وقفات واستدراكات، ولكنها لم تقدح في البخاري ولا في صحيحه، فإذا جاء أحدنا اليوم وانتزع بعض وقفاته أو استدراكاته من سياقها ليقيم حجة على شخص البخاري أو كتابه، فهذا ليس من عمل الباحثين، وهو أقرب إلى عمل صائدي الفرائس ولا يمت هذا إلى البحث العلمي بصلة. ولو أننا تواضعنا على هذه الطريقة (جمع المثالب والعيوب فقط)، فلن يسلم لنا شيء وسنسقط كل تراثنا بل كل ثوابتنا من النصوص المعصومة وعلى رأس ذلك القرآن الكريم، وهذا ما يقوم به من يحاولون إثارة الشكوك حول القرآن، فتجدهم يجمعون الآراء والأقوال من هنا وهناك التي تضع علامات استفهام على بعض نصوصه أو ثوابته، ويوثقون فيمن ينقلون عنهم وإن كانوا مجروحين، ولا يلقون بالا لعملية التوثيق والتواتر التي نزل بها القرآن على حجيتها، في عملية لا يمكن للإنسان الواعي المنصف أن يمررها مرور الكرام دون أن يسأل نفسه: إن وراء الأكمة ما وراءها، وهذه طعنات لا يراد بها وجه الله، وهذه أبحاث إن لم تكن مدفوعة الأجر فهي أقرب إلى أن تكون انتصارا للنفس وحقدا على الإسلام وثوابته.

سادسا وأخيرا: إن كنا بالفعل ننصح لديننا وننتمي لثوابتنا ونريد لها السلامة والمصداقية لنعيش على ضوئها ووفقا لمقاصدها، فلنتعامل معها تعامل الصديق الصدوق الذي يريد تجديدها وإبرازها في أسمى حلة لا من خلال التبرير لها أو الاحتماء بها بل من خلال بذل الجهد لتحقيقها على أصول واضحة بينة وليس على أهواء وأمزجة ونفسيات وعقليات تجعل من نفسها حكما ومعيارا لهذه النصوص، وأن نبتعد عن التعامل مع تراثنا وثوابتنا من مدخل أنها متّهمة حتى تثبت براءتها، وهذا للأسف الشديد ما يقوم به البعض، وما زكريا أوزون وشحرور وأركون ونصر حامد وغيرهم إلا أمثلة على من يعتبرون نصوص هذا الدين وثوابته وكذا تراثه أعداء لهم، ولهذا يدخلون حلبة الصراع مع هذا الدين بغرض إسقاطه أو تشويهه أو التشكيك فيه، وقد أفلحوا في بعض ما

قاموا به وصار لهم ناطقين رسميين ودعاة واتباع في كل بلد، وإن كانوا لم يصلوا إلى مرتبة أولئك إلا أنهم في حال استمروا على نفس الطريق فإنهم سيصلون إلى ما وصل إليه أولئك، ونسأل الله ألا يحدث ذلك.

هذه بعض الوقفات والأفكار أحببت أن أشارك بها في هذا الحوار، ولا اعتبر أن ما طرحته هو الصواب الذي لا خطأ فيه، ولكني اعتبره وجهة نظر اعتبرها شخصيا صحيحة حتى يظهر لي عكس ذلك، وأسأل الله يهدينا سواء السبيل ويرشدنا إلى سبل السلام، ويجعلنا أكثر فهما ووعيا لدينه، ويجعلنا أهلا لنصرة دينه وكتابه وسنة نبيه. والله وليّ الهداية والتوفيق.

الشنقيطي والغامدي... عندما يتحول الخطأ إلى خطيئة.

لفت انتباهي عنوان الكتاب (أباطيل وأخطاء تاريخية) للدكتور الغامدي، وهو رد على كتاب للدكتور محمد بن المختار الشنقيطي حول الحروب الصليبية، هو في أصله أطروحة دكتوراه، وصاحب الرد هو أ. د. علي الغامدي ويحمل درجة علمية مرموقة، ولهذا شرعت في قراءة الرد بعد مراجعة كتاب د. الشنقيطي، وكنت أمنِّي نفسي بعد أن قرأت كتاب الشنقيطي أني سأجد ردا علميا راقيا يمثل صاحب اللقب العلمي، ولكن خاب ظني وتلاشت أمنيتي، وإليكم بعض النقاط المختصرة التي خرجت بها من خلال قراءتي للكتاب والرد عليه:

أولا: لست معنيا بالرد عن الدكتور الشنقيطي، فهو أجدر بالرد على الدكتور الغامدي إن أراد ذلك، ولكني كما قلت سابقا أمّلت أن أجد بين الكتاب والرد عليه وجبة دسمة في البحث العلمي والإنصاف الأخلاقي والترفع الذي يتقنه حملة هذه المؤهلات، ولكني وجدت في الرد من التحامل والشتائم ما جعلني أزهد في إكماله.

ثانيا: الدكتور الشنقيطي وضع لأطروحته فرضية مفادها أن (الحروب الصليبية ساهمت في انحسار التشيع وتمدد التسنن، وأسهمت في انتقال ثقل التشيع من بلاد العرب إلى بلاد فارس، وأن الحروب الصليبية فرقت بين السنة والشيعة على المدى القريب في بداياتها، ولكنها جمعتهم في صف واحد على المدى البعيد، مع إبراز الفروق الجوهرية بين علاقة السنة بالشيعة الإمامية وعلاقتهم بالشيعة الإسماعيلية في تلك الحقبة) ، وقد حاول الشنقيطي أن يدعم فرضيته من خلال نصوص تاريخية وتحليلات منطقية من وجهة نظره، أثناء تعليقه على النصوص التاريخية أو عند المقارنة بينها، وقد وفّق في بعضها ولم يحالفه الحظ في البعض الآخر، فقد مال إلى نصوص تاريخية تخدم فرضيته

في حين أن هناك نصوصا أخرى تقول غير ذلك، ومن وجهة نظري فإن الباحث الشنقيطي لم يسْعَ إلى ذلك عن عمد وقصد، وبغرض التزوير وقلب الحقائق كما فهم الغامدي، لكن هذا ما ترجح لديه من خلال بحثه وإن كان الصواب - في بعض ما توصل إليه - في غير ما قال.

ثالثا: ناقش الدكتور الغامدي أطروحة الدكتور الشنقيطي وكأن الأخير حصل عليها من جامعة أم القرى أو جامعة طيبة أو جامعة محمد بن سعود رغم علمه أن هذه الأطروحة تم الحصول عليها من جامعة أمريكية هي جامعة تكساس، ومع أننا على قناعة أن الحقائق التاريخية لا تتغير بتغير الجامعة التي نوقشت فيها، إلا أننا نميل إلى كون الشنقيطي قد وسّع من المصادر التي أخذ منها عربية أو أجنبية سنية أو شيعية، في محاولة من الباحث أن يجعلها قريبة من الدراسات المقارنة لهذه الفترة، من خلال الجمع بين المصادر التاريخية والمقارنة بينها، بحكم أن الباحث يدرس هذه الفترة عند أساتذة لهم علاقة بهذه الحقبة في الطرف المقابل، وهذا لا يعني أن يتمالأ معهم كما فهم الدكتور الغامدي، بل أن يقوم الباحث باستقصاء ما استطاع من المراجع من جميع الأطراف، وهذا ما قام به الشنقيطي، فأجاد في مواضع وهو الكثير، وحاول التعسف في مواضع وهي الأقل.

رابعا: عندما قرأت كتاب الشنقيطي ورد الدكتور الغامدي عليه وجدت أن هناك حقائق تاريخية تجاوزها الدكتور الشنقيطي، وكان تصحيح الدكتور الغامدي في محله، ومن ذلك أن قطز هو من قاد معركة عين جالوت وليس بيبرس كما أورد ذلك الشنقيطي، وتأكيد الشنقيطي على أن من قتل عماد الدين زنكي هم الحشاشون، والصحيح أن من قتله هو خادمه (برنقش)، وغير ذلك من الاستدراكات التي أصاب فيها الغامدي وأخطأ فيها الشنقيطي، ولكنها مع ذلك لا تنقص من مكانة



الأطروحة، ولم تكن تستدعي هذا الهجوم الكاسح الذي شنه الدكتور الغامدي.

خامسا: تبين لي من خلال طرح الغامدي أن الرجل متحامل على الشنقيطي تحاملا كبيرا، ولم يقم بهذا الرد إلا بعد أن ترسخت لديه قناعات بشخص الشنقيطي، ولذلك كان الهجوم عليه واسعا إلى درجة التخوين والزندقة والاتهام بأنه ربيب الماسونية وتربى على أعين المستشرقين، وأن أغلب ما يقوله الشنقيطي هو تفسير لكلامهم وتبني لأطروحاتهم، كما أن الغامدي لم يترك موضعا يرد فيه على الشنقيطي إلا ونبزه بتبعيته للخميني أو حسن نصر الله أو علماء الشيعة ناهيك عن تبعيته لمن أخذ على أيديهم الأطروحة، وقد أوسعه سلبا وشتما وتنقيصا على طول ردوده التي استثمرها في هذا الاتجاه، فكان كلما علق على حدث ما، إما أن يسبقه بكم من الشتائم والنبز أو يتبعه أو يتخلله، وكأن عملية الشتم والاتهام والنبز لازمة في كل فقرة يعلق فيها على ما أورده الشنقيطي.

سادسا: في كثير من الأحيان يخسر صاحب الحق حقه أو يُرَفضُ منه ذلك الحق لسوء تصرفه وحمقه في عرض الحق الذي يريده، فبدل أن يجعل همه بيان الحق والترغيب في قبوله، تراه يضع نفسه وانفعالاته وتحيزه وأحيانا تعصبه وكرهه حاجزا بين الحق وبين من يريد إيصاله إليهم، وعندها يكون نصيب هذا الحق (الحقائق) من القبول في أدنى درجاته وربما رفض. ترى ما الذي كان سيحدث لو أن الغامدي قدم لنا نقده لكتاب الشنقيطي منزوعا منه كمية الشتائم والاتهامات التي أخذت حيزا كبيرا من الرد، أما كان الأولى بالغامدي إن كان منصفا وموضوعيا وبعيدا عن التحيز والتعصب المقيت أن يناقش أفكار الشنقيطي ويترفع عن سيل الاتهامات والشتائم التي كالها، وكان أمامه من العبارات ما يغنيه ويكفيه عن هذه الإساءات، فمثلا كان بإمكانه أن يقول (لقد أساء فهم هذه الواقعة، لقد جانب الحقيقة في هذا الموضع، والوقائع



التاريخية تقول غير ذلك، وهذا التعميم لا يعتبر حجة، والنتيجة التي توصل إليها الباحث لا يمكن الوصول إليها من خلال الوقائع المذكورة، ولا أدري ما الذي جعله يتخذ هذا الموقف،.... إلى آخر العبارات التي يتداولها العلماء والمفكرون).

سابعا وأخيرا: أظن أن الدكتور الشنقيطي قد نكأ جرحا لدى الدكتور الغامدي عندما تحدث عن الحنابلة وتلامذتهم من سلفية هذا العصر فثارت ثائرة الغامدي، وطعن بقلمه لله ولنفسه ولطائفته، فجاءت ردوده تشكيلة عجيبة فيها الحق وفيها حظ النفس وفيها الانتصار لطائفته وسلفيته، وأعتقد أن البعض لا يفهم من التاريخ إلا ما كتبته طائفته أو من تزكيه طائفته، أما سواهم فلا، والتاريخ ليس كما نحب أن نتصوره، بل هو أحداث يمكن توظيفها لصالح هذا الطرف أو ذاك، وهذا ما هو حاصل الآن من صراع في العالم الإسلامي، ولكن بعض إخواننا في الخليج وخاصة في السعودية وعلى رأسهم بعض الأكاديميين لم يدركوا بعد خطورة ما يقومون به، وما يمكن أن يسفر عنه من كوارث خاصة عندما تكون الدول التي يتبنون أطروحاتها دولا رخوة وسهلة الاختراق.

ولولا ضيق الوقت وصغر المساحة، لتوسعت أكثر، ولكني أظن أنني حاولت أن أبرز بعض النقاط التي تحتاج إلى أن تبرز وتوضح في هذا المقام، حتى لا تبهرنا الألقاب العلمية فنظن أنها تقول القول الفصل، في حين أنها تقول غير ذلك. والله وليّ الهداية والتوفيق.

(هذه خطوة صغيرة للإنسان، ووثبة عملاقة للبشرية). هذه هي الكلمة التي قالها رائد الفضاء الأمريكي نيل ارمسترونغ عندما وطئت قدمه سطح القمر، كأول إنسان يصل إلى القمر، في ٢ يوليو ١٩٦٩م، مدشنا بذلك عصرا جديدا في علم الفضاء.

وتعليقي على هذه المقولة هو أنني أعتقد أن تقدم العلم يعتبر لعنة على الشرك، فالأديان الشِّركية تحاول أن تعترض طريق العلم، وعلى العكس من ذلك، يتخذ التوحيد موقفا مختلفا تماما، فبتقدم العلم يتحقق التوحيد، ويتم إقامة الأمر كله على شكل سوي، وهذا هو السبب الذي جعل دين التوحيد يعطي كل التشجيع والمساندة للعلم.

والحقيقة التي لا جدال فيها أن جو الحرية الفكرية ضروري للغاية في البحث العلمي والتقدم العلمي. وحين يكَبَّل عقل الإنسان ولا يستطيع أن يعمل في جو حر، فحتى بدايات التقدم الإنساني لا يستطيع عملها.

وقد كان مما بطَّأ عملية البحث العلمي في الطبيعة هو وضع الإنسان للطبيعة على أساس التقديس الكامل لها، ولا يمكن أن يتحقق التقدم بحال دون البحث العلمي والصناعي، باعتبار الطبيعة مسخرة وليست مقدسة. فالاعتقاد في شيء أنه مقدس وهو ليس كذلك يعتبر أصل كل شر، فوفق المصطلح الديني يعتبر هذا شركا، والشرك يعتبر ظلما عظيما، والظلم في المعاجم العربية يعني حرفيا، وضع الشيء في المكان الخطأ، وهو في هذه الحالة، تخصيص الشيء بقيمة هو لا يستحقها.

وإعطاء غير المقدس كينونة القداسة، أغلق الأبواب أمام كل تقدم، فإعطاء القمر صفة القداسة منع تغذية فكر الإنسان من محاولة وضع القدم عليه. وإعطاء

القداسة للنهر منع الإنسان من التخطيط لإنتاج الكهرباء من خلال تدفق مياه هذا النهر. وتمسك من يعبدون البقر بصفة القداسة لها، جاء مانعا للإنسان من قياس أهمية لحمها الغني بالبروتين وجعله جزءا من نظامه الغذائي، وهكذا مع بقية الأشياء التي تم تقديسها (حجر، شجر، بشر)، وهي لا تستحق التقديس.

والأشياء المادية التي تعتبر مقدسة تسقط عن مجال الفعل الإنساني، فعندما تحاط الأشياء بهالة من الغموض المقدس، فإن من يقدسونها يفترضون تعالي مكانتها عن أن تكون مسخرة للبحث العلمي.

ومفهوم القداسة ليس شيئا خياليا، كما يؤكد على ذلك المفكر وحيد الدين خان، بل هو متجذر بعمق في طبيعة الإنسان. وهذا الشعور يكون قائما بحق عندما يكون موجها لله بالتحديد، إلا أن هذا الشعور الإنساني يتم تحويله في الواقع الفعلي لشيء غير مقدس، هذا الشعور الفعلي الذي ينبغي أن يوجه نحو الخالق، وجد طريقه بدلا من ذلك نحو بعض الخلق.

وهناك نوع من الاتفاق بين علماء الدين بشكل عام، كما استنتج المفكر وحيد الدين خان، على أن مفهوم القداسة هو قوة متماسكة في جميع الأديان: فلجعل الدين متماسكا يجب تخصيص شيء فريد من نوعه، أو شخص أو شيء غير عادي، بجعله مقدسا وإقامته على قمة مجموع معتقداته.

والحقيقة أن رغبة الإنسان في العبادة والخضوع لإله -بحق أو بباطل -هي غريزة طبيعة، فكل إنسان ولد على ذلك. وبسبب هذه الرغبة الداخلية العميقة يسعى الإنسان بنشاط للركوع أمام أي شيء يعتبره مقدسا. وهناك شكلان يجد فيهما هذا الشعور تعبيره العملي: الأول هو التوحيد، والآخر هو الشرك. وهذه هي النفسية التي



أنتجت في العصور القديمة ما يسمى بالشرك في المصطلح الديني، وعبادة الطبيعة في اللغة الأكاديمية.

والمتتبع لسير الإبداع في العصور القديمة، يجد أن هناك عقولا مبدعة في بعض البلدان، استطاعوا أن يفكروا بشكل مستقل عن بيئتهم، ولكن نظرا للأجواء غير المواتية وللبيئة المعادية في تلك الأوقات، لم تؤت جهودهم ثمارها. فذبلت براعم معرفتهم مبكرا قبل أن تتمكن من الازدهار.

وحين أنتجت رؤية الإسلام المرتكزة على التوحيد جوا مناسبا، أطلق العنان لطوفان هائل من المعرفة التي ظلت مكبوتة منذ آلاف السنين بسبب حاجز الخرافة. وهذا ما جعل الرؤية الإسلامية المرتكزة على التوحيد-والتي جاءت مع استيقاظ الإسلام-تضع نهاية كاملة تقريبا للشرك والخرافة للمرة الأولى في التاريخ. بعد ذلك، وكنتيجة طبيعية، أخذ تاريخ البشرية طريق التقدم.

لقد كانت أهم وأكبر مساهمتين قدمتهما الرؤية الإسلامية المرتكزة على التوحيد هما: أولا، إزالة أي عقبة عقلية يمكن أن تكون حاجزا أمام التقدم، وثانيا، إطلاق عصر جديد من التقدم على أساس عملي. وعندها بدأ الإنسان ينظر إلى الطبيعة بهدف استكشافها وتسخيرها. ويدرك أن التقدم العلمي لا يكون ذو فعالية إلا إذا كان عملية مستمرة.

لقد بدأ المنهج العلمي في التفكير من مكة المكرمة، ثم انتشر إلى المدينة المنورة ودمشق، ومن هناك ذهب ليجعل بغداد مركزا عظيما للإبداع. ومن بغداد وجدت طريقها إلى إسبانيا وصقلية وإيطاليا، وأخيرا انتشرت في جميع أنحاء أوروبا. ومضت على الانتشار، وفي نهاية المطاف كان تغيير العقل العالمي، الذي دخل عصر الثورة



الصناعية وما تلاها من الثورات العلمية.

لقد أخبرنا أرنولد توينبي ـ المؤرخ الإنجليزي المشهور في القرن العشرين ـ بأن العلم هو اسم آخر لاستغلال (تسخير) الطبيعة، ثم طرح سؤالا: لماذا استغرق الإنسان وقتا طويلا للسيطرة (الرؤية الإسلامية تقول بالتسخير لا السيطرة) على الطبيعة واستغلالها، وهي كانت موجودة في عالمنا منذ ملايين السنين؟ وقد أعطانا بنفسه الجواب على هذا السؤال فقال: لأن الطبيعة بالنسبة للإنسان القديم لم تكن مجرد كنز دفين من الموارد الطبيعية، لكنها كانت آلهة (الأرض الأم).

وهو أيضا ما أكد عليه برتراند راسل في كتابه (أثر العلم في المجتمع) بصورة أخرى فقال: «كان للعلم منذ زمن العرب (المسلمين) وظيفتان: الأولى: تمكيننا من معرفة الأشياء. والثانية: تمكيننا من فعل الأشياء. أما الإغريق فقد كانوا باستثناء أرخميدس، يهتمون بالناحية الأولى فقط (معرفة الأشياء)، وكانت الرغبة لديهم هي استخدام العلم للأغراض العلمية من خلال الخرافات والسحر، بعكس ما قام به المسلمون، وهو الانتقال من معرفة الأشياء إلى التمكن من فعل الأشياء، وبهذا خطا المسلمون الخطوات الأولى في مسيرة التجريب العلمي، الذي استلم رايته في العصر الحديث غيرهم من الغرب والشرق».

والتساؤلات التي راودتني وأنا أقوم بصياغة هذا المقال وتجميع بعض شواهده هي:

س١: ما الذي جعل أمة التوحيد تُخْلِي مكانها لغيرها، من أمم الشرك إن لم تكن أمم الإلحاد؟

س٢: أين يكمن الخلل في أمة التوحيد حتى تراجع دورها؟



س٣: لماذا تسلمت أمم الشرك (وربما الإلحاد) زمام المبادرة، وواصلت مسيرة البحث والتقدم العلمي رغم شركها وإلحادها؟

س٤: أين تكمن عوامل القوة لدى أمم الشرك حتى استطاعت أن تخطو هذه الخطوات العملاقة في مجال البحث والتقدم العلمي؟

س٥: كيف نستطيع كأمة توحيدية أن نستعيد دورنا من خلال رؤيتنا الإسلامية المرتكزة على التوحيد؟

على قدم المساواة .... رؤية تشخيصية

المساواة أصل قررته الرسالات السماوية لثباته في الطبيعة البشرية، ورسوخه في الفطرة الإنسانية، وأقرته دساتير وقوانين الدول على اختلاف توجهاتها. والحضارة الإسلامية تؤكد دائما مبدأ (المساواة)، وتقبل في الوقت ذاته (عدم التماثل). وقد قرر الإسلام مبدأ المساواة في الوقت الذي كان فيه البعض يدعي أنه من نسل الآلهة؛ لأنهم من نوع آخر غير نوع البشر. وفي هذا الوقت جاء الإسلام ليقرر المساواة أمام القانون وأمام الله في الدنيا وفي الآخرة. لا فضل إلا بالعمل الصالح، «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

في هذا الإطار، تصبح المساواة شكلاً من أشكال تحقيق الإنسانية وتحقيق جوهر الإنسان، حسب وصف الدكتور المسيري، فهي شكل من أشكال الاجتماع البشري وتحقيق لقيمة مطلقة متجاوزة للمادة والطبيعة، بل متجاوزة لدوافع الإنسان المادية والجسدية، أي تجاوز لما يسمَّي «الإنسان الطبيعي/ المادي» واقتراب لما يمكن أن نسميه «الإنسان الرباني» الذي يحوي داخله عناصر لا يمكن ردها إلى النظام الطبيعي/ المادي.

والمساواة لهذا السبب، هي مفهوم (إنساني أخلاقي ديني) يستند إلى أساس غير مادي (مرجعية متجاوزة)، أما ما يسمى «بالمساواة» في العصر الحديث فهي في واقع الأمر (تسوية لا مساواة)، تتم في إطار مرجعية مادية كامنة، أي أنها عملية تفكيك للإنسان وتدمير وتقويض له ككيان مستقل عن الطبيعة / المادة. وقد يتم مساواة الإنسان بالإنسان الآخر، ولكن يتم (تسويتهما) بالإنسان الطبيعي المادي الذي يتساوى في كل الوجوه مع الكائنات الطبيعية الأخرى.

ويفرق الدكتور المسيري بين مفهومي المساواة والتساوي فيقول: «المساواة هي أن يتعادل شيء ما وآخر في «بعض» الوجوه وحسب، أما «التسوية» فهي إحداث التساوي بين شيئين في كل الوجوه. والمساواة بين البشر هي مساواة بينهم في الأساسيات الإنسانية (أي فيما يميز الإنسان كإنسان)، أما التسوية فهي تسوية بين كل المخلوقات (البشر والحيوانات والجمادات) في كل الوجوه تقريباً. وكل من «المساواة» و»التسوية» نتاج عملية تجريدية، لكن المساواة تتم في إطار المرجعية المتجاوزة، والإيمان بأن الإنسان مقولة مستقلة عن عالم الطبيعة / المادة رغم وجوده فيها.

والمساواة أمرٌ يتشوَّفُ إليه الشَّارع الحكيم، لكن ينبغي ألا يكون ذلك على حساب العدالة، فإنَّ تحقيق العدالة مقدَّم على مبدأ المساواة، وأنَّ التَّشريع مع المساواة دوماً، ولكن إذا أضحت المساواة مجهِضةً للعدل، قاضية عليه، فإنَّ العدل هو ما يستقرُّ عنده الحكم ويستتب. فالمال ـ مثلا ـ يُعدُّ عصب الحياة، وجُعل حفظُه واجباً شرعيّاً لا يقبل التَّساهل، لكونه يشكِّل كليّةً من الكليّات التَّشريعيَّة الضَّروريَّة الَّتي بها قوام الحياة واستمرارها، وأنَّ من ينتهك حرمته بالاعتداء عليه، يستحق العقوبة عاجلاً أم آجلاً، ولكن هذا لا يعني بالضَّرورة أن يُتَّخذ معياراً ذهبيّاً وحكماً عدلاً، يُحتكم إليه في الحكم على الأشياء، بالأفضليَّة أو بالدُّونيَّة.

فمن المنظور الإسلاميّ، ليس مَن أوتي مالاً وثروةً، هو الأفضل والأكرم مِن الّذي قدر عليه رزقه، فالغنى ليس مقياساً لتكريم الغنيّ وتفضيله، كما أنَّ الفقر ليس هو الآخر المقياس لإهانة الفقير واستصغاره. د. صالح قادر الزنكي. وهذا بخلاف الرؤية الشيوعية في المساواة التي لا تذهب فقر الفقير ولكن تذهب بغنى الغني، فتحقق المساواة ولكن في الحاجة والفقر.



إن المساواة بين بني آدم قائمة على أساس القيمة الإنسانية المشتركة، فالناس جميعاً متساوون في أصل الكرامة الإنسانية وفي أصل التكليف والمسؤولية، وأنه ليس هناك جماعة تفضل غيرها بحسب عنصرها الإنساني وخلقها الأول. وإذا كانت المساواة بين المتساويين (عدلاً خالصاً) فإن المساواة بين المتخالفين (ظلم واضح). «ومعاملة الجميع بالتساوي معناها تجاهل الفوارق فيما بينهم». وفق عبارة روبرت غرين

وإذا كانت قيمة المساواة تشير إلى جملة من الحقوق تفترض تساويا بين الناس والبشر جميعا، فإن عناصر الاختلاف هي في الواقع عناصر تمايز في إطار التعارف. إنه اختلاف تكامل وتفاعل وتقسيم للعمل كلٍّ بما يحسن ضمن منظومة تراعي حقائق المساواة وسنن الاختلاف. د. سيف الدين عبد الفتاح. وتكافؤ الفرص التعليمية -خلافا لما يعتقده البعض- ليس المقصود منه المساواة الشكلية القائمة على معاملة جميع الأفراد بنفس الطريقة، بل المقصود منه هو تعليم كل فرد ما يناسبه، بالطريقة والسرعة الملائمتين له.

والمساواة في (إطلاقها) هي إهدار لآدمية الإنسان، كما أن الحرية في إطلاقها هي نوع من الفوضى، إن المحور الأول والذي يجب أن تنبع منه قيم الحرية والمساواة هو مبدأ العدالة. والمتأمل في المحاورة الأفلاطونية يجدها تنتهي إلى نتيجة هي أن العدالة الاجتماعية معناها أن يوضع الناس في البناء الاجتماعي بحسب قدراتهم، وما دامت هذه القدرات ليست متساوية، فلا يجوز أن تتدخل فكرة المساواة لتفسد معنى العدالة، في إشارة أوردها د. زكي نجيب محمود في كتابه مجتمع جديد أو الكارثة.

وكل حضارة تسعى إلى تأكيد قيم معينة تتميز بها وتصير عَلَمًا (بفتح العين واللام) عليها، وهنا يجب أن نتذكر كيف أن المشكلة الحقيقية في نطاق التطور السياسي

لا تعني فقط تحديد القيم بقدر ما تعني تحديد (العلاقة التصاعدية)، حسب تعبير د. سيف الدين عبد الفتاح بين القيم وما يستتبع ذلك من نتائج بخصوص قواعد التعامل من جانب وعناصر التقييم للسلوك من جانب آخر، ولهذا فلا توجد حضارة ترفض الحرية أو تشكك في مبدأ المساواة على سبيل المثال، ولكن المشكلة تبرز عندما تصطدم الحرية بالمساواة أو المساواة بالعدالة أو مبدأ الشورى أي (المشاركة السياسية) بالعدالة وهكذا، وهو ما يعرف بسلم القيم.

والجهل بحقائق الأشياء وتركيبتها، يورث الخلط في مقادير الاستثناءات من أحكام المساواة، ويورث الخلط أيضاً في موضع عدم التساوي ومحله، وهل هو لازم في موضع واحد أو في موضعين أو ثلاثة أو أكثر، وهل يُمكن القياس عليه أم لا؟ فالذي يُريد التساوي بين المعادن لأنها معادن فهذا جاهل بحقائق الفروق بين تركيبها، فالذهب والفضة والنحاس والحديد معادن كل منها له تركيبته، وكذلك الكواكب، فالشمس والقمر والمرّيخ كواكب كلٌّ له تركيب وآثار تختلف عن الآخر.

وهذا الرأي الذي أورده الأستاذ عبد العزيز الطريفي في العبارة الآنفة الذكر، قد لا يستسيغه البعض كونه يدعو في ظاهره إلى المفاضلة وعدم التساوي، ولكن العبرة في الغالب ليست بحجم ما يأخذ الإنسان مقارنة بإنسان آخر، ولكن العبرة هنا في كفايته له، فالتساوي هنا إنما يعتبر في الكفاية لا في المقدار، فقد يتساوون في المقدار ويظلمون في الكفاية.

وإذا كانت «المساواة [المُطلقة]» بين العالِم والجاهل، وبين العبقري والغبي، وبين الواعي والغافل، وبين المُجِد والكسول، وبين المتوسط والنحيف، وبين الشاب والرضيع، وبين العجوز والصغير، وبين مطلق المتمايزين في الضرورات والحاجات

والاحتياجات بعضِهِم وبعض: مما تأباها «الفطرةُ العادلةُ» و«عدالة الفطرة»: فلابد من تأسيس هذا التمايز والتفاوت على «قاعدةٍ عادلةٍ» تمثل في «إتاحة الفرص المتساوية أمام الجميع لتحصيل القدرات والإمكانات»، ثم ليأخذْ كلٌّ واحدٍ بعدَ ذلك ثمرات جهده، مع الحرص على «التوازن والتناسب»، لا «المساواة [المطلقة]» .. ف«المساواة في الفرص المتكافئة» هي الشرط لعدم دخول التمايز إلى «دائرة الظلم» الذي يأباه الإسلام. كما يؤكد على ذلك د. محمد عمارة

إن «التفاوت/ التمايز الاجتماعي» في نظر الإسلام حقيقةٌ من حقائق الواقع؛ نابعةٌ من تفاوت الحوافز والقدرات والجهد المبذول والذكاء الذي يَستخرج الثمرات ... والإسلامُ لا يقفز على حقائق الواقع، ولا يتجاهلها، ولا يعاديها، وإنما يهذبها ويضبطها كي تظل في إطار «المشروع» ونطاق «العدل»:

- الذي لا يعني «المساواة التامة» و«التماثل المطلق»؛ لأنَّ المساواة في أنقى صورها وأعمق تطبيقاتها لا يمكن أن تتعدى المساواة «في تكافؤ الفرص» و«أمامَ القانون».

وبهذا لا يؤدي التمايز إلى «فاحش المظالم»، ولا تحلم المساواة [الخيالية المصادِمة لحقائق الاجتماع] بـ «إلغاء التمايزات»، وإنما ضبط « التمايزات الطبقية» عند حد «الوسط العدل الحق المتوازن»؛ الذي يُرَشد المسارات؛ تحقيقاً للتكافل والتساند والارتفاق. د. محمد عمارة.

والمساواة الاقتصادية غيرُ ممكنةِ التحقق في أي مجتمع من المجتمعات؛ لأسبابٍ كثيرةٍ، في مقدمتها: اختلاف الاحتياجات، وتمايز الضرورات، [وتباين القدرات والإمكانات، مما يُنتِجُ تباين الثمرات والمكاسب]. فالعدلُ هو «التوازن والتناسب» و«إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه» ... بينما «المساواة [المُطلقة]» هي الظلم والحرمان؛

لأنها «لا تُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقه»، وإنما «تُساوِي بين المختلِفين والمتفاوتين». د. يحيى رضا جاد.

إن التوحيد الناظم للقيم يراها باعتبارها وحدة كلية قيمية منظومية، ومن مقتضيات التوحيد والتنزيه والحاكمية، عناصر العدل، والعدل هو عملية تنظيم القيم بلا أدنى عناصر تضارب أو تعارض، إن العدل (كقيمة وكعملية) يحدد عناصر الرؤية لفكرة المساواة على سبيل المثال، ومن العدل الوسط في هذا السياق النظر إلى فكرة المساواة في ضوء سنة الاختلاف وحقيقة التعدد والتنوع، حسب وصف د. سيف الدين عبد الفتاح، والمساواة هنا ليست (مساواة عددية حسابية مطلقة) ترى الأشخاص أو العلاقات في إطار من القوالب، ولكنها تردها إلى الأصل الأصيل في الإنسانية والفطرة ووحدة الخلق وحقائق التسخير وحقائق الاستخلاف والتكليف وأصول التكريم، عناصر تحقق بعد ذلك عناصر السعي التفاضلي في الحركة اليومية والفعلية والحضارية، إنه خط البداية في السعي الحضاري مساواة الخلق والاختلافات في أصل الخلقة من لون أو ما هو في حكمه لا يمكن أن يكون مدخلا لعدم المساواة أو تفضيلها لعنصر، وكذلك الأجناس، أما السعي الحضاري فهو حالة من الكسب والفعل الحضاري الذي يقره العمل الحقيقي والجهد المبذول.

ويجب أن يكون ذلك النمو في إطار الرؤية التوحيدية، فكل جوانب الإنسان تعمل في شكل تكاملي حتى وإن كان لكل جانب منها اعتباراته الخاصة إلا أنها تترابط في وحدة مميزة، تساهم في إعطاء معنى للحياة ولا تنفصل فيها الغاية عن الوسيلة، ولا يُقاس فيها الناتج بالعائد الآني دون العائد الآجل. وكذلك فإن الفروق الفردية سواء كانت كمية في أبعادها أو نوعية، فإن هدفها التكامل وليس التفاضل وأن البحث في المساواة على أساس التطابق يلغي هدف الوجود ويجعل الأفراد نسخاً مكررة تنعدم



معها الغاية من وجودها.

والاستبداد يقضي على المساواة، ويعطل تكافؤ الفرص، الذي يشكل ميدان التنافس والتحاور والتثاقف والتفاكر والتقدم... ويعتمد السواعد الباطشة، ويطارد العقول والخبرات البانية، ويسعى إلى تحكيم السفهاء والسوقة والانتهازيين برقاب العلماء والخبراء المتميزين، ويقدم أهل الولاء الفاشلين على أهل العلم والخبرة الفاعلين، ويفوته أن (من لا خبرة لهم لا ثقة بهم) على المدى البعيد.

ولمبدأ الرد إلى الله والرسول الذي يفهم من قوله تعالى: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) النساء: ٥٩، مدلولان: مدلول (مرجعي) وهو أن الكتاب والسنة هما المصدر في حل التنازع، ومدلول (دستوري) وهو المساواة بين الحاكم والمحكوم أمام القانون، وهو مرادف لمفاهيم «حكم القانون» و«المساواة أمام القانون» في الاصطلاح الدستوري المعاصر. ومن غير هذه المساواة يُذعن الحقُ للقوة، وتضيع كل القيم السياسية، ويجعل الطغاة إرادتهم قانونا.

وقد أدرك ذلك الفتى الأفريقي كما في (رواية مدينة الرياح لموسى ولد ابنو التي أوردها د. محمد بن المختار الشنقيطي في إحدى مدوناته على موقع الجزيرة)، أدرك عُمْقَ المفارقة في النفاق الديني والاجتماعي السائد في قضية الرق في مجتمعات الصحراء المسلمة بغرب أفريقيا، ومنها المجتمع الموريتاني. فقد كان صعاليك القافلة يربطون هذا الفتى الأفريقي بذيل جمَلٍ وقتَ سير القافلة، فإذا حان وقت الصلاة، فكُّوا الحبل من عنقه، وأوقفوه بينهم يصلِّي كما يصلُّون، في صفٍّ واحد لا فرق فيه بين سيِّد وعبْد، فكان الفتى الصغير يتساءل في ذهنه متحيراً: «لماذا المساواة في الصلاة والقهر في

الحياة»؟!

إن الأمر لا يقتصر على وجود الفكرة فحسب، كما تشير إليه القصة السابقة، بل يتعدى ذلك إلى تحويل الفكرة إلى إيمان يتدخل في سلوك الإنسان، فوجود الفكرة بشكل أولي لا يستلزم إيمان الناس بها إيماناً يظهر على سلوكهم ويدخل في لا شعورهم، فالناس كثيراً ما يتحدثون عن العدل والمساواة، ولكنهم عند التطبيق يظهرون بالقيم العشائرية والعنصرية والتعصبية الأكثر عمقاً في داخلهم، والذي يبدو أن دخول البشر إلى عهد القومية أو الإنسانية جاء متأخراً، ولعل فكرة الإنسانية ولدت قبل فكرة القومية، ولكن تحولها إلى مفهوم حاكم لسلوك الناس في حياتهم العملية أمر حديث الولادة. هذا هو الخوف من كشف الحقيقة، الخوف من قبول المساواة، لأن المقهور حين يسعى للخروج مما هو فيه، لا يهدف إلى السواء، بل لا يهدف إلى أن يتحول إلى قاهر، ولهذا فإن الصراع مأساوي، وتكاد الحلقة تكون مفرغة، وهي ليست مفرغة. كما يؤكد على ذلك الأستاذ جودت سعيد.

إن الأصل في الخلقة المساواة في الفطرة والكرامة الإنسانية، والأصل في الخطاب القرآني المساواة التامة في التكاليف والواجبات بين الرجل والمرأة أي في المسؤولية، وبعض الفروق التي وردت كفروق بين الذكورة والأنوثة هي للترتيب والتنظيم بين الجنسين ومراعاة الواقع، ومسؤولية كل طرف تجاه الآخر من جهة، وتجاه المجتمع من جهة أخرى. د. أحمد عرفات القاضي

والإسلام ينظر للرجال والنساء بعين المساواة، ولكن مع بعض التفريق في الدور. بشكل عام، يعتبر الإسلام الرجال والنساء شركاء يكملون بعضهم البعض ويساعدون بعضهم في المسؤوليات. ويرى المسلمون -وفقا لعبارة د. مراد هوفمان-

ضرورة المساواة بين الرجل والمرأة فيما هما فيه متساويان فعلا، والاختلاف حين يكونان مختلفين فعلا.

وشتان بين القول (بتمايز) دور الرجل عن دور المرأة، والقول (بالتمييز أو الفصل العنصري) بينهما وفق توصيف د. إسماعيل الفاروقي. فدور المرأة كما دور الرجل خاضع على قدم المساواة مع نظيره للأحكام الدينية والأعراف الأخلاقية، ويستدعى كلاهما من صاحبه استخدام كل ما أوتي من الذكاء والموهبة والطاقة والقدرة على العطاء من أجل القيام به. ويخلص د. الفاروقي إلى إثبات أن المساواة بين المرأة والرجل هي الأصل، ولكنها محكومة بالتمايز والتكامل بين دوريهما.

وفي ظل متغيرات عالمية غير مسبوقة في التاريخ، تطورت آليات السوق وتغيرت معها قواعد التجارة وتبادل السلع والمنافع، وأصبحت الثقافة آلية من آليات الهيمنة والسيطرة بفضل عالم لا يعرف غير القوة في التعامل مع الآخر، عالم يتصنّع أصحابه المساواة ويعلق شعار «جيران في عالم واحد» إلا أن الواقع يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه عالم لا يعرف المساواة بين الدول أو الشعوب، عالم تغيرت فيه موازين القوة وقواعد السلطة. فإذا لم يكن لنا الحق في المساواة على مستوى المجتمع المحلي، فمن باب أولى ألا يكون لنا نفس الحق في المجتمع العالمي، لأن حسَّ المساواة الأولية قد دُمِّر من زمن بعيد لصالح حسّ الامتيازات ولصالح الأقوياء دائماً، القوي هو الذي يضع المقاييس والأوزان، وله الحق في تعديلها، سواء أكان الرجل في مقابل المرأة، أو الأبيض مقابل الذي ليس بأبيض، أو القوي مقابل الذي فقد القوة.

والأمم المتحدة كواحدة من المنظمات الدولية التي يهيمن عليها الأقوياء، ليست شرعية مهما سميت شرعية دولية، لأنها تفقد المساواة، (ولا شرعية بدون مساواة). كما يقول



الأستاذ جودت سعيد. فالذين يقبلون كلمة السواء ينبغي أن ينشئوا مؤسسة السواء، وإلى الآن لم يواجه العالم هذا الموضوع بجدية، حيث أنه إلى الآن لا يوجد في العالم من يثق بكلمة السواء، والناس عادة لا يدخلون في التجارب الجديدة إلا مضطرين، وكأن الظروف العالمية لم تنضج بعد حتى يشعروا بضرورة الدخول إلى التجربة الجديدة، (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم. ...).

إن المساواة والإخاء بين الناس ممكن، فقط، إذا كان الإنسان مخلوقًا لله. فالمساواة الإنسانية خصوصية أخلاقية وليست حقيقة طبيعية أو مادية أو عقلية. إن وجودها قائم باعتبارها صفة أخلاقية للإنسان، كسمو إنساني أو كقيمة مساوية للشخصية الإنسانية. وفي مقابل ذلك، إذا نظرنا إلى الناس من الناحية المادية أو الفكرية، أو ككائنات اجتماعية أو أعضاء في مجموعة أو طبقة أو تجمع سياسي أو أممي، فالناس في كل هذا دائمًا غير متساوين. حسب تعبير المفكر علي عزت بيجوفيتش.

ويبقى هناك فرق واحد واضح، هو أن أخلاقيات الأديان السماوية وحدها تسلم بجلاء لا لَبْس فيه بمساواة جميع البشر باعتبارهم مخلوقات لله. حتى أفلاطون سلم بعدم المساواة بين الناس كضرورة. وعلى نقيض ذلك، نجد أن حجر الزاوية في الأديان المنزّلة هو «الأصل المشترك» لجميع البشر، ومن ثم المساواة العادلة بينهم. وكان لهذه الفكرة تأثير جوهري على جميع التطورات الروحية والأخلاقية والاجتماعية للجنس البشري. وفوق هذا يبدو أن تاريخ علم الأخلاق يكشف عن العلاقة بين فكرة المساواة بين الناس وفكرة الخلود ـ وهو موضوع يحتاج إلى دراسة أعمق. إن النظم الدينية والأخلاقية التي لا تعترف، أو التي لديها فكرة مشوشة عن الخلود، لا تعترف بالتالي بهذه المساواة. فإذا لم يكن الله موجودًا، فإن الناس بجلاء وبلا أمل غير متساوين.

ويضيف علي عزت أيضا أنه لا يمكن للإنسان أن يكون محايدًا بالنسبة للأخلاق، ولذلك فهو، إما أن يكون صادقًا في أخلاقه أو كاذبًا، أو مازجًا بين الصدق والكذب، وهي حالة أكثر شيوعًا بين البشر. فالناس قد يتصرفون بشكل مختلف بعضهم عن بعض، ولكنهم يتحدثون دائمًا بطريقة واحدة عن العدل والحق والصدق والحرية والمساواة.

أن تكون حرا ... عن الحرية المسؤولة والبنَّاءة أتحدث.

نبذة قصيرة عن مفهوم الحرية:

الحرية مفهوم فلسفي مراوغ، كما يصفها د. جاسم سلطان، يَدخُلُ الناس للكلام عنه من زوايا مختلفة، فهو في أصل وضعه ربما يعني حسيا الخلوّ من القيد، ولكنه حين ينتقل من فضاء الحسي والمادي من الأشياء، إلى فضاء المجرد العقلي يكتسب اتساعا وجوديا. وهي في وصف (جان ماري بيلت في كتابه عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة)، لفظة مبهمة، فشأنها شأن كلمة (الحب) التي يختلف معناها تبعا لما إذا كنا نمارسه أم نتخذه مصدرا للإلهام، وشأن الديمقراطية التي يختلف معناها تبعا لما إذا كانت ليبرالية أم شعبية، وشأن الاشتراكية الحافلة بالمعاني والأماني المتضاربة.

وتندرج الحرية في عِدادِ الألفاظ المحوَّرة: فحرية الإباحيين في الرؤية الغربية ليست حرية الليبراليين، وحرية الملوك ليست حرية القديسين، فالأقوياء يستشهدون بها لتحقيق مآربهم، في حين أن المتواضعين، كالرهبان مثلا، يفكرون على العكس من ذلك في خدمتها وفي استحقاقها بحرمان أنفسهم من كل شيء، وبالنسبة لليافع تعني الحرية الحق في انتهاك المحرمات، في حين يرى فيها الفيلسوف الكانطي التزاما صارما بالقانون.

والحرية ليست ناتجًا من نواتج السلطة، وليس ثمرة من ثمرات النظام السياسي، كما أنها ليست منحة من صاحب السلطان والقوة، يمنحها وقتما يشاء ويقبضها وقتما يشاء، إنها منحة من الله، وهبها الخالق الكريم للإنسان المكرم، فلا يملك أحد مصادرتها أو الانتقاص منها. فهي (أي الحرية) الحق الطبيعي والمدني لكل إنسان، وهي الفعل الأصيل والأسمى للمجتمع السياسي.

وتعشّق الحرية ليس كافيا ليعيش الناس أحرارا، فالحرية في جوهرها هي القدرة على الاختيار، كما يقول د. عبد الكريم بكار، ومن البدهي أن الاختيار يكون معدوما إذا لم تكن هناك بدائل وخيارات. «إن الحرية ليست شيئا إضافيا يودع في عقول المواطنين، بل هي ممارسة أو استجابة واعية نحو العالم من أجل تغييره». أ. د. سعيد إسماعيل علي.

وقد أورد د. زكي نجيب محمود مقارنة بين أهدافنا من الحرية، والتي حصرناها في (الجانب السلبي) وحده، بمعنى أن تكون المطالبة بالحرية مقصورة على التحرر من قيود تكبلنا في هذا الميدان أو ذاك، بعبارة أخرى أوشكت كل جهودنا المبذولة طلبا للحرية، أن تنحصر في فكِّ الأغلال وتحطيم القيود، وهو أمر واجب ومطلوب. لكن الأغلال كلها إذا فُكَّت، والقيود جميعها إذا حُطِّمت، يبقى بعد ذلك أهم جانب من جوانب الحرية، وهو (الجانب الإيجابي)، الذي يتصل بقدرة الإنسان على أداء عمل معين، إذ ترتبط تلك القدرة ارتباطا وثيقا بمقدار ما عند العامل من معرفة بما يريد أن يؤديه.



مكانة الحرية:

«حق كل إنسان في الحرية كحقه في الحياة، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية، والمعتدى عليه في شيء من حريته كالمعتدى عليه في شيء من حياته، وما أرسل الله من رسل وما شرع لهم من شرع إلا ليَحيَوا أحراراً، وليعرفوا كيف يأخذون بأسباب الحياة والحرية، وحتى يستثمروا تلك الحياة وتلك الحرية إلى أقصى حدود الاستثمار النافع، وما انتشر الإسلام في الأمم إلا لما شاهدت فيه من تعظيم للحياة ومحافظة عليها، وتسوية بين الناس فيهما، مما لم تعرفه تلك الأمم من قِبَلِ ملوكها، ولا من أحبارها ورهبانها». د. محمد سليم العوا.

والحرية تسبق السلطة في الوجود وأولوية الاعتبار؛ فالحرية وجدت مع الإنسان منذ ولادته، وجعلت من مكوناته وفطرته، فقد خلق الله الإنسان حرًا وأراده كذلك، وأما النظام السياسي فقد جاء تبعًا للوجود الإنساني من أجل حفظ وجوده وتنظيم حاجاته وتوجيه جهوده، بما يحقق مصلحة العباد في المعاش والمعاد. فالنظام السياسي جاء ليحفظ حرية الإنسان ويصونها ويوجهها لغاياتها، وينظم ممارستها بحيث يمنع التظالم والتواثب، وينفي النزاع المفضي إلى الفساد والضياع. (بدر الدين بن جماعة).

والإنسان يولد حرًا، ومن أميز ما يميزه عن غيره من الكائنات الأخرى هو حريته فلا يجوز له ولا لغيره تجاهلها؛ لأن الحرية ليست حقًا، بل هي واجب ولذلك فالإنسان -دون غيره من الكائنات الحية-يعتبر مسؤولا عن إرادته في الحياة، ولهذا لم يتساهل علي عزت بيجوفيتش في أمر حريته ولم يفرط فيها لأنه يرى في الحرية جوهر الإنسان وقوامه، ويؤمن بأن الحرية منحة من عند الله وأمانة استودعها إياه لا يصح التفريط فيها.

كما أن هناك الكثير من الفقهاء المعاصرين يرون أن) الحرية (أسمى بكثير من أن تكون وسيلة لشيء آخر؛ لأنها متصلة بأعماق الكيان الإنساني وشرط للحياة الكريمة والمنتجة، ويعتبر الطاهر بن عاشور (فقيه المقاصد) هو أول من ذكر من المعاصرين أن الحرية يمكن أن تكون مقصداً من مقاصد الشريعة.

وبناء على ذلك يمكن القول -جزما وتأكيدا-أن الحرية في الأمة المسلمة هي فرض عين، كما جزم بذلك د. ماجد عرسان الكيلاني، وعلى الجميع القيام بها وممارستها وتوفيرها، وحمايتها من الطغيان الداخلي ومن العدوان الخارجي. وإذا غابت الحرية وقع الإثم على الجميع وذلك لسببين: الأول، إن الحرية سبب رئيسي لنمو القدرات العقلية التي يُفهم القرآن بواسطتها، وتفهم آيات الله في الآفاق والأنفس، فإذا لم توجد هذه القدرات العقلية اقتصر الإنسان على تلاوة آيات الله في القرآن، وحفظ آيات الله في الآفاق والأنفس دون فهم لمقاصدها النهائية، وتحول كالحمار يحمل أسفارا. والثاني، أن غياب الحرية يؤدي إلى ضعف القدرات العقلية وضمورها -إن كانت موجودة-مما يمهد لعودة الصنمية والوثنية والتخلف. فالحرية هي مظهر التوحيد، والتوحيد في جوهره حرية؛ لأنه تحرر من عبودية الأشخاص، والأشياء، والأفكار الخاطئة أو الخرافية.

ومن الأمور ذات الدلالة أن القرآن الكريم جاء خاليا من كلمة (الحرية) ذاتها، ومتضمنا لمفهوم (تحرير) كاشفا بذلك أن الحرية تكليف وليست حقا، وأن المجتمع الإسلامي هو مجتمع الواجب. ويورد القرآن الكريم معظم التكليفات، بلفظ الجمع، كما يشير إلى المكلف في الغالب بصيغة الجمع، بما لذلك من دلالات حول الطابع التكافلي للتحرير وحماية حرية الإنسان. والتحرر هو تحطيم القيود والحرية هي العمل الإيجابي الحر الذي يضطلع به من تحطمت قيوده. «وما أعظم الفرق بين الثورة من أجل الحرية، وبين السعي إلى تعديل ميثاق العبودية!»، كما يقول د. محمد بن المختار الشنقيطي.

الحرية في الرؤية الإسلامية والرؤية الغربية:

الحرية في الإسلام من الكليات الحاكمة، بل إن الكثير من العبادات والمعاملات في الإسلام يشترط فيها الحرية، ولا مسؤولية بلا حرية، وعندما تنتفي الحرية يسقط التكليف في العموم. كما أن الإسلام ينظر إلى الحرية على أنها حق إنساني فطري، وأنها عطية إلهية للإنسان لا يجوز العدوان عليها، وأنها هي جوهر إنسانية الإنسان.

كما أن الحرية في المفهوم الإسلامي أساس مناط التكليف الذي لا معنى له من غير أن يكون العبد حرًا في الاختيار، ولهذا لا تكليف على المكره، لأن التكليف مسؤولية، ولا مسؤولية بغير حرية، وإن القيام بالدور المتعيَّن للإنسان أولا : كخليفة لله ـ تعالى ـ في إقامة أمره في عمارة الأرض، وتسخير قوى الطبيعة لمنافع الإنسانية، واستثمارها إيجابيا من غير سرف وابتذال، وثانيًا : كشاهد صدق على نفسه في قيامه بدوره في الاستخلاف وعلى الناس من بعد، أمران لا يمكن تحقيقهما إلا من قبل إنسان: مستقلٌ في ذاته، مكرمٌ في نوعه، وله إرادة في الاختيار لا قهر معه.

وفي فلسفة الإسلام، تكون أعلى درجات الحرية حين يصبح الإنسان عبدا لله، فعندها يتحرر من العبودية لمن لا يستحق، بل يصبح عبدا لمن بيده (جميع المطلقات)، القوة المطلقة، والغنى المطلق ... إلخ، فيستغني بغناه عن غنى كل غني وبقوته عن قوة كل قوي، فلا يسأل إلا إياه ولا يرجو النفع والضر إلا منه، وعند ذلك يمكن القول إنه: لن تبقى هناك حرية لفرد تستعبده الذات والملذات والشهوات، وإن ظن أنه حر بل هو مُسترقٌ لشهواته، فالحرية ليست في أن يفعل الإنسان ما يريد، بل في أن يفعل الصحيح، الذي يحافظ على كمالات الإنسان ولا يحافظ على كمالات الإنسان إلا



أن يتصل بصاحب الإيجاد، والإمداد، والإرشاد، الذي بيده الحياة والموت والغنى والصحة والقوة.

أما الإنسان في إطار الفلسفة الليبرالية والوضعية الغربية، فإنه لا يُحصِّل ولا تعطيه هذه الفلسفة سوى الفكر الانتقائي المجزَّأ والمبعثر، يبحث الإنسان عن ذاته فلا يجدها، فيفرغ ذاته في ذاته، انهماكا في الجزئيات، ثم يتأزم ويفارق حتى جذره العائلي، فالحرية بلا مضمون، والإنسان بلا التزام بشيء، بلا عائلة ينتمي إليها وبلا شريك في الحياة يأوي إليه، وإلى ولد يفرغ عليه أبوته أو أمومته ... «حرية إلى حد الموت الذاتي، إلى حد النفس المفككة، إلى حد التردي والهلاك، ماركس تمنى الخبز فوجده، وفرويد تمنى الجنس فوجده، وإنشتاين تمنى الطاقة فوجدها، دارون تمنى التطور فوجده، فماذا بعد ذلك! إنها العدمية، إنه اليأس فالانتحار!» أ. د. طه جابر العلواني.

وفي مثل هذا المناخ الثقافي الذي أفرزه الفقه السياسي العلماني الغربي المنقلب على أصول الدين وأغراضه، يتضخم لفظ الحرية بصورة لا مثيل لها بهذا الحجم في الأدب السياسي، وهنا يكمن الفرق بين الرؤية الإسلامية والرؤية العلمانية، فالفرد المؤمن في الرؤية الإسلامية قد خرج أصلا من قهر الاستعباد المادي، حينما آمن بتوحيد الوجود لا أحاديته، فجعل القيمة العلوية للوجود الغيبي، مما جعل الوجود الراهن وجودا دنيويا لا يستحق أن ينقطع أساسا له، بل ينبغي أن يتحرر منه، حسب ما قرر د. التيجاني عبد القادر في مقارنته بين الرؤيتين، والدولة تنشأ في هذا الإطار لا كأداة تمتص حريات الآخرين من الأفراد، وإنما كأداة تنمي قدراتهم على التحرر، وتعينهم على إنجاز مشروع التوحيد، ومن ذلك وحده تستمد مشروعيتها وأسباب بقائها.

الحرية ... حدود وضوابط:

الإسلام لم يفرض على حرية الفكر قيوداً من خارجها، المهم ألا تنقض الحرية نفسها فتغدو سبيلاً لإثارة النعرات العصبية والعرقية، أو مدخلاً للإثارات الغريزية، أو هدما لأسس المجتمع، ذلك أن الحرية قيمة إنسانية عليا وهي تفقد معناها إذا انفصلت عن قيم الحق والخير والجمال والعدالة. إذ لا حرية لظالم ولا لمجنون (فلا ضرر ولا ضرار)، (فلا عدوان إلا على الظالمين)، ذلك أن قيمة الحرية تتجدد بمقدار ما تمنح الحياة من قوة وطمأنينة واستقرار وإيمان وعدل ورقي.

والإنسان ظل يفرض على نفسه مزيدا من القيود لكي ينال مزيدا من الحريات، وفق تعبير (د. فؤاد زكريا في كتابه التفكير العلمي)، وهذا تعبير يبدو متناقضا: إذ كيف تفرض القيود من أجل ضمان الحريات ولكن من السهل أن يُفهم ذلك في ضوء مثال مألوف في حياتنا اليومية يفسره، ألا وهو إشارات المرور: فنحن نفرض على أنفسنا أن نتقيد بإشارات المرور، لكي ننال بذلك مزيدا من الحرية في حركة المرور، والدليل على ذلك أن تعطُّل إحدى الإشارات، الذي يبدو في الظاهر وكأنه يعطى السائق أو السائر «حرية « السير كما يشاء، يؤدى في واقع الأمر إلى إلغاء هذه الحرية مما يسببه من تكدُّس وفوضى في المرور. وهكذا الحال في أمور البشر جميعا: إذ ننتقل من حالة (الحرية) العشوائية أو المتخبطة التي كانت تسود في البداية إلى نوع من التنظيم أو التقييد الذي يحقق لنا مزيدا من الحرية. والأمثلة التي تثبت أن مفهوم الحرية القديم، بمعنى (الانطلاق بغير قيود)، يخلي مكانه على نحو متزايد لمفهوم آخر هو (التنظيم والتقييد) الذي يؤدى إلى مزيد من الحرية الحقيقية.

ويمكن أن تقارن بين طبيعة ونتائج الحرية بالنسبة لطفل أمامه ورقة وفي يده

قلم، ظفر بهما بعد بكاء عنيد، قارنه بفنان أمامه لوحة وألوان وفي يده الفرشاة، فالطفل حر في أن يخط بالقلم ما شاء أن يخطه على الورقة، والفنان حر في إقامة بنائه اللوني على اللوحة، لكن ما أبعد الفرق بين حرية وحرية! لقد أزيلت الموانع التي كانت تحول دون حصول الطفل على ورقة وقلم، فلما بلغ مراده وكان حرا، انطلقت تلك الحرية المجنونة (تشخبط) الخطوط على الورقة بلا هدف، وأما الفنان العارف بأسرار فنه، فقد استطاع بحريته المقيدة بقواعد الفن وأصوله، أن يبدع ما قد يضاف إلى كنوز الجمال.

ولذا فإن علينا أن نفهم أن الحرية المطلقة لا وجود لها في الكون في مواقعه التكوينية والعملية ... ولا وجود لها في حياة الناس ... فلا بد من (حدود وضوابط) معينة للحرية تفرض النظام وتمنحه حركته في الاتجاه الصحيح، وفي ظل مثل هكذا حرية لها ضوابطها وحدودها لا مجال لمحاصرة الفكر والسياسة والاجتماع بالقهر والعنف والاضطهاد لأن مثل هذا الحصار لا ينتج ثباتا للفكرة، ولا عمقا في الوعي ولا امتدادا في الموقف.

ومن المهم في فهم بُعدِ الحرية فهم شروط أهلية مزاولة حقوقها، لأن الحرية هي حق وموقف ومسؤولية، مثلها مثل أي حق وموقف لا يمكن مزاولته في حالة من الفراغ أو الفوضى أو الاستهتار، بل هي أحرى من غيرها بالضبط والتنظيم لما لها من أخطر الأثر في حياة الإنسان ومعنى وجوده. د. عبد الحميد أبو سليمان.

ومفهوم بالطبع أنه لما كان الفرد عضوا في مجتمع بحكم الضرورة، وجب أن نتوازن حريات الأفراد بحيث لا تطغى إرادة منها على أخرى، ومن هنا جاءت الشرائع والقوانين التي تضع لإرادات الأفراد حدودها في كل موقف من مواقف الحياة، وكذا القوانين التي تضع لإرادات الأفراد حدودها المشتركة.

وهكذا نرى أن فكرة الحرية في أوطاننا، حتى عند أكثر المثقفين، ضاقت حدودها بحيث كادوا يقصرونها على التخلص من قيود الطاغية، بالمعنى السياسي في أغلب الأحيان، وفق توصيف د. زكي نجيب محمود لهم، ومثل هذه النظرة الضيقة تبقيهم في وهمٍ كبير، إذ تجعلهم يتوهمون أنهم قد باتوا أحرارا وما هم في حقيقة أمرهم بأحرار، فلأن يفكوا عن أنفسهم قيود المستبد ـ على اختلاف ضروب الاستبداد ـ لا يعني أنهم قد صاروا أحرارا، بل يعني أنه قد توافرت لهم الظروف التي تمكنهم من أن يكونوا أحرارا لو أرادوا، (لأن الحرية في صميم معناها هي القدرة على العمل في الميدان الذي نريد أن نكون أحرارا فيه)، فالحرية الحقيقية هي محصلة لمعرفة الحر بالمجال الذي يريد أن يكون حرا فيه، ومن هنا يتضح لنا كيف أن الحرية لا تكون مطلقة لأي إنسان، وإنما هي منسوبة دائما لما يكون الحر على علم دقيق به، وكان أفلاطون قد أدرك هذا المعنى للحرية إدراكا واضحا، إذ جعلها صفة تدور مع العلم وجودا وعدما.

وانفلات الحرية ليس تقدما إلى الإنسانية بل تأخراً إلى البهيمية، لأن الأفعال تمدح بضبطها لا بانفلاتها، فالانفلات لا يحتاج للعقل بل يحتاج لتعطيله. وفي الدول المستبدة، التي تصادر الحريات، يجري تشجيع الحرية الجنسية واللهو، لأنه كلما نقصت الحرية السياسية والاقتصادية تزداد الحرية الجنسية وحرية اللهو، وهو ما تلجأ إليه الحكومات التسلطية، يضاف إلى ذلك حرية أحلام اليقظة التي تقدمها القنوات الفضائية وأجهزة التلفزيون والراديو، ومواقع التواصل الاجتماعي. والالتزام لا يخدش كرامة الحرية، ولكنه يبعثها من منطلقات صحيحة، ويحلها في مكانها اللائق بها، بعيدا عن منحدرات الإسفاف والرذيلة.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أحل الأرض كلها، وحرم خطوات يسيرة منها، والحرية أن يعيش الإنسان في سعة الأرض، لا في ضيق الخطوات، ومن عاش في



ضيق خطوات الشيطان، فإنه لا يبصر أن الشيطان سلبه حريته من الأرض الواسعة، ليقيِّد عيشه في خطوات منها. «فالحرية أن تعيش في سعة المشروع، لا في ضيق الممنوع»، كما يقول الأستاذ عبد العزيز الطريفي، والحرية أن تصل لحاجتك المشروعة الممنوعة، لا أن تصل لممنوع لا تحتاجه، وكل تحرر من أمر الله هو عبودية لأمر الشيطان، (والإنسان خلق ليطيع فليختر سيده).

إن الحرية الإنسانية لها حدود وقواعد وثوابت تنبع من طبيعة الإنسان وطبيعة مجتمعه، ولا بد من فهمها ومراعاة حدودها، حسب تأكيد د. عبد الحميد أبو سليمان على ذلك. فالإنسان ومجتمعه منظومة مركبة لها قواعدها وثوابتها وحدودها التي يجب مراعاتها وعدم تخطيها، وإلا انهارت المنظومة كلها، يتساوى في ذلك منظومة المجتمع الإنساني مع منظومات الذرة والخلية والمجرة.

وحرية الفرد تبدأ من حين يبدأ حقه في الحياة، وتنتهي من جميع جهاتها حيث يبدأ حق البارئ المصوِّر، وحق من حوله من الخلق كلا وبعضا. والحرية المنقوصة هي نوع من العبودية، والحرية غير المنضبطة تعني الفوضى، كما تعني العدوان، وتعني في بعض الأحيان تدمير الذات. «والحرية بدون قانون، أو التي لا يعيش الناس في ظلها في سلام ليست حرية حقيقية على الإطلاق، والحرية - كذلك - ليست مجرد التخلص من الأغلال ولكن الحرية أن تعيش حياة تحترم فيها حرية الآخرين وتعززها. كما يقول نيلسون مانديلا.

إن الإنسان الحر هو النبتة الأولى والأساسية في مجتمع الحرية، ولا حرية بلا إنسان حر. والحرية أن يكون لهذا الإنسان اختيار في الفعل أو عدمه، وهذا عندما تكون بين أمرين إيجابيين، أما عندما يكون الإنسان أمام خطر داهم أو حيوان



مفترس، فإن الحرية تدعوه لأمر واحد هو الحفاظ على حياته، وإذا فكر في أمر آخر فذلك يدعو إلى مراجعة الحساب في قدراته العقلية؟!.

وبناء على ما سبق، يمكننا القول بنوع من الاطمئنان والقطعية أنه ليس هناك حرية مطلقة، فالحرية المطلقة هي فوضى مطلقة، ولكن القيود المطلقة هي قتل للإنسان في أبعاده الحيوية (روحا وجسدا وطاقة). «وأننا عندما نلغي الطاقة الحيوية للإنسان فإننا نهدم المجتمع، وعندما نحررها تحريراً مطلقاً فإنها تهدم المجتمع. لذلك يجب على الطاقة الحيوية أن تعمل بالضرورة ضمن هذين الحدين». كما ذكر ذلك بوضوح المفكر مالك بن نبي.

الحرية المسؤولة:

مفهوم الحرية لا يمكن فصله عن مفهوم المسؤولية، والمسؤولية عبء شاق، وهو الثمن الذي يدفع لقاء حرية الإبداع والتجديد، وهي الرابطة التي تربط المرء بالعمل المضطلع به، والحرية مُلِحَّة في مطالبها فعندما ينتهي وقت الكلام ويحين وقت القرار، ويتعين البت في القضايا المطروحة والاختيار من بينها، كما يصف ذلك (جان ماري بيلت)، يعود إلى الظهور إغراء الهروب الغامض، والرغبة المكبوتة في الانضمام إلى الصفوف، وفي التخفي أو التحلل في آلاف أشكال الحرية الزائفة التي ينزع مجتمعنا إلى محاولة إقناعنا بأنها لا تتمثل إلا في عمل كل إنسان على هواه، وهو ما وقف أمامه المفكر الجزائري مالك بن نبي بكل حسم، وأطلق عبارته المشورة في وجه طالبي الحرية دون تحمل تبعاتها، فقال: «إننا نريد حقوقنا (حرياتنا) ولو مع جهلنا وعرينا ووسخنا»!!

«إن أي تلاعب بالناس حتى ولو كان في مصلحتهم هو أمر لاإنساني، أن تفكر بالنيابة عنهم وأن تحررهم من مسئولياتهم والتزاماتهم هو أيضًا لاإنساني. إن نسبة الإنسانية إلينا تجعلنا ملتزمين. فعندما وهب الله الحرية للإنسان وأنذره بالعقاب الشديد، أكد ـ على أعلى مستوى ـ قيمة الإنسان كإنسان، إن علينا أن نتبع المثل الأعلى الذي وضعه الله لنا: لندع الإنسان يجاهد بنفسه بدلاً من أن نقوم بعمله نيابة عنه». علي عزت بيجوفيتش.

إن الحرية لست مجرد إباحة ولا معطى وجودي، وإنما هي من ناحية واجب، وهي من ناحية أخرى كدح متواصل لتجاوز الضرورة عبر مجاهدة النفس لحملها على معالي الأمور ومجاهدة قوى الشر والجهالة في الخارج لإعلاء كلمة العدل والحرية، عبر المجاهدة (العبادة) والجهاد على اختلاف أبعاده، وبالتعاون مع الآخر، وعلى قدر ذلك



يحقق المؤمن كسبه من الحرية. فالحرية كدح متواصل ومجاهدة يومية من أجل تجسيد المُثل العليا (أسماء الله الحسنى) في الآفاق والأنفس. و«الإنسان هنا ليس حرا وإنما يتحرر بقدر كفاحه ضد قوى القهر داخله وخارجه، وبقدر تحقيقه المثل الأعلى لدستور الأخلاق، كما كشفت عنه أسماء الله الحسنى». الأستاذ راشد الغنوشي

والناس لا يفرقون بين معان يرددها الإنسان بلسانه مع من يرددونها، وبين معان أخرى يؤمن بها ذلك الإنسان لأنها انبثقت من صميم فؤاده، ففي الحالة الأولى قد يهتف بحياة الحرية والعدالة هتافا تنشق له الحنجرة، حتى إذا ما لاحت في الأفق نذر الخطر لاذ بالفرار، وأما في الحالة الثانية فهو هو الذي يحيا فتحيا بحياته الحرية والعدالة، لأنهما يجريان في عروقه مع الدماء، وإذا ما تجهَّمت له سحب الخطر، تصدى لها ليقشعها من سمائه، أو يلفظ الروح دون مسعاه.

ولهذا لا تصدق إنسانا يدَّعي أنه مؤمن بحق الحرية لنفسه وللناس، ثم تنظر إليه في سلوكه الفعلي فإذا هو يبتلع في جوفه كل من عداه لكيلا يبقى حيا على ظهر الأرض سواه، فهو في سعيه كالتنين الجبار الذي تحكي عنه الأساطير بأنه لا يحيا مع الآخرين، بل يحيا بالآخرين طعاما.

إن الحرية التزام ومسؤولية، إنها التزام لا مجرد اختيار، لأن الاختيار هو تبني أحد الممكنين والوقوف عند هذا الحد، في حين أن الالتزام هو التزام بكل ما ينتج عن اختيارنا. وكلما ازدادت الحرية عمقا ازداد ارتفاعنا على طريق النهضة درجة بعد درجة. «والتكليف والمسؤولية إنما هما في الحقيقة دليل الحرية وامتلاك الاختيار، فالمسؤولية فرع الحرية، فلا مسؤولية بلا حرية». الأستاذ عمر عبيد حسنة.

والواجب التزام، تشعر به ذات حرة، وهذا يعني أن الشعور بالحرية يكاد يكون

شرطا للشعور بالواجب، وتحمُّل المسؤولية. وأكثر الناس شعورا بالحرية، أكثرهم شعورا بالواجبات، والفرائض الحضارية، حسب تعبير د. عبد الكريم بكار. والجمع بين حرية الفرد والتزامه، نراه في كل كائن أيا كان نوعه، فكل ما في الكون يَسْبَحُ في فلكه، لكنه في الوقت نفسه يلتزم العلاقة التي تنسق بينه وبين سائر الكائنات.

والحرية ليست شعارا ولا أحاسيس مجوفة، وإنما هي قبل كل شيء إمكانات وظروف معينة تسمح للإنسان بالاختيار، وتُحمِّله مسؤولية هذا الاختيار. «والحرية - كذلك - لا تتجزأ، فالأغلال التي تقيد واحدا منا تقيدنا جميعا، والأغلال التي تقيد قومي هي أغلال تقيدني أيضا». نيلسون مانديلا.

تنمية الحرية:

إن تنمية رأس المال البشري، الذي يعني تنمية قدرات الإنسان/ المجتمع، لا تأتي قسرا، ولا تتحقق أبدا في ظل مناخ الاستبداد، أو بناءً على قرار سلطوي، كما أن العدل الاجتماعي لا مكان له في ظل نظامٍ يكون فيه الحاكم هو كلمة الحق النافذة، وهو الصواب والمرشد والموجه الهادي. الحرية آلية تطوير حضاري وهي في الآن نفسه ثمرة متطورة النضج لهذا التطوير، لقد سقطت من زمان أسطورة المستبد العادل، لأن العدل الاجتماعي / التطوير يأتي في إطار الحرية شرطا ... الحرية التي تعني تحرير الإنسان من ربقة الجهل والمرض، والحرية فرصٌ لممارسة القدرة من أجل المشاركة الإيجابية الواعية المسؤولة. (أماراتيا صن، التنمية حرية). والنهضة في جوهرها هي وعي الإنسان، وإطلاق ممكناته، وتحرير إراداته.

والتنازل عن الحرية، تترتب عليه عواقب وخيمة نافية لتكريم الإنسان من أساسه. فما لم تكن للإنسان إرادة حرة مختارة، فإنه يصير مكلَّفا بما هو فوق استطاعته،

وجوهر الاختيار السوي هو: السعي لشكر نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأن ذلك هو السبيل إلى تعزيز حرية الاختيار، الاختيار المستنير، العارف، الواعي، أي هي (الحرية) العمل الذي تتضح منطلقاته وأهدافه، ويصدر عن ذات الشخص وعن قواه العقلية، والنفسية الناضجة المتكاملة، ويبطل فيه تأثير الحاجة، والعادة، وترديد مقولات الآخرين وتأثيراتهم وإيحاءاتهم، خلال الأحكام الأساسية عن الخير والشر.

ويضعنا ذلك أمام ثلاثية أساسية، ذكرها د. السيد عمر وهي: لا معنى للكون فيما لو خلا من الدين، ولا محل للدين فيما لو خلا الكون من الإنسان، ولا وجود للإنسان فيما لو لم تتوافر الحرية. إن الحرية بذلك قيمة لا يجب النظر إليها في جوهرها على أنها حق. فهي بالأساس تكليف. كما أنها (أي الحرية) « ليست ذات بنية ثورية، (كما يحلو للبعض وصفها بذلك)، وإنما هي ثمرة النضج البطيء الذي نحرزه على صعيد تقويتنا لإرادتنا، وعلى صعيد فهمنا لواجباتنا ومسؤولياتنا». د. عبد الكريم بكار.

وإذا لم تكن نفوسنا قد تهيأت حقا لأن نجعل من الحرية والعدالة دستورا لحياتنا العملية كما نحياها، أفليس من الأجدى لنا أن نبدأ من هنالك؟ أي أن نبدأ من نقطة تقع فيما قبل الحرية والعدالة، وأعني بها إرادة الحرية وإرادة العدالة، وإرادة غيرهما من القيم الرفيعة التي نستهدف إقامتها في حياتنا، وإذا لم نستطع تحقيق ذلك في جيلنا الراهن، فلنمد الأمل إلى جيل أبنائنا، حسب تساؤل أحد المفكرين. إن الحرية تُوسّع مجال الممكن إلى ما لا نهاية من خلال التعمق في أغوار النفس. والقوة هي السلطة تمارس على الغير، أما السلطة التي تمارس على الذات فهي الحرية. «أمَّا قمة الحرية فهي قدرة الإنسان على إلجام نفسه، ليحكمها بدل أن تحكمه». د. زكي نجيب محمود.



والحرية التي تنبع من الداخل (الباطنية)، حرية النفس والفكر والضمير، هي التي تصنع باقي الحريات، وهي التي تغذيها وتحميها. فإزاحة الغبار والصدأ عن مبدأ) أصالة الحرية وفطريتها)، كما يصفها د. أحمد الريسوني، هي بمثابة تجديد لإيمان الإنسان بنفسه وبحقيقته وبما وهبه خالقه. وإزالة التشكيك والتأرجح في الإباحة الأصلية والبراءة الأصلية، هي إنهاء لحالة التكبيل والاعتقال ورفع للآصار والأغلال، عن فكرنا وفقهنا وإبداعنا. وكل ذلك في نطاق المشروعية الواضحة والعقلانية الصحيحة، وفي ظل الشعور بالأمانة والمسؤولية.

وقبل البدء بقيم الحرية والعدالة وما إليهما مما نطالب به من حقوق الإنسان، لا بد أولا أن نُعدَّ نفوس الناس إعدادا يهيئهم للإصرار على أن يكونوا أحرارا ومنصفين، إذ ماذا يجدي أن تقدم للناس حقوقهم الإنسانية جاهزة معطرة مبخرة كما يقولون إذا كانوا في أعماقهم لا يريدونها؟

إن الإيمان بالحرية كمبدأ أخلاقي لا يعني تحولها الفعلي فوراً إلى قانون مُنظِّم لحياة الناس، وإنما يتحول هذا المبدأ إلى واقع بعد ترويض شاق للذات الإنسانية في مسار تاريخي متعرج وقاس أحيانا، «وما أبعد الشقة بين غرس المبدأ ابتداء وتحويله إلى علاقات اجتماعية عفوية انتهاء». د. محمد الشنقيطي.

والنضج الحضاري قد يكون شرطا ضروريا لتأهيل الإنسان لمزاولة حق الحرية وخاصة حرية العقيدة، كما يؤكد على ذلك د. عبد الحميد أبو سليمان، لأن أحوال البدائية الحضارية والتخلف الحضاري في بعض صور البداوة والتوحش قد جعل الإنسان في حالة قصور حضاري واجتماعي وذهني يحرمه القدرة على اتخاذ القرار الإنساني المسؤول، ويحرمه أهلية الحرية، ويحتّم رعايته لبلوغ أهليتها قبل إعطائه حق



مزاولتها وحمل مسؤوليتها، وهذا ما سعى به الإسلام في عصر ظهوره في حق قبائل العرب الصحراوية الوثنية البدائية.

ومن المضامين ذات الدلالة على محورية الحرية التوحيدية في المنظور القرآني، حقيقة أن الأمانة لم تعرض أصلا على الإنسان، بل طلبها هو، حسب ما فهمه الدكتور السيد عمر من قوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الأحزاب: ٧٢، فالإنسان مارس الحرية في الحصول على الحرية، ويؤشر ذلك إلى حقيقة أنه لا يستحق الحرية إلا من يتطلع إليها، ويتحمل تبعاتها.

والحرية عندما تفهم من جانبها السلبي وحده، أي عندما تُفهم بمعنى التحرر من القيود، ومن القيود السياسية بصفة خاصة، ومثل هذا التحرر واجب محتوم، ولكنه في حال الاكتفاء به، فإن الإنسان لم يكسب من حريته شيئا إلا الشكل الخارجي فقط، فبعد أن كان القيد يغل قدميه، أُزيل القيد، إلا أن القدمين ما زالتا عاجزتين عن السير، لماذا؟ يجيب د. زكي نجيب محمود بالقول: لأن السير يريد هدفا يُوصَلُ إليه، ولأن الوصول إليه يتطلب معرفة بالوسائل، فإذا كان لا هدف هناك، أو كان هنالك الهدف ولا معرفة يستعان بها على خلق الوسائل المحققة لذلك الهدف، إذن فيا خيبة الرجاء!

إن العلاقة بين الإبداع والحرية علاقة وثيقة، فالإبداع نِتَاجُ خيال حر، وعقل نتفتح له الآفاق، وإرادة تملك الاختيار (د. أحمد كمال أبو المجد). ولذلك كثيرا ما يخرج الإبداع من رحم الحرية وينمو في ظلها، فالطاقات المبدعة لا يمكن أن تستنبت في ظل القمع والإرهاب والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي وغياب الحرية



وحقوق الإنسان.

فالإنسان كما يصفه المفكر عبد الرحمن الكواكبي: «يعيش في ظلِّ العدالة والحرية نشيطاً على العمل بياض نهاره، وعلى الفكر سواد ليله، إن طعم تلذَّذ، وإن تلهّى تروَّح وتريّض؛ لأنّه هكذا رأى أبويه وأقرباءه، وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم. أما أسير الاستبداد، فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد، حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدرج أيامه وأعوامه، كأنَّه حريصٌ على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب». وهذا الوصف في شقه الثاني، يكاد ينطبق على كثير من النخب في عالمنا العربي.

والعقل إذا كُبِّل وسلبت حريته فلا بد من تحريره وإطلاقه من كل ما يعرقل قيامه بدوره، أو يعوق حركته وماذا يعني تحرير العقل أكثر من إنقاذه من القيود التي تفرض عليه، وتحول دونه ودون عمله الحر؟ وهو ما يقوم به الدين الحق. «ومجرد تقديس الإنسان لعقل غيره فهذا يعني حتما إلغاء عقله هو». (عبد الحليم أبو شقة).

والذي تأصلت فيه روح العبودية لا يمكن أن يُقدِّر الحرية الصحيحة حق قدرها. فهو يتملّكُه الهياج والرغبة في التخريب إذا وقعت الفتنة، فإذا فُرِضَ عليه الإرهاب من قبل السلطة فإنه يخضع ويستكين، فالظهر الذي اعتاد على الانحناء يشقُّ عليه الاعتدال، وإذا اعتادت النفس العبودية شقت عليها الحرية، والإنسان المسلوب الحرية، إنسان قاصر عاجز ناقص.

والحرية كما يتصورها د. زكي نجيب محمود ـ وهي وجهة نظر معتبرة ـ لا تكون إلا لمن يعلم حقائق الميدان الذي يريد أن يكون فيه حرا، والحرية في هذه الحال، مرتبطة بمعرفة الميدان الذي يعتبر الإنسان حرا فيه، على شرط أن يقف عند حدود



ما ينفع وما لا يضر الآخرين، فحق الحرية بمعناها الإيجابي المنتج، مقصور على أولئك الذين يعلمون، أو هكذا تقضي الحكمة بأن يكون، وعلم الإنسان بشيء معناه حريته إزاء ذلك الشيء، يصوغه كما يشاء ويحركه كما شاء، ومزيدا من العلم به هو في الوقت نفسه مزيدا من حرية الإنسان.

وعلاج الحرية الواسعة يكون بتنظيمها لا بمصادرتها. كما يقول الشيخ محمد الغزالي، والأخطار التي نخشاها من الحرية الواسعة تعالج بمزيد من الحرية، وتنمية الحرية يشبه تعلُّم السباحة، التي لا يتم تعلمها في الغرف المغلقة، بل يتم تعلمها في الماء، وكذلك الحرية لا يتم تنميتها نظريا، بل لا بد من السعي لتطبيقها، والصبر بعد ذلك على القصور الذي يترتب من سوء تطبيقها ومحاولة تصحيح قصورها باستمرار حتى تستوي على سوقها، فالحرية ليست شيئا يطلب من الآخرين، إنها شيء يمارس وتقبل تبعاته.

عن الحرية المسؤولة والبانية أتحدث ...

كتب شكسبير في أحد مؤلفاته: لو أن الله يرزقني ابنا! سأركّز أن يكون البالون أكثر ألعابه. وأشتريه له باستمرار، فلعبة البالون تعلمه الكثير من فنون الحياة. تعلمه أن يصبح كبيراً ولكن بلا ثقل وغرور. حتى يستطيع الارتفاع نحو العلا. تعلمه إمكانية فناء ما بين يديه في لحظة، وفقدانه يمكن أن يكون بلا مبرر أو سبب، لذلك عليه ألا يتشبث بالأمور الفانية، ولا يهتم بها إلا على قدر معلوم، وأهم ما سيتعلمه ألا يضغط كثيرا على الأشياء التي يحبها، وألا يلتصق بها لدرجة يؤذيها ويكتم أنفاسها، لأنه سيتسبب في انفجارها ويفقدها للأبد.

سيتعلم أن الحب يكمن في إعطاء (الحرية) لمن نحبهم، وسيعلّمه البالون أن المجاملة والمديح الكاذب وتعظيم الأشخاص للمصلحة، يشبه النفخ الزائد في البالون، ففي النهاية سينفجر في وجهه، وسيؤذي نفسه بنفسه.

وفي النهاية سيدرك أن حياتنا مرتبطة بخيط رفيع كالبالونة المربوطة بخيط حريري لامع، ومع ذلك تراها ترقص في الهواء، غير آبهة بقصر مدة حياتها أو ضعف ظروفها وإمكانياتها. نعم سأشتري له البالون باستمرار، وأحرص أن أنتقي له من مختلف الألوان، كي يحب ويتقبل الجميع بغض النظر عن أشكالهم وألوانهم وخلفياتهم ...!

لماذا الخوف من الحرية؟

إن الرسالة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام لم تطلب من قريش إلا فضاء الحرية، وكان الرائد -صلى الله عليه وسلم- يعلنها صريحة: (خلوا بيني وبين الناس). ولم يحدث قط أن غلب الإسلام في مناظرة حرة، كما يشير إلى ذلك الشيخ

راشد الغنوشي، فلا خوف على الإسلام من الحرية، وإنما عدوه الألد هو الاستبداد.

وإذا كان هناك من خطر حقيقي نخشاه على الإسلام فهو جمود العقول واستبداد السلطان، أما الحرية فخير وبركة ومقصد عظيم من مقاصد الإسلام، تنتفي باختفائها إنسانية الإنسان، ويتعرض دين الله عندها لأشد الأخطار.

وأسوأ نواقض الحرية وأخطرها على الإنسان، هي تلك التي تصيبه في عقله وفكره وعلمه، وخاصة حينما تصبح حرية العقل وحرية الفكر وحرية الفهم مكبلة ومعاقة ذاتيًا وداخليًا، وبنوع من (الاقتناع والارتياح)، وفق تعبير الدكتور الريسوني.

ومالم يدرك المسلمون اليوم أزماتهم وإصاباتهم الفكرية والاجتماعية، بسبب من غياب الحرية والمساواة، وحقوق الإنسان، ومالم يدافعوا عن حرياتهم، ويغاروا عليها غيرتهم على نسائهم وبناتهم وأعراضهم وأموالهم، ويجاهدوا في سبيلها، فسوف يستمر سقوطهم، وغيابهم الحضاري.

ومن العجيب فعلاً أن أكثر الذين يخافون من الحرية، ويدققون في مدلولاتها ومآلاتها هم المكتوون بنار الظلم والتسلط والاستبداد، والأعجب فعلاً أن يكون الإسلاميون هم أكثر من يخاف من الحرية، وأن يكونوا في الوقت نفسه أكثر من ذاق ويلات الاستبداد والاستعباد! كما وصف حالهم الدكتور بكار.

لقد رتَّب الشارع الحكيم، كما يقول الأستاذ ياسين عبد العزيز، «على كل كلمة طيبة ترمي إلى تحصيل مصلحة أو تعطيل مفسدة أجرا. فهو لم يمنح الإنسان حرية الكلمة ليقولها فحسب، بل رغَّبه بقول ما طاب من الكلام مقابل منحة تشجيعية حتى تتم له حريته وإرادته الإنسانية (والكلمة الطيبة صدقة). ورهّب من قول ما خبث من الكلام



لأن فيه إساءة لربه ولنفسه وللآخرين من خلق الله».

لقد أدرك مالك بن نبي ثقل الحرية على بعض النفوس، واعتبر أن الحقيقة المرعبة تكمن هنا، فقال: «إن الحرية عبء ثقيل على الشعوب التي لم تحضرها نخبتها لتحمل مسؤوليات استقلالها». أو (حمل زائد، وفق تعبير علي عزت بيجوفيتش، ومن هنا جاء الهروب من الحرية.) وقد اعتبر بن نبي أن من السهل جدا أن نشتم الاستعمار أثناء فترة (ما قبل الثورة)، ودون أن نتناول أو نطرح أي مشكلة من مشاكل (ما بعد الاستقلال) قبل استحقاقها المرعب، هذا الاستحقاق الذي يزرع اليوم القلق في نفوس عامة الشعب، ويزرع الركود الاقتصادي، وأحيانا الفوضى السياسية في معظم بلدان العالم الثالث.

إن الناس الضعفاء هم اتباع وسند السلطات التسلطية، وهم يفتقدون الشعور بالقيمة الذاتية التي ينبثق منها الطموح إلى الحرية والاستقلال. والرجل الضعيف، كما يصفه علي عزت بيجوفيتش، يهرب من الحرية والمسؤولية، وتكون السلطة التسلطية هي ملجؤه من هذا الحمل، الذي بدونه يمكن له العيش براحة.

لقد جعل (كانط) فيلسوف ألمانيا الشهير الحضارة نتاج للحرية، فعندما سئل:

متى تكون الحضارة ممكنة؟:

أجاب: إذا كان الفكر ممكنا.

فسُئل: ومتى يكون الفكر ممكنا؟

أجاب: إذا كان العقل ممكنا.

فسُئل: ومتى يكون العقل ممكنا؟

أجاب: إذا كانت الحرية ممكنة.

إن البيئات التي تستمتع بمقادير كبيرة من الحرية هي التي تنضج فيه الملكات، وتنمو المواهب العظيمة، وهي السِناد الإنساني الممتد لكل رسالة جليلة وحضارة نافعة.

ولقد مرت علينا فترة من الزمن، أثار فيها البعض سؤالا مفاده: أيهما أولا: الحرية أم الشريعة؟ وأيهما نختار، وأيهما نقدم؟ والحل من وجهة نظري ليس في الإجابة على هذه الأسئلة، بل في أن نملك القدرة على الاختيار أصلا، وحين نملك هذه القدرة سننتزع ما نريد بقوة الإمكانية والقدرة، لا لأن أحدا سيُنعم علينا بإعطائنا ما نريد. إن سؤال الحرية والشريعة مجرد سؤال نظري، يمكن الثرثرة حوله طويلا. لكن سؤال الواقع هو: ما الذي يجبرني على الدخول معك في تفاهمات أصلا؟ والمقصود هنا هم الأنظمة وأسيادها من وراء البحار.

ودعوني أستعير عبارة حسن أوريد في مذكراته (رواء مكة)، التي أشار فيها إلى طبيعة علاقتنا المختلة بالآخر، حيث قال: «إن بنود العقد (يقصد المواثيق والعهود الدولية) تضيق يوما بعد يوم، ورب البيت (يقصد الغرب) لا يحترمها، يدعو لحقوق الإنسان ويغتالها، يطالب بالحرية ويمالئ الاستبداد، يدعو لحكم القانون ويغتني بالاستغلال».

الشورى منهج حياة ...

إن أمة التوحيد ما رُزِئت في حياتها الجماعية السياسية بأعظم من غياب معاني الشورى، وما رُمِيت بمصيبة أدهى ولا أمرَّ من ذهاب معانيها الربانية حتى صارت في جملتها بمثابة الصورة الآدمية لا الحقيقة الإنسانية، وإن افتقاد أمة التوحيد لخصائصها الجماعية الربانية ما كان ولن يكون إلا عندما اعتقد ويعتقد كل فرد فيها أن الإسلام الحنيف واجبات فردية وكفى.

وإنها لكارثة حقيقة أن يبدأ تاريخنا بالشورى لينتهي إلى العصمة والاستخلاف والتغلب، لأن ذلك إنما يعني شيئاً واحداً: تغييب الأمة وتهميشها. وكان ينبغي أن تكون الوصاية الحقيقية وصاية الأمة على الحكام والزعماء. وإذا بقي هناك من معصوم فليس أحد غير مجموع الأمة. (الغنوشي، الحريات العامة، ص١٨٨).

إن الغفلة عن دراسة الواقع تُوقِعنا في شر مستطير، فمثلا (المغتربون) ينقلون عن المجتمع الغربي دون نظر لواقعنا نحن، و(المنغلقون) ينقلون عن الأجداد دون نظر لواقعنا نحن أيضاً، فإما ديمقراطية غربية كاملة وإما شورى مُعْلِمَة، والذي يناسب واقعنا لا هذا ولا ذاك، وإنما هي شورى تُشرِك الأمة في تسيير الدَّفة، وتستفيد من إجراءات ومؤسسات الديمقراطية الحديثة، وتكون الشورى فيها مُلْزِمَة لولي الأمر.

وعندما انصرفت الأمة الإسلامية ومفكروها في وقت مبكر عن جوهر التوحيد في الحكم، ومعنى الشورى في بناء وتسيير شؤون الأمة، إلى مقارعة النصوص ببعضها وإلى الدعاوى والدعاوى المضادة لها، وإلى تصيُّد النصوص والوقائع التي تجري في ركاب واحدة، من تلك الدعاوى أو أخرى، بما انتهي بالأمة الإسلامية لأن تكون أبعد ما تكون قدرة على حمل رسالة الإسلام وبناء نظامه ومجتمعه. (د. عبد الحميد

أحمد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ص ٢١٠).

إننا أمام حالة مستعصية تتطلب تحرير عقل الأمة من أسر تهميش مؤسسة الشورى، بمقولة أن الحاكم المجتهد يخرج بأجرين إن أصاب، وبأجر واحد حالة مجانبته الصواب. فللمسألة وجه آخر، أخطر من مصير الحاكم المجتهد، يتمثل في آثار الخطأ الذي يقترفه في حق الأمة.

إن الشورى في الرؤية الإسلامية مبدأ إنساني واجتماعي وأخلاقي بجانب كونها قاعدة لنظام الحكم، وهي في مجال السياسة حق الجماعة في الاختيار وتحمل مسؤولية قراراتها في شؤونها العامة. والشورى ليست مجرد أداة لإدارة شؤون الدولة والأحزاب، وإنما هي نهج عام ينشأ عليه الأمر، ويمارس في كل مؤسسات المجتمع بدءاً من الأسرة، وانتهاء بهرم السلطة.

والشورى على نحو عام هي محاولة لسبر الآراء حول قضية من القضايا أو موقف من المواقف، وهي أكثر من أن تكون أحد أعمدة نظام الحكم في الإسلام، إنها (أسلوب حياة (نحتاج إلى ممارستها في البيت والمدرسة والمسجد والمؤسسة، وقد ثبت أن الناس كلما تحضروا أكثر صار تفهمهم لوجهات النظر المتباينة أفضل، وصار التحاور والتشاور بينهم أسهل وأكثر. وليس المقصود من الشورى الاسترشاد والاهتداء إلى الرأي الأصوب دائما، وإنما إيجاد الألفة بين الناس وزرع الثقة وإسقاط الكلفة وتقوية النسيج الاجتماعي والإيحاء للمستشار بأنه متميز، وأهلٌ لأن يستفاد منه خارج مجاله الخاص. (د. عبد الكريم بكار، مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، ص ١٩٧).

إن مبدأ الشورى مبدأ أساسي ليس فقط في السياسة بل في كل أمور الحياة،

ومعنى الشورى الالتزام برأي الأغلبية، وتجميع ما عندنا من علم وعقول وعضلات لوضع القرارات والبرامج والخطط التي تعود بالخير لصالح الأمة، وإذا أضفنا لذلك أدلة عقلية وواقعية تثبت أن الأغلبية أكثر علماً وحكمة ووعياً واتزانا واعتدالا من رأي الفرد والأقلية، تصبح الصورة واضحة.

ومبدأ الشورى هو شرط إجرائي أساسي لشرعية السلطة السياسية، لأنه أمر قرآني من الله، ومن ثم فهو ليس مجرد ضمان لمشاركة الناس في السياسة، بل يمكن النظر إليه كأداة تمنع الطغيان في الحياة السياسية / الاجتماعية. (د. أحمد داود أوغلو، الفلسفة السياسية، ص٤٢).

وقد أمر الإسلام بتحقيق الشورى في المجتمع ولم يحدد (الكيفية والوسيلة)، وأمر بأداء الأمانات إلى أهلها بعد حفظها ولم يحدد وسائل الحفظ لأنها (متغيرة)، وأمر بالتكافل الاجتماعي وترك (طرق تحقيقه مفتوحة) على اجتهادات المُقْدِمينَ عليه، وأمر بالإنفاق في سبيل الله (على إطلاقه) ليعم الخير كل مناحي الحياة ويغطي حاجات الناس المتجددة؛ ولهذا ينبغي أن تحمل القيم الإسلامية إلى كل أهل عصر بما ساد عندهم من وسائل، حتى تكون قادرة على التأثير في سلوكياتهم والتعديل من اتجاهاتهم وتشكيل تصوراتهم.

وليس العيب في الإسلام أن اكتفى بتقرير معاني الشورى والمساواة والعدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسلطة الإجماع ودور العلماء وأهل الرأي، بل إن ذلك ميزة من مزاياه تتساوق مع طبيعته الخالدة الصالحة للتكيف مع كل تطور فكري رشيد وتجربة حضارية نافعة، وقيادة المؤمنين به في كل حال يمرون به من بدو وتحضر، ومن قوة وضعف، وذلك ما التزموا بتعاليمه ومقاصده وأحسنوا توظيف

ما وهبهم ربهم من موارد عقلية ومادية، ما يوجب عليهم الاستمرار في الاجتهاد من أجل إبداع أشكال تنظيمية لا تتناهى بحسب الزمان والمكان استيعابا لكل تطور نافع واستنباطا لحلول ناجعة لكل نازلة تطرأ على اجتماعهم، وإنما العيب في المسلمين الذين اكتفوا بالتفنن في صياغة (صورة مثالية) لأميرهم دون أن يحددوا سلطة للرقابة والاحتساب عليه، والتقدير المنضبط للجهة المؤهلة للحكم عن مدى توفّر هذه المواصفات التي اشترطوها في أميرهم ليكون أميرا ؟ ومن يحكم بأنها اختلت يوم أن تختل؟ (الغنوشي، الحريات العامة، ١٨٨).

وقد ورد النص على الشورى عاما لا مُخَصِصَ له، وهو ما يعني حق الجميع في الإسهام في اختيار الحكام، فاحتكار قلة أو نخبة لها من دون الآخرين لا يجوز، وأدق معيار لتحديد من تشملهم الشورى هو التعبير القرآني:» وأمرهم شورى بينهم» «فكل من كان الأمر أمره، بمعنى أنه يتأثر بنتائج القرار، سواء كان اختيار قيادة لجماعة، أو اختيارا لرأس الدولة ومن دونه، أو قرارا سياسيا يهم الوطن، فله الحق في إبداء رأيه في ذلك الاختيار، ولرأيه في هذا الشأن قيمة مساوية لآراء غيره»، كما يقول الدكتور محمد بن المختار الشنقيطي. ولهذا دائما ما تضيق روح الاستبداد بالشورى لأنها تقدم رأي (الأمة العاقلة) على استبدادهم في الأمر، وتجعل كلمتها الجماعية العادلة هي المتبوعة والمسموعة في الجملة وهم التابعون في القوامة.

وقد تراجع مبدأ الشورى عن ساحة النشاط الإسلامي عامة، والسياسي على وجه الخصوص، وغاب مبدأ التناصح عن صور العلاقات القائمة بين الطرفين، واستغرقت السياسة الدين بالكامل، وجُرِّدَ الإسلام من مضامينه الأخلاقية وفعاليته الاجتماعية وحصر تقييدًا في السياسة. وإننا لنخدع أنفسنا عبثا إذا ظننا أن أشكال النظم أو مسمياتها قد تكفل لنا محتواها ومضمونها، فالوعاء وحده لا يكفل لك نوع

الشراب، فقد تكون صِحاف ولا يكون ثريد، «فالقانون عندنا يُسَنُّ لمن لا يستطيع عصيانه، والنظام بيننا يقام لمن لا يقوى على هدمه، نعم، إن المواطنين سواء أمام القضاء، لكنهم ليسوا متساوين في أن تصل أصواتهم إلى مسامع القضاة، إنك صاحب رأي بيننا إذا كنت صاحب منصب، فعندئذ يتكلم الكرسي الذي تتربع عليه قبل أن يجري لسانك في فمك، عندئذ توزن كلماتك بموازين الذهب والجوهر». (د. زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ص ٢٩٦). وهذه هي الحال كما وصفها الكاتب، وتكاد تغطي مساحة العالمين العربي والإسلامي، في حالة من البؤس الذي ليس له نظير.

إن الدولة الإسلامية في حاجة إلى استعادة منطق الشورى من براثن جموح وتغول صورة الدولة قبل تصور صيغ المؤسسات، وتمكين الدين قبل تأسيس السلطان، وفهم الشريعة في مسالك الاجتماع والاحتكام قبل مسعى التقنين والإرغام، واستقلال الفقه قبل تحديد الوجهة وبدء السعي والحركة. الخلاصة كما تقول د. هبة رؤوف عزت: نحتاج إلى عقل مختلف لا يسير على قضبان السلطة ولا يغيب خلف قضبان الاستضعاف والمظلومية، فيولع بالغالب ويستنصر بالطغاة ويركن إلى دين الظالمين وديدنهم، وهو لا يدري، وينتظر دوما أن يكون القائد: مستبدا مأمولا عدله.

وعبرة التاريخ تشير إلى أن الوحدة السياسية الباقية الراسخة، هي الوحدة القائمة على الشورى والتراضي بين أبناء الأمة، لا على القهر وسلطة الأمر الواقع. كما تدل عبرة هذا التاريخ السياسي الطويل على أن الاستبداد ليس أخف الضررين، ولا خير الشرين، بل هو أصل الفتنة وجذرها، والسبب المفضي إليها. إنه (حرب أهلية مُؤجَّلة)، وبركان كامن مشحون بالدماء والأشلاء. فلتستعد الشعوب التي تفرط في الشورى والحرية وتذعن للاستبداد، لجحيم التمزق والحرب الأهلية عاجلا أو آجلا. (د. محمد الشنقيطي، الأزمة الدستورية، ص٤٤١)

ومما يعين على ترسخ الشورى الفعالة في المجتمع المسلم، عدم هروب أبناء هذا المجتمع إلى التاريخ ليعيشوا في عالم موهوم متخيل، وإنما عليهم أن يأخذوا من الماضي رصيد الثقة بالقدرة على التغيير المتلائم مع حاجات العصر، ويدرسوا عملية التغيير في تطور التاريخ وفي الواقع المعاصر، ويستعينوا بالعلوم التي تدرس هذا التغيير وتحاول أن تقننه، كما عليهم أن ينفتحوا على الواقع العالمي المعاصر ليعرفوا كيف يقفون منه وينتفعوا به، وكيف يخططون لمسيرتهم في ضوء المتجددات والمتغيرات.

وعلى الرغم من قول (الشيخ محمد الغزالي، كما في كتابه دستور الوحدة بين المسلمين، ص١٠) أنه لا يتحامل على الجيل المعاصر ولا الذي سبقه، إلا أن في عباراته التي سأوردها بعد قليل، ما يدل على الحرقة والمرارة والصرامة والشدة بشكل واضح، كما تكتنف عباراته هذه نوع الصراحة، وتحمل كثيرا من المصداقية، ولا يُسَلَّم له فيها إجمالا حيث يقول: «أما نحن فماذا نقدم للناس؟ شورى هي حبر على ورق، وتراحم هو حديث منابر، وشعائر توقف فيها نبض الحياة، فلا هي حب لله ولا هي حنان على الناس إننا منتمون إلى الإسلام ومنكرون له في آن واحد، منتمون له بالميراث وخارجون عليه ماديا وأدبيا ولست أتحامل على الجيل المعاصر، ولا على الجيل الذي سبقه».

إن للشورى مسوغين: أخلاقي وعملي. فمسوغها الأخلاقي هو تحقيق العدل في مسألة بناء السلطة ابتداء. ذلك أن السلطة السياسية أمر عام يمس حياة جمهور الناس، ولا يحق لفرد أن يتصرف في حياة الناس دون رضا منهم. فإن منح نفسه حق تولي هذا الأمر - بما يترتب على ذلك من إطلاق اليد في حياة الآخرين وأموالهم - فسيكون هذا في ذاته ظلما عظيما وتعديا كبيرا. وأما المسوغ العملي للشورى فهو أن الحكمة الجماعية أعظم وأقرب إلى الصواب من الحكمة الفردية، وقد توصل أرسطو إلى هذا

منذ أمد بعيد، فلاحظ أن « الجماعة في تمييز أمور كثيرة والبتِّ فيها تفضُلُ أي فرد من الأفراد» (السياسات، ١٦٥). وخلاصة مبدأ الشورى في مدلوله الأصلي ـ قبل أن تعبث به أهواء الحكام وتطوِّعه ترجيحات الفقها في ظروف تزاحم القيم ـ هو أن لا شرعية لحاكم من غير اختيار المحكومين له، وأن الحكم من غير اختيار المحكومين افتئات وغصب لحق الأمة في حكم نفسها. وإذا خسر المسلمون جولة أو معركة وتأصل مبدأ الشورى في مجتمعهم، كما حدث في غزوة أحد، فهذا خير لهم من ألف مرة من أن يؤول أمرهم إلى تسلط حاكم ظالم، وينتهي حالهم إلى الاستبداد والاستعباد.

والشورى من عزائم الأمور (وشاورهم في الأمر)، والنبي -صلى الله عليه وسلم- استطاع من خلال الشورى أن يبني الإنسان الفعال لا الإنسان الإمَّعة الفاقد للرأي، إنسانا قياديا قادرا على المناقشة والتحليل وتقليب المعلومات ليستخلص الحقيقة. والجماعة غالبا ما تكون مظنة الصواب والفرد غالبا ما يكون مظنة الزلل. وإن مثل الرأي الفردي مع الرأي الجماعي في الأجر ونزول الرحمة وارتفاع الدرجة والإصابة، كمثل صلاة الفرد وصلاة الجماعة.

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به *** رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها.

والشورى (مؤسسة سياسية اجتماعية) مهمة، وليست نصيحة تسدى للحاكم، أو مكرمة منه، فحصرها في هذا المفهوم الضيق هو ما يفسر إهمال حكام القهر والغلبة لشأنها. (د. عبد الحميد أبو سليمان، إشكالية الاستبداد، ١٣). والشورى حقيقة أوسع وأعمق من صورها المباشرة، فهي تَعمُّ وتخص وتتركز وتتسع وتتحدد وتتنوع.

ومفهوم الشورى ينطلق من منطلق ويقصد إلى مقصد غير منطلق الديمقراطية وغير مقصدها وإن تشابه معها في بعض الوجوه في الحاجة إلى الالتزام برأي الأغلبية

إذا غمَّت الحقيقة وقامت الحاجة إلى قرار لا سبيل إلى الإجماع فيه، لأن الأغلبية مظنة الصواب، وقرارها يمثل القاعدة السياسية الأدنى التي لا بد منها لإنفاذ أي قرار عام. (د. عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ٢٠٦). والشورى نظام إلهي بتطبيقات إنسانية، والديمقراطية نظام إنساني، بتطبيقات إنسانية. والديمقراطية إذا جعلت فوق الإسلام أفسدته، وإذا جعلت تحته أصلحها.

والنص الإسلامي الفارق بين مفهوم الشورى ومفهوم الفوضى شاسعا جدا: فالشورى اشتراك بالتراضي والتعاقد، والفوضى اشتراك من غير أي ضابط تعاقدي. والشورى مبدأ إنساني والفوضى يشترك فيها البشر مع الحيوان. (د. محمد الشنقيطي، الأزمة الدستورية، ٣٠٥).

والشورى ليست مجرد أسلوب في الحكم للتعبير عن إرادة الأغلبية أو الإجماع، وإنما أيضاً منهاج للتربية وعلاج للتطرف بالحوار. فهل يتفهم النظام الغربي المعاصر هذا التوجه الإسلامي الصادق لاحترام قواعد اللعبة الديمقراطية؟ أم أن الأمر كما ذكر جون سبوزيتو: «نشجع التحول الديمقراطي إلا أنه من الناحية العملية هناك شرط واحد ألا ينتصر الإسلام في الانتخابات الديمقراطية»!!. (أحمد بن يوسف، الإسلاميون والديمقراطية، صحيفة الحياة، ١٤ / ١ / ١٩٩٣).

والنفس البشرية تحسُّ للشورى فوائد، فتنساق إليها بالفطرة. والنفس البشرية السوية تحب الشورى، وتبغض نفسية المستبدين، الذين يضيقون بها ذرعا لانقلاب فطرهم وتلوث في طباعهم، أورثها حب التسلط والطمع من جانب، وحب الاستخذاء والخنوع والذلة من جانب آخر. والناس معادن ونفاسة الرأي بنفاسة المعدن، والمرء لا يدري أي الناس نفيس المعدن لذا جعل الله مواطن الشورى كل الناس (وأمرهم

شورى بينهم)، (وشاورهم في الأمر) من غير استثناء لأحد من عقلاء المسلمين. وتأكيدا على أهمية الشورى وردت في القرآن مقرونة بفرائض عينية لا يتم الإسلام ولا يكتمل الإيمان بدونها، كالصلاة والإنفاق واجتناب الفواحش.

والشورى ـ مثل الاجتماع والائتناس والتساكن ـ من مستلزمات الفطرة، ومن سنن استقرار المجتمع، وهي ليست هدفا في حد ذاتها بل شرعت في الإسلام كوسيلة لتحقيق العدل وتنفيذ مقاصد الشريعة، لذا فهي فرع من فروع الشريعة وتابعة لها وخاضعة لمبادئها، وهو ما يميزها عن الديمقراطية.

وثمرة الحكم الجماعي الشوروي العادل يغرس في الأمة روح الحرية والشجاعة الأدبية والجدية والعزيمة والإقدام والتضحية وروح الأخوة والتنافس الشريف في تحقيق معاني الإنسانية الجادة، ويزرع فيها الفكر والتفكير والاجتهاد والإبداع والتطوير بخلاف الحكم الفردي المستبد فهو يبذر فيها روح العبودية والاستذلال والحرص والخذلان والفرقة والبغضاء وينتزع منها معاني الإنسانية الربانية.

والشورى لا تستهدف تمزيق الأمة وتكريس التعدد في صلبها، وإنما تحقيق إجماعها ووحدتها، إذ الشورى ليست إلا الصورة التطبيقية للإجماع في شكل من أشكاله. ولكن الوحدة، وهي مطلب عزيز، لا يمكن الوصول إليها وتثبيتها إلا من خلال الاعتراف بالتعدد واحترامه وتنظيم أساليب الحوار والاقناع والتفاوض منهاجاً وحيدا لحسم الصراعات بين فئات الأمة توصلا إلى قاعدة إجماعية لا مناص من توفرها شرطا للاستقرار والتداول. أما إلغاء الرأي الآخر بحجة المحافظة على الوحدة فأيسر سبيل إلى الكارثة والانهيار عبر توفير الفرصة للتدخل الأجنبي وتمزيق الأوطان. وتجربة العراق خير شاهد. (راشد الغنوشي، الحريات العامة، ١٣٩). وللشورى



السياسية ثلاثة عناصر: أن يختار القوم ابتداء من يحكمهم بكل حرية، وأن يكون هذا الاختيار من عامة الناس دون احتكار له من فئة أو طبقة اجتماعية بعينها، وأن يكون لمن اختاروا الحاكم الحق في مراقبة أدائه وعزله إن عجز أو خان. (د. محمد الشنقيطي، الأزمة الدستورية، ١٦٦).

ويفترض في الشورى أن تقودنا إلى الاقتراب من الحقيقة. وهي تلغي المطلق من حياة المسلمين، وتلغي الجور على حقوق الآخرين أو خداعهم. والشورى تضمن عملية التطبيق؛ لأن الذين سيتحملون المهام يكونون قد شاركوا في صياغتها من خلال الشورى.

والشورى في حقيقتها عبارة عن مداولة الآراء بين أهل الرأي والخبرة والحكم في مشورة الأمة ومصالحها العامة، ولذلك نجد أن الشورى لا تحقق إلا بتوفير الحرية، بحيث يستطيع أن يعبر كل عضو من أعضاء مجلس الشورى عن رأيه بحرية تامة. ولو انعدمت الحرية لأهل الشورى بحيث لا يستطيعون التعبير عن رأيهم بأمان، لانتفى معنى الشورى وانتفى مقصودها. فلا شورى بدون حرية تُمكِّن أهل الشورى من إبداء رأيهم، وما يعتقدون صوابه دون خوف أو وجل، أو رغبة أو رهبة. والشورى تعني مناقشة وتقليب النظر في أمر من الأمور العامة أو شأن من شؤون الأمة، أو البحث في إحدى القضايا ذات الصلة والمساس بمصالح الشعب أو الوطن، وتمحيصها من المفكرين والعلماء وأصحاب المشورة للوصول إلى الأفضل والأصوب والأقرب إلى تحقيق مصالح العباد والبلاد.

ولبُّ الشورى، هو إقامة جسور اتصال تحقق الوحدة مع التعدد، حيث الوحدة رمز لكلمة السواء، والتعدد تعبير عن التمايز بين البشر الذين سوى الله بنانهم



بكيفية تجعل لكل منهم بصمة خاصة، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، وأمرهم أن يكونوا كالجسد الواحد من جهة أخرى. «الشورى إذن هي آلية المشاركة مع الإبقاء على التعددية والتمايز. والشورى آلية للتوصل إلى توافق في الرأي بخصوص اختيار البديل الأمثل من بين عدة خيارات مطروحة. فلبُّ الشورى هو المشاركة في صنع القرار السياسي». (السيد عمر، نواة الشورى والديمقراطية، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩١).

وكلما كان الأمر يتعلق بعدد من الناس، تأكدت الشورى ووجبت، فالشورى في حق الثلاثة آكد منها في حق الإثنين، وهي في العشرة آكد من الخمسة. لهذا كانت مصالح الناس العامة وشأن الأمة ومالُها وسياستها شورى بينها، حتى لا تهلك الأمة برأي رجل. (عبد العزيز الطريفي، التفسير والبيان، ج١، ٤٦٤). وفي الشورى يتمحص الرأي بكل الوجوه. والشورى تحفز للتفكر وتحقيق القضايا وتمحيص الأدلة وتحرير الأحكام. والشورى -بعبارة مختصرة-: هي عملية استكشافٍ للرأي الأصوب عبر الاجتهاد المعتبر.

والحاكم المسلم لا يختلف من الناحية الدينية عن أي مسلم آخر من حيث أنه بشر من الناس معرض للخطأ، وأنه حتى لو بلغ علمه رتبة الاجتهاد فان اجتهاداته تظل معرضة للخطأ معروضة كغيرها على بساط البحث العلمي، والشورى العامة والخاصة يؤخذ منها ويترك على حسب حظها من القبول من قبل الرأي العام.

وحين يكبت الصوت المعارض فإن الإنسان لا يؤذي إلا نفسه، لأنه بذلك الكبت يعطل نصف عقل، ويرى بعين واحدة، ولذلك تصبح الشورى ضرورة لمعرفة الحقيقة ... كل الحقيقة. ومن اختار في الشورى من يوافقه، فكأنما أشار إلى ظله شاهدا معه!

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

بعد عدة عقود من العيش في وهم البناء القومي وبناء الدولة القومية الحديثة، وتحقيق الوحدة، لم يتحقق شيء من ذلك، بل تحقق نقيضه، فالسيادة الوطنية تحولت إلى تبعية عالمية شاملة، والشرعية الداخلية تحولت إلى حكم بالقوة، والتنمية والتلاحم الداخلي تحولا إلى تنمية للتخلف والتفكك الاجتماعي.

إن العقل المسلم لكي يسترد عافيته عليه أن يستعيد رؤيته الإسلامية الكاملة المبنية على التوحيد والوحدانية حيث يتوحد الغيب والشهادة والوحي والعقل والكون، وبذلك تَرْشُد مسيرة الإنسان المسلم ويتحقق له وعد الله بالقدرة والنصر. (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ...)، والقرآن هنا يشير إلى وجوب الوحدة أما كيفياتها وطرق تنظيمها فهي متروكة للعقل البشري.

وأداء شعائر الحج ـ كوننا نستوحي بعض أسرار الحج في هذه الأيام ـ هو استعراض لعدة أشياء في وقت واحد فهو: عرض لقصة الخلق، وهو عرض للتاريخ، وهو عرض للوحدة، وهو عرض لعقيدة الإسلام، وهو أخيرا عرض للأمة. (علي شريعتي، الفريضة الخامسة، ٢٢). والقبلة ليست بعدا دينيا فحسب، كما يشير إلى ذلك الشيخ محمد باقر الصدر، بل لها أيضا بعدها الاجتماعي بوصفها رمزا لوحدة الأمة وأصالتها.

وبمقدار قوة ووضوح وسلامة ونصاعة مضمون العقيدة الإيمانية يولد وعاؤها الجماعي، كما تؤكد على ذلك (د. منى أبو الفضل، الأمة القطب، ٣٥)، فهكذا جاءت الأمة في الإسلام دون غيرها من الكيانات الجماعية الإيمانية ـ تجسيدا حيا (للتوحيد والوحدة)، مثلا أعلى لها ـ كينونة وصيرورة ـ تركيبا وحركة ـ فصار عصب الجدلية



الاستقطابية التوحيد الذي ينتهي إلى الوحدة.

وبالتوحيد يقام التوازن الروحي والمادي، وعن التوازن تنتج وحدة الشخصية، والشخصية المتوازنة تبني وحدة المجتمع. وتكون الوحدانية هي مصدر وحدة الجماعة ليس على مستوى الإقرار والسكون أو كأحد معطيات تأسيسية في بناء شامخ قائم ولكن الوحدانية (كطاقة توليد حيوية) ومفاعل الحركة لكيان بشري كوني في طور حياة متنامية مستمرة حول قلب يشدها للالتفاف والتماسك الذاتي ويحفظ عليها كيانها الكلي المتمايز. وقد ولدت الجماعة في الإسلام، وقلبها عقيدة التوحيد، وعمادها شريعة جامعة تقوم على الحق والعدل. (د. منى أبو الفضل، الأمة القطب، ٣١، ٣٣).

لقد أمر الله بتوحيده، ونهى عن ضده، وهو الشرك، وإذا أمر الله بشيء ونهى عن ضده، فهو من عظائم الأمور أو أعظمها، فالتوحيد أعظم مأمور به، والشرك أعظم منهي عنه. وقد تأثر الدكتور عبد الوهاب عزام بشعر محمد إقبال فجعل له مثاني أيضا يناظر فيها «إقبال»، فيقول:

إنما التوحيد إيجاب وسلب فيهما للنفس عزم ومضاء

(لا) و(إلا) قوة قاهرة فهما في القلب قطبا الكهرباء.

وأهمية مبدأ التوحيد في الإسلام تتمثل في أنه يشكل إطاراً لفهم الحياة والكون، ويرسي مبادئ العلاقات الإنسانية والأسس التي ترتكز عليها، وإن أي إخلال بهذا المبدأ له آثاره الخطيرة في معنى الحياة الإسلامية، ونوعيتها، والغاية منها. «فالتوحيد ليس مجرد علاقة بين الإنسان وربه، بل أعمق من ذلك حينما يرتبط بالمجالات الوجودية (الكون) والمجالات المعرفية (المعرفة) والمجالات القيمية (القيم)، والتي

تتولد عن التوحيد ومن مشكاته». (د. سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، مدخل القيم، ١٠٢).

إن التوحيد هو القيمة المركزية التي لا تقبل التصاعد. وهو (أي التوحيد) بما يؤكده من تصور فكري موحد وتجانس إدراكي يرفض أي حركة عنصرية شعوبية تؤسس على الجنس أو اللون، فتجعل من أي أسس مادية محكومة بالفكرة وحقائق الإيمان، «فالوطن لم يعد تعبيرا عن حقيقة مكانية بل تعبيرا عن (الدين وطن)»، وفق تعبير د. سيف الدين عبد الفتاح.

وتضرب (أ. وفاء إبراهيم كما في عمار حسن، الخيال السياسي،١٣٨) مثلا سياسيا عن خطورة التفكير بالتمني، منطلقة من أن (كل ما يرتبط بالواقع ولا يمسه هو تفكير بالتمني)، فتقارن بين الوحدة الأوروبية التي قامت على دراسة معطيات الواقع بدقة، فنجحت على الرغم من التباين والتفاوت بين دولها في أمور مختلفة، وبين الوحدة العربية التي كانت مجرد تفكير بالتمني فأخفقت على الرغم من أن المشتركات بين العرب أكبر بكثير منها لدى الأوروبيين.

إن وحدة المجتمع ليست شيئا يتم إيجاده، ويَخْلُد بعده الناس إلى الراحة، إنها (مشروع تحت الإنجاز)، إذ من السهل أن ينقلب التوحد إلى شيء شكلي فارغ من المضمون. ولا شيء يساعد على وحدة المجتمع، كما يقول الدكتور عبد الكريم بكار، مثل احترام الخصوصيات والتسامح مع التلوينات الثقافية.

ووحدة الأمة - عند البعض - هي الحل لجميع ما نعاني منه من المهانة على الصعيد الدولي والحضاري، وهو كلام يحمل الكثير من المصداقية، ولكن هؤلاء البعض لا يتساءلون عن الأسباب التي أدت إلى تفتيت أمتنا في الماضي، وهل ما



زالت تلك الأسباب موجودة وجاهزة للقضاء على أي شكل من أشكال الوحدة، أم قد تم القضاء عليها؟ والإجابة على هذا السؤال غير مبشرة، حيث لا زالت هناك أسبابا كثيرة تقف عائقا أمام مشاريع وحدوية، وتهدد مشاريع وحدوية أخرى قائمة بالفعل.

يقول د. رضوان السيد: «ربما أمكننا الإفادة من معاناة فقهائنا السياسيين القدامى درسا واحدا - من ضمن دروس عديدة -، مؤداه أن الاهتمام بالوحدة في حد ذاته ليس كافيا لتحقيقها واستمرارها، وأنه ـ ضمانا لتحقيق هذا الهدف ـ لا بد من الاهتمام بطريقة الوصول إليها، بالقدر نفسه الذي نهتم فيه بالفكرة نفسها. وبكلمة أخرى: إن قضية الوحدة ـ وهي قضية الإسلام نفسه ـ لا يمكن أن تنفك أو تنفصل عن قضية الشرعية (السياسية) فيه».

إن الوحدة يمكن أن تستمر أو تتحقق في غياب الشرعية عن طريق القوة والتسلط المجردين. لكنها حينئذ لا تبقى وحدة إسلامية، بل تصبح وحدة (كسروية أو قيصرية). وتعلمنا معاناة المفكرين السياسيين المسلمين الطويلة أن قبول أهون الشرين لا يغير من واقع الأمر شيئا، ففقد الشرعية يقود إلى فقد الوحدة، وخسران قضية الإسلام كله على المدى الطويل. فلتبق للوحدة شرعيتها الجماهيرية لكي تبقى هي الوحدة الإسلامية المعروفة. (د. رضوان السيد، الأمة والجماعة والسلطة، ١٥٠ ـ ١٥١).

والإسلام أوجب على المسلمين أن يكونوا أمة واحدة، ولم يوجب عليهم أن يكونوا دولة واحدة، كما يشير إلى ذلك د. محمد الشنقيطي، والأمة ليست مرادفة للدولة - كما هو معروف - وإنما المطلوب وحدة الإرادة السياسية، والقدرة على التناصر والتعاضد، فما تيسر من توحيد هيكلي دون قسر أو إكراه للشعوب الإسلامية

فيها ونعمت، وما لم يتيسر لأسباب سياسية، أو لاختلافات ثقافية ولغوية، فيجب التعويض عنه بروح الأخوة والتعاضد والتناصر، فالإسلام لا يبغي ضم أحد إليه كارها، هذا وذاك الإنسان على غير دينه، فما بالك بمن هو على دينه، فالوحدة بين المتنوعين ممكنة، وفق وصف (د. مراد هوفمان، الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود، ٢٤٨).

والشخصية الوطنية هي جماع للشخصيات المحلية كلها. والتنوع الذي يدور الحديث عنه هنا هو تنوع مثري، وليس هناك تناقض بين الوحدة والتنوع كما يفهم أحيانا، بل إن تحقيق التنوع مع الوحدة يعني أن هذه الوحدة تمت عن إرادة وليس عن قهر. وبالتوحيد يقام التوازن الروحي والمادي، وعن التوازن الروحي والمادي تنتج وحدة الشخصية، وعن الشخصية المتوازنة تبنى وحدة المجتمع.

والمقصود أن تظل لكل فرد شخصيته الفريدة غير المتكررة في سواه، ثم تتلاقى تلك المتباينات جميعا في وحدة متسقة، كما تتلاقى مجموعة الألفاظ المختلفة في قصيدة الشاعر، كل ذلك يتم من خلال فلسفة توحيدية مؤمنة كما سماها أ. د أحمد الدغشي.

والمسلمون كالجسد الواحد، كما جاء في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يقود لمعنى واحد يتمثل في وحدة الكل وارتباط الأجزاء بذلك الكل (كالجسد الواحد)، والذي لا يمكن أن يسلم أحدهما دون سلامة الآخر والعكس صحيح.

وأكبر ميزات عقيدة التوحيد أنها تستوعب الجاهزيات الإنسانية أيا كان مستوى رقيها، وفق تعبير (المهندس أحمد قائد الأسودي، الحالة الصنمية المدمرة، ٨٥)، وهي تنسجم مع النضج الإنساني ولا تنسجم مع الوجود الشركي المهيمن بكل صوره، فهي الرسالة الإنسانية التي اختارها الله للبشر جميعا، وهي المرتكز الحقيقي



للوصول إلى تحرير الإنسان وتمكينه من حقوقه كاملة غير منقوصة، وهي الرسالة الوارثة للحضارات البشرية قديما في الماضي وحاضرا ومستقبلا إن شاء الله.

ومثلما أن هناك ثمنا فادحا تدفعه الأمة في حال التمزق والتفرق، فإن هناك ثمنا يجب على الأمة أن تدفعه في سبيل الوحدة، وشتان بين ثمن وثمن، والصراع يقوم أساسا على الموازنة بين فوائد الوحدة وبين الثمن الذي يجب دفعه من أجلها، وهذا ما يقوله العقلاء وما يؤمنون به.

وهو الأمر الذي يجعل من البعد الوحدوي شرط الاستقلال الحقيقي، أما ما عدا ذلك فلن يتعدى أن يكون (مشروع) استقلال، ولا يصبح استقلالا حقيقيا إلا إذا خرج من حدود التجزئة، وسبح في بحر الوحدة، وحمل رسالة التوحيد.

يقول جون لينون أحد مؤسسي ونجوم فرقة (بيتلز): عندما كنت صغيراً كانت أمي تقول لي دائما بأن (السعادة مفتاح الحياة)، وعندما بلغت سن التمدرس ذهبت بي أمي إلى المدرسة، واستقبلني المعلم والمدير وسألاني: ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟ فنظرت إليهما نظرة البراءة وقلت لهما: أريد أن أصبح سعيدا! فتبادلا النظرات فيما بينهما، وضحكا من براءة هذا الطفل الصغير الذي لا يعرف شيئا، وقالا فيما بينهما: إنه طفل صغير لم يفهم السؤال. يقول جون هذا: وحين كبرت أدركت أنهما لم يفهما الحياة.

دعوني أفترض في البداية أن مخرجات المدرسة الحديثة هي مخرجات ركَّزت على الهدم، بمعنى أن المُخرَج الذي هو هذا المجتمع الذي نعيش فيه، يُحسن الانطفاء، ويتقن الاحتجاج، ولكن عندما يتطلب الأمر منه القيام بعملية البناء فإنه لا يجد من الأدوات والإمكانات ما يمكّنه من الإسهام في بناء هذا المجتمع، لأن المدرسة لم تبرمجه على البناء وإنما برمجته على الهدم.

ومن خلال هذه الفرضية يمكن أن يتبادر إلى أذهاننا سؤال مفاده: كيف نفسر أن مخرجات المدرسة كلما ارتقى خريجوها في المعرفة والشهادة، كلما ترفّعوا عن المجتمع، وأحياناً احتقروا المجتمع، وأحسوا أن مهمتهم ليست تأهيل المجتمع وتطويره، بقدر إحساسهم بأن مهمتهم هي تغيير هذا المجتمع، بمعنى هدم هذا المجتمع وإعادة بنائه من جديد؟

وهذا يأخذنا إلى القول إن وظيفة المدرسة في وضعنا الحالي هو قيامها بتكريس وترسيخ القطيعة بين مجتمع تزدريه وتحتقره وتعتبره خارج التاريخ، وبين مهمة جديدة



تراها لنفسها، هي الضلوع في تأسيس مجتمع جديد، تسميه المجتمع الحديث.

وبعد أن كانت المدرسة هي التي تمد الإنسان أو المجتمع بأجوبة عن التحولات التي تطرأ عليه، وبالتالي يكون قادرا على مجابهة هذه التحديات والتكيف معها، أصبحت اليوم عاجزة عن مسايرة هذه التحولات ومجابهة هذه التحديات، وبالتالي أصبح هناك انفصال بين المدرسة ومخرجاتها، وبين العولمة وتطوراتها، حيث بينت العولمة أن المدرسة لم تعد قادرة على مواكبة التحولات التي جاءت بها العولمة ذاتها.

وبين يدي هذه الافتراضات والتساؤلات، أرى أن مستقبل المدرسة يكتنفه الغموض، فاستمرارها في قذف هذه المخرجات يفاقم أزمتها كمؤسسة وظيفتها البناء لا الهدم، ومحاولة إعادة النظر في وظيفتها لتصبح بانية لا هادمة، فإن دون ذلك خرط القتاد، وبين هذا وذاك يبقى المهمومون بالوظيفة البنائية للمدرسة يحفرون في جدار صلب، كلّت في نحته أيديهم، ولم يروا بصيص أمل يشجعهم على مواصلة الحفر، ليصلوا إلى السعادة التي أرادها جون لينون في بداية التحاقه بالمدرسة، فلم يفهمه القائمون عليها، ولكنه أدرك عندما كبر أن من استقبلوه في بداية مشواره لم يكونوا يفهمون الحياة على حقيقتها.



حرية التفكيك لا تصلح للبناء.

إغراء التشبع بالمصطلحات والمفاهيم والقيم الكبيرة لا يقاوم، بل يصل الحال بالبعض إلى عدم وضع سقوف تحدد معالم هذا المصطلح أو المفهوم أو القيمة، مما يعنى أن هذا المصطلح... يستمر في التوسع حتى يتجاوز الحدود التي على ضوئها كان الهدف منه أن يبني فإذا به يتحول إلى مصطلح أو مفهوم أو قيمة هادمة.

فمصطلحات (كالحرية أو حقوق الإنسان أو حرية التعبير، ...)، هي مصطلحات أو قيم وضعت لغرض البناء، سواء بناء الذات الإنسانية، أو بناء المجتمعات، وهذا ما يتفق عليه الناس جميعا من حيث المبدأ، ولكن ما يتخلفون فيه هو أين تنتهي حدود هذا المصطلح أو هذه القيمة، وهل هناك قيود توضع لتحديد هذه القيمة أم أن الأمر متروك بلا تحديد؟ وعلى ضوء ذلك تباينت الإجابات ما بين مضيّق وموسّع، وما بين موجب لوضع قيود وبين مستنكر لذلك.

ولو أخذنا مصطلح أو قيمة (الحرية) كمثال، وحاولنا أن نناقشه في هذا الإطار، لوجدنا أن هذه القيمة لها إغراء شديد، إلى درجة أن البعض جعل منها حرية بلا حدود (حرية مطلقة)، في مقابل من قيدوها وكبلوها، ومع ذلك تبقى الحرية بلا حدود ولا قيود بلاء متحقق، وهي هادمة أكثر منها بانية.

فمع الحرية المطلقة يتعذر بناء فضاء عام، وإيجاد مجتمع يمكن أن يتعايش أفراده، فالفضاء العام وحتى الحضارة لا تبنى على مفهوم الحرية، لأن الحرية هنا مفهوم لاحق، وهذا لا يعني إلغاء الحرية، وإنما يعني تقنينها، ووضع القيود التي تحد من شطحاتها المدمرة.

الحرية يمكن أن تكون مسعفة في تفكيك السلطة، ولكننا عندما نرغب في بناء السلطة فإننا نحتاج إلى حرية مقيدة، بمعنى آخر، فالحرية (والمقصود بها الحرية المطلقة)، هي مفهوم تكتيكي، يلجأ إليها البعض لغرض تفكيك سلطة قائمة، ودورها ينتهي هنا، ومن يظن أن بإمكانه أن يفكك سلطة ما بناء على مفهوم الحرية، ثم يقوم ببناء سلطة أخرى على مفهوم الحرية ذاته فهو واهم، وليس في هذا دعوة للاستبداد وتكميم الأفواه ومصادرة الحريات، بل الغرض هو عدم الدخول في نفق العدمية التي يمكن أن تكون ناتجة عن الحرية المفكِكة والتي يخيل إلينا أنها يمكن أن تتحول إلى حرية بانية، ويمكن أن تكون بعض المخاضات التي نتجت عن الربيع العربي إحدى هذه الصور.

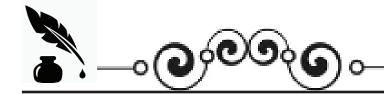
هذا ما أسعفتني به التأملات في موضوع إغراء المفاهيم والمصطلحات والقيم، التي تطرح كقيم توحي بالإطلاقية، ولكننا نجني ثمارها المرة عندما نراها على الواقع، بلا حدود ولا قيود، وعندها يكون التفكيك والفوضى الخلاقة كما يسميها واضعوها هي سيدة الموقف وعنوان المرحلة.

الأسئلة مفاتيح والإجابات أقفال...

يولد الإنسان وهو لا يملك أي إجابة، ولكنه يمتلك عددا ضخما من الأسئلة التي يبحث لها عن إجابات، يبدأ بالتساؤل حتى قبل أن يقدر عن الكلام، من خلال الحركات والإشارات والإيماءات، وعند أول بادرة منه على الكلام تنثال أسئلته على شكل متوالية هندسية ليس لها نهاية.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الحياة أمام هذا الطفل (وأمام كل إنسان) لغز، وشيء محيّر، يحتاج إلى فهمه واكتشاف مجهوله، ولذلك تكثر أسئلته وتتنوع وتتناسل وتتكاثر، وكلما وصل إلى إجابة نظن بعدها أنه سيصمت إذا به يفتح المجال على أسئلة أخرى، فحب المعرفة والكشف عن المجهول، والرغبة في التساؤل لمعرفة أسباب وعلل الأشياء غريزة في الإنسان، لا يمكنه التنازل عنها طواعية، ولكنه قد يتركها في الظاهر إذا أحسّ بنوع من الضغط والإرهاب وعدم الترحيب بأسئلته ممن حوله، ولكنه مع هذا سيبحث عن الإجابات بطريقة أخرى، قد تكون أكثر أمانا بالنسبة له، وحسب ما يراه هو، وإن كانت هذه الطريقة لا تروق لمن منعوه من التساؤل، وقد تكون هذه الطريقة خاطئة.

إذا نحن أمام مجموعة من المفاتيح (الأسئلة) لفهم الحياة، إما أن نستخدمها ونساعد الآخرين (صغارا وكبارا) على استخدامها، وإلا فإننا سنُبقِي الأقفال (الإجابات) مغلقة حتى إشعار آخر، وكم من أناس ماتوا، وأغلب مفاتيحهم معهم لم يجدوا فرصة لاستخدامها، أو أن آخرين وقفوا حائلا بينهم وبين استخدامها، وهذا يعطي مؤشرا على أن الحياة مليئة بالأقفال ولا مجال لفتحها إلا باستخدام المفاتيح المعدة لها، بمعنى آخر، هناك إجابات مرمّزة كثيرة في الحياة لا مجال لفك شفرتها إلا بتفعيل أسئلتها، وإلا



فإنها ستبقى مشفرة إلى حين التعرف على أسئلتها التي تفك شفرتها.

إن الذي يملك مهارة التساؤل ويستخدمها سيصل إلى شاطئ بحر الحياة المتلاطم، أما من يصرُّ على الصمت أو يمنع انبثاق التساؤل فإن مصيره هو البقاء في عرض البحر إلى ما شاء الله، وكم من أسر وجماعات وأحزاب و ... تضيق ذرعا بمن يملكون مهارة التساؤل ويستخدمونها، وتجد في مثل هؤلاء المتسائلين (المشاغبين) مصدر إزعاج وإقلاق بالنسبة لها، ولذلك فهؤلاء غير مرحب بهم ولا مرتاح لوجودهم، وهم (المتسائلون المشاغبون) أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يسايروا الوضع العام ويتنازلوا عن حقهم في السؤال، وإما أن يغادروا مهاجرين إلى أماكن وفضاءات أخرى، وكثير من هؤلاء يفضلون الصمت وإن لم يقتنعوا، كي يستمروا في أسرهم أو جماعتهم أو أحزابهم أو... ، والقلة القليلة هي التي تهاجر وتغادر أعشاشها الموحشة لتصنع لنفسها مستقبلا مختلفا تماما، قد يكون إيجابيا وقد يكون سلبيا.

ومهما قيل من أن بعض الناس يفضل الموت على التفكير، فإنني أقول إن مثل هذا الإنسان الذي يفضل الموت على التفكير يعتبر في مراحله الأخيرة، وهو ضحية أكثر منه فاعلا حقيقيا للفعل الذي يقوم به. هناك وأدٌ مبكرٌ لهذا الإنسان ليحبس أسئلته ويواصل الصمت ويتنازل عن حقه في التساؤل، يتناوب على سجنه والتنكيل به وإبقائه في حضيرة القطيع، كل من الأسرة بسلطتها، والمدرسة بقوانينها، والمجتمع بعاداته وتقاليده، والدولة المستبدة بأجهزتها المتعددة.

والمتأمل في القرآن الكريم وفي حياة الرسول الأمين صلوات ربي وسلامه عليه يجد أن هناك ترحيبا بالسؤال، بل وحثا على تفعيله في حياة الإنسان من خلال استنهاض آلته (العقل) كي تفكر وتتأمل وتنظر، ومع هذا الفكر والتأمل والنظر تأتي

الأسئلة التي ينتج عنها قول خليل الله إبراهيم: (ولكن ليطمئن قلبي)، فاطمئنان القلب له علاقة باقتناع العقل، والقناعات لا تترسخ إلا من خلال التساؤل والحوار، بمعنى آخر، هناك ما يستحق أن تطرح حوله الأسئلة ويستحق أيضا أن تتنوع فيه الإجابات، حتى يخلص المتسائلون جميعا إلى إجابة تقتنع بها عقولهم وتطمئن بها قلوبهم.

والأمة التي تظن أن منع التساؤل عند أبنائها يعتبر في صالحها، هي أمة واهمة لا تدرك عواقب ما تصنعه بأجيالها المستقبلية، خاصة وقد وُجِدت قنوات أخرى تتكفل بتقديم الإجابات (الأصحاب، الإنترنت، مواقع التواصل الاجتماعي)، والتي قد لا تروق لمن يقودون هذه الأمة، ولكن هذه الأمة هي من ألجأت أبناءها على مساءلة هذه البدائل حين بخلت على أبنائها بالإجابة الصائبة الصحيحة. إن مصلحة الأمة الحقيقية هي في إشاعة ثقافة التساؤل، وتيسير طرقها، والاجتهاد بكل جد وإخلاص في البحث عن إجابات، عندها ستكون بهذا الفعل في مصلحة أبنائها ومن ثم مصلحتها هي، وإلا فإن هناك آخرين واقعيين وافتراضيين يملكون من الإجابات ما لا تريد هذه الأمة لأبنائها أن يسمعوه.

لم يعد تكميم الأفواه مجديا، ولم يعد الحجر على الأسئلة مفيدا، ومع ذلك نجد أن هناك من يتفنن في إبقاء الأسئلة حبيسة صدور أصحابها، ظنا منه أنه قد دفنها في مقابر الصدور، وهو بهذا التصور واهم، فالأسئلة التي لا تجد لها متنفسا تُحوِّل الصدور التي هي فيها إلى تربة خصبة تنمو فيها هذه الأسئلة وتكبر، فإذا استوت على سوقها خرجت في غير مسارها وتحوّلت إلى غابات تعيش فيها جميع الحشرات والهوام.

نعم الأسئلة مفاتيح الشخصية الإنسانية ومفاتيح الحاضر والمستقبل، ومنع استخدامها يعني بقاء الشخصية مغلقة وبقاء الحاضر موصدا، وبقاء المستقبل مظلما،



والإجابات التي تصل بالناس إلى طرق مسدودة أو أوضاع عقيمة، ليست إجابات يؤمل منها أن تساهم في حلول للواقع بل هي أقفال وأغلال لهذا الواقع، أما الإجابات التي تفتح الآفاق، وتفضي إلى أسئلة إبداعية جديدة وإلى مسارات مفتوحة، فهي فضاءات يجد الناس فيها متنفسا، وهي بالفعل مفاتيح جديدة تولّدت عن مفاتيح السؤال في مراحله الأولى.

وحتى لا يطلب مني أحد تحديد نوع الأسئلة المفتاحية التي من حقها أن تطرح، أسارع إلى القول بأن مجال التساؤل الصادق مفتوح، يبدأ من الأسئلة الوجودية وما في مستواها نزولا إلى الأسئلة العادية وما دونها، والمجتمع الواعي هو الذي يسمح بالسؤال ولا يتضايق من جرأته وخشونته، بل يحاول التلطف بصاحبه، ويحاول بالمقابل ترشيد هذه الأسئلة وتوجيهها الوجهة الصحيحة، حتى تؤتي الأسئلة ثمارها اليانعة.

هل دقة التشخيص تقلل جرعة الدواء؟

قبل أن نبدأ في الإجابة على هذا السؤال، يمكننا أن نضع هذا المثل الفرنسي، كمدخل لهذا المقال، سواء أتفق مع هذا المثل البعض أو اختلفوا، والمثل هو: لو أن طبيبا ما يستهلك خمس دقائق في فحص المريض، فإنه سيصف له ثلاثة أنواع من الأدوية، ولو استغرق في فحصه عشر دقائق، لوصف له نوعين من الأدوية، ولو واصل فحصه لخمسة عشر دقيقة، لحدد له دواء واحدا، أما إذا استمر في فحصه عشرين دقيقه، فإنه قد لا يكتب له أي دواء!!! بمعنى أن هذا الطبيب ربما يقرر أن شفاء هذا المريض يتوقف على شيء آخر.

والمثل الذي سقناه، وجعلناه مدخلا لهذا المقال، يعطي أهمية بالغة للتشخيص ومعرفة العلة والسبب، قبل الشروع في وصف الدواء لمعالجة المريض، وأي اجتهاد في العلاج قبل استكمال عملية الفحص والتشخيص معناه صرف دواء لغير العلة، ومعالجة لغير المرض، واستهداف لغير السبب، إضافة إلى ما تحدثه هذه المعالجات التي لم تقم على فحص وتشخيص دقيق من مضاعفات، قد تؤدي في بعض الأحيان إلى كارثة تفوق المرض الأول الذي كان يشكو منه المريض، وهذا أكثر وضوحا في مجال الطب، أكثر منه في بقية المجالات.

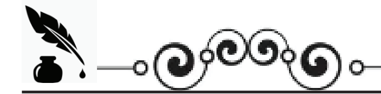
ومع هذا يمكننا أن نأخذ مثالا من الواقع الإنساني، ونقصد هنا عالم التربية، فللتربية والاطلاع على مكنوناتها العميقة أيضا حكاية مماثلة لفحص المريض من قبل الطبيب، فكلما كان الفحص والتشخيص أكثر دقة وعمقا كلما تقلص عدد الأدوية الموصوفة للمريض (التربية)، وازداد التحرز من اتخاذ الإجراءات العلاجية التي لا تستند إلى تشخيص دقيق.

وكلما كان الطبيب (في أي مجال) أكثر دقة وحذقا وتخصصا، كلما ضاقت دائرة تعليماته ووصفاته وعلاجاته الخارجية، وكأن عملية التربية التي نتحدث عنها هنا، وعلاقة المربي بالمتربي، والراشد بالطفل، والمعلم بالتلميذ، هي الأخرى تتبع هذه القاعدة.

والمتأمل في عالم الطب، يجد أن هناك تقدما كبيرا في عمليات الفحص والتشخيص، مقارنة بعوالم أخرى تحتاج إلى هذا الأمر احتياجا ملحا، فالطب توسع في عمليات الفحص والتشخيص كما وكيفا، وتوسع أفقيا ورأسيا، وأدخل في مجال عمله أدوات وأجهزة ساعدته على دقة التشخيص، فمن التحاليل المخبرية، إلى الأشعة العادية والمقطعية، إلى الفحوصات الدقيقة، إلى التخطيط للقلب والدماغ (الرنين المغناطيسي)، إلى غير ذلك، ولا زال الطب يدهشنا باستمرار بأدوات وأجهزة جديدة ودقيقة في عمليات التشخيص.

وبناء على الفحوصات والتحاليل والأشعة، يستطيع الطبيب الحاذق أن يقرر ما الذي سيحتاجه المريض؟ هل يحتاج إلى علاج؟ أم إلى تدخل جراحي؟ أم إلى تدخل بالمنظار دون اللجوء للجراحة؟ أم إلى.... وهنا تكون الخيارات مفتوحة أمام الطبيب المتمرس ليقرر طبيعة العلاج أو التدخل، بناء على فحوصات وتشخيصات دقيقة، وسيكون قراره بعد كل هذا في صالح المريض بكل تأكيد.

ولكن تعالوا بنا نسقط ما ذكرناه في عالم الطب على عالم التربية - أو أي عالم آخر - سنجد أنفسنا أمام ألغاز كثيرة، وغموض وضبابية، وأحيانا ارتجالية، تصل إلى حد الاستهانة بالأرواح والمجتمعات، فكم من قرارات تتخذ في الجانب التربوي دون أن تأخذ حقها من الفحص والتحليل والتشخيص، وكم من (تدخلات) تتم في عالم التربية



دون أن يسبقها معرفة العلة والسبب الذي أدى بها إلى هذا الحال، وما هي المعالجات السليمة التي لا ينتج عنها مضاعفات خطيرة، قد تودي بالعملية التربوية برمتها.

قد يقول قائل: إن هناك في مجال التربية مراكز أبحاث، ودراسات علمية نظرية وتجريبية تشخص الواقع، سواء كانت أبحاث علمية أو أطروحات للماجستير والدكتوراه، ومسوحات وإحصاءات، وغير ذلك، وهذا صحيح، ولكن هل كل ما سبق ذكره يؤدي دوره كما يجب في عمليات الفحص والتشخيص للواقع؟ أقول بكل أسف ومرارة: لا، وبصوت مرتفع، ولذلك تتفاقم أمراض التربية، وتتلو ذلك مضاعفات يحار أمامها الحليم، وهذا دليل على أن هناك أدوية وعلاجات (قرارات واجتهادات) تصرف دون تشخيص وفحص مسبق، وهناك (تدخلات جراحية) لا تستند إلى تحاليل تظهر أين تكمن العلة؟ ولا إلى فحوصات سليمة للواقع، ولا أشعة دقيقة تظهر أماكن الكسور وبقع النزيف، ولذلك تبدو القرارات التي تتخذ في جانب التربية قرارات اجتهادية وأحيانا ارتجالية، وهذا بدوره يؤدي إلى تفاقم الداء ومضاعفة الكارثة.

أخيرا، يمكنني القول إن عملية الفحص والتشخيص والتحليل لا بد أن تأخذ مداها المطلوب، وهذا لا يعني الانتظار إلى ما لا نهاية، بل المطلوب اتخاذ القرار في الوقت المناسب، بعد استكمال كل المستطاع من عمليات ما قبل اتخاذ القرار، لأن التأخير الغير مبرر قد يؤدي إلى وفاة المريض، وهذا ما لا نرغب في حصوله.



العلم رحم بين أهله

أقامت جامعة الأندلس مؤتمرها العلمي الثاني للعلوم الإدارية، تحت شعار (التنمية المستدامة ركيزة للأمن والاستقرار)، وهذه بعض انطباعاتي كأحد الحاضرين لفعاليات هذا المؤتمر:

١-أن أحد أهداف التعليم العالي هو إنتاج الأبحاث العلمية، سواء من الأساتذة المتمرسين، أو من خلال طلبة الماجستير والدكتوراه الذين يشرف عليهم أساتذتهم، أو من خلال الأبحاث التي تقدم إلى لجان التحكيم، وهذا بدوره يخلق جوا علميا يحفز على مواصلة البحث العلمي.

٢-المؤتمرات العلمية وورش العمل العلمية والسمنارات، وحضور المناقشات العلمية لرسائل الماجستير والدكتوراه تصقل خبرة الباحثين المبتدئين، وتكسبهم مهارة لا يستطيعون الحصول عليها من خلال قراءة الأبحاث العلمية، أو حتى من خلال قبول بعض المجلات العلمية لأبحاثهم، فالحضور والمشاركة يحدث فارقا كبيرا في تعرف الباحث على مهارات البحث العلمي من أهل الاختصاص والخبرة في هذا المجال.

٣-الميزة التي يمكن أن تحسب للأبحاث المقدمة للمؤتمرات العلمية أنها تخضع لتحكيم من قبل لجنة تحكيم، وعلى ضوء ذلك يتم قبولها، ثم تخضع للعرض والمناقشة مرة أخرى بحضور الباحث نفسه، ومن قبل أساتذة وباحثين آخرين يتلقى منهم بعض الملاحظات، ويناقش في بعض الجوانب المتعلقة بشكل ومضمون بحثه.

٤-وجدت أن المؤتمرات العلمية وما في مستواها، تجمع الكثير من الأساتذة والباحثين من تخصصات متنوعة في مكان واحد، وهؤلاء الأساتذة يملكون مهارات بحثية



متعددة، ولديهم خبرتهم وتجربتهم البحثية، ولقاء الباحثين بهم وجها لوجه ومناقشتهم والاستماع إليهم يفتح لدى الباحثين المبتدئين آفاقا جديدة للبحث العلمي، ويعطيهم دافعا لمواصلة البحث، ويحدث فرقا واضحا في عقلية ونفسية هؤلاء الباحثين.

٥-الأجواء العلمية التي تكتنف المؤتمرات العلمية تضفي طابعها على المشاركين فيها، فيحس المشاركون فيها بأنهم أسرة واحدة، يحدوهم أمل واحد، ويسعون إلى هدف واحد هو البحث العلمي، وهذا من بركة العلم، الذي يعتبر رحما بين أهله.

٦-بذل القائمون على المؤتمر العلمي لجامعة الأندلس قصارى جهدهم، كي يظهر مؤتمرهم بالشكل اللائق الذي كانوا يؤملون أن يظهر به، ومن وجهة نظري أنهم قد وفقوا للوصول إلى ما كانوا يهدفون إليه، ومع هذا يبقى كل عمل بشري في حاجة إلى التحسين والتكميل والاستدراك، وهذا ما لمسناه من سعة صدر القائمين على المؤتمر لاستقبال أي ملاحظات أو مقترحات من قبل المشاركين، والعمل بها في المؤتمرات القادمة بإذن الله.

٧-في نهاية هذه الانطباعات أتقدم بالتهنئة القلبية الخالصة للقائمين على هذه الجامعة والمنظمين لهذا المؤتمر، وعلى رأس هؤلاء رئيس الجامعة أ. د أحمد برقعان، الذين استطاعوا أن يقيموا هذا المؤتمر في ظل هذه الظروف الصعبة، ونتمنى لهم التوفيق والنجاح، ومواصلة مثل هذه الفعاليات العلمية التي تعطي مؤشرا وأملا أن الخير وأهله ومحبيه موجودون.

بين يدي بيانات الإدانة... ماذا بعد؟

أصبحت البيانات التي تصدر عن الهيئات والمنظمات والمؤسسات، وحتى الصادرة عن الدول تعبر عن موقف تلك الجهة مما يجري، وبعض، إن لم تكن أغلب تلك البيانات هي عبارة عن تسجيل موقف للتاريخ وإبراء للذمة وإسقاطا للواجب ليس إلا، ولذلك نادرا ما يتبع هذه البيانات أي تحرك (حسب المستطاع والمتاح)، يقف وراء هذه البيانات ويفعِّل مضامينها لنصرة القضية التي صدرت من أجلها.

وبيان هيئة علماء اليمن يشبه غيره من البيانات، وهو موجه للداخل بالدرجة الأولى، ولذلك جاءت صياغته دائرة في الإطار الشرعي ومستحضرة للأدلة القرآنية والحديثية، التي تقنع الداخل (المقتنع أصلا بصوابية ما أورده البيان)، وهكذا في كثير من البيانات، فإنها لا تأتي بشيء جديد، وإنما تكرر ما سبق، ولو استعرضت بيانا سابقا (قبل سنوات) وقارنته بهذا البيان لوجدته بنفس الكيفية مع اختلاف بسيط في اسم البلد أو الشخص أو الجهة المدانة.

مشكلتنا أننا نخوض حروبا ومعارك كثيرة (كردات فعل ليس إلا)، يفرض علينا زمانها ومكانها وطريقتها الطرف الآخر، وربما يوقفها الطرف الآخر نفسه عندما يرى أنها قد حققت المراد، وعندما تهدأ الأمور يبدأ الطرف الآخر في إبرام خطة أخرى، بينما نخلد نحن للنوم، حتى تهزنا وتوقظنا حملات ومعارك أخرى يُعتدَى فيها على رموزنا ومقدساتنا، وهكذا يستمر الحال.... الآخر هو الذي يخطط للإثارة وهو الذي يوقفها، وكان بإمكاننا أن نخاطب المجتمع الغربي في وقت الهدوء بما نريد، وسيكون أكثر تقبلا لطرحنا، أما في زمن الإثارة فلن يلقي لطرحنا بالا.

وقد كان الأولى عند صياغة هذا البيان أو غيره، ومن باب الموضوعية



والإنصاف أن يتم التبرؤ مما قام به ذاك الشاب المتهور في حق أستاذه الفرنسي، باعتبار ما قام به عمل مدان ومرفوض ولا يمتُّ إلى الإسلام بصلة، ولكن هذا لم يتم التطرق إليه، لا في هذا البيان ولا في غيره، وهذا يضع علامات استفهام كثيرة وكبيرة مفادها: هل عدم ذكر ذلك إقرار بما قام به ذاك الشاب؟ وهذا مستبعد من وجهة نظري، لكن لماذا لم يتم إدانة هذا الفعل؟ وهنا بيت القصيد!

ولا أدري كيف يمكننا أن ننتصر لقضايانا ورموزنا، ونسعى للوقوف مع إخواننا الذين يعيشون بين ظهراني أولئك الذين يسيئون إلى رموزنا ومقدساتنا، ونحن بهذا التفكير قصير النظر، وبهذه البيانات التي لا يتجاوز تأثيرها بعض نخب أوطانها، ولا أدري متى يمكننا أن نستعطف الرأي العام الغربي الشعبي ليقف مع قضايانا بدل أن ينحاز إلى المتعصبين من حكامه ونخبه؟

لماذا لا تصدر بيانات تخاطب الشعب الفرنسي والغرب عامة بلغته، وأقصد بلغته أمرين: الأول : صياغة البيانات باللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو غيرها، والثاني: أن نخاطبه باللغة التي يفهمها لا التي نريد أن نفهمَه إياها، بمعنى آخر، ينبغي أن ينطلق خطابنا معهم من المشتركات الإنسانية والقيم المتفق عليها، مدعمة بالأدلة والأرقام والإحصاءات، وموضحا فيها بعض المحطات التاريخية التي استطاعت الشعوب أن تتعاون على ما فيه صالح الإنسانية، مع التأكيد على قيم الإسلام الإنسانية والعالمية الغائبة عن شعوب الغرب، وأن هناك نخبا في الغرب وظيفتها زرع بذور العداء، وأن هؤلاء يسيئون إلى بلدانهم كما يسيئون إلى المشتركات الإنسانية التي لا يختلف عليها العقلاء، ويمكن أن يبرز في البيانات بعض صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- التي تفنّد أكاذيب من يسيئون إليه، وحبذا أن يتم الاستشهاد بما كتبه كبار المفكرين والفلاسفة الغربيين في هذا الشأن.



أخيرا، أعتقد أن بإمكاننا عمل الكثير لنصرة رموزنا ومقدساتنا وقضايانا، في حال استطعنا التعاطي مع ما يدور حولنا بأفق واسع، واستفدنا من كل نقاط القوة التي نملكها، واستغلينا كل نقاط الضعف عند خصومنا، وشكلنا جبهة داخلية واحدة تخاطب الغرب خطاب صاحب القضية والمبدأ لا خطاب المتوتر المنفعل الذي يتفوه بما لا يدرك قوله ويزيد الطين بلة، ويُجيِّر من كان بالإمكان أن ينتصر لقضيتنا ليكون في مربع من يسيء إلينا وإلى ديننا.

أتمنى أن أكون قد أوضحت وجهة نظري التي أرى أنها الأكثر جدوى في هذه المرحلة، مع يقيني أن هناك رؤى أخرى قد تتفق مع ما ذكرته أنا وقد تختلف معه. والله من وراء القصد.

الجامعة... جامعةٌ لما تفرق.

فاتني متابعة الحوار (طازجا ساخنا)، ولكني قرأت أغلب فقراته فيما بعد (باردا)، ومع ذلك استمتعت بتعدد وجهات النظر، وبطبيعة ما طرح على شكل عصف ذهني، وهذا أمر يدعو للفخر، فلو لم يكن من هذا النقاش إلا أنه فتح المجال لطرح الآراء والمداخلات، وتشجيع الباحثين على طرح ما لديهم، ومقدرة المتمرسين من الأساتذة الأكاديميين على تسيير دفة الحوار في موضوع واحد، أقول إن هذا يعد في حد ذاته مكسبا وتمرينا وتدريبا لما سيتلوه من حوارات ونقاشات.

ويمكنني أن أشاركم (ولو متأخرا)، وأن تأتي متأخرا خير من ألا تأتي، بهذه النقاط، إضافة إلى ما طرح من أفكار ورؤى رائعة:

١-الجامعة مؤسسة ينشئها المجتمع في الحاضر لتتبنى إعداده وتأهيله للمستقبل، فالجامعة لا تمنح (شهادات) بل تصنع (قيادات) تقود المستقبل، وما الشهادات التي تمنحها إلا مؤشرا على كفاءة هذه القيادات كي تؤدي دورها المستقبلي على أكمل وجه، فالشهادات هنا (دليلا) وليست (بديلا).

٢-الجامعة هي المحضن الذي تصنع فيه (النخب) بكل أطيافها السياسية والثقافية والفكرية والإعلامية والتخصصية، بمعنى آخر، يمكن اعتبار الجامعة هي من يتولى إنضاج العقول التي ستمسك بزمام الأمور مستقبلا.

٣-إن الحقيقة الناصعة تشير إلى إن التربية السياسية المستمرة، التي نتولى مسؤوليتها بدرجة أولى الجامعة، تظل إحدى الضمانات التي يمكن من خلالها تحقيق الضبط السلوكي لكل من يتعاطى السياسة حاضرا ومستقبلا، قائدا كان أو مواطنا عاديا،



وهذه هي الوظيفة التي تقوم بها المدرسة والجامعة بطريقة مباشرة وبقية المؤسسات الاجتماعية بطريقة غير مباشرة.

٤-لقد عبر الدكتور محمد الطالبي بأسلوب نقدي بارع -نتفق معه فيه-عن إخفاقات السياسة في محيطنا العربي الإسلامي فقال: (إن إخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم، إنما هو إلى حد بعيد إخفاق الجامعة قبل كل شيء). ونحن نمد ما قال لنجعله يشمل ما قبل الجامعة وما بعدها وما يصاحبها وما يؤثر فيها.

٥- إذا كان أعضاء هيئة التدريس في الجامعات هم رأس الحربة في توجيه مسار الجامعات، فإن الجامعة هي بالدرجة الأولى نتاج المحيط والمجتمع الذي تقام فيه، فهي تتأثر بالمجتمع الذي أنشأها، ولكن وظيفتها لا تقتصر على أن تبقى (متأثرة)، بل وظيفتها الأساس هي أن تصبح (مؤثرة)، وهذا الدور منوط بالدرجة الأولى بالقيادات الأكاديمية بشتى مسمياتها ودرجاتها، وعليهم يقع العبء الكبير في توجيه وقيادة المستقبل من خلال الدور الذي يقومون به لتشكيل عقول وضمائر قادة المستقبل، وأي تقصير سينعكس سلبا على مستقبل المجتمع، الذي لم تحسن الجامعة تأهيله للمستقبل من خلال إنجاز مهامها في تشكيل عقول وضمائر قادته المستقبليين.

٦-إذا كانت الجامعة توصف، ضمن ما توصف به، أنها (قاطرة النهوض الحضاري) في المجتمع الذي ينشد هذا النهوض، وفق تعبير البروفيسور سعيد إسماعيل علي لها، فهل سمعنا عن « عبيد» قادوا نهوضا وتقدما؟ إن العبيد يستطيعون أن يرفعوا كتلة ضخمة من الحديد، لكنهم لا يستطيعون أن يبتكروا منها أشكالا تسد احتياجات مختلفة.

وإذا كانت الجامعة بمثابة (العقل العام للمجتمع)، فهل يمكن لهذا المجتمع أن يتحرك إلى الأمام وعقله مكبل بالعوائق والقيود، وتلوح أمام ناظريه، حتى في الأفق البعيد، مشانق ترهيب، وأسلحة اغتيال مادية ومعنوية.

التربية اكتشاف لا اكتساب... (١)

زار شاب نحيف مكتئب محللا نفسيا، وشكا له عن كابوس يراوده في منامه باستمرار، وقال له: أرى في منامي كل ليلة لوحة منصوبة على باب، فأقوم بالضغط على الباب ودفعه بغرض فتحه، ولكني لا أقوى على فتحه! تساءل الطبيب باندهاش: وماذا كتب على تلك اللوحة؟ قال الشاب: كتب عليها (اسحب). فقال الطبيب: وأنت تضغط على الباب وتدفعه طوال حياتك، وقد كتب على اللوحة اسحب؟ فقال الشاب: نعم. فقال له الطبيب: وهل تؤمِّل أن يفتح لك الباب بهذه الطريقة، وأنت تعمل بعكس ما هو مكتوب في اللوحة؟ فقال الشاب: هذا هو الأمر الذي دعاني للمجيء إليك طالبا لمشورتك!

دعونا نستعير هذا المفهوم الذي أشارت إليه قصة هذا الشاب مع طبيبه، وننقله إلى ميدان التربية، ونتساءل بين يدي هذا المفهوم: هل المطلوب من التربية أن (تُكسِب) التلميذ ما تريده منه، أم (تكتشفه) فيه؟ وعلى ضوء الإجابة التي سنختار ستتحدد طبيعة التربية التي نسعى إليها، فإن اخترنا طريقة (الإكساب)، فقد تطابق حالنا مع الشاب الذي كان يضغط على الباب ويدفعه بغرض فتحه والمطلوب منه عكس ذلك، وإن اخترنا (الاكتشاف)، فقد اخترنا الطريقة المناسبة لفتح الباب، كما في قصة الشاب وهي (السحب) وليس (الدفع).

ولنضرب لذلك مثلا، فالدين والالتزام به أمر فطري أودعه الله سبحانه وتعالى في باطن الإنسان. ويكفي توفر الظروف البيئية والعوامل التربوية المناسبة لتفعيله، قال تعالى: (فطرة الله التي فطر الناس عليها)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يولد المولود على الفطرة.....)، فالتربية الدينية هي سحب واستخراج (اكتشاف) مكنون

فطري، لا النقل والإضافة من الخارج، إلا لغرض المساعدة في عملية الاكتشاف، وقل مثل ذلك عن باقي المبادئ والقيم التي نسعى لتوفرها فيمن نربيهم.

والدافع الديني عملية اكتشافية لا اكتسابية، ففي الاكتساب ينتقل المنتوج من الخارج إلى الباطن، أما في الاكتشاف والشهود أو التلقي المفاجئ فإنه يتعين استخراج مكنون باطني ما. ولهذا السبب نفسه يحدد معنى أحد مواد لفظة (Educa-tion) بأنه (Educate) أي الاستخراج لا النقل، وفق تأكيد الدكتور عبد العظيم كريمي.

وللفظة التعليم معنيان اثنان كلاهما جميل. أحدهما معروف جدا رغم كونه غير معمول به أبدا وهو (استخراج شيء ما من الإنسان). بمعنى أن التعليم هو عملية استخراج ما يستبطنه الإنسان بداخله، استخراج ما في طور الكمون إلى طور الفعل، كاستخراج الماء من البئر.

ولكن هذا ما لا ينجز عمليا، بل خلافا لذلك يتم سكب أنواع شتى من المعارف والمعلومات إلى داخل ذهن الطالب، ولا يستخرجون من داخله أي شيء، إلا بعضا من المحفوظات التي يتم سحبها من ذهن الطالب عندما يتقدم للامتحان.

إن أمثل النصائح التي يمكن أن يقدمها الأب أو الأم للابن، ويقدمها المعلم للطالب، ويقدمها العالم للمتعلم، هي غير المرئية منها، نصائح لا تكون نصائح بل أسلوبا لإذكاء الناصح الباطني، حيث ينعدم جميع أنواع التحامل والإيحاء الخارجي.

وكما يقال، كان للإنسان القديم (٢١ حاسة) مختلفة، ولكنها صارت حاليا تقتصر على (٦ ـ ٧ حواس)، تحددت وتقلصت قابلياتها، حيث أن تقدم الوسائل



المساعدة الخارجية يمنع تطور الحواس الباطنية المتنامية وتعزيزها، وفي الحقيقة، يمكن القول إن تقدم علم ومعرفة الإنسان، كلما زاد بها الإنسان كمالا من الخارج، كلما أتى عليه بنفس القدر الخواء والضعف في الباطن.

ملاحظة: الموضوع مطروح للنقاش والإثراء، وليس الغرض الأساسي منه إثبات أن التربية عملية اكتشاف وليست عملية اكتساب، إلا بقدر ما يتوفر بين يدي ذلك من دلائل وبراهين تجعل ذلك واقعا بالفعل.

التربية اكتشاف لا اكتساب... (٢)

سعدت كثيرا بمداخلة بعض الأعضاء، وما أشرت إليه في فرضيتي التي ارتكزت عليها في مقالي السابق، والتي حاولت من خلالها أن ألفت النظر إلى أمر ذي بال يجب أن يتم تسليط الضوء عليه، وهو الجانب الداخلي أو (الجواني) حسب قول بعض التربويين، وضرورة تفعيله في الإنسان.

بمعنى آخر، لن يكون لما نظنه عملية اكتساب أي مردود جوهري في حياة الإنسان، إذا تم إغفال الاكتشاف للجانب الجواني في الإنسان ليستفيد من عملية الاكتساب، وإلا فسينطبق على عملية الاكتساب هذه قوله تعالى: (لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل)، وهذه الحواس المذكورة هي منافذ الاكتساب كما لا يخفى على ذي لب، ولكنها أصحبت غير ذات جدوى، قال تعالى: (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور).

أمر آخر جدير بالملاحظة، وهو أني لا أستبعد عملية الاكتساب، ولكني أشير إلى الأرضية التي يمكن أن يؤسس عليها هذا الاكتساب، والتربة الخصبة التي ينمو فيها هذا الاكتساب ويثمر، وهذا ما يتلمَّسه المربون العظام وعلى رأسهم قائد العظماء صلوات ربي وسلامه عليه عندما كانوا يربون أجيالهم، وهذا يحتاج إلى اكتشاف، حتى نبني على أرض صلبة، ونزرع في تربة خصبة.

حتى مسألة التغيير مرتبطة أكثر بالجانب الجواني في الإنسان، قال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)، والآية تشير إلى مركزية ومحورية التغيير في حياة الإنسان والمجتمع، وأن هذا التغيير مرتكز على الداخل، ولا يرتبط هذا الأمر



بعمر معين، فكما يمكن حدوثه من الإنسان البالغ (فردا أو جماعة)، يمكننا أيضا أن نستكشف أسسه في صغار الأجيال فنسعى إلى تهيئة الظروف لحدوثه مبكرا.

إن عملية الإكساب التي تتم في مجال التربية والتعليم الآن في غياب عملية الاكتشاف لمكنونات الإنسان وما فطره الله عليه، هي أقرب إلى أن تكون عملية حشو وتكديس وأرشفة لمعارف قد توجد لنا علماء ولكن بدون وازع داخلي (ضمير)، وما الفتاوى المتتابعة عنا ببعيد، كما توجد لنا ساسة وزعماء ومثقفين ومفكرين، يملكون ألسنة فصيحة ولديهم من الدهاء الشيء الكثير، ولكنهم بلا ضمير حي يعرفون به كيف يرفعون شأن أمتهم.

أظن أنني قد أطلت في المداخلة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الأمر يتطلب تفصيلا أكثر، ولا أدعي أنني قد أعطيت الأمر حقه، وطرحت كل ما يمكن أن يكون برهانا ساطعا في هذا الإطار، بل أقول إن هذه وجهة نظري فيما يتعلق بهذا الأمر، قد يحالفها الصواب والقبول، وقد يجانبها، مع ثقتي أن الأدلة التي أوردها بعض الأعضاء هي حجة في هذا الباب، ولكني نظرت إلى الأمر من زاوية أخرى، واسأل الله أن تكون هذه الزاوية التي نظرت منها صائبة، وأن يبصرني بالصواب إن كانت خاطئة. والله أعلم

السير (الآمن) في التربية والتعليم.... سيرٌ (مع) التيار

حالة الرتابة والخضوع للمسلمات المطروحة تصيب الإنسان بحالة من (الترهْل) العلمي، وتحوِّل الإنسان (الذي ينبغي أن يكون باحثا)، تحوله إلى جُرْمٍ صغير يدور في فلك الكواكب الضخمة ذات (الجاذبية) الهائلة، وعند ذلك لا يستطيع هذا الإنسان تغيير مساره، لأن قوة الجذب، كما قال تعالى: (وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)، تجعله عاجزا عن النظر إلى ما وراء المسار الذي حُدِدَ له، أو محاولة الفكاك منه.

نعم، هناك سير (مع التيار)، بل وهناك زحام شديد على هذا المسار، وهناك من يحاول توسيعه، ووضع استراحات على جانبيه، لأن هذا المسار يحمل السائر فيه بسهولة، ويجد السائر فيه رفاق كثيرون، يشاركونه نفس الطريق، كما يجد نوعا من الرضا والتشجيع، الذي يشير إلى أن هذا الإنسان قد تم ترويضه وتكييفه مع المجتمع الذي يعيش فيه، وصار بنفس لون مجتمعه، وهو مسار لا يفكر فيه الإنسان مستقلا (مثنى وفرادى)، بل يحكمه في ذلك العقل الجمعي، الذي سيوصله في نهاية المطاف إلى الضواحي والهوامش، على أطراف مدينة العلم والبحث العلمي.

أما السير عكس التيار، فهو سير صعب وله ضريبته، ويحتاج إلى جهد وطاقة، والسائرون فيه قلة، وينظر إليهم، من قِبَل من يسيرون (مع التيار) نظرة المشفق وأحيانا نظرة المستهجن، كما أن السائرون في هذا المسار نادرا ما يصل بعضهم إلى المنبع، الذي يعتبر محطة الوصول لمن يسير عكس التيار.

كما لا أخفي القارئ الكريم، أن السير (عكس التيار)، أصبح تهمة في كثير من المجالات وعلى رأس ذلك المجال العلمي، رغم علم الكثيرين أن الاكتشافات

والاختراعات والأبحاث الفارقة في حياة البشرية لم تكن من حظ من يسيرون (مع التيار)، بل على العكس من ذلك، مع من تجاوزوا بعض المسلمات والنظريات وشبه الحقائق، وساروا عكس تيار عريض يحب السير والاسترخاء في منطقة الراحة.

أقول هذا الكلام وأنا أتابع مسيرة التعليم المحزنة والمخيبة للآمال في وطننا خاصة وفي العالم العربي والإسلامي بشكل عام، على مدى عشرات إن لم تكن مئات السنين، ولم نتوقف - كما لم يتوقف من قبلنا إلا ما ندر - لنسأل أنفسنا: هل نحن في الطريق الصحيح الذي يوصلنا إلى المنبع، وهل طريقة التربية والتعليم التي نسير عليها سليمة؟ وإذا كانت كذلك فلماذا لا زالت ثمارها مرَّة بكل ما تعنيه الكلمة؟

وهذا يذكرني بمثل قرأته قبل سنوات، خلاصته، أن مزارعا شكا لأصحابه مرارة الثمار التي تنتجها إحدى أشجاره، وطلب منهم المشورة فيما يمكن أن يقوم به حيالها، فأشاروا عليه بتغيير الماء الذي يسقيها به، ففعل، ولكن الثمار جاءت مُرّة، فأشاروا عليه بتغيير التربة التي غرس فيها الشجرة، ففعل، ولكن الثمار جاءت كذلك مُرّة، وهكذا كانوا يقدمون له المشورة، فيعمل بها، ولكن الثمار في كل مرة كانت مُرّة، عندها سألوه عن نوع هذه الشجرة، فأخبرهم أنها شجرة (حنظل)، عندها أدركوا أن كل جهودهم قد باءت بالفشل، وأن أي جهد أو مشورة تقدم في مثل هذا السياق ليست مجدية، لأن طبيعة الحنظل أن تكون ثماره مُرّة، والحال نفسه في التربية والتعليم العربي الإسلامي، هناك شجرة حنظل مدت جذورها وترسخت، وتعملقت أغصانها وبسقت، وجميعنا، نشبه مستشاري الفلاح الذي ذكرناه آنفا، كل يوم نقدم مقترحا أو تصورا أو خطة، ولم يجرؤ أحد منا أن يقول أن البنية والطريقة التي يسير عليها التعليم (حنظلية)، والنتيجة أن ثمارها ستكون بالتأكيد مُرّة، يمكن أن نراها ونسمعها ونتذوقها ونحس بها في شكل صراعات وحروب وتآمرات وعبث وفوضى وضياع وتبعية وسفاهة



واستعباد واستبداد وغرور وكبر ووو.........

التربية والتعليم تمثل روح المجتمع، ولا بد من إيقاظ هذه الروح إذا أردنا أن نحيي التربية والتعليم، فعندما نجري عملية جراحية للجسم نقوم بتخديره حتى تتم العملية بنجاح، ولكن إجراء عملية لروح المجتمع لا تتطلب تخديره قبل العملية بل تتطلب إيقاظه، إذا أردنا لهذه العملية أن تتم بنجاح، وهذا ما ينبغي أن نواصل جهدنا فيه.

هل نحن راضون عن التربية والتعليم ومخرجاتها التي نلاحظها بكل وضوح؟ سيجيب الجميع وربما بلا استثناء، أننا لسنا راضين لا عن العملية التربوية والتعليمية ولا عن نتائجها، ومع هذا نجد أننا وبدون استثناء، نسعى لتثبيتها وترسيخها، ومحاولة إدخال بعض التحسينات والترقيعات والتعديلات عليها هنا وهناك، في محاولة بائسة لإصلاح ما أفسد الدهر، رغم علمنا أن البناء متهالك وآيل للسقوط، وأن الشجرة التي نحاول سقيها شجرة حنظل، ومع ذلك نتسابق على سقيها وتغيير مائها وتقليم بعض فروعها، ونزع ما نظن أنه حشائش ضارة بشجرتنا(الحنظلية)، التي نؤمل أن نجني منها فاكهة وأبا.

ماذا نعمل؟ هل نهدم البناء ونعيد تأسيسه على قواعد راسخة؟ وهل نحن مطالبون بقلع شجرة الحنظل واستبدالها بشجرة فاكهة مثمرة حلوة المذاق؟

سأقول لكم (لا أدري!) فدون ذلك خرط القتاد، وفوق هذا وذاك هناك تراكمات قرون أصبح الخروج من تحت وطأتها - عند البعض - من المستحيلات، حتى وأنا أسطر هذه الكلمات أشعر بكمية وحجم الضغوط التي تعتمل في ذهني، وتنثال عليّ الأسئلة التي تقف حائلا بيني وبين إكمال هذه الهموم، فما بالك بالسير في طريق لاحب أعجز السابق واللاحق، ولكنه ليس مستحيلا أمام من يسعون للخروج من هذا النفق



المظلم، ومن يقرأ عن التجارب الناجحة في التربية والتعليم، يجد أنها تجارب أخذت لبَّ ماضيها، ثم انثنت تعمل بكل جد وإصرار في تغيير بنية التربية والتعليم لديها، بطريقة إبداعية فيها جرأة وشجاعة.

وفي نهاية هذه الهموم، وحتى لا يذهب التفكير ببعض الأحبة بعيدا، يمكنني أن أقول: إن لدينا في الإطار العربي الإسلامي من الأرضية الواسعة والتربة الخصبة ما يمكننا من أن نبني ونغرس، بناء (أسس بنيانه على تقوى من الله)، وغرسا لأشجار (أصلها ثابت وفرعها في السماء)، وهو عمل لا يتوقف على جهد شخص أو عدة أشخاص، بل هو كنز (مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ). والله أعلم

النجاح السهل... فكرة تربوية خاطئة

أغلب أنظمة التعليم تعزز الإحساس الكاذب بسهولة النجاح، وأنه ليس أمام الطالب سوى بعض الصعوبات البسيطة ليصل إلى قمة النجاح، وتغذّي ذلك بعض برامج التنمية البشرية التي تقرِّب أحلام النجاح والتفوق والتميز والثروة من الإنسان، حتى تصبح وكأنها في متناول يده، ولكن هذا نوع من السراب والخداع يقدمه هؤلاء لمن يوجهونهم، كما يتم ذلك عن طريق الطرح المتواصل لقصص النجاح والناجحين، دون أن يتم الإشارة (إلا نادرا) إلى المعاناة والصعوبات والعقبات التي عاناها هذا الإنسان الناجح أو المتميز.

ومثل هذا التعليم والتوجيه يخرِّج جيلا غير قادر على الابتكار، أو التعامل مع الواقع وتعقيداته، فيصاب الطلاب بعد مواجهتهم لصعوبات الحياة بالصدمة، وأحياناً تكون ردة الفعل النفسية لهذا الطالب أو ذاك محزنة ومؤسفة، ولعل قصص الفشل والتعثر الكثيرة التي نلمسها لدى كثير من شبابنا هي نتاج مثل هذا الطرح والتوجيه.

وأنا هنا لا أدعو إلى جعل سلم النجاح مستحيل الصعود، بل علينا أن نكون صادقين مع من نعلمهم ونربيهم ونوجههم، وأن نخبرهم بكل صدق وأمانة ومسؤولية أن هناك ضريبة واجبة الدفع، كي يصل الإنسان إلى النجاح المنشود، وليس الأمر نزهة أو فسحة، أو بعض مهارات يتقنها الشخص، ثم تنفتح أمامه أبواب النجاح على مصراعيها، وليُذَكَّر هذا الشاب بقول الشاعر:

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا.

إن عدم غرس فضيلة الاجتهاد والإصرار، ومغالبة رغبات النفس، وتقبل الخسارة وأحيانا الفشل مرة بعد أخرى، واعتبارها (أي مرات الخسارة والفشل) ضمن الرصيد الذي نصعد عليه في سلم النجاح، عندها سنكون قد جنينا على من نعلمهم ونربيهم ونوجههم، وسيكون نتاج ذلك شخصيات (هشة) ومجتمعات (رخوة)، تنكسر وتتراجع عند أول عقبة أو صعوبة في ميدان الحياة.

الشخصيات المشرقة المتميزة، هي شخصيات كانت لها بدايات محرقة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، والسهولة ليست (مدرسة) لصناعة النجاح، بل ما يصنع النجاح ويبرز الناجحين هي (أكاديمية) الصعوبة والتحدي.

ومن باب الأمانة العلمية، ينبغي علينا عندما نروي لمن نربيهم قصص الناجحين، أن نركّز على طبيعة الجهد والكفاح والمصابرة والإصرار التي أوصلت هؤلاء الناجحين إلى قمة النجاح، وأن النجاح كان بالنسبة لهم تحصيل حاصل لما بذلوه في سبيل الحصول عليه، كما ينبغي أن يغرس في أذهانهم أن المعاناة والكبد والكدح سنة من السنن الربانية التي تتعلق بالإنسان كإنسان، (لقد خلقنا الإنسان في كبد)، (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه).

ولعل ما جاشت به نفس الإمام الزمخشري صاحب الكشاف من أبيات شعرية يصبّ في هذا الاتجاه، حيث يقول:

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي   من وصل غانية وطيب عنـاقِ

وصرير أقلامي على صفحاتها   أحلى من الدوكاء للعشاقِ

وألذّ من نقر الفتاة لدفها   نقري لألقي الرمل عن أوراقي

وتمايلي طربـا لحل عويصة   في الدرس أشهى من مدامة ساقِ

يا من يحـاول بالأمـاني رتبتي   كـم بين مستفِلٍ وآخـر راقي

أأبيت سهران الدجى وتبيتـه   نومـا وتبغي بعد ذاك لحاقي

فيا أيها المعلمون والمربون والموجهون والقادة، ضعوا الأمور في نصابها، وتحملوا مسؤولية صناعة من يعانقون النجاح عن جدارة واستحقاق، وبهذا تكونون قد أبرأتم ذمتكم وأحسنتم النصح لمن تخرجوا على أيديكم، ولن يصنع نجاح الآخرين من لا يتقن فنون النجاح، ولا يعرف صعوبات درجات سلمه.

الإقدام والإحجام .... وبينهما أمور مشتبهات.

الوضع السياسي معقَّد ومتشابك، والسير فيه كالسير في حقل ألغام، كلما ففكت لغما خشيت أن تقع في لغم آخر، هذا في الأوضاع العادية، فما بالك في وضعنا الحالي، ومع ذلك هناك أمور (حلالها بين وحرامها بين)، وهناك أمور متشابهات بين هذا وذاك، وهذه هي التي يكون فيها الامتحان والابتلاء غالبا، ولهذا يجب أن نبحث عن (المنطق) في اتباع كل أسلوب أو طريقة، أو اتخاذ أي قرار أو موقف، من خلال دراسة الظروف المحيطة بالأسلوب أو القرار أو الموقف أو الطريقة، مكانا، وزمانا، وظروفا محلية وإقليمية ودولية.

وقد أثبتت التجارب أن القرار المناسب يحتاج إلى حساب دقيق للمعطيات، وهو لهذا يحمل سمة أصيلة في كل مرة لا سمة نمطية وثابتة: رفضا أو قبولا، تشددا أو مناورة، أو طرحا لبدائل مقابلة، فإذا كان من غير الممكن أن تكون ثمة (وصفة جاهزة) تصلح لكل حالة، فإن ما يجب أن يدرك هو خطورة القرار، أو خطورة إدارة الصراع السياسي أو العسكري في هذه المرحلة، لأن ذلك يمكن أن يقرر كل شيء بالنسبة للمستقبل القريب، فالقرار الصائب وبمختلف تجلياته، يقود دائما إلى النصر، بعد حين، أما القرار الخاطئ وبمختلف تجلياته، فإنه يقود إلى ضياع المكاسب والانتقال إلى طريق الهزيمة.

والمنهجية في التعاطي هنا تحتاج إلى (ثوابت مبدئية وهدف لا حياد عنه)، كما تحتاج إلى (تقدير دقيق للوضع) وما يتطلب من سياسات وتجديد، ومن ثم الوصول إلى اتخاذ القرار الصائب بالنسبة إلى كل حالة بظروفها ومكانها وزمانها، فلا تظل تدور في النقاش حول جواز التحالف أو التعاون، أو الاستعانة بغير المسلم أو عدم جوازها،

فالجواز وعدم الجواز أو الإقبال أو عدم الإقبال على هذه الخطوة أو تلك، يجب أن ترتبط بتقدير الوضع وما نتوخى من الوصول إليه. والأهم إجراء حساب دقيق لما يمكن أن يترتب على كل موقف فعليا على الأرض بغض النظر عن النيات وما نتوخى.

والعمل السياسي لا يستطيع أن يحصر نفسه بأسلوب للعمل بعينه، يجعله صالحا لكل زمان ومكان وظروف، لأنه إذا أخطأ في الخيار فشل في تحقيق الهدف، وربما أسهم في زيادة سوء الأوضاع، بسبب ما يمكن أن يترتب من نتائج على صراع لم يخض بالأسلوب الناجع، ولم يقد قيادة دقيقة صحيحة. والذي يقرر نجاح أسلوبك في العمل السياسي أو التغييري ليس فشل أسلوب الآخر، وإنما عليك أن تنجح في الامتحان من خلال صوابية أسلوبك وعملك وقولك، ومن خلال إجابات صحيحة تقدمها عن الأسئلة المطروحة، والتحديات القائمة، حسب توصيف المفكر منير شفيق.

ومن البديهي القول إن انتهاء المحاولة، بصورة مشرفة، خير من بقائها على تلك الصورة، وهذا ما يفرض أن ينمي الوعي والاستعداد للتخلي عن السلطة أو فقدانها، أو خسارة مكاسب معينة، في وضع قانوني، أو مكاسب شعبية، إذا لم يكن الاستمساك بالسلطة والمحافظة على المكاسب، مقرونا بتطبيق المثال الإسلامي أو الاقتراب منه.

وعندما لا يكون رفع أعمدة البناء وجدرانه وسقوفه ممكنا، فلتؤسس القواعد وترفع المعالم على أساس متين وإشعاعي. وبكلمة، إن المثال الإسلامي والقدوة الإسلامية، يمكن أن يحضرا أو يهجرا أمام كل حالة، مهما كان نوعها (سواء في حالة التمكين أو في حالة الاستضعاف)، ويبقى السؤال أين خيارك في كل حالة لا سيما وأنت تحمل جزءا من مشروع التغيير ونهضة الأمة، وهذا ما على الإخوة في المغرب وغيرها من بلاد المسلمين، أن يولوه جل اهتمامهم، فلا يتمسكوا حيث يجب الترك، ولا



يتركوا حيث يتطلب الإمساك، ولا يصمتوا حين يتطلب الأمر الصدع، ولا يكلفوا أنفسهم عناء الكلام إن كان الأمر يتطلب الصمت، ورغم كونهم أهل مكة وأدرى بشعابها، إلا أنه في بعض الأحيان تكون نظرة المراقب من الخارج أثقب وأدق وأكثر صوابية، فالقرب في كثير من الأحيان حجاب. والله يتولانا وإياهم بلطفه.



الجماهير... أول المتهمين وآخر المستفيدين.

كثيرا ما يردد البعض مع الشاعر عمر أبو ريشة أبياته التي يعاتب فيها الشعب ويحمّله المسؤولية، والتي يقول فيها:

يا شعب لا تشك الشقاء ولا تطل فيه نواحك

لو لم تكن بيديك مجروحا لضمدنا جراحك

أنت انتقيت رجال أمرك وارتقبت بهم صلاحك

فإذا بهم يرخون فوق خسيس دنياهم وشاحك

كم مرة خفروا عهودك واستقوا برضاك راحك

أيسيل صدرك من جراحتهم وتعطيهم سلاحك

لهفي عليك أهكذا تطوي على ذل جناحك

لو لم تُبح لهواك علياءَ الحياة لما استباحك

وهناك الكثير من المثقفين والمفكرين والصحفيين والسياسيين من كل الأطياف، يقولون بذلك بل وصل الحال ببعضهم إلى درجة توجيه أصابع الاتهام للشعوب في مقابل تبرئة النُخب، ولن تعدم أن تسمع من يقول متشفيا (الشعب يستاهل)، ومن يتتبع ذلك في كثير مما كتب ويكتب عن هذا الموضوع، سيجد مفكرين وسياسيين كبارا قدامى وجدد، يميلون إلى ذلك ويصرحون به، وما كتاب طبائع الاستبداد للكواكبي إلا مثالا واحدا من بين عشرات إن لم تكن مئات الأمثلة، وتأملوا معي هذا النص الذي يتهم الشعوب صراحة بأنها السبب فيما وصلت إليه:

أما عن المظلومين فإنهم كثيرا ما يكونون ظالمي أنفسهم لقبولهم الظلم وتلذذه، إذ كثيرا ما تصنع الشعوب الجاهلة جلاديها ... تدعم فيهم الغرور والاستبداد والأنانية وذلك بالصمت الجبان والطاعة الغبية والمباركة الانتهازية، ومثل هذه الشعوب ليست أهلا للحرية، ولا يمكن أن تكون إلا مستعبدة تساق سوق القطيع، وهي تستحق ذلك فعلا، وتظل على ذلك حتى تعي ضرورة التحرر بعد أن ينهض فيها الإنسان، وهنا أذكر حديثا للرسول -صلى الله عليه وسلم- (كيفما تكونوا يول عليكم). فنحن نتقبل من الظالم بقدر استحقاقنا إياه، ونستحقه بقدر قعودنا عن فعل التحرر، ونقعد عن التحرر بقدر غياب وعينا بهويتنا الإنسانية".

هذه الفكرة ومثيلاتها، تشيع بين كثير من النخب، وعلى رأس هذه النخب الإسلاميين أنفسهم، وهي قابلة للاقتناع في ظاهرها أو تبدو من حيث الظاهر منطقية ومقنعة، ولكن التأمل فيها تأملا عميقا، وإعادتها إلى الواقع الاجتماعي والتاريخي لحالة الظالمين والمظلومين يسمحان بردها أو بنقضها. وتبدو هذه الفكرة منطقية لو قامت العلاقة بين المظلومين والظالمين على أساس وفاقي، أو ديمقراطي وكان أمام المظلومين الخيار بين العدل والظلم، واختاروا الظلم، عندها يمكن أن ينطبق عليهم القول فيكونون (ظالمي أنفسهم لقبولهم الظلم وتلذذه، إذ كثيرا ما تصنع الشعوب الجاهلة جلاديها).

ولكننا نجد مفكرا عربيا أصيلا، وهو المفكر الفلسطيني منير شفيق، حاول أن يتناول موضوع الجماهير من زاوية مختلفة عما هو سائد ومتعارف عليه بين كثيرين، فالجماهير التي ينظر إليها البعض نظرة دونية، فيسميها (الدهماء، العامة، الرعاع، الهمج)، ثم يطالبها بأن تثور أو تنتفض، وينكر عليها أنها لم تستجب لندائه، رغم أن النُخب ليست على حال أفضل من عامة الناس، بل بعضها (أي النخب) راح يتردّى في نفاق السلطة وطلب الجاه والثروة والسطوة والشهرة، بل راح يتردّى في الاستمساك بوظيفة



في الدولة أو الجامعة، يستحي العامي أن يقف هذا الموقف. هذه الجماهير هي التي بيدها عجلة التغيير، ولكن من يقنع النخب التي تعيش في الأبراج العاجية؟ ودعوني أنقل لكم بعض الاقتباسات من كلام المفكر منير شفيق مع بعض التصرف والتعليق.

فإذا كانت أكثر البلاد الإسلامية تئن من ظلم وطغيان وفساد، أو من احتلال ومهانة وذل، وإذا كانت تتعرض للأخطار الداهمة، أو كانت حقوقها مهدورة، ومصالحها مغبونة، وثرواتها منهوبة، وأراضيها مستباحة، فالجماهير هي محط كل ذلك، وجعا وألما وضررا، ومن ثم هي الأولى باستشعار مصاعب البلاد وكوارثها، وهي الأولى بالحث على التغيير والخلاص، ولكن ذلك يعبر عن نفسه، في الغالب، بأشكال معقدة، وأحيانا، غير واضحة، وبطرق غير مباشرة، وقد تختار أغلبية الناس السكوت والركود والخضوع حين ترى عدوها قويا متماسكا بطاشا، ولا تعمل على مقاومته بمواجهات مكشوفة.

ولعل في ذلك حكمة التجربة التاريخية حين تعلمت الجماهير ألا تدخل في المعارك الخاسرة، لأنها تعني أنهارا من الدماء بلا فائدة. ولهذا ترى بحنكتها وبصيرتها أن تنحني أمام العاصفة كما تفعل أشجار الغابة حين يكون في انحنائها تجنبا للاقتلاع، والتحطيم والتكسر. ولكن ذلك لن يطول حتى لو بدا في حياتنا، وبسبب قصر أعمارنا، طويلا وطويلا جدا، لأن العدو حين يبدأ بالانحدار في قوته وقدرته، وهذه سنة إلهية، حيث لا مفر من أن يبدأ الظلم بالتآكل، وتبدأ قدرته بالتضاؤل، ثم ما إن تبدأ الأمة تستشعر مكامن قوتها، لا سيما إذ قدر الله تعالى لها (قيادة) تثق غالبية الأمة بإيمانها وصدقها وحكمتها وحسن إدارتها للأمور وحنكتها السياسية، فعندئذ تبدأ عملية التغيير في البلد المعني، ومعه صعود المخزون التاريخي إلى السطح، ويبدأ الماء الراكد بالتحرك.

والجماهير تختزن تاريخ الأمة، وتختزن أجمل ما عرفه هذا التاريخ من صور العدل الإسلامي والمجد الإسلامي، فضمير الأمة ضمير إسلامي، وهو مشدود لله تعالى ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويحمل حنينا وتطلعا إلى عدل الخلفاء الراشدين، وإلى سيف خالد بن الوليد، وصلاح الدين، والظاهر بيبرس، والواحد من هذه الجماهير يستمع إلى القرآن فيملأ عليه مشاعره وعقله، ولكن ذلك كله ترسب في القاع، وقد تراكمت عليه عصور من الطغيان والتمزق والضلال والانحطاط، وعلت فوقه طبقات من تجارب مريرة في العصر الحديث، وقد امتزجت بفشل ثورات إسلامية كثيرة وهزائم للأمة كبيرة، وتراكم فوقها تمزيق للأمة إلى دويلات، وقد تحكم فيها الأجانب والتغريب والشرك، وزرع في جنبها سرطان خطير مدجج بالسلاح والقنابل النووية اسمه دولة (إسرائيل)، فرزحت الجماهير تحت الإفساد والسياط والرصاص. ولهذا لا يتوقعن أحد، من كان، أن يطلق الصرخة فإذا بالجماهير تهب هبة رجل واحد لتصبح طوع بنانه. فالمسألة أشد تعقيدا، وتحتاج إلى صبر وأناة وطول نفس، هذا إذا توفرت (نظرية العمل) المناسبة وما ينجم عنها من أساليب جهاد وكفاح وشعارات (استراتيجية وتكتيك) سديدة.

إن الجماهير المسلمة قد تعلمت بعفوية شفافة، ومن تاريخ طويل، أن كل صراع ناجح ضد عدوها يحتاج، بعد الاعتماد على الله والاتكال عليه، إلى أن يكون حال العدو قد بدأ بالتزعزع والانحدار والتضعضع والانهيار بينما يكون حال القوة الناهضة والجماهير عموما قد بدأت بالتماسك والصعود. ولعل العين المؤمنة البصيرة سترى علائم لذلك عبر جزئيات كثيرة كأنها رسائل توحي بضعف العدو وتزعزعه، وفي المقابل توحي بسير (النواة المجاهدة) والشعب على طريق التوفيق والقوة.

علينا حين نرى الظلم مستشريا ألا نصبَّ جام غضبنا على الجماهير فنظلمها



ونجلدها، ونحن بدورنا نتهمها بالجهل والجبن والتقاعس والتلذذ بالمظلومية، ونحملها مسؤولية وجود الظلم، كأنها هي التي جاءت به، أو كأنها اختارته اختيارا، وذلك بدلا من أن نقدّر ظروفها، ونتفهم وضعها، حتى حين تكون ضحية أجهزة الإعلام الخبيثة، وذلك بدلا من أن نتحلى بالصبر الجميل ونحن نرقب تشكل شروط التغيير ونسهم بإنضاج بعضها، كما ينبغي لنا أن ننفذ ببصيرتنا إلى ما تحت السطح لنرى آلاف حالات الاحتجاج الصغيرة التي تعبر بها الجماهير عن احتجاجها بأشكال مختلفة، وهي تتعرض إلى ظلم الظالمين، فعلى سبيل المثال علينا ألا نتوقع من إنسان عادي يظلمه موظف أو شرطي وهو يؤدي معاملة بسيطة أن ينقض على المعنيِّ انقضاض النمر، احتجاجا على الظلم وثورة عليه، فهو يعلم أنه لو فعل ذلك سيقع عليه وعلى أهله ظلم أكبر، ولا يكون قد صحح وضعا أو رفع ظلما، لهذا تراه يحاول الاحتجاج ضمن (سقف معين)، ثم تراه (يتمتم) أو (يدمدم)، بينه وبين نفسه محتجا على الظلم والظالمين، فهذه الشذرات المتناثرة التي لا ترى على السطح الراكد قد تتحول في الأعماق إلى حالة انفجارية جماعية في يوم موعود، وقد عبّر عن ذلك المعنى الشهيد الزبيري ببيت شعري يكتب بماء الذهب، فقال:

إن الأنين الذي كنا نردده سرا

غدا صيحة تصغي لها الأمم

إن تقدير ظروف المظلومين وتفهم مواقفهم ومعالجة التحريض في صفوفهم، ببصر وأناة وذكاء، هو الموقف الأصح والأنسب، فالاحترام للجماهير المسلمة والثقة بها، وقد خيم عليها الظلم حينا من الدهر، هو القرار السديد، بدلا من احتقارها أو جلدها بالتأنيب والتوبيخ، ويشكل ذلك شرطا هاما من شروط الصمود بالنسبة إلى العالِم



والمجاهد في مقارعة الظلم. فإن كان السلاح الأول في ذلك هو الإيمان بالله تبارك وتعالى والثقة به، فالسلاح الثاني هو احترام الجماهير المسلمة المظلومة والثقة بشجاعتها الكامنة، وبذكائها وحسن تقديرها للأمور وإمكاناتها في امتلاك الوعي والخبرة في النضال، والثقة بقوة الفطرة فيها، وبما تحمله في أعماقها من مخزون إسلامي في إحقاق الحق وإقامة العدل ورفض الظلم والظالمين ونبذ الفاسقين والمنافقين.

وإرادة الله تعالى ومشيئته حين سترضيان عن الأمة ستحدثان التغيير من خلال الجماهير وتحركها، فهذه الجماهير تدعو الله في أعماقها أن يبدل حالها وينقذها، والله تعالى مستجيب الدعوات، أي لا ينبغي لأحد أن يتوهم أن الدعاء لله لا يصعد إلا منه ومن النخبة المجاهدة، فينسى تضرعات الملايين ورجائها، ومن ثم يجب أن ترفض النظرة الاحتقارية إلى الأمة باعتبارها نظرة سطحية لا ترى ما وراء الظاهر وتحت السطح، ولا تدرك كوامن القوة المختزنة في الأعماق. فما دام الإسلام وتاريخه هو ذلك المخزون فهذا يعني قوة لا محدودة حين تنفض الأمة ما علاها من ركام فتتحرك لنصرة قضاياها وانتزاع حقها، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

عندما يوهمك عدوك بأنه برئ وأنك أنت السبب!

وصلتني ردود كثيرة على مقالي الأخير الذي كان عنوانه (تساؤل مشروع)، وحرصا مني على إثراء هذا الموضوع وزيادة في توسيع الرؤية حوله، أحببت أن تكون لي مشاركة تتعدى أن تكون مجرد تساؤل، إلى كونها رؤية تستحق من كل المهتمين والمهمومين بقضايا الأمة الحوار والنقاش حولها.

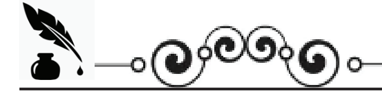
وبداية، يمكن أن نسأل هنا لماذا لم تستطع كل محاولات التغيير والنهضة في العالمين العربي والإسلامي على اختلافها: إسلامية وقومية وقُطرية أن تحقق أهدافها؟ ولماذا لم تستطع المشاريع المتعددة التي حاولت التغيير في العقل والفكر والنفس فضلا عن مشاريع الإصلاح والتطوير الاقتصادي والعلمي والتعليمي أن تحقق الأهداف المرجوة منها في نهضة الأمة؟ طبعا كان التحليل يتجه في كل مرة إلى العودة بالإشكالية إلى (نقد العقل) الذي قاد العملية أو برامجه (د. محمد عابد الجابري نموذجا)، ومن ثمَّ يكون الحل في تصحيح العقل وفي تقديم مشروع بديل. وإذا قدِّر لهذا أن يفشل كذلك، عاد التحليل يبحث الإشكالية في العقل والمشروع عموما ليقدم حلا مقابلا وهكذا.

وعلى أن كل ذلك، ومهما حمل من الصواب، فيما يتعلق بنقد هذا العقل، أو ذاك، أو هذا الفكر أو ذاك، أو هذا المشروع أو ذاك، فإن السؤال سيظل، وما علاقة الفشل بميزان القوى العالمي الذي (تشكّل في غير مصلحتنا) بصورة بارزة، منذ مائتي عام، وما زال (يتفاقم في غير مصلحتنا)، وهو ميزان (ميزان القوى) محروس من قبل استراتيجيات وسياسات يومية لدول كبرى لا تسمح بالخروج عليه ولو جزئيا. وإذا ما حدث خروج مثل ما حدث في تجربة محمد علي باشا، أو جمال عبد الناصر، أو

صدام حسين، أو مثل ما حدث في الثورات الإسلامية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين: المهدي، عمر المختار، عبد القادر الجزائري، وعبد الكريم الخطابي، وما عايشناه مؤخرا في العقد الأخير، فيما سمي (بالربيع العربي)، ولا زالت تفاعلاته جارية حتى الآن، فقد كان الحصار والاستفراد والتدخل العسكري المباشر، وأحيانا بإجماع الدول الكبرى، هو العامل الحاسم في ضرب المحاولة مهما كان توجهها.

ولذا، فما من محاولة نهوض سقطت من تلقاء نفسها، أو داخليا، بسبب نواقصها، وإنما سقطت بالفعل الخارجي أيضا. فالتقويم يجب أن يربط سلبيات الداخل بالفعل الخارجي، وإشكاليات العقل بواقع التجزئة، والسيطرة الخارجية بما يقدم بديلا يقوى على مواجهة إشكالية التجزئة والفعل الخارجي، وعلى معالجة نقاط الضعف الناجمة على التجزئة والتبعية في الوضع عموما. ولهذا لا يصح أن تُرى الإشكالية في الذات فقط، وينسى التدخل الخارجي وأمراض الواقع المجزّأ للأمة، أي لا بد من وضع اليد على خطورة الاختلال الكبير في ميزان القوى العسكري، وعلى الظلم الدولي الصارخ من جهة، وعلى إشكاليات الواقع العربي والإسلامي نفسه، مثل التبعية والتجزئة من جهة أخرى. أي علينا أن نراه في السيطرة الخارجية أو التحكم الخارجي لإبقاء التبعية والتجزئة والتخلف والإطاحة بكل من يحاول تجاوز ذلك، بل عن العقل الذي ينقد العقل الوحدوي (الغيبي المهزوم عسكريا) وينكفئ لدعم مقولات دولة التجزئة، فإن هذا العقل لا يكون قد فعل ذلك جهلا، وغباء وإنما خضوعا للهزيمة وهروبا من مواجهة الأسباب الأكثر أهمية من خلال إبراز إشكالية العقل والفكر. إنه يفعل ذلك انحناء أمام العاصفة بعد الهزيمة العسكرية، وفق تعبير د. منير شفيق.

وهنا علينا أن نلحظ أن العقل كثيرا ما يدور حيث تدور السلطة، وتدور القوة، ويدور الإعلام المتنفِّذ، وتدور المصلحة الخاصة، أو يدور هروبا من السلطة والقوى



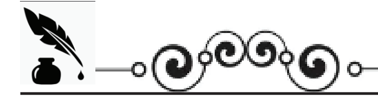
المتحكمة، وتجنبا للمواجهة، فيثير المعارك حول قضايا لا تستدعي المواجهة، ولا تثير المتاعب. فالعقل (شديد المكر) حين يهرب من إشكالية ليثير المعركة حول إشكالية أخرى دون أن يتهم بالهروب، كما وصفه د. منير شفيق، فهو يفعل ذلك عن قناعة ويستطيع أن يجد لقناعاته المسوغات. ويبدو من خلال ذلك مُصلِحا ومجدِدا ومؤسسا لعقلانية جديدة! بكلمة أخرى، ليس بالضرورة أن يدور العقل وفقا لمعايير منطقية محددة، أو بحثا مجردا موضوعيا عن الحقيقة، لأنه كائن اجتماعي يحمله إنسان محدد، له أجواؤه وأهواؤه ومصالحه ومخاوفه، ما ظهر منها وما خفي، ومن ثم يجب أن يعامل بلا قدسية بل بحذر شديد. وهذا يعطي أهمية خاصة للمرجعية الإسلامية الضابطة كما يعطي أهمية للتدقيق بما يقدم من أطروحات على ضوء تحليل الواقع وموازين القوى، وما يستخفي من مصالح وأهواء.

إن التغيير يمس حقائق ووقائع وموازين قوى، ولا ينحصر في مجال العقول والأفكار والأنفس فقط، وإذا كان هناك من نقد راشد للعقل هنا، فهو الذي يقدم عقلا ممسكا بناصية سنن التغيير، وينقد عقلا هو أسير التجزئة وأمراضها وحبيس مصالح وأهواء، أو هو في أحسن الحالات يمثل عقلا يتجنب المواجهة في كل ما يتعلق بإشكاليات موازين القوى العالمية والإقليمية والداخلية ومسارها، فالعملية هنا معقدة ومركبة ولا تقتصر على إعادة الأزمة إلى العقل أو الفكر أو ما شابه. ومن ثم يصبح مجال التغيير بحثا في السنن التي تحكم تطورات ميزان القوى العالمي الراهن حتى يمكن أن توضع استراتيجية تغييرية لموازين القوى بأهداف (قريبة ووسيطة وبعيدة)، وحتى تكون أساليب التغيير وحساباته مواجهة لما هو قائم من موازين القوى وساعية إلى إحداث التغيير فيها. وهذا ينطبق على مستوى موازين القوى العالمي والإقليمي وميزان القوى الداخلي في القطر الواحد.

بكلمة أخرى، إن مشروع التغيير يحتاج إلى فكر سليم وعقل سليم في فهم سنن التغيير بما في ذلك تقويم حجم العقل والفكر والجوانب المعنوية في التغيير، ويحتاج إلى فهم الواقع بكل معطياته على المستوى القطري والإقليمي والدولي، وما يحكمه من قوانين موازين القوى، وما يحتاج إليه من شروط من أجل النجاح في التغيير.

وعندما يوهمنا عدونا أن سبب تخلفنا وتراجعنا هي ذواتنا فقط، مع تبرئته لنفسه، ويحاول بكل ما أوتي من قوة، ومن خلال من يتماهون معه في هذا التصور، أن يرسِّخ فينا عقدة أن مشكلتنا لا تتعلق به، بل مشكلتنا تتعلق بنا نحن، فنسعى لجلد ذواتنا، ونقد عقولنا وتراثنا وقيمنا بقسوة تصل إلى حدِّ التنكر وربما النقض، وهذا بالطبع يسير في الاتجاه الذي يريده عدونا، لأنه يجعلنا نغضُّ الطرف عنه وعما يقوم به لإجهاض كل مشاريعنا، أو كبح جماح تطلعاتنا، وصار هذا العدو يرينا عيوبنا مكبرة ملايين المرات، بينما لا يرينا تدخلاته الفجَّة إلا مصغرة وفي أدنى حالاتها (يرى القشة من عيوبنا ولا يرى الجذع في تدخلاته)، وهو في هذا يشبه فرعون الذي قال لموسى عليه السلام عندما قتل شخصا واحدا (وفعلت فعلتك)، ونسي الغرب الاستعماري (أبو الفعائل) أنه فعل ولا زال يفعل ويقترف جرائم الإبادة الجماعية التي يندى لها جبين الإنسانية، ومع ذلك لا نزال نسمع من بني قومنا ودينا أن الغرب والمنظمات الدولية تسعى لإحلال السلام، وأننا من يعرقل هذه الجهود الإنسانية، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على غفلة قلَّ نظيرها، وسذاجة يضحك منها ولها العدو حتى تبدو نواجذه ويستلقي على قفاه.

ختاما، فليتنافس المتنافسون لزحزحة العقبات والمعوقات على اختلافها متذكرين أنها ليست في عقل ومن أفكار فحسب، وإنما هي أيضا، من صخور وجبال، وجمر ونار، وعقارب وأفاع، ومن حصار وأساطيل، ومن أعداء لا يمزحون، كما



وصفهم أيضا د. منير شفيق. على أن إشكالية التغيير في جوهرها هي إشكالية صراع موضوعي مادي (عسكري ـ اقتصادي ـ اجتماعي)، يعبر من خلال قوانين القوى. فالإشكالية لا تنحصر في جوهرها في مجال الأفكار والعقول فقط، وذلك على الرغم ما للفكر والعقل من دور فيها، وعلى الرغم مما يمكن أن يعطي لهما من وزن مضاعف.

توظيف النص ليس مبررا لرفضه...

قوة النص (صحيحا أو ضعيفا أو مكذوبا) تعطيه ميزة متفوقة عما سواه من الأقوال التي لا تصل إلى منزلته، ولهذا تصبح هذه النصوص مرجعا ومستندا يتم الاتكاء عليه، ومن ثم توظيفه من هذا الطرف أو ذلك، للاستفادة منه والحصول على فائدة محددة أو نفوذ معين.

والنص القرآني أو النبوي أو ما يؤثر عن العلماء السابقين، له ثقل كبير في التصور الإسلامي، ولهذا يتم الرجوع إليه بكثرة، وتحاول جميع الأطراف أن تجد فيه ما يؤيد ما تذهب إليه سواء كان النص الذي يرجع إليه (صحيح الورود صحيح الدلالة، أو ظني الدلالة كما هو الحال في القرآن)، أو يكون (صحيحا أو حسنا أو ضعيفا أو موضوعا أو مكذوبا كما في أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-)، أو ما هو متوافق مع كلام الله وكلام النبي مما جاء عن علماء الأمة.

وما يتم في هذا الشأن هو أن كل طرف يستدل لوجهة نظره واجتهاده، وقد يكون ما ذهب إليه حقا لا خلاف فيه، ولكن أحيانا تتدخل المصالح والرغبات النفسية والأهواء الذاتية في تفسير هذا النص أو ذلك بطريقة معينة، في محاولة لتوجيهه وجهة معينة (لي أعناق النصوص)، وهو ما يمكن أن نسميه عملية (توظيف للنص)، ومحاولة سحبه إلى المربع الذي يريده الراغب في توظيفه، وقد يكون النص صحيحا صريحا، ولكن الإشكال هنا ليس في النص بل في توظيفه وإخراجه عن الدلالات التي يتضمنها ويحتملها.

وهنا تقع الإشكالية، فهناك من يتمسك بهذا النص الصحيح الصريح ويرفض أي توظيف له أو تحميله ما لا يحتمل، وطرف آخر يرفض النص بحجة أن هناك من



أساء فهمه، ومن ثم أساء استخدامه ووظفه فيما لا يحتمله، وموقف الطرف الأول هو الأكثر تقديرا واحتراما للنص، كونه لم يرفض النص، ولكنه رفض توظيفه بطريقة أو بأخرى، وهو بهذا أبقى للنص مكانته ونصاعته، ورد ما تم إلصاقه بالنص أو محاولة توظيفه، أما الطرف الثاني فقد حجب غبار التوظيف والإساءة في استخدام النص رؤيتهم للنص فقرروا التخلص من النص وتفسيراته وتوظيفه، في عملية تشبه ما قيل عنه أنه (يرمي الطفل مع ماء غسيله)، وبهذا فقد خسر هؤلاء مكانة النص (وهنا نتحدث عن النص الصحيح)، ولن يعدموا مستقبلا من سيوظف نصوصا أخرى (قرآنية أو نبوية أو تراثية)، وسيضطرون وفقا لهذا المنهج أن يرفضوا هذه النصوص بحجة سوء استعمالها أو توظيفها وفق رغبات هذا الطرف أو ذاك، وربما ينطبق عليهم قول من قال: أكلما رأيت قبيحا تركت في مقابله حسنا، فذلك أسرع إلى ضياع دينك.

وبناء على ما سبق، فليس التوظيف للنص أو إساءة استخدامه مدعاة لرفضه، ولا يعتبر هذا معيارا يمكن الاستناد عليه في القبول أو الرفض لأي نص من النصوص بعد ثبوت صحته، وهناك ملمح لا بد من الإشارة إليه، وهو أن بإمكان من يوظف النص أو يسيئ استخدامه أن يستفيد استفادة كبيرة من حالة رفض النص الصحيح الصريح، ويصبح الرافض للنص محل شك وتهمة كونه قد رد نصا لا غبار عليه، وقد يعزز هذا مكانة من يوظف النص ويوهن مكانة من يرفضه، بينما من يؤمن بالنص ويرفض التوظيف له، فإنه يعرِّي من يوظفه ويسحب البساط من تحت قدميه، ولا يعطيه فرصة لاستخدام النص كما يهوى، بل هو يؤمن بالنص ويطرح مدلوله الصحيح ويرفض بالمقابل أي فهم يسيئ إليه أو يوظفه لأغراض لا يقبلها النص.



وأخيرا يمكنني القول، أن الحوار والمناقشة لأي موضوع من الموضوعات أو نص من النصوص في ضوء الرؤية الحاكمة لثوابت هذا الدين، والتثبت من النصوص (النبوية والتراثية)، والبحث عن التفسيرات التي قال بها علماء الأمة (وعلى رأسهم أهل الاختصاص في كل مجال)، والبعد عن الشخصنة والمناكفات وتصيد الثغرات، وتحكيم العقل في مجاله الذي يتقنه دون تعسف، هو الطريق الأكثر معقولية ومنطقا، وأن ذلك سيوصلنا إلى بر الأمان، حتى في حال لم نتفق على نتائج محددة، نظرا لاختلاف وجهات النظر أو لتعدد وتنوع القراءات التي نقرأ بها النصوص ونفهمها، إلا أن سمت وأخلاق الباحثين هي السارية فيما نتحاور فيه، وفي حال خرج الحوار إلى الشخصنة والانتصار للنفس فقل على الدنيا السلام، ولا عزاء للنص الذي ندافع عنه أو ننتصر له أو نرفضه بحجة أو بأخرى. والله من وراء القصد

الصراحة راحة....

بصراحة أكثر، ورغم تقديري الشديد لجميع المتداخلين مهما تباينت وجهات نظرهم، إلا أنني أعجب (وقد يكون عجبي مبالغا فيه)، من طرح يحمِّل بعض الأمور ما لا تحتمل.

فمثلا، بشرية هذا العالِم أو ذاك وعدم عصمته أمر مفروغ منه (وكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر صلوات ربي وسلامه عليه)، كما قال إمام دار الهجرة، حتى في شخص النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد قال عن نفسه كما ذكر القرآن (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي)، وأن الوحي هو الذي كان يعصمه ويثبته (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا)، ولذلك من المؤسف أن يعاد طرح مثل هذا الأمر فيمن بعد رسول الله صلى الله عليه بصورة التقديس المرفوضة لا بصورة التقدير المطلوبة، يتمثل فيها المؤمن الصادق قول ربه سبحانه (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا)، بمعنى أن التقدير وإنزال هؤلاء المكانة التي تليق بهم هو المطلوب ولا شيء سواه.

ثم هل ما قام به الإمام البخاري أو غيره فيه تجنٍ على هذا الدين؟ وهل ما قاموا به من جمع لما أثر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه إساءة لهذا الدين؟ بعبارة أخرى هل أخطؤوا في حق الأمة وجنوا عليها عندما قاموا بهذا العمل؟ وهل العمل الذي قاموا به كان وبالا على الأمة كما يبدو للبعض؟ وهل كانوا فعلا في حاجة إلى نص قرآني أو نبوي صريح كي يقوموا بهذا العمل؟ بمعنى آخر، هل كان الإقدام على هذا العمل (جمع ما أثر عن النبي -صلى الله عليه وسلم-) غير جائز وأن هؤلاء قد خالفوا الأمة وقاموا بعمل غير مشروع؟ هل يقول بهذا إنسان منصف؟ لا أظن، وإن كان

هناك من يقول به للأسف.

وأمر آخر لا أدري كيف صار عند البعض قاعدة، وهو أن على الإنسان أن يجمع الروايات المأثورة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لنفسه ولا يلزم بها غيره؟ من متى سمعنا أن الإمام البخاري أو غيره قد ألزموا الناس وأرغموهم على العمل بما جمعوا من الروايات؟ إن هؤلاء الذين قاموا بهذا العمل الجليل هم أناس نبلاء قدموا للإسلام خدمة جليلة، وقاموا بمهمة تعجز عن القيام بها المراكز والمجامع العلمية، وأفنوا أعمارهم سفرا وسهرا وفحصا وتنقيبا وترجيحا، وكانوا من التقى والورع في المكان السامي، هذا الجهد الذي بذل، وهذا العمل الذي يفوق جهد العصبة من البشر، ينبغي أن يستقبل بالحفاوة والتقدير والإكبار والإجلال، دون الولوج إلى عقدة العصمة والتقديس، مع يقيني أن أمثال هؤلاء لو كانوا عند غيرنا لرفعوهم في المكانة التي تليق بهم.

وتأملوا معي في الجهد الذي بذله هؤلاء الأفذاذ، إنه بحث واستقصاء علمي في أسمى تجلياته، إن المنهجية التي جمعت بها الأحاديث النبوية منهجية ربما لا ترقى إليها بعض المناهج العلمية التي نعتمد عليها الآن، والبعض منا يظن أن الإمام البخاري أو غيره كان متكئا على أريكته، وكل من جاءه بحديث أو رواية قيدها في مسنده حتى اكتمل ثم أخرجه للناس، وهذا من العجب العجاب في تفكير البعض منا، الأمر أبعد من ذلك وأبلغ، ولو كان البخاري في زماننا وقام بالعمل الذي قام به لتم منحه العديد من شهادات (الدكتوراه) التي تمنح الآن لأبسط بحث أو استقصاء أو استنباط.

لقد صنعت الأمة ممثلة بعلمائها وفقهائها ومحدثيها وأصولييها ومفكريها وفلاسفتها مدرسة لا يمكن لقصيري النظر إدراك أبعادها، بل وأنجزت منهجية علمية صارمة في باب الرواية والدراية وعلم الجرح والتعديل مما لم نصل - أو يصل إليه غيرنا- حتى وقتنا الحاضر.

أخيرا أقول إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فإذا كان التصور للشيء ضعيفا أو مبتسرا جاء الحكم على شاكلته. من أراد أن يحكم على هؤلاء الأفذاذ أو يحكم على ما أنجزوه من منهجية علمية قام على أساسها بنيان هذا الدين فليحلِّق عاليا ليرى الصورة مكتملة، وعند ذلك سيكرر النظر مرة ومرتين لينقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير، فهو يرى سماء ما طاولتها سماء.

ومع كل هذا، ومهما قلنا في هؤلاء النبلاء فلن نوفيهم حقهم، ونحن ندين لهم بالكثير وندعو الله لهم بالرحمة والمغفرة، ومع هذا لا نقدسهم ولا ندّعي لهم العصمة، ويكفيهم فخرا أن تعد معايبهم، بجوار ما لا يعد ولا يحصى من حسناتهم وأفضالهم، (وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث)، فما بالكم وقد صار هؤلاء بحارا زاخرة لا ساحل لها، وهل يضر البحر يوما إن رمى فيه غلام بحجر؟!

وعلى هذا المنهج الذي يؤمن به من انتقدوا الإمام البخاري، يمكن القول: إن من قاموا بجمع القرآن من الرقاع ومن صدور الرجال، وفيما كتب فيه القرآن ليصبح بين دفتي كتاب واحد هو المصحف الشريف بعد انتقال النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى جوار ربه دون أن يكون لديهم أمر من الرسول بذلك أو آية تأمرهم بذلك قد أخطؤوا، وكان الأولى بهم ترك الأمر كما كان عند وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن الصحابة اجتهدوا بعد أن رأوا أن أكثر الشهداء من الحفاظ أن يجمعوا القرآن بين دفتي كتاب واحد وهو ما قاموا به بالفعل، وكذلك ما فعله عثمان بن عفان رضي الله عنه من جمع الناس على مصحف واحد دون أن يكون لديه توجيه قرآني أو نبوي.

ما قام به الإمام البخاري وغيره لم يكن تأليفا إنما كان جمعا وتبويبا وتنظيما لأحاديث المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك فإن ما قاموا بجمعه ليس من كلام



البشر العاديين بل هو كلام النبي العظيم صلوات ربي وسلامه عليه، ولا حرج من جمعه وتنظيمه وتبويبه ليستفيد منه الفقهاء والعلماء والمفتين والمشرعين، دون أن يكون هناك داع لأمر قطعي للقيام بهذا العمل فهو أمر بديهي خاصة بعد انتقال الحبيب -صلى الله عليه وسلم- إلى جوار ربه وانتفاء شبهة اختلاط كلام الله (القرآن)، بأحاديث النبي العظيم، وهنا علينا كواجب منهجي وهو ما قام به البخاري وأمثاله أن نتحرى عن نسبة هذا القول أو الفعل أو التقرير للمعصوم -صلى الله عليه وسلم- وعدم تعارضه مع القرآن، فإن وجدناه صحيحا صريحا ولا يتعارض مع صريح ما ورد في القرآن قبلناه وأخذنا به، وإن وجدناه ضعيفا أو موضوعا أو مكذوبا أو يعارض نصا قرآنيا، أو حديثيا أقوى منه تركناه وأخذنا بما هو أقوى وأوثق. هل في هذا الأمر مشكلة؟ أم أننا فيما يتعلق بالسنة نرفض وننكر الأمر جملة وتفصيلا، إن كان الأمر كذلك (في حالة الرفض أو الإنكار) فكل يعمل على شاكلته ويتحمل مسؤولية فهمه، ونسأل الله أن يهدينا سبيل الرشاد. والله أعلم

ما يطلبه المستمعون

العقلية الأمريكية في جانب الصناعة والتجارة ترى أن عليها أن تصنع وتنتج وعلى الناس أن يشتروا ما تنتجه (ما ننتجه يجب على الناس أن يشتروه)، بينما العقلية اليابانية على العكس من ذلك، تتلمس حاجات الناس فتقوم بصناعته وإنتاجه (ينتجون ما يحتاجه الناس)، وشتان ما بين العقليتين.

تابعت من خلال بعض وسائل التواصل الاجتماعي ردة فعل المتابعين للمسلسلات الرمضانية على الفضائيات اليمنية فوجدت تذمرا كبيرا من نوعية المسلسلات وضحالة مضمونها وتفاهة أغلب ممثليها، ومدى ما يحسه المتابعون لهذه المسلسلات من حسرة مقارنة بالزمن الجميل للمسلسلات في نسختها القديمة حسب وصفهم.

والمتابع لتراجع الذائقة الفنية والدرامية في المسلسلات التي غالبا ما يتم عرضها في رمضان سواء اليمنية تحديدا أو العربية على وجه العموم، هذا التراجع لا يخفى على المتابع اللبيب، حيث صارت هذه المسلسلات دون هدف أو رسالة، أو حتى حسب مزاج المتابع الذي يعتبر هو المعنيُّ بهذه المسلسلات، فلم يعد يعيره أحد أي اعتبار، بعكس ما كان يجري في السابق من تسابق القنوات والفضائيات وحتى الإذاعات على كسب المشاهدين والمستمعين ببث ما يرغبون في بثه، فكنا نتابع ونشاهد ونستمع إلى برامج مثل (ما يطلبه المستمعون) (منكم وإليكم) (مرايا في أكثر من موسم) وأمثالها.

لقد غابت الرسالة الإعلامية الهادفة عن القائمين على هذه المسلسلات سواء كانوا كتّابا أو ممثلين أو فضائيات أو ممولين، وصار الغالب على ما يعرض هو ترويج التفاهة والسخافة والإضحاك البذيء المتهالك، وإظهار الشخصية اليمنية من خلال هذه المسلسلات بمظهر نرفض جميعنا أن يكون معبرا عنا، أين تكمن المشكلة؟ هل



في المسلسلات أم في المتابعين؟ وأيهما يمكن أن يرتقي بالآخر؟ أظن أن الإجابات ستختلف وإن كنت أرجح كفة أن الإعلام له اليد الطولى في الارتقاء بوعي الناس وذوقهم.

ربما البعض تابع روائع المسلسلات التاريخية والاجتماعية التي كتب نصوصها المبدع د. وليد سيف وأخرجها مبدع آخر انتقل إلى جوار ربه قبل أشهر د. حاتم علي، ويأتي على رأسها مسلسل (صلاح الدين الأيوبي والتغريبة الهلالية)، كما نجد أن المسلسلات التركية صار لها متابعين كثر رغم طول وقت عرضها (أكثر من ساعتين) وتعدد مواسمها، ورغم أنها بلغة غير العربية، وإنما يتم ترجمة نصوصها إلا أن هناك من يتابعها بشغف سواء التاريخية منها أو الاجتماعية.

إنني لأتذكر مقولة لماركس قال فيها: أعطني مسرحا أعطيك شعبا، وأدرك من خلالها مدى ما يصنعه الإعلام في تربية الشعوب، فهو سلاح ذو حدين كما يقال، فيمكنه أن يبني ويمكنه أن يهدم، يمكنه أن يبني شخصية متميزة، ويمكنه أن يبني شخصية تافهة، يمكنه أن يصنع شعبا واعيا، ويمكنه أن يصنع شعبا كالقطيع لا يدري ما يدور حوله.

وحتى لا نحمِّل الكتّاب والممثلين والفضائيات كامل المسؤولية فيما يعرض من إسفاف على الفضائيات في هذا الشهر الكريم، فعلينا أن نقول بكل تجرد أن هؤلاء (كتّابا وممثلين وفضائيات وممولين) يتخبطون في الظلام ويبحثون عن الشهرة والمصالح الشخصية في الغالب، ولو وجد الكاتب الحامل لرسالة مجتمعه، والممثل المدَّرب، والفضائية صاحبة الهدف، والممول النزيه الذي تدفعه إلى التمويل قيم سامية لا أرباح عاجلة، عندها سنرى مسلسلات تمثلنا وبرامج تعبر عنا، وحوارات تناقش قضايانا،

وهذا هو ما أدركه البعض، فبدأ بتقديم مسلسلات راقية.

أخيرا، نحن مطالبون إن أردنا إعلاما مسؤولا ومسلسلات تخدم قضايانا وتناقش مشاكلنا، مطلوب منا أن نسعى إلى إيجاد حاضنة لهذه الجزر المعزولة من الكتّاب والممثلين والفضائيات والممولين، أما أن نبقى في خانة البكاء على اللبن المسكوب فمعنى ذلك استمرار التراجع والتفاهة والسخافة التي لن يكون لها قاع، ولن يدرك أهمية ما يمكن أن يصنعه الإعلام إلا شخص يدرك أن تغيير الشعوب يبدأ من رؤوسها لا من بطونها.

أحيانا لا يتوقف الأمر على طبيعة ما يطرح، بل يتوقف على كيفية وأسلوب الطرح ذاته، فكيفية وطريقة الطرح تنبئ إما عن شخص يريد أن يصل مع الآخرين إلى قواسم مشتركة، إن لم يستطع الوصول إلى نوع من الاتفاق يقل أو يكثر، أو عن شخص لا يلقي لذلك بالا.

وجهة نظري أن من يريد أن يصل مع الآخرين إلى نقاط مشتركة ويمد معهم جسورا للوصول إلى الحقيقة ويتحاور معهم في أي موضوع من الموضوعات أن يكون حريصا على طرح فكرته أو رؤيته في أسمى صورة، ودون أن يجزم بما توصل إليه، أو يبخس الآخرين أشياءهم، أو يلصق بهم تشبيهات سوقية لا تبشر بعقلية تؤمن بالتواصل مع الآخرين والقبول منهم، أو محاولة إقناعهم.

النرجسية في التعامل مع الآخر في الحوار والنقاش تولد ميتة، لأنها مواجهة صفرية لسان حالها يقول: اقبل مني وإلا فأنت رجعي تراثي كلاسيكي متزمت متعصب كاهن تشبه الهنادك في تقديسهم للبقر إلى آخر الألفاظ والأوصاف والتعبيرات التي لا تليق برجل الشارع فما بالك بمفكر ناشئ يطرح أفكارا وقضايا جديرة بالنقاش العلمي والعقلي المتزن.--+*

أقدر للبعض حسن نواياه، وتطلعه إلى حوار راق، ولكن هناك من يخيب ظنك، رغم دفاعك عنه ومحاولة تبييض صفحته وتبرير موقفه، فالبعض لا يحملون عقلية حوارية بناءة تبني على الصحيح من التراث وتستدرك على ما فيه خلل ليستقيم البناء، بل هؤلاء يحملون معاول هدم، كلما وجدوا بناء قائما أعملوا فيه معاولهم حتى يسووه بالأرض كما يظنون، رغم أن هذا البناء الذي يريدون هدمه كان في حاجة إلى

تغيير حجر هنا أو حجر هناك أو تعديل هنا أو هناك أو استدراك هنا أو هناك، ولكنها عقلية الهدم، التي بموجبها يمكن أن يحرق الواحد منهم قرية لكي يقلي بيضة.

العقل والمنطق أن يقال لهذا وأمثاله توقف عن الإسفاف والتجديف، وحاور الآخرين حوارا جادا يقف فيه أطراف الحوار على أرضية مشتركة من الثوابت، ثم بعد ذلك إن اختلفت وجهات نظرهم في فروع معينة فلا بأس، ويبقى التواصل مستمرا والحوار متواصلا دون احتكار أحد للحقيقة.

هناك من يؤمنون بالعقل، ويقصدون به عقولهم هم، أما الآخرين فلا عقول لديهم فهم كعباد البقر، ولذلك يجب عليهم أن يسلموا بما تمليه عليهم عقول هؤلاء وإلا فالويل لهم، وسيتم سلقهم بألسنة حداد، وهذا ما يقوم به البعض بجدارة، وهناك من يتخدع بطرحهم العلمي المنطقي العقلي، فإذا تم مواجهتهم بمنطق قوي اعتبر ذلك تهجما عليهم وعدم تقدير لأهليتهم الفكرية، ومن ثم تنهال النصائح بمحاورتهم بعقل ومنطق وعدم التشنج في ردة الفعل الكلاسيكية عليهم.

السؤال الذي يطرح نفسه: هل يؤمن هؤلاء فعلا بالعقل الذي يملكه الجميع وليس العقل الذي يرغبون هم بتسويقه؟ وهل بالفعل طرحهم منطقي وعلمي يمكن تفهمه ومناقشته، أم أن الموضوع موضوع مشاغبات، تظهر كل يوم بلون معين، وهناك من يصفق لها ويحتفي بها وكأنها اكتشافات ستغير وجه الكرة الأرضية، وهي في حقيقتها ليست سوى زوبعة في فنجان.

في الأخير، كل إنسان سوي يمقت التعالي والأستاذية والنرجسية واحتكار الحقيقة والاستهانة بالآخر التي تطفح بها منشورات هؤلاء، حتى ولو كان الإنسان على حق فلا يقبل منه مثل تلك الصفات المذكورة آنفا فما بالك والمسألة خلافية ولها

أكثر من وجه، وأحيانا قد تكون خاطئة تماما، أتدري ما الذي يجعل هؤلاء يواصلون إسفافهم؟ سأقول لك رأيي، وهو أنهم وجدوا من يحتفي بما يكتبون ويدبجون، كما أنهم يسمعون كلمات الشكر والمديح على ما يسطرونه ويقولونه، وأن هؤلاء كذا وكذا من صفات المدح التي تكال بلا حساب.

ليس لدينا استعداد لنصنع عجولا مادية أو بشرية أو معنوية ثم نتداعى لتأليهها والتسليم لها، فهؤلاء إن أرادوا من الآخرين، أو أراد من يدافع عنهم أن يحترمهم الآخرون ويدخلوا معهم في حوار فليلتزموا به أو فليلزمهم أحبابهم بذلك، أما أن نطالب الطرف الذي يختلف معهم بالرزانة والعقل والعلمية والمنطق في مقابل أن يترك الحبل على الغارب لهؤلاء فتلك قسمة ضيزى، ودعوة لإيقاف الحرب الفكرية أو ضبط النفس من طرف واحد، أي من طرف المخالفين لهؤلاء فقط، وهذا ما لا يرضاه عاقل حكيم. والله أعلم

لماذا يحتفي الحداثيون بالشاذين في تاريخنا؟

بداية لا بد من الإشارة إلى أني لا أقصد بالشاذين المعنى المرتبط بالجنس، وإن كان الشذوذ الجنسي هو الرائج، حيث لا تكاد تسمع كلمة شاذ إلا ويكون أول ما يتبادر إلى الذهن هذا المسمى، ما أقصده هو الشذوذ الفكري والفلسفي والصوفي.....، والذي يعني الخروج عن الثوابت أو الأمر المتعارف عليه والسائد اجتماعيا، وإن كان كل خروج لا يعد سيئا، كما أن كل خروج لا يعد حسنا، وإنما يتوقف ذلك على طبيعة الأمر الذي تم الخروج منه أو عليه.

أحيانا تقرأ للكاتب قبل أن نتعرف عليه، وأحيانا نتعرف على الكاتب قبل أن تقرأ له، والفرق واضح بين هذا وذاك، ففي الأول تقودك الفكرة لتتعرف من خلالها على صاحبها، أما في الثاني فيقودك صاحب الفكرة لتتعرف عليه أولا، وعلى فكرته ثانيا، ويكون حالك مع الصنف الأول أنك أكثر حرية واستقلالا، بينما في الثاني تكون قد قيدت نفسك بصاحب الفكرة ومكانته، ولكل صنف ميزته.

هناك من يفضل التعرف على الفكرة التي تنقله إلى صاحبها، وهناك من يفضل أن يتعرف على صاحب الفكرة قبل أن ينتقل إلى فكرته، وكان من نصيبي أن أتعرف على أفكار الأستاذ حسن سميك من خلال مقالاته ومنشوراته قبل أن أتعرف على شخصه، ولا أدّعي أنني قد تعرفت عليه شخصيا، وإن كنت قد كونت عنه بعض الانطباعات القابلة للثبات أو الدحض، وقد استوقفني مقاله الأخير عن الشاعر (أبي نواس وثنائية المقدس والمدنس)، فأحببت أن أضع أمام ناظريه وبين يدي قرائه الأفاضل بعض التعقيبات التي تعبر عن وجهة نظري الخاصة، عما أورده في مقاله الآنف الذكر، دون أن يعني ذلك، أنني أختلف معه في كل ما ورد في المقال، أو



أتفق معه كذلك في كل ما ورد في هذا المقال أو في غيره، وسأورد تعقيباتي على شكل نقاط مركزة، وعلى النحو التالي:

١- تاريخنا وتراثنا العربي والإسلامي متخم بالنماذج المشرقة والنماذج المعتمة، وهذه النماذج هي ابنة بيئتها، تأثرت بها وأثرت فيها، ومن الإنصاف أن نحاكمها - إن تطلب الأمر ذلك - إلى بيئتها التي عاشت فيها، والمؤرخ والمفكر المنصف هو من يدرس الشخصية في إطار الفترة التي عاشت فيها، بحيث يعطيها حقها، فلا يمدحها بما ليس فيها ولا يبخسها حقها، التي هي أهل له، وهنا يمكن للباحث والمؤرخ والمفكر أن يظهر لنا هذه الشخصية على حقيقتها، دون أن يسقط عليها أحكاما سبقتها أو لحقتها، وهنا أيضا تظهر براعة الباحث في إبراز الشخصية في إطار مجتمعها الذي عاشت فيه دون إفراط أو تفريط.

٢- دراسة الشخصيات التاريخية، وخاصة الشخصيات التي أحدثت نوعا من التباين في تقييمها والحكم لها أو عليها، مثل هذه الشخصيات تحتاج إلى مزيد من تجرد الباحث وإنصافه، حيث أن دخول الذاتية على حساب الموضوعية يشوه الشخصيات المدروسة، ويلونها بلون من يكتب عنها، وكم قرأنا عن شخصيات كتب عنها يساريون فظهرت يسارية، وكتب عنها يمينيون محافظون فظهرت كذلك، وكتب عنها رأسماليون فبدت رأسمالية، وكتب عنها علمانيون حداثيون فظهرت كذلك.... والشخصية هي الشخصية، ولكن اختلف من يكتب عنها، فشرَّق بها هذا تارة، وغرَّب بها ذاك تارة أخرى.

٣- عندما نقرأ التاريخ وفي ثناياه أخبار شخصيات متعددة المشارب، لا نعيد قراءته لمجرد التسلية أو تمضية الوقت، بل لا بد أن يكون لنا هدف، وخاصة عندما نريد أن



نبرز حدثا تاريخيا معينا أو شخصية بذاتها، وهنا يمكن أن تتدخل الأهواء والمصالح، فنبرز من الأحداث ما يتوافق مع أهوائنا ويتفق مع مصالحنا، ولو كان غيره أوثق منه، ونبرز جوانب معينة في شخصيات محددة لأن هذا البروز لهذه الجوانب يخدم بعض أجندتنا، وإن كان لهذه الشخصية جوانب أكثر عمقا وهي الأولى بالتقديم على ما تم إبرازه، وقليلون هم من يتعاملون مع أحداث التاريخ وأشخاصه بتجرد وإنصاف، بينما يقع كثيرون في مستنقع التلوين والتحوير والتحيز، وعندئذ لا نقرأ تاريخا واحدا لفترة ما أو شخص ما، بل سنقرأ عدة روايات لهذا الحدث التاريخي فيها من التناقض ما الله به عليم، وعدة صور لهذه الشخصية أو تلك، حتى نظن أنها ليست شخصية واحدة بل عدة شخصيات.

٤- تحدث الأستاذ حسن سميك عن أبي نواس حديث المعجب المفتخر بهذا الشاعر الثوري المتمرد على مقدسات مجتمعه، وعلى رأس ذلك الأوامر الشرعية والأعراف السائدة، وجعل من مجاهرته بالمعصية (شربه للخمر وخلاعته)، مما يحسب له لا عليه، وقد ألبسه الأستاذ حسن لباس الشخصية المنسجمة المتناغمة التي تعمل المعصية ولا تخش من الإعلان عنها، بعكس الشخصيات التي تتحدث عن الفضيلة علنا وتقترف المعصية سرا، وهو ما أطلق عليه الأستاذ حسن ثنائية (المقدس والمدنس)، وهذا بعض كلامه نصا: (ليست سيرة أبي نواس مجرد صفحة من تاريخ مضى، بل هي قصة تاريخ حي يُكتب كل يوم، عن الفئة القليلة من أمتنا، تلك الفئة التي تأبى أن تسير مغمضة العينين معطلة العقل، بل تختار الاعتراف بالطبيعة البشرية والتعبير عنها ضمن شروطها وإمكاناتها، وبما جبلها الله عليه وخصّها به من الحكمة والقياس المنطقي والرأي. فاختارت أن لا تستسلم للانقياد السلبي لسلطة المقدس واستبداده من دون تدبر وتأويل، بخاصة عندما يُستخدم هذا المقدس كمطية لتعطيل الفكر الحر، وأداة



لإذكاء روح التعصب وإنكار التنوع ورفض اختلاف الرأي)، وهنا نقف أمام معضلة أخلاقية لا يمكن تمريرها أو تبريرها من خلال إبراز شخصية أبي نواس كقدوة لكل متمرد يريد أن يخرج على المجتمع ويلقب الطاولة كما نقول، والأستاذ حسن يبشرنا بأن هذا التاريخ الذي يمثله أبو نواس تاريخ حي يكتب كل يوم عن الفئة القليلة من أمتنا، وكأن الشذوذ الحسي أو المعنوي صار تميزا، رغم سيل الاعتذارات والتبريرات التي أوردها الأستاذ حسن في هذه الفقرة، ولو طبقنا هذا النهج (النواسي) على كل معصية لاستحال المجتمع إلى مجموعة من الشاذين يقترفون المعاصي والفواحش ويجاهرون بها ولا يتورعون عن الترويج لها، وعند ذلك سيكون المجتمع أمام ثلة لا يستهان بها من الشاذين (الذين سماهم الأستاذ حسن الفئة القليلة) في كل مجال، يطالبون بأن تصبح لهم حقوق مقننة يكفلها لهم الدستور والقوانين النافذة، وهذا ما تم في الغرب (زواج الشواذ نموذجا)، وعندها سيكون لزاما على المجتمع أن يشرع للفجور بكل ألوانه.

٥- وعطفا على الفقرة السابقة، فلا يعني ما أوردته فيها أنه لا توجد معاصي أو فواحش أو فجور في هذا المجتمع أو ذاك، هذا ما لا أقصده، فلا يخلو مجتمع من المجتمعات مهما علا شأنه في سلم الأخلاق من معاص وفواحش وفجور، والفرق الذي يمكن تسجيله هنا هو في نسبة هذه المعاصي والفواحش ومدى المجاهرة بها، ورغم أنني أدرك طبيعة الشعراء وما يهيمون به وفيه، وما تمليه عليهم مخيلتهم من صور ربما لا تمت إلى الواقع بصلة، وأبا نواس واحدا منهم، فليس كل ما قاله قد تم على الحقيقة، ولكن المجاهرة به والفخر باقترافه يحتاج إلى أن نقف أمامه بمسؤولية لا أن نمدحه ونسوقه ونعتذر له ولقصائده الماجنة، ونقدمه للقراء على أنه ثوري متمرد على تقاليد الدين والمجتمع البالية، فإشاعة الفاحشة ليس في مصلحة المجتمع مهما كانت المبررات والتبريرات، والرغبة في إشاعة الفاحشة مرض وعلة تحتاج إلى علاج لا إلى دعم وتشجيع، ولهذا الأمر

(إشاعة الفاحشة) عواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم)، وقد حدد النبي -صلى الله عليه وسلم- سلامة المجتمع وعافيته في عدم المجاهرة بالمعاصي والفواحش التي قد يسقط فيها أي إنسان، وكل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون، بمعنى أن علاج السقوط - وهذا معرض له كل إنسان - هو العودة إلى طريق الفضيلة لا السعي إلى تعبيد طريق الرذيلة من خلال إبراز مقترفيها على أنهم أبطال وفي منزلة أن يقتدى بهم، لقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه وسلم هذا بوضوح حين قال: (كل أمتي معافى إلا المجاهرون).

٦- لا أدري حين قال الأستاذ حسن عن أبي نواس أنه: (جسّد في فكره وفلسفته كلا الفريقين، سدنة المقدس وأنصار المدنس، ولكن من منظوره الفذ والفريد، والذي لا يكاد يشبهه فيه أحد من أعلام الثقافة الإسلامية عبر تاريخها)، هل هو في معرض المدح أم الذم؟ ولكن سياق الكلام يوضح أن الكلام جاء في معرض المدح، فأي شخصية هذه التي تجمع بين المقدس والمدنس في آن واحد، وهل مثل هذا يعد ميزة لأبي نواس؟ اللهم لا، إلا إذا كان ذلك محمودا في مذهب الحداثة الذي يحتفي بالشذوذ أيا كان نوعه، فهذا أمر آخر.

٧- يتحدث الأستاذ حسن عن مظلمة كبيرة حاقت بأبي نواس، وما زالت هذه المظلمة متوارثة، فيقول: (المَظلمة التي حاقت بالرجل كبيرة، وما زال الكثيرون يذكون نارها حتى اليوم، معتبرين أبا نواس داعية الفسق والمجون والزندقة، مقابل قلة قليلة تراه «شهيداً» قُتل مسموماً نهاية القرن الثاني الهجري بسبب سلاطة لسانه). والسؤال الذي يطرح نفسه أستاذ حسن هو: ماذا تريد ممن يخالفونك أن يفعلوا؟ هل تريدهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه في أنهم قالوا عنه كذا وكذا ذما له، ولم يقولوه من تلقاء أنفسهم بل هو ما قاله هو عن نفسه وقلته أنت عنه، لماذا عدت فجعلت ميزته التي



ذكرتها عنه (الجامع بين المقدس والمدنس) مظلمة، فإما أن تكون ميزة، وإما أن تكون مظلمة، وأنت أدرى أيهما أكثر التصاقا به. هل تريدنا أن نعده شهيدا؟ أم تريدنا أن نعده زنديقا؟ لا هذا ولا ذاك، فقد أفضى الرجل إلى ربه بخيره وشره، وربه أعلم به منا، ومشكلتنا الآن ليست معه، بل مع من يسوق مذهبه من جديد، وقد تاب عنه كما أشرت، وكتب قصائد بينها وبين قصائده السابقة في الخمر والمجون بون شاسع.

٨- ما الذي يمكن أن نفهمه من خلال فقرتك هذه أستاذ حسن، وهي: (فكان من أكثر الشعراء العرب غزارة في الخمريات والغزل الحسي، وهي (تابوهات) لم يكن من السهل أن تمسّ أو أن يتم تناولها بالطريقة التي تناولها بها الشاعر). هل صارت المحرمات التي تسميها (تابوهات) تمويها لها عن تسمية كل شيء بمسماه، أقول هل صار التجرؤ على الفحش والفجور والمحرمات بطولة ونخرا لأنه ليس من السهل أن تمس؟ هل هذه دعوة للتمرد على كل القيم وفي مقدمتها القيم الدينية بحجة أنها (تابوهات) وقيود تقيد حرية الإنسان وتمنعه من الانطلاق والتحليق في فضاء الحرية الليبرالية المفتوح على مراعيه. وهل تدرك ماذا يعنيه قولك عن أبي نواس: (ولقد كانت حياة أبي نواس انعكاساً حقيقياً لكل ما اختبره وواجهه، فلم يختبئ خلف إصبع التّقوى المزيّفة، ولم يتحرّج من الكشف عمّا يدور في سريرته من دون مواربة أو تورية، بل لقد اتخذ موقفاً نقدياً إزاء كل مسلّمات عصره، بدءاً من تجديد استخدامات اللغة وعصرنة بنيتها الشعرية، مروراً بموقفه النقدي من النّفاق الأخلاقي الجمعي، وانتهاءً بالتعبير عن إيمان فطري راسخ تجلى في أشعاره التي ما زلنا نكررها في الزهد والتوبة وطلب المغفرة، حتى لو جهل أغلبنا أنه هو قائلها). عندما أقرأ فقرتك الأخيرة هذه يتمثل أمامي أبا نواس كمصلح عظيم، لا شاعر عاش جل حياته على الخمريات والمجون، وإن كان قد تاب في آخر حياته كما قيل.



٩- في ثنايا مقال الأستاذ حسن تعميم عجيب، ورد في فقرتين، يريد من خلالهما أن يقول لنا أن هناك إشكالية في الفكر العربي والذهنية المتناقضة للشخصية العربية، و يمكننا أن نتفق معه على وجود التناقض في الفكر والذهنية ولكن ليس بالصورة التي يريد أن يوصلنا إليها استنتاج الأستاذ حسن، من حيث كونها ظاهرة عامة، ومن حيث طبيعة هذا التناقض، فيقول: (إشكالية العلاقة بين المقدس والمدنس قد حللت الذهنية الثنائية المتناقضة للشخصية العربية، وكشفت عن جوانب النفاق فيها نظراً وعملاً، واتخاذها من المقدس شعاراً لممارسة المدنس بكل صوره وألوانه حين تتلطى خلف المقدس وتجادل فيه، وتدافع عنه علناً، بينما تمارس المدنس خفية وتستراً. لذلك رأيت في أبي نواس مثالاً يُحتذى ليكون الأمر على غير ما هو عليه، فقد كان أبو نواس، خلافاً لرجال عصره، واضحاً مع نفسه، عاش ثنائية المقدس والمدنس بوضوح وصراحة، فكان متصالحاً ومتسامحاً مع نفسه، كما مع غيره، وقد وعى بفطرته السليمة كيف يفرق جيداً (بين ما لله وما للإنسان) فكان متفقهاً وعالماً ومتكلماً... كما كان شاعراً للخطيئة والحب والفرح. والفكر العربي الإسلامي ما زال يعيش أزمة حادة في الصراع بين المقدس والمدنس في أقوى أشكالها وعلى كل مستوياتها، يتبدى ذلك مما نسمعه ونراه كل يوم من فتاوى وآراء تصدر عن بعض أنصاف العلماء والمشايخ لتعكس عمق هذه الأزمة في لا وعينا الجمعي، بخاصة تلك الفتاوى التي يكون موضوعها المرأة، والتي تنتقص من حقوقها وكرامتها وتنزع عنها إنسانيتها، لتحوّلها مجرد أداة لرغبة الرجل وشهوته، وتعتبرها «مدنساً» محتقراً ناقص الأهلية والحقوق). وقد أوردت هذه الفقرة بطولها، وما فيها من تعريض بالمفتين، واستغلال لقضية المرأة التي أشار إليها في مقاله مرتين، واحدة في هذه الفقرة والأخرى استعان فيها بالدكتور أحمد الطيب، حتى ندرك من خلالها طبيعة الإسقاطات التي يجيد البعض التلاعب بها، فهو يتحدث هنا عن طبيعة التناقض

في الفكر والممارسة، وهذه موجودة في الماضي والحاضر والمستقبل، تقل وتكثر من مجتمع إلى آخر ومن وقت إلى آخر، ولكنها لا تتوارث كما يريد الأستاذ حسن أن يوهمنا، ويسقطها على عصرنا بعد أكثر من ١٢٠٠ سنة من موت أبي نواس، بنفس الكيفية، رغم أن لكل زمان مشاكله وتناقضاته.

١٠- أتعجب كثيرا عندما أقرأ هذه الفقرة للأستاذ حسن عن أبي نواس، وهو يحلل شخصيته، وكيف استطاع أن يلم بجميع الأبعاد التي ذكرها الأستاذ حسن، ومتى كان يجد الوقت الكافي للقيام بكل ذلك خاصة إذا علمنا أن أبا نواس كان شديد الولع بشرب الخمر، فمتى كان يصحو أيام خمرياته ومجونه ليعطي كل ذي حق حقه: (أقدم أبو نواس على الحياة بكل أبعادها ومغرياتها، متخذاً من العقل مرشد وهادياً. فقد كان يدرك جيداً متطلبات الروح، ومتطلبات الجسد، ولم يكن منافقاً مدعياً الدفاع عن المقدس في العلن وشارباً للخمرة في السر، وبرغم أني شخصياً لا أبرّر هذا السلوك ولا أقبله، لكني لست من يحاسب ويحاكم ويحكم على الآخرين بالكفر أو الفسوق أو الزندقة، بل هذا الأمر لله (الغفور الرحيم) هو الذي يقضي ويحكم ويحاسب ويغفر، وهو الأدرى بطبائع البشر وبما جُبلت عليه من خير وشر، ومن رغبات ودوافع)، والأمر الذي يحسب للأستاذ حسن في هذه الفقرة أنه لا يبرر لأبي نواس سلوكه المشين، وإن كنا قد شهدنا أثناء عبارات المقال السابقة لهذه الفقرة واللاحقة لها، أنه يبرر له ولشعره الفاحش. وهذا ما تثبته عبارته الأخيرة التي تعتبر خلاصة للمقال، حيث يقول: (ما أريد أن أقوله واضحاً بعد كل ما سبق عن سيرة هذا الرجل، أنه استطاع أن يكون عن حق نموذجاً للنجاة من اللوثة التي ما زالت تصيب عقلنا الجمعي حتى اليوم، والتي صنعت منّا ظاهراً وباطناً، ظاهراً معلَناً في توسّل المقدس والالتزام به، وباطناً مخفياً عن حقيقة طبائعنا البشرية ورغباتها «المدنسة»). أرأيتم، نموذجا



للنجاة! إنه يجلدنا بقسوة، من خلال تعليق قميص أبي نواس، وكأن المقال يهاجم الأحياء، وما الحديث عن الأموات إلا مبررا للقيام بذلك.

١١- تُرى ما الذي سيخرج به قارئ المقال بعد قراءته له؟ أظن أنه سيخرج بكمية هائلة من الإحباط، وأننا كعرب ومسلمين مجموعة من المتناقضين فكرا وممارسة جملة وتفصيلا، وأننا لسنا أهل جدارة لنساير هذا العصر الذي لا ينافق، لأن كل قضاياه منشورة ومجاهر بها حتى على مستوى غرف نومه، وهذا ما جسده أبو نواس في زمانه بالكلمة والصوت، وهو ما يجسده العالم الحداثي العلماني اليوم بالكلمة والصوت والصورة الثابتة والمتحركة، ويمكن للقارئ أن يخرج بانطباع آخر، وهو أن البطولة والرجولة هي في عدم التناقض على غرار المذهب النواسي، ولو أدى ذلك إلى اقتراف المعاصي والمجاهرة بها، وتسويقها حتى يتم تطبيع المجتمع عليها، وعدم اعتبارها نقصا في حق الإنسان، بل هي ميزة وفخر له.

١٢- أخيرا، يمكن أن نعود إلى السؤال الذي عنونا به هذا المقال وهو؟ لماذا يحتفي الحداثيون بالشاذين في تاريخنا؟ والإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى وقت أطول وإلى مساحة أوسع، وقد تم الإشارة إلى بعض الأسباب في ثنايا المقال، ولكننا يمكن أن نقول إضافة إلى ما سبق، إننا نجدهم يحتفون بأبي نواس والحلاج وابن عربي والسهروردي وابن الريوندي وعلي بن الفضل وسلمان رشدي ونوال السعداوي وإخوان الصفا والقرامطة... وغيرهم لأسباب لا تخفى على من يدرك ما وراء الأكمة، هناك سعي حثيث لتطبيع المجتمع على أخلاقيات وجرأة مثل هذه النماذج، والعجيب أن هناك اهتماما مشتركا بهذه النماذج بين الحداثيين من جهة وكثير من مراكز البحث الغربية من جهة أخرى، فهل الحداثيون صدى لهذا الاهتمام الغربي بهذه الشخصيات وغيرها؟ ولأن الغربيون يدركون أن هذه الشخصيات (الشاذة) غير



مقبولة جملة وتفصيلا في الوسط الإسلامي، فإنهم يحاولون تسويقها والترويج لها من خلال الدراسات التي يصدرونها حولهم، والمؤتمرات التي يقيمونها خصيصا للتعريف بهم، أو من خلال تقديم الدعم للمؤسسات والشخصيات التي تتبنى ذلك في العالم العربي والإسلامي، وهذا ليس اتهاما بل تقريرا لحقيقة لا تخطئها العين، وما (مؤسسة راند) عن هذا الشأن ببعيد. والله أعلم .

الدولة في الفكر الإسلامي

هناك طرح كثيف وحرث متواصل في تربة الدولة في الحضارة الغربية منذ عدة قرون، ولم يقر لهم قرار في هذا الإطار رغم أنهم أنجزوا الكثير وأثمرت كثير من أطروحاتهم وحفرهم العميق في إيجاد نظريات قلّمت أظافر الاستبداد إلى حد ما، كما أعادت الجزء الكبير من السلطة للشعب، ومع ذلك لم يتوقفوا، بل لا زالوا يواصلون الحفر دون كلل أو ملل، والسبب في ذلك من وجهة نظري أنهم لم يستندوا إلى مرجعية متجاوزة يتكئون عليها وتصبح بالنسبة لهم مرجعية يعودون إليها، بمعنى آخر أن الكثير منهم بدؤوا التنظير للدولة ليس من مرجعية متعالية متجاوزة، كالدين مثلا، لأنهم عانوا من كهنوت الكنيسة فتمردوا عليها ورموها وراء ظهورهم، وبدؤوا يعمِلون عقولهم مستندين إلى بعض نظريات ممن سبقهم ليس لها علاقة بالدين، ولذلك لا أظن أن منظومة الديمقراطية ستكون هي النسخة الأخيرة في نظرية المشاركة الشعبية في الحكم في الغرب، بل أتوقع أن تظهر الكثير من الأشكال المنظومية للحكم، لأن الحفر متواصل، والتحلل والتخلي عن المنظومات السابقة متواصل أيضا.

هذا ما يحدث في الجانب الغربي، وهذا بدوره أحدث رجة في العالم الإسلامي وتلقفه المفكرون والفلاسفة والساسة بنوع من الانبهار، وبدأت النظريات المتعلقة بالدولة التي نبتت في البيئة الغربية تبحث لها عن مكان في تربتنا العربية الإسلامية، لتخترق منظومتنا بقضها وقضيضها وخيرها وشرها، وصار البعض منا يلوي لسانه بها راميا بمنظومته ومرجعياته عرض الحائط، وكأن ما أصلح حال القوم في الغرب هو هو ما سيصلح حال القوم في الإطار الإسلامي، وهيهات أن يتم ذلك لاختلاف المرجعيات والثوابت التي تقوم عليها منظومة الحكم في الغرب والعالم الإسلامي، وكم

غطّت القوة على عيوب أصحابها وصار كل ما يأتي منها حق لا مرية فيه، وهذا بدوره جعل البعض منا يعود على مرجعياته وثوابته ليحاكمها، ويحاول أن يسلبها مكانتها في الضمير المسلم، كما يحاول أن يعطلها عن أداء وظيفتها بحجج ليس أولها أن التاريخ الإسلامي تاريخ مليء بالظلم والاستبداد، وليس آخرها أن الدولة دولة الناس لا دولة النص كما يسوقون، وكأننا لم نشهد خلال ١٤٠٠ سنة منذ عصر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحتى يومنا هذا أن الإسلام كان مرجعية القوم، سواء كان ذلك حقيقة أو ادعاء، وأن أي خروج صريح عن مرجعية الإسلام كان معناه سقوط هذه الدولة طال الزمان أو قصر.

ولذلك فأنا أتفق مع من يطرح أن هناك استغلال وتوظيف للإسلام في مصالح ومشاريع لا تمت إلى الإسلام بصلة، وهذه ليست مشكلة الإسلام، بل هي مشكلة الناس حكاما ومحكومين، وهنا بالتحديد ما يجب أن ننظر فيه ونجتهد ما وسعنا الجهد في إيجاد الآليات والأدوات التي تقيّد هؤلاء الحكام وتعيد المكانة الرائدة لرقابة الأمة تحت سقف المرجعية الإسلامية.

البعض يظن أن الإسلام أو ما يسميه البعض (بالنصوص)، وهو يقصد هنا القرآن والسنة الصحيحة، ولكنه يتهرب من التصريح بذلك ويلجأ إلى التمويه وتسمية الأمور بغير مسمياتها، أقول إن البعض يظن أن الإسلام يقف حجر عثرة أمام تجفيف منابع الفساد والاستبداد، أو أن الإسلام يؤصل لموضوع الظلم من خلال عقيدة القضاء والقدر، وغير ذلك مما يظنه البعض في الإسلام وهو ليس من الإسلام في شيء، بل الإسلام مشروع تحرير ودستور مساواة، ومنظومة تعايش، يحتاج إلى من يفهمه حق الفهم ويعيد صياغة حياته وفقه، لا أن يتسول النظريات التي نبتت في



التربة الغربية، لا ليستفيد منها كخبرة إنسانية في بناء منظومته في الحكم وفق مرجعيته، بل ليخرب بها بيته ويأتي عليه من القواعد، ويظن أنه قد أحسن صنعا.

إن الوحي المتمثل في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية هو المصدر الأصيل لأي عملية: وضع تشريعات أو سن قوانين أو تحديد الحلال من الحرام، أو بيان الأحكام الشرعية، وأن أي عملية اجتهاد في ذلك لا بد أن تكون في فلك هذين المصدرين تابعة لهما لا مستقلة عنهما.

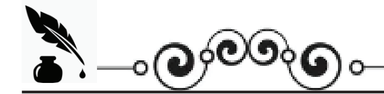
وأخيرا يمكن القول إن الإنسان خليفة الله في أرضه، ولن يصلح حاله إلا بأن يكون أهلا لحمل تبعات الخلافة التي أرادها الله منه، وبالطريقة التي أرادها، قال تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) الجاثية: ١٨، وإن أي تنظير للدولة في المحيط الإسلامي خارج إطار المرجعية الحاكمة لذلك هو جهاد في غير عدو وحمل خارج رحم الأمة، وتغريد بغير لغة الأمة التي تفهمها وتتفاعل معها. والله أعلم.

فاسأل به خبيرا...

ما فهمته من مداخلات بعض الأعضاء، أن الجميع يرفض الكهانة وأنه لا رجال دين في الإسلام، وأن غالبية المتداخلين لهم موقف من التقليد، ولكن هل يعني هذا أنه لا علماء ولا أهل اختصاص في العلوم الشرعية أو غيرها؟ اللهم لا.

ومع ذلك لم أفهم من مداخلات أحد الأعضاء أنه يدعو إلى احتكار فهم النص على فئة معينة بحيث لا يسمح للآخرين ممن يملكون أهلية وشروط الاجتهاد بأن يطرحوا رأيهم وفهمهم للنص دون حرج، وهذه ميزة يمتاز بها الإسلام دون سواه من الأديان في كونه قد فتح المجال للجميع بلا استثناء في طرح فهمهم للنص والاجتهاد في إطاره إذا امتلكوا أهلية ذلك. وبناء على ما سبق، فإن ما يدور حوله السجال من وجهة نظري يتحور حول السؤال الآتي: من هو المخول بالاجتهاد في فهم النص؟ هل هو كل أحد سواء تحققت فيه شروط المجتهد - ولو في أدنى درجاتها- أم لم تتحقق؟ أظن أننا سنتفق جميعا على أن الاجتهاد يكون ممن له أهلية القيام به، وإلا صار الأمر كما يقول إخواننا المصريين (وكالة من غير بواب)، ولا أقصد ببواب هنا أشخاصا بل شروطا تقل أو تكثر حسب الموضوع الذي يوجه إليه الاجتهاد.

والملاحظ أن القرآن الكريم يحثنا على البحث عن أصحاب الأهلية والخبرة والذكر (التخصص)، فيقول لنا: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النحل: ٤٣، نعم، أهل الذكر وليس سواهم، ويقول لنا: (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) الفرقان: ٥٩، وكأن الآية تشير بوضوح إلى أهمية البحث عن العلم في مظانه ومن خبرائه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يوجهنا ويحثنا على أن نكون (عدولا) في أخذنا للعلم، فيقول:(يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)



(أخرجه البيهقي، وصححه الإمام أحمد)، فتأمل، إن هؤلاء العدول هم من يملكون أهلية أن ينفوا عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وهذا لم يأت من فراغ بل أتى من كونهم عدولا، أي أهل خبرة وتخصص وذكر في هذا المجال، كما يوضح لنا -صلى الله عليه وسلم- أن الناس أوعية للعلم وأن بعضهم أوعى من بعض (ورب مبلغ أوعى من سامع). وفي تعاملنا كثيرا ما نبحث في مجال الطب عن الإحصائي والاستشاري، كما نبحث في المجالات الأخرى عن المتخصص وصاحب الخبرة، ونشترط في بعض الوظائف أن يكون عند المتقدم خبرة لا تقل عن خمس أو عشر سنوات، وهذا ليس اعتباطا منا، بل هو ما يقول به العقل والمنطق.

وحتى لا يساء فهم الفقرة السابقة أسارع إلى القول بأن الموضوع ليس موضوع تقديس واحتكار وكهانة لأهل التخصص، بل هو نوع من الاحترام والتقدير لمن يملكون الأهلية في هذا التخصص أو ذاك، مع الأخذ في الاعتبار أن من أمتلك هذه الأهلية فقد صار حقا علينا أن ننزله منازل أهل الاختصاص ليس لشخصه فحسب بل لما لديه من اختصاص وخبرة، حتى ولو صار الناس جميعا كذلك، وكل في مجال اختصاصه، وكل شخص في مجال تخصصه سلطان كما نردد في أمثالنا.

وهناك نقطة جديرة بالاهتمام في هذا السياق، وهي أن هناك من قد يدعى أنه طبيب ومن أهل الاختصاص في مجاله، وأن بإمكانه أن يتطبب لنفسه (أو يهندس لنفسه أو يفتي نفسه.....)، فهو في هذه الحالة إن أحسن فلنفسه وإن أساء فعليها، ولكنه إن تطبب أو هندس أو أفتى أو... لغيره فإنه يتحمل المسؤولية كاملة، ولا يعفيه من ذلك ادعاؤه للاختصاص وهو ليس أهلا له، ونحن نعرف الفرق بين الخطأ الطبي الذي قد يرتكبه المتخصص أو يرتكبه من ليس متخصصا، فالأول خطأ طبي والثاني جريمة يعاقب عليها القانون، وكذلك الفتوى ممن يملك الأهلية في إصدارها ومن ليس لديه أي أهلية لذلك.



ونحن هنا لا نقول بإطلاق الحبل على الغارب، وإشاعة الفوضى، وإلغاء قيمة التخصص التي نلح دائمًا على توفرها، وإنما نرى أن فتح المجال للفكر والاجتهاد المحكوم بقيم الكتاب والسنة، وعصمة عموم الأمة وغيرتها وحرصها على دينها، ومدافعة العلماء العاملين مصداقًا لقول الرسول صلى الله عليه و سلم: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)، يشكل سدًا أمام العابثين، وسوف لا يحمل من المخاطر ما يحمله إغلاق باب الاجتهاد، حيث لم يغلق عمليًا إلا على أهل التقوى والصلاح والخوف، أما أولئك الذين احترفوا كسر الحواجز وتوهين القيم والعبث بتراث الأمة، وتحريف الكلم عن مواضعه والتأويل الفاسد، فلم يمنعهم شيء من علم أو دين. والواقع شاهد على ذلك، وقد تكون المشكلة أننا نرفض الكهانات في الإسلام ويمارسها بعضنا عمليًا.

ما أخلص إليه في نهاية مداخلتي هذه هو أنني ضد الكهانة والاحتكار للعلم في شتى فروعه، وأرفض التقليد جملة وتفصيلا لمن هو قادر على الاجتهاد، وأشد على أيدي الجميع أن يصبحوا من أهل الذكر والخبرة كل في مجاله (كل قد علم صلاته وتسبيحه)، (وكل في فلك يسبحون)، ولكني لست مع من يريد أن يعطي النجار مكانة المهندس، ولا من يريد أن يجعل من طبيب الأعشاب أخصائي قلب مفتوح أو استشاري مخ، ولا من يريد أن يمنح الأمي وسام شيخ الإسلام ومفتي الديار، فالاختصاص مطلوب ومحترم والباب مفتوح على مصراعيه لكل راغب في أن يحوز الأهلية في أي مجال ليصل إلى درجة من سبقه وربما يتفوق عليه، وليس على هذا الباب بوابين أو محتكرين أو كهنة إنما هي شروط واضحة من حققها رفعنا له القبعات احتراما وتقديرا وسلمنا له بأهليته وتخصصه. وإذا كان نصف طبيب قد يفقدك صحتك أو حياتك، ونصف رئيس قد يفقدك استقلالك أو وطنك، فإن نصف عالم قد يفقدك إيمانك أو دينك. والله أعلم.

الوعي يبني الحاضر ويستشرف المستقبل

جلست امرأتان في إحدى الحدائق العامة ومع كل امرأة ولدها، وكان هناك عامل نظافة يكنس الحديقة. قالت إحداهما لولدها: إذا فشلت في دراستك فسوف يكون مصيرك مثل ذلك الرجل الذي يكنس القمامة.

أما الأخرى فقالت لولدها: إذا تفوقت في دراستك فسيكون بإمكانك أن تساعد هذا العامل ليحيا حياة أفضل. اتفقت غايتاهما، وهي تحفيز ابنيهما للاجتهاد في الدراسة، ولكن اختلف الأسلوب.

الأولى استخدمت عبارة سلبية (فشلت في دراستك)، ولم تكتف بذلك بل احتقرت عامل النظافة، فزرعت في قلب ولدها بذرة التكبر والغرور.

أما الثانية فاستخدمت عبارة إيجابية (تفوقت في دراستك)، ولم تكتف بذلك بل حثت ابنها أن يكون رحيما بغيره، ويفكر في تحسين أحوالهم، فزرعت في قلبه بذرة الرحمة واللين وحب الخير.

كثير من الآباء والأمهات والأساتذة، يطبقون مذهب المرأة الأولى، فيصنعون للمستقبل القريب قنابل موقوتة، ما إن تصل إلى المكانة التي احتالت في الوصول إليها غالبا، إلا وتنفجر، فتتطاير شظاياها لتصيب كل المحيطين بها، والواقع يسوق لنا هذه النماذج ويظهرها للعلن، وربما يكون وضعنا الذي نحن فيه نتيجة لمثل هذه التعبئة المبكرة الخاطئة.

أما المرأة الأخرى فهي تنزع من ضمير صغيرها صاعق التفجير، وتقذف به بعيدا، كي تحافظ على إنسانية هذا الصغير، وتصنع منه ملاك رحمة في مقابل قيام

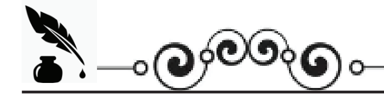
الأخرى بصناعة شيطان في صورة إنسان، وقد يكون ما تقوم به الأم السلبية عن غير قصد أو بحسن نية، تدفعها عاطفة الأمومة لترى ابنها في المستقبل ملء السمع والبصر، ولكنها سلكت سبيل الهلاك أدركت ذلك أم لم تدركه، ولو كانت غايتها نبيلة في رعاية مستقبل ابنها إلا أن الوسيلة تقلب الأمر رأسا على عقب، والغاية هنا لا تبرر الوسيلة، فالأهداف والغايات النبيلة لا يوصل إليها إلا بوسائل نبيلة أيضا.

أما المرأة الإيجابية - وقليلون من هم على شاكلتها - فقد سحبت البساط من تحت أقدام الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، من حنايا ولدها، عندما بذرت في ضمير صغيرها هذه البذور التي ستجني ثمارها اليانعة في المستقبل القريب والمتوسط، وسيسقي غيث حبها لصغيرها ونبل غايتها وسمو وسائلها في بنائه كل من يحالفهم الحظ ليلتقوا بهذا الإنسان (الملاك).

والمتأمل في حال الصغار يجزم جزما أكيدا أننا نصنع جنتنا أو جحيمنا المستقبلي بأيدينا، فصغار اليوم الذين يربيهم الكبار سيكونون كما تمت صياغتهم من الآن، ولهذا لا مجال أمامنا إلا أن نستثمر في أجيالنا القادمة كي نصنع مستقبلا مشرقا.

المعادلة صعبة، إذ كيف يمكن لهذا الجيل المحطم ممن صاروا في مصاف الآباء والأمهات والمعلمين، أن يصنعوا هذا الجيل المنشود. أقف في أحيان كثيرة متأملا، وأتساءل: من وكيف يمكن كسر هذه الحلقة والدائرة المغلقة التي نستنسخ بداخلها ذواتنا، فتتناسل أجيال أخذت جلّ سيئاتنا وفاقتنا في تفعيلها في حياتها، وهكذا يستمر الحال.

بمقدور الناس أن يتغير حالهم ووجه أوطانهم من خلال جيل واحد إذا أحسن تنشئته، ولكن أنى هذا؟! فكرة الثلج تتدحرج في منحدر سحيق وبسرعة كبيرة،



ومع سرعتها تكبر وتكبر وتكبر، ومثلها عجلة الخير إن أحسنا دحرجتها، وحافظنا على استمرار دورانها إلى الأمام، إنه تحد صعب، لأن فيه إنقاذ وطن وبناء إنسانية.

والمؤسف المحزن أننا نقابل أشخاصا ونسمع من آخرين أن الحال سيتغير إلى الأحسن، فإذا رأيت الأفعال والتصرفات والمواقف تعجبت كثيرا، لأنها مناقضة تماما لما يأمل ويرجو، ومثال ذلك مثال من يقول لك أنه يريد الوصول إلى المشرق ثم تراه وقد أخذ وسلك طريق المغرب، ومع ذلك يصر بأنه سيصل إلى مبتغاه، وهذا وهم كبير يعيش فيه أغلب الناس.

انتبهوا لرسائلكم التي توجهونها لأبنائكم، ولغير أبنائكم، فهي تصنع وتشكل شخصياتهم وأخلاقهم وتوجهاتهم، فلكل كلمة قيمة إذا أحسنا صياغتها وأداءها، ولها ثمن باهظ إن أسأنا صياغتها وأسأنا أداءها. قال جل ثناؤه: (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها)، فهل بعد هذه القاعدة الربانية الصارمة كلام يقال؟

الباحثون عن الحلول المعلبة..

من يبحثون عن الحلول الجاهزة المعلبة، هم أشخاص كسالى فكريا، ولا يريدون أن يجهدوا أنفسهم بالتعمق والبحث والاستقصاء في ثوابتهم وتراثهم، فيسارعون إلى أخذ الجاهز والمعلّب، كيفما كان، ومن أي مصدر كان، خاصة عندما يرون بعض التطبيقات الخاطئة للإسلام من قبل أشخاص أو جماعات، قد يكون ذلك عن اجتهاد وحسن نية من هؤلاء الأشخاص أو الجماعات، وقد يكون عن سوء نية وتوظيف واستخدام للإسلام، عندها يجدون ضالتهم في العلمانية أو غيرها من الصيغ الجاهزة.

وهنا وقفة، لا بد أن نتوقف عندها مليا، وتتمثل في كون الإسلام يملك نظرية شاملة ومتكاملة لكل جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية و...... ولكنها ليست جاهزة ومعلّبة وقابلة للتطبيق والتنفيذ الفوري، كما يبدو للبعض، بل هي عبارة عن خطوط عريضة عامة ومرجعيات راسخة، تحتاج من العلماء والمفكرين والنخب لسبر أغوارها والتعمق في مضامينها للخروج بنظرية إسلامية سياسية أو اقتصادية أو إعلامية أو...... وقد تم ذلك من قبل الكثير من العلماء على مدى تاريخنا الإسلامي، ولكن تبقى هذه النظريات أو التصورات أو المقترحات نتاج عقول بشرية تلاقحت مع الوحي (قرآنا وسنة) فأنتجت هذه الرؤى أو تلك النظريات، بمعنى آخر، هذه النظريات والرؤى ليست الإسلام بل هي فهم حملة هذا الدين لهذا الدين، وهذا يعني أنها قابلة للخطأ والصواب، بل إنها قد تكون صالحة لزمان دون زمان أو مكان دون مكان أو حال دون حال، وهي في حاجة إلى اجتهاد متواصل حذفا وإضافة وتعديلا قد يصل إلى حد النقض، وهذا ما يجب أن ينتبه له الفطناء من حملة هذا الدين.

وهل جاء التقليد والتعصب والغلو والتشدد إلا من هذا الباب، باب البحث

عن الحلول الجاهزة، وإلا من قِبل أناس أغلقوا على عقولهم وأفئدتهم موضوع المراجعة والنقد للتراث السابق، وإنما أخذوا اجتهادات السابقين كحلول جاهزة معلبة، دون اجتهاد وفهم لواقعهم ودون عرض هذه الاجتهادات من جديد على ثوابت الدين المصدرية.

وهنا تكمن مشكلة المتعلمنين، ففي الحقيقة ليسوا علمانيين بل (تجار شنطة) للعلمانية وغيرها من النظريات المستوردة، ولا يمكن لأصحاب العلمانية الأصلاء أن يعتبروهم كذلك، إلا إذا اعتبرنا أن العلمانية مراتب، وسيكون حظ هؤلاء أنهم علمانيون من الدرجة الثالثة أو الرابعة وربما العاشرة، لأنهم مجرد مروجي بضاعة اسمها العلمانية أو الليبرالية أو الحداثة أو حتى الديمقراطية، هي ليست بالفعل صنعتهم ولا تجارتهم، ولم يكن لهم شرف إنتاجها أو ترشيدها، بل إن غباءهم قد أوقعهم في شر أعمالهم عندما بدؤوا بترويج هذه البضاعة المزجاة في غير أسواقها المعتادة فُنوا بالخسائر الباهظة، ولحقهم سوء السمعة، ولو كان لهم عقل وفطنة لعلموا أن بلاد الإسلام لا تباع فيها سلعة العلمانية وليس لها رواج في هذا الميدان، لكن المشكلة أن هذا هو ما يريده صاحب السلعة ومنتجها (المخرج)، بينما على المروجين أن يقوموا بالدور ولهم أجرهم المادي من صاحب السلعة وإن لم يجدوا زبائن، فهم قد ضمنوا على أقل تقدير أن أجرهم المادي لن ينقطع، ولذلك تراهم يواصلون دورهم الترويجي على مدى قرن من الزمان وأكثر دون أي فائدة ترجى.

ما أريد أن أخلص إليه، هو دعوة مفكري الأمة أولا، ومروجي العلمانية وأخواتها من المصطلحات ثانيا، إلى استفراغ الجهد في عمل متواصل لسبر غور ثوابتنا أولا، وتراثنا ثانيا لنستخلص منه نظريات الحياة، فهذا هو منتجنا الأصيل، الذي نبت في أرضنا وسقي بماء أنهارنا واحتضنته تربتنا، وأكرر القول، أن كل ما يتوصل إليه

من نظريات ليس هو الإسلام، وليس هو الحل النهائي الناجز، بل هو مقاربة، يكتب لها النجاح والتوفيق بقدر تمثلها لروح الإسلام في زمن ومكان وحال ما، وقد لا تكون كذلك إذا تغير الزمان والمكان والحال.

إن الإسلام ليس حلولا ناجزة تؤخذ من هذه الصيدلية أو تلك، لتداوي هذا المرض أو ذاك، ولكنه جهد متواصل وإعمال للعقل وفهم للنص وفهم للواقع وفهم لكيفية تنزيل النص على الواقع، في حركة دائبة لا تتوقف إلا لتبدأ، تراجع تراثها القديم فتأخذ منه وتدع وتنطلق من حاضرها لتستقرئه وتجتهد له ما وسعها الاجتهاد، إننا أمام حركة موّارة ذات أمواج هادرة لا تتوقف، موجة تتلوها موجة، واجتهاد وراء اجتهاد واجتراح للحلول من رحم الثوابت وتجارب التراث، مع إقدام وجرأة وثقة بالنفس، بأننا قادرون على إنتاج نظريات ورؤى من بنات أفكارنا ومن غرس أيدينا، وهذا ما لا يتقنه الكسالى من بني قومنا سواء العلمانيون الذين يبحثون عن حلول جاهزة معلبة تأتيهم من وراء البحار، أو المقلدون الذين يظنون أن الأول لم يترك للآخر شيء، فهم متشبثون باجتهادات ونظريات ربما كانت صالحة في زمانها ومكانها وحالها لكنها لم تعد كذلك في زماننا وحالنا، بل يتطلب الأمر اجتهادا آخر يناسب زمننا ومكاننا وحالنا الآن، ومن يتأمل مقولة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما قال: (ربوا أبناءكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم)، يدرك طبيعة الفقه والفكر المستقبلي الذي كانوا يحملونه، ولا عزاء للكسالى علمانيين ومقلدين. والله أعلم.



التدين ليس بديلا عن بذل الأسباب

قرأت خبر أن في المنتخب اليمني للناشئين أربعة حفاظ لكتاب الله، وأن هؤلاء كانوا سببا في فوز الفريق. وقد توقفت عند الخبر متأملا، ماذا لو لم يفز الفريق اليمني، هل سيتم نشر الخبر وتداوله، أم سيطويه النسيان، وهل كنا سنسمع أن هناك أربعة حفاظ ضمن تشكيلة المنتخب (ومن هم؟)، وهل كان القارئ فارس عباد سيذكر أساسا؟

ليس لدي اعتراض على جانب التعزيز والتشجيع والتحفيز وغرس الثقة بالله أولا، وبالنفس ثانيا، لكن هناك مخاطر من ردات الفعل في حال الهزيمة، فلو دخل فريق ما مباراة وكانوا كلهم حفاظا وانهزم هذا الفريق، ما الذي يمكن أن يقال في هذا الشأن؟ أترك الإجابة لمخيلة القارئ.

لا بد أن نوطن الناس على قانون السننية والسببية الإلهيين، تلك السنن التي لا تحابي حافظا أو فاجرا، ومع توطين هذه السنن الإلهية في عقول وقلوب الشباب لا مانع أن يوضعوا في الصورة العامة للإرادة الإلهية التي بيدها تصريف الأمور وأن الله مع المؤمنين المتقين، الذين استوفوا شروط النصر والجاهزية التي تقتضيها سنة الله في هذا الأمر.

وأتذكر في هذا الخصوص أن الغالب على الطلاب المتقدمين لاختبار الثانوية العامة أنهم يلتزمون بالصلوات جماعة قبل فترة من الاختبارات رغم تقصيرهم الفاحش فيها قبل الامتحانات وبعدها إلا من رحم الله. ولا أدري ما الذي يدور في رؤوسهم، لكن هناك فهما مغلوطا للتدين وأنه يمكن أن يكون بديلا عن بذل الأسباب والاستعداد.

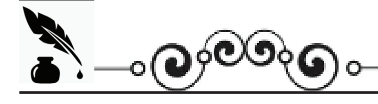
فالطالب والرياضي يظن أن محافظته على الصلاة قبل الامتحانات رغم تقصيره فيها قبل ذلك سينجيه من شبح الرسوب الذي فرط في الاستعداد له طوال السنة، وكذلك الرياضي الذي فرط في التدريب والتمرين واللياقة البدنية ويظن أن حفظه للقرآن سيغطي عجزه في بذل الأسباب التي فرط فيها.... وقس على ذلك بقية الأعمال.

ما الذي يمنع الطالب والرياضي وغيرهما من الجمع بين الحسنيين، فيبذل الأسباب ويستعد ويكون على أتم الجاهزية وبالمقابل يكون محافظا على صلاته أو حافظا للقرآن أو...... وعندها سيكون النجاح والفوز من نصيبه إن شاء الله، ولن يكون محتاجا للتعريف به بأنه كذا وكذا.

ما أخلص إليه هو أن علينا أن نحوّل تعاليم هذا الدين إلى روافع ودوافع لبذل الأسباب والاستعداد والجاهزية، لا أن نجعل منه بديلا وتعويضا عن التقصير والعجز والكسل، فإذا انتصرنا أو نجحنا في زمن ما رغم تقصيرنا رددنا السبب إلى محافظتنا على الصلاة أو حفظنا للقرآن، وإن انهزمنا أو رسبنا صمتنا دون بحث عن الأسباب الحقيقية للهزيمة أو الرسوب، وقد يأتيك أحد شياطين الإنس عند الهزيمة أو الرسوب ليقول: أرأيتم كيف أن محافظتكم على الصلاة وحفظكم للقرآن لم يجدكم نفعا، وهذا فيه هز للثقة بالقيم العظيمة ودعوة للتهاون بها ما الله به عليم.

وبناء على ما سبق، فأنا لا أحبذ تسويق مثل هذه الأخبار والمقاطع، رغم يقيني أن من نشرها قد نشرها بحسن نية، ويأمل أن تؤدي إلى الاقتداء ممن يسمعها، لكن لها انعكاسات سلبية سواء في فهم سنة الله في بذل الأسباب أو في استخدامها من قبل شياطين الإنس عند الانكسار.

أقول: حثوا الناس على الجد والاجتهاد وبذل الأسباب واستفراغ الجهد



والطاقة، وشجعوهم على الاستعداد والجاهزية، وحثوهم أيضا على المحافظة على قيم الإسلام والتحلي بمكارم الأخلاق، وعندها لن نحتاج إلى خبر هنا أو هناك يخبرنا عنهم، كما لن نحتاج إلى مقاطع مصورة للحديث عن هؤلاء، فحالهم سيتحدث عنهم بوضوح، وسيكونون قدوة في الجد والاجتهاد كما سيكونون قدوة في الالتزام والمحافظة على قيم الإسلام. والله أعلم



المتنورون.... دعاة الفن الجدد.

الذي أريد أن أقوله في هذا السياق وقفات أسردها في نقاط:

١- إن طبيعة الفن في هذا العصر ليست بالطهر الذي يريد المروجون له أن يوهمونا بطهارته، فالغناء في عصرنا يتخلله الكثير من الموبقات، مثله مثل التمثيل، خاصة ونحن نعرف أن للفنانين وخاصة المشهورين (بريستيج) خاص وطقوس خاصة لا تخلوا من منكرات، وخاصة عندما يكثر المعجبون والمعجبات، فعن أي فن يتحدث هؤلاء الذين يعتبرون من خرج منه أنه يعصي الله، وكأنه كان في رباط في سبيل الله أو فر من الزحف؟

٢- أعتقد أن قرار نابلسي بالاعتزال نابع من قناعات ومراجعات خاضها الرجل قبل أن يتخذ قرارا مثل هذا، حيث يدرك أنه سيخسر الكثير، وسيشهر به من الجانبين، جانب من كان معهم في الوسط الفني، وجانب (المتجملين المتنورين) من الطرف الآخر، بمعنى آخر، فنابلسي اتخذ قراره وهو في قمة شهرته، وتركه للفن في هذا المستوى يعتبر خسارة كبيرة وفق حسابات بيوت الفن، ومع ذلك اتخذ نابلسي القرار دون اعتبار لما سيواجه من الطرفين، ونسأل الله له الصبر والثبات ممن تركهم وممن يظنون أنه هاجر إليهم، وبدل أن يرحبوا به أو حتى يحترموا قراره، إذا بهم يبكتونه ويلومونه ويعنفونه، ولا يستبعد أن نجد من يفسقه أو يكفره.

٣- العجيب في الأمر أن هؤلاء (المتجملين المتنورين) لا نحس لهم صوتا ولا نسمع لهم ركزا، عندما يتعلق الأمر بالهجرة المضادة، وهي كثيرة بالمناسبة، وكأن تخصصهم رجم النوارس المهاجرة إلى رحاب الفضيلة، بينما النسور والغربان المهاجرة وبكثرة إلى وحل الفن الهابط لا تجد من يقدم لها حتى نصيحة، بل تجد على العكس من ذلك

تشجيعا ودعما، وتوزع عليهم الألقاب بكثرة، فهذا النجم الفلاني، والكوكب المتألق وووووو....... فهل وصلنا إلى مرحلة انتكاس الفطر السليمة فصار المعروف منكرا، والمنكر معروفا؟ إنني أتعجب وبلا حدود من مثل هذه الانتكاسات ومن أشخاص كنا نظن بهم الخير، ولكنهم للأسف صاروا قطاع طرق أمام من يحاول أن يخرج من هذا (العفن الفني) فيجد أمامه شيوخ بدون لحى، ونساء يمثلن دور شيوخ الدين، ينصحونه بالعودة إلى المكان الذي جاء منه، إذا لا مكان له في الطرف الآخر، وهو عاص ومذنب إن أصر على توبته.... نعوذ بالله من الخذلان.

٤- والعجيبة الأخرى، أن الطرف الآخر، الغارقين في وحل (العفن الفني)، ليس لديهم هذه الحساسية الكاذبة التي نجدها عند المتنورين، فهم (أقصد أصحاب العفن الفني)، يرحبون بكل من ينضم إليهم بل ويشجعونه ويدعمونه، ويروجون لنجومهم وكواكبهم وورودهم وزهراتهم بكل وسائل التواصل الممكنة، ولا يردون أحدا طرق بابهم أو توجه تلقاء بيوت فنهم، فلسان حالهم كما قال الله عن جهنم (هل امتلأت فتقول هل من مزيد؟).

٥- وأخيرا، لن تعدم من ينظّر أمامك، ويقول لك: لو مكثوا في المكان الذي هم فيه وخدموا الإسلام والعفة والفضيلة من مواقعهم لكان ذلك خيرا لهم وللإسلام، إنهم بتوبتهم سيعتزلون الفن وسيفقدون المكانة التي كانوا يحتلونها في قلوب معجبيهم، ولو مكثوا في مواقعهم ربما كان خيرا لهم وللإسلام، ومثل هذا التنظير الذي له أول وليس له آخر يتقنه كثيرون ليبرروا به إشاعة الفاحشة بالوقوف ضد من يريد مبارحتها، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، هل تسمع آذانهم ما تقوله ألسنتهم، عن أي وسط فني يتحدث هؤلاء؟ إنه وسط موبوء، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، والفرار منه هو خروج من وسط لا مجال للبقاء فيه إلا بشروط يضعها دهاقنة الفن العالميين



والمحليين، فهل عند المتنورين الجرأة لتقديم فتاوى تبيح لهؤلاء الذين يريدون أن يغادروا الوسط الفني، أن استمروا على ما أنتم عليه، وما اقترفتموه من موبقات هناك فلا حرج عليكم، ثم ما دامت خدمة الإسلام من هذا الطريق مهمة وضرورية فلماذا لا يتقدموا هم، أو يقدموا أقاربهم، أو يروجوا لذلك، بالطريقة الصريحة الواضحة بدل اللوم الذي يقرعون به كل من هاجر من هذا الوسط.

من أراد أن يخدم الإسلام برسالة الفن فعليه أن يوجد بديلا نظيفا للوسط الفني وعندها يمكن أن نقول لهذا الفنان أو الممثل لا تترك مكانك فأنت في موقع يمكنك أن تخدم الإسلام من خلاله بواسطة الفن الرفيع الذي يسمو بالنفس ويشجع على سلوك سبيل الفطرة وطريقها القويم، أما أن نطلب ممن يريد أن يتوب بمحض إرادته أن يمكث في وسط جميعنا يعرف طبيعته، فهذا مما يمكن القول فيه أنه لزوم ما لم يلزم، ولسان حال من يصر على ذلك، هو لسان مقال الشاعر الذي قال:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له

إياك إياك أن تبتل بالماء

الظالم المتكبر لا تردعه إلا الهزيمة المُنكرة

هل تصدق أن دماثة أخلاق اليابانيين ما جاءت إلا بعد هزيمتهم المُنكرة؟ بل لعلها أخلاق تحلوا بها ليستطيعوا تسويق منتجاتهم بعد أن تذوقوا مرّ الهزيمة، ولو رجع أحمد الشقيري قليلا في برنامجه الشهير (خواطر ٥) الذي يُمجّد فيه (كوكب اليابان) إلى حقبة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي لما صدّق أن اليابان ذبحت ٣٠٠ ألف صيني في بكين عام ١٩٣٧م!! وأنها هاجمت الولايات المتحدة في أكبر قواعدها البحرية (بيرل هاربر) في جزر هاواي في ٥ ديسمبر ١٩٤١م، لشهوة السيطرة على المحيط الهادئ، وفي خلال خمسة أشهر سيطرت على معظم بلدان جنوب آسيا وأخرجت منها بريطانيا وفرنسا، فقط من أجل تأمين المواد الأولية لصناعاتها.

أما غزو الاتحاد السوفييتي (سابقا) فكانت خيانة قذرة من هتلر لحليفه ستالين!

من يصدق أن قطارات ستالين المحملة بالقمح والنيكل والكروم وصلت إلى هتلر يوم ١٦ يونيو ١٩٤١م، وفي اليوم التالي تسللت الفرق الألمانية إلى داخل الاتحاد السوفييتي، والسبب كما يذكره الفلم الوثائقي (أبكاليبس) هو فشل هتلر في إسقاط لندن بعد سقوط وارسو وبراغ وباريس. لندن صمدت بصمود الشعب البريطاني برجاله ونسائه أيضاً، وبمساعدة روزفلت الرئيس الأمريكي في حينه. ثم كانت نهاية الاتحاد السوفييتي بعد جبروته وغروره، فشرب من نفس الكأس، وانتهى إلى مزبلة التاريخ.

توقع هتلر أن تدخل أمريكا الحرب في غضون سنة وقدّر أن ألمانيا ستحتاج إلى موارد ضخمة من النفط والمعادن والغذاء، وبدلا من توثيق عرى حلفه مع ستالين، غدر به واجتاح بلاد السوفييت ووصل بالفعل إلى ضواحي موسكو في ١٧ نوفمبر ١٩٤١م، ولولا صمود وتضحيات الجيش الأحمر الذي أجبر الألمان على الرجوع



القهقرى لاجتاح هتلر الاتحاد السوفييتي.

ولو رجعنا إلى سجل التاريخ الطويل لوجدنا أن الظالمين والمجرمين والمتكبرين، لم توقف زحفهم إلا الهزيمة المنكرة، فالمغول لم توقف هيلمانهم إلا معركة عين جالوت، والصليبيون لم توقف شهوة سيطرتهم وغرور عنجهيتهم إلا معركة حطين، وقل مثل ذلك عن جيوش هلكت بسبب طغيان من يسوقونها للهلاك.

والقرآن يحدثنا عن فرعون الذي لم يوقف تألهه إلا ماء البحر الأحمر المالح، ومثله قارون الذي لم يوقف غروره وطاووسيته إلا انخسف به باطن الأرض، وقل مثل ذلك قبل قصة هلاك فرعون وبعده، حتى أن كفار قريش لم يرتدعوا وتنكسر شوكة غرورهم وكبرهم إلا بعد فتح مكة.

سنقفز إلى النهاية، فلسنا بصدد سرد قصة هتلر أو غيره، ولكن الهدف هو إيضاح الأسباب التي غذّاها الكِبر والغض من شأن الشعوب الأخرى في وقت صعود قوةٍ ما. ذلك الكبر والطغيان واستضعاف الآخرين التي قد تعطيك انتصارات سريعة في غضون سنوات، ثم يكون بعدها سحق الظالمين وتدمير جيوشهم وبلادهم، والعجيب أنه لا عبرة ولا اتعاظ، فما شربه السابق يتناوله اللاحق بتطلع وشهوة، حتى يلقى مصرعه كما حدث لسلفه... وهكذا.

دخل الروس ألمانيا من جهة الشرق ودكوا برلين دكاً، وعاثوا فيها فسادا كما عاث الألمان ببلادهم فساداً قبل ذلك، ودخلت أمريكا وبريطانيا برلين من جهة الغرب وفعلوا بها مثل ما فعلت ألمانيا بلندن من دمار أثناء قصفها بالطيران، وأذاقوا الألمان الذل والهوان بعدما كانوا يتكبرون على العالم بجنسهم (الآري). وكذلك فعلت أمريكا باليابان، قنبلتان نوويتان أحالتا هيروشيما وناجازاكي إلى أطلال. لقد كسرت



القنبلتان النوويتان غرور وعنجهية اليابانيين، وتذوقوا مرارة الهزيمة النكراء، التي أعادت ما تبقى من عقولهم إليهم.

ونحن في شهر أغسطس من كل عام، نتذكر مع اليابان مأساة تلكما المدينتان، لكن اليابانيون وحتى الأمريكيون لا يذكرون قسوة اليابان وعظيم جرمها في ذبح ٣٠٠ ألف صيني واحتلال جنوب آسيا لسرقة نفطها وثرواتها، فالظالم لا يتذكر ظلمه وإجرامه لأنه لا يعتبر ما قام به ظلم وإجرام (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه)، بينما يتذكر ما نزل به من ردع الآخرين لظلمه وجبروته، وكأن ما قام به ضد الآخرين حق لا مرية فيه، وما قام به الآخرون ضده باطل لا مرية فيه.

اليمن تعيش اليوم نفس مأساة وعنصرية البعض وطمع البعض الآخر في ثرواتها، ولن يوقف ذلك إلا هزيمة نكراء توقف الظالم المتكبر المغرور عند حده، لأنه ما دام يملك قوة فلن يتوقف ولن يجنح للسلام، لأن السلام غير وارد في سجلات أولئك، ولا يعرفون السلام إلا عندما يتم كسر شوكتهم، وتمريغ أنوف كبريائهم بالتراب، عندها يمكن أن يسلموا بأن أمامهم بشر لا مجرد دمى أو مخلوقات لا قيمة لها.

سنة الله تسوق الظالم ليذوق وبال أمره، ويترك للمغرور المجال كي يستوفي أسباب هلاكه، ويملي للمتكبر ليأخذه أخذ عزيز مقتدر، ولا مجال لطلب السلام من ظالم أو مغرور أو متكبر لأنه لن يعطيه أبدا ما دام قادرا، والرحمة التي يمكن أن تقدم للظالم قبل المظلوم هي كسر شوكته وسقيه مرارة الهزيمة ونزع روحه إن استعصى نزع قوته التي يتكبر ويغتر بها ويظلم الآخرين من خلالها. والله أعلم

انطباعاتي عن الهند

عشت في الهند أكثر من سنتين وحاولت قدر استطاعتي التعرف على بعض ملامح الشخصية الهندية في عمومها، وكانت اللغة أكبر عائق أمامي من التعمق في معرفة هذه الشخصية العجيبة، وتقييمي سيكون في العموم ومن خلال ملاحظات وانطباعات لم تخضع لدراسة علمية، ولكني اعتقد أن لها وجها من الصحة.

الشخصية الهندية في طابعها العام شخصية بسيطة سهلة مطواعة، تكتفي بالقليل من الطعام والماديات الحياتية، ولكنها شخصية صبورة إلى حد لا يطاق وطائعة إلى حد الخضوع وخاصة للدولة، وأعتقد أن لهذا علاقة بالطبقية التي لا زال لها رواج في الهند، هذه الشخصية التي أشرت إليها شخصية مثابرة دوؤبة تبحث عن المعرفة بأي طريقة وفي أي وقت، فقد كنا أثناء دراستنا في قاعة المحاضرات كثيرا ما نمل بعد ساعة أو ساعتين من بدء المحاضرة، أما غالبية الطلاب الهنود فكانوا يواصلون الساعات الطوال (أربع إلى خمس ساعات متواصلة)، دون أن تشعر أنهم قد ملوا، وقد كانت بعض الكورسات تستمر من التاسعة صباحا وحتى السابعة مساء مع فترة استراحة لمدة ساعة فقط.

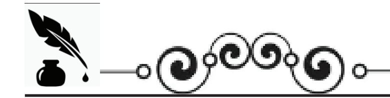
وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي ربما عكس ما يظن البعض من كون الطلاب الهنود أذكياء ونوابغ، إنهم ليسوا كذلك، بل الذي جعلهم كذلك هو المثابرة ومواصلة التعلم بشكل كنا نغبطهم عليه من جانب، ونرحم لحالهم من جانب آخر، فعبقريتهم جاءت من إصرارهم ومثابرتهم ومغالبتهم لكل الصعاب، وهذه واحدة من مميزات الشخصية الهندية. (السلحفاة التي تسبق الأرنب).

وموضوع التقمص وقدرة الهنود على إتقان الدور، تعتبر إحدى العلامات

البارزة في الشخصية الهندية، فليس لديه الكثير من الخطوط الحمراء والحواجز التي تمنعه من تقمص الدور الذي يكلف به، مع عدم إغفال أن هناك أسسا ثقافية تسم هذه الشخصية مهما تقمصت الدور الآخر الذي وجهت له، ونظرا لبساطتهم ومطاوعتهم وعدم غرورهم استطاعوا الاندماج في أي مجتمع حلوا فيه، وهذا السبب نفسه هو الذي جعل الغرب والشركات العملاقة تفسح لهم المجال ليرتادوا أعلى الأدوار فيها.

بعكس الشخصيات الأخرى عربية أو إسلامية أو حتى من ثقافات أخرى، فهي تحل في الغرب محملة بالكثير من صبغيات ثقافتها، ومن ضمن ذلك الاعتزاز بالنفس، التي تظهر بحق وبباطل، وهذا ما يجعل البلد الذي يحلون فيه يأخذ عليهم هذا الأمر (عزة النفس) المبالغ فيها في الحسبان، فالغرب مجتمع تغيرت فيه الكثير من القيم، ولذلك فضّل الغرب الشخصية الهندية البسيطة السهلة المطواعة الدؤوبة المثابرة على غيرها من الشخصيات التي لم تستطع أن تتأقلم أو تتقمص شخصية البلد الذي حلوا فيه.

وقد أورد أستاذنا الكريم الكثير من الأمثلة التي عزز بها منشوره، وهي أمثلة متنوعة، وذات دلالة على سعة الاطلاع من جانب وقدرة على الاستدعاء في اللحظة التي يريدها صاحبها من جانب آخر، وقد لاحظت أن أستاذنا الكريم كان يورد بعد بعض الأمثلة لموقف الطرف الآخر وينفيه في إطار كونه يتحدث عن مجتمع له ثقافته المختلفة عن ثقافة جميع الوافدين بالطبع، فهناك من تقمص الدور إلى أبعد مدى وهناك من لم يستطع، ولكن هذا لا يعني أن نطالب الجميع بالذوبان والاندماج والتقمص في المجتمع الغربي إلى درجة أنني كمسلم مطالب في حال رغبت في الإقامة الدائمة أن أخضع لكل صغيرة وكبيرة، وإلا فإنني في حال رفضت مد يدي لمصافحة من ستعطيني الإقامة الدائمة سيتم حرماني منها بحجج ثقافية، لن تكون أكثر وجاهة من



حجج من رفض المصافحة.

على كل، فالغرب يطالب أقلياتنا المسلمة عنده بالاندماج في المجتمع، في حين يطالبنا في عالمنا الإسلامي باحترام خصوصيات الأقليات سواء التابعة له أو غيرها، فهناك كيل بمكيالين، ربما لا تظهره الأمثلة التي تفضل بها أستاذنا الكريم، أو أشرت إليها في معرض كلامي.

وأنا على يقين بأن أستاذنا الكريم سيتقبل وجهة النظر التي قد يخالفه فيها من يتفاكر معه، فطبيعة التفاكر لا تعني التسليم، وهذا ما تعلمناه من أستاذنا الكريم، بل إن تعدد وجهات النظر هو الذي يوسع الرؤية ويترك مجالا لجميع الأطراف كي ترى من جميع الزوايا.

الكلام يطول، ولهذا فإنني لا أختلف مع أستاذنا الكريم من حيث الغاية والهدف من المنشور، وإن كان لي وجهة نظر على بعض الأمثلة وتعليقه عليها، وأنا أتفق معه على أن العالم صار قرية صغيرة، وعلى المسلمين خاصة أن يعيدوا قراءة ما حولهم، بشرط ألا يتحولوا إلى هنود، لأن هذا غير ممكن، ولكن أن يصبحوا هم أنفسهم وفي مستوى عصرهم، وليتعلموا من الآخرين الذين استطاعوا أن يصبحوا أرقاما صعبة في الحضارة الغربية، وهذا بالطبع لن يكون على حساب دينهم وهويتهم وثقافتهم كما يعتقدون.

والهند بالفعل بلد العجائب والغرائب، وقد رأينا ذلك بأم أعيننا، فتجد تفاوتا عجيبا، فالمرأة الهندية قد تكون في رأس الهرم (رئيسة وزراء، أو رئيسة جامعة، أو كلية أو قسم أو مؤسسة مدنية أو عسكرية أو خاصة)، وبالمقابل تجدها في أدنى درجات السلم، ويمكن أن تجدها عاملة في الخرسانة المسلحة ببعض روبيات زهيدة،



أو تمتهن البغاء كجارية، كما يمكن أن تجد هنديا (رجلا أو امرأة) يخرج في أسطول من السيارات، وفي موكب له أول وليس له آخر، في مقابل أناس لا يجدون ٥ روبيات ليشتروا بها وجبة متواضعة، دعك من طبقة المشردين ومن يتخذون من تحت الجسور بيوتا دائمة لهم. كذلك في التعليم، قد تجد مدارس وجامعات راقية وعلى مستوى عال، فيما تجد مدارس متواضعة جدا ربما لا تشاهدها في بعض الدول الفقيرة جدا، وهكذا.

حالات التنوع والتناقض في المجتمع الهندي تجعل الباحث عن روح الهند يقع في تناقضات إذا أصدر حكما واحدا عليها، فالهند كما تفضلت جماع التناقضات، ويمكن للإنسان أن يتخيل في الهند كل أنواع التطرفات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية......



هرم ماسلو.... بين الأنانية والحيوانية... (١)

استمعت عبر الزوم إلى محاضرة للأستاذ الدكتور داود الحدابي حول نموذج الحاجات الإنسانية من منظور إسلامي.

الجديد في الموضوع أن أ. د الحدابي قدم نقدا لهرم ماسلو للحاجات الإنسانية، الذي تم نقده حتى في الإطار الغربي، وإن كان عند البعض في العالمين العربي والإسلامي من المسلمات، وله حضور طاغي وقدمت حوله رسائل علمية، واستندت إليه بحوث ميدانية، بل وصل الحال بالبعض أن بحث له عن تأصيلات إسلامية، رغم كونه لا ينسجم مع التصور الإسلامي من حيث المبدأ، كونه نموذج يجنح إلى الفردية والمادية، لأن خلفيته النظرية غربية ذات ميول رأسمالية علمانية حداثية وما بعد حداثية، وحتى موضوع الهرمية الذي يطرحه هذا الهرم وفق نظرية ماسلو للحاجات الإنسانية فيه نظر، لكنه منسجم مع الرؤية الغربية، فقاعدة الهرم كما لا يخفا كم تتناول الضروريات الأساسية في حياة الإنسان التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان من مأكل ومشرب... وأعلى الهرم يتحدث عن تقدير الذات، وهذا قد يجنح إلى جانب الأنانية والنرجسية في الغالب، وما بين قمة الهرم (تقدير الذات) وقاعدة الهرم الحاجات الأساسية هناك تدرجات أخرى.

ونظرية ماسلو للحاجات الإنسانية المتجسدة في الهرم المشهور تجعل التدرج شرطا للانتقال من أدنى إلى أعلى، فلا يمكن الانتقال من المستوى الأول إلى الثاني إلا بعد إشباع المستوى الأول وهكذا، وهذا الأمر فيه نظر في التصور الإسلامي.

الجديد في الأمر هو أن البروف الحدابي طوّر نموذجا للحاجات الإنسانية سماه (نموذج الحدابي للحاجات الإنسانية)، حاول أن يبلور من خلاله الرؤية الإسلامية



للحاجات الإنسانية، وتأطيرها من خلال نموذج لا تطغى فيه الفردية بل يستوعب الفرد والأسرة والمجتمع والإنسانية وهذا أحد الاختلافات عن هرم ماسلو، والأمر الآخر هو أن هذا النموذج ليس هرميا كما هو الحال مع هرم ماسلو، بل هو نموذج تكاملي تفاعلي، إضافة إلى إعادة ترتيب الحاجات وقولبتها تحت عناوين عريضة للحاجات الإنسانية في المنظور الإسلامي (حاجات إيمانية، حاجات عقلية، حاجات صحية، حاجات اجتماعية، حاجات اقتصادية) مع أولويات لهذه الحاجة من حيث كونها ملحة أو هامة أو تكميلية.

هرم ماسلو.... بين الأنانية والحيوانية... (٢)

توقفت أمام الردود التي وصلتني حول تعليقي على هرم ماسلو، ويمكنني أن أورد بعض الملاحظات الإضافية على النحو التالي:

١- بداية علينا أن ندرك أن كل ما يقدم من نظريات، هي عبارة عن مشروع حقيقة أو خميرة لحقيقة أو بذور لحقيقة في بداياتها، وأنها إنتاج بشري قابلة للتعديل والإضافة والحذف، والنقد، وأن كل نظرية تظهر هي ابنة بيئتها، وتتلون بلون المرجعية التي تصدر عنها، فإذا كانت المرجعية رأسمالية جاءت النظرية تحمل سماتها كالفردية والمادية، وربما العلمانية والحداثية وما بعد الحداثية، وإذا كانت النظرية ذات مرجعية شيوعية جاءت حاملة كذلك لسمات المنظومة الشيوعية، وبالمقابل إذا كانت النظرية إسلامية فمن باب أولى أن تحمل صفات التصور الإسلامي.

٢- النظريات التي تصدر عن أي مرجعية، كما أسلفنا ليست نهائية، بل هي قابلة للتطوير والنقد، ومع هذا، فكل نظرية تعبر عن المجتمع الذي نشأت فيه، وتتناغم معه بشكل أو بآخر، ولكن هذا لا يعطيها جواز مرور للتناغم مع ثقافات أخرى إلا في حدود المشترك الإنساني، وكلما كانت النظرية أقرب إلى إنسانية الإنسان وفطرته، كلما كان لها حظ كبير من القبول في أغلب إن لم يكن كل الثقافات، ولكن تبقى لكل حضارة وثقافة خصوصياتها.

٣- وما سبق لا يعني رفض أي نظرية لأنها جاءت من الشرق أو الغرب أو لكونها تنتمي إلى الحضارة الغربية (رأسمالية أو شيوعية)، فهذا غير وارد، ولكن العيب أن تقبل هذه النظرية بغثها وسمينها، حيث يمكن الاستفادة من الجوانب التي لا تتناقض مع مرجعيتنا، ورفض ما عداها، ومن ثم نقدها ومحاولة إيجاد البديل الذي يتناغم

مع مرجعيتنا تماما، وهذا بدوره لا يعني أن النظرية ذات المرجعية الإسلامية هي نظرية أو حقيقة نهائية، فهي بدورها تحتاج إلى تطوير متواصل، وميزتها عن غيرها أنها نبتت في بيئتنا وتنفست هواءنا وشربت من مائنا، فهي أقرب إلينا من غيرها، إذا كان وراءها - بالطبع - من يهتمون بها ويرعونها، ويمدونها بالحياة من خلال نقدها وتطويرها لتواكب حاجات الإنسان المتجددة.

٤- النموذج الذي وضعه البروف الحدابي، ليس ابن يومه، بل هو نتيجة لأبحاث ودراسات ونقاشات وقراءات ومقارنات تبلورت حتى تم إنتاج مثل هذا النموذج، الذي لا يدعي صاحبه (د. الحدابي) أنه قد قال الكلمة النهائية أو كلمة الفصل فيما يتعلق بالحاجات الإنسانية، بل يمكن اعتباره مشروع نموذج يستند إلى خلفية إسلامية يمكن من خلال الحوار والنقاش والإثراء أن يصبح نموذجا له ثقل ليس على المستوى الإسلامي بل وعلى المستوى الإنساني. وميزة هذا النموذج أنه نموذج تكاملي تفاعلي لا هرمي، فحاجات الإنسان تكاملية تفاعلية وليست هرمية وفق نموذج ماسلو، الذي يدور حول الفرد فقط مغفلا الجانب الأسري والاجتماعي والإنساني.

٥- قول البعض أن هرم ماسلو وصل درجة الكمال، قول فيه إجحاف برؤيتنا للحقيقة، فإذا كان صاحب الهرم قد تدارك الكثير على نفسه وعدل وطور في هرمه، ولو طالت به حياة لكان له مع هرمه اليوم موقف آخر، وربما أدخل عليه تعديلات، فلماذا نكون أحيانا ملكيين أعظم من الملك، والعجيب أن هرم ماسلو قد انتقد وبشدة في الإطار الغربي كما أشار إلى ذلك د. الحدابي، وكذلك قدمت دراسات تنقد هذا الهرم من بعض الباحثين في الكثير من الثقافات، ثم ندعي بعد ذلك الكمال لهذا الهرم. صحيح أن هذا الهرم في أول ظهوره كان له هالة وشهرة كبيرة واستطاع أن يخترق الآفاق، وهو بالفعل نظرية ورؤية بشرية لحاجات الإنسان، ولكن هذا لا يعطيها العصمة



والكمال والنهائية.

٦- بعض النظريات التي تأتي من الغرب (المتقدم المتطور)، تأتي بهالتها وسطوتها، فلا يملك البعض معها إلا التسليم بها تسليما مطلقا في بعض الأحيان، وقد يكون في هذه النظريات جوانب إيجابية وكذا جوانب سلبية، ولكن هالتها وسطوتها تبدي إيجابياتها وتخفي سلبياتها، فيصبح الحديث عنها حديث من يسلم بصحتها، ولا يعتقد أن فيها نقصا، كما يعتقد بأنه لا يمكن تطوير نظرية توازيها أو تتفوق عليها، وهذه العقدة أوجدت لدينا توجها عاما يقوم على (استهلاك المعرفة)، مع عدم المشاركة في (إنتاج المعرفة).

٧- وأخشى أن أقول إن الغرب من كثرة ما تشبعنا بأطروحاته، وبأن العلم الأصيل لا يأتي إلا من ذوي العيون الزرقاء والشعر الأشقر، ولا يأتي هذا العلم إلا وهو يتحدث اللغة الإنجليزية، ولا يعتمد إلا إذا نشر في مجلاتهم العلمية، ووفق تصنيفهم للجودة، ومنحهم له براءة اختراع، وإذا تجرأ وجاء بلغة غير الإنجليزية وخاصة العربية، أو جاء من ذوي السحنات الملونة، ولم يمنح صك الغفران (براءة الاختراع الغربية)، ولم يعطوا له جواز المرور بالنشر في مجلاتهم العلمية، فلا يعد علما ولا يستحق أن يحتفي به. وكأننا بهذا نحكم على أنفسنا بأننا في مجال العلم مجرد مستهلكين فقط، وليس من قدرنا أن نصبح منتجين له، لأن الغرب قال لنا ذلك (والعين لا تعلو على الحاجب)، ولهذا فنحن نقلل من أعمال أبناء ديننا وجلدتنا ولو كان متميزا، ولو كان مثل هذا العمل عند الآخرين، لوجد الكثير من الاحتفاء والدعم والتشجيع والمؤازرة، أقول بكل أسف إن لدينا من المواهب والقدرات والعلماء الأفذاذ والأفكار الملهمة الكثير والكثير، ولكنها تلاقي نوعا من الإهمال واللامبالاة إن لم تلاقي ما هو أكبر.



وأخيرا، أتمنى أن يصبح لدينا الثقة بأنفسنا بأن لدينا الكثير والكثير مما يمكن أن نظهره لأنفسنا وللعالم، هذه الثقة هي ثقة عقل وقلب، وليست عاطفة فقط، وأن نتجاوز عتبات اليأس والعجز والتبعية، فلن يكون ما لدى الآخرين خير مما لدينا على طول الخط، ولن نستقل جهدنا الذي وإن بدأ بخطوة فإنه مع الإصرار ستتبعه خطوات، وعندها سنحترم ما يقدمه الآخرون دون أن ننبهر به، وسنفرض احترامنا على الآخرين بنوعية ما نقدمه. والله أعلم.

تم بحمد الله

التعريف بالمؤلف

- **البيانات الشخصية:**

الدكتور: يحيى أحمد حسين المرهبي. أستاذ أصول التربية المساعد، كلية التربية والعلوم التطبيقية . ـ جامعة عمران. محل وتاريخ الميلاد: حجة ٥/٢/ ١٩٧٣م. محل الإقامة: الجمهورية اليمنية / محافظة عمران ـ مدينة عمران ـ حارة النهضة السكنية ــ شارع ٢٢مايو.
رقم الموبايل: ٠٠٩٦٧٧٧٤١٥٥٦٠٢ بريد إلكتروني:com.gmail@
almerhbi٢٠١٠

- **المؤهلات العلمية:**

- (٢٠١٦) دكتوراة ـ فلسفة التربية قسم أصول التربية ـ سياسات تربوية / جامعة الدكتور بابا صاحب امبيدكار/ مهاراشترا / اورنق أباد / جمهورية الهند.
- (٢٠٠٨) ماجستير أصولٍ تربية ـ جامعة صنعاء ـ كلية التربية للعام بتقدير عام: جيد جداً. ٨٢,٥ ٪
- (٢٠٠٤) تمهيدي ماجستير أصول تربيةٍ ـ جامعة صنعاء ـ كلية التربية للعام بتقدير عام٨٢,٦٦٪ جيد جداً.
- (٩٩/٩٨) بكالوريوس تربية ـ كلية التربية عمران ـ جامعة صنعاء بتقدير عام جيد للعام ٩٩/٩٨م.

- **الإنتاج العلمي:**

- رسالة الدكتوراه بعنوان : (دراسة واقع تربية المواطنة في المدارس الثانوية في العاصمة صنعاء).
- رسالة الماجستير بعنوان : (العوامل المؤثرة على قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية بمحافظة عمران)
- لديه ثلاثة أبحاث منشورة باللغة الإنجليزية في مجلات محكمة في جمهورية الهند.
  - عنوان البحث الأول: (مسؤولية المؤسسات الاجتماعية في بناء قيم المواطنة لدى طالبها) ٢٠١٣م.
  - عنوان البحث الثاني: (دور الأسرة والمدرسة تطوير قيم

المواطنة لدى أبنائها التلاميذ) ٢٠١٦م.

- o عنوان البحث الثالث: (آليات تفعيل قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية) ٢٠١٦م.

- لديه بحثان منشوران في مؤتمرين علميين في اليمن ، هما:

- o دور الفروض الكفائية في تحقيق التنمية المستدامة، المؤتمر العلمي الثاني لجامعة الأندلس تحت عنوان)التنمية المستدامة ركيزة للأمن والاستقرار والسلام(، صنعاء، أكتوبر ٢٠٢٠م.
- o الدور المأمول من الجامعات اليمينة في خدمة المجتمع المحلي في ضوء الوظيفة الثالثة للجامعات، المؤتمر الثاني لجامعة البيضاء، الجمهورية اليمينة، أغسطس ٢٠٢١م.

- لديه أبحاث وكتب لم تنشر ورقيا ونشرت الكترونيا هي:

- 📖 كتاب بعنوان: (اطمئنان قلب). منشور ٢٠٢٠م
- 📖 بحث بعنوان: (دور الفروض الكفائية في تحقيق التنمية المستدامة). منشور ٢٠٢٠م.
- 📖 كتاب بعنوان: (ثقافة البناء ... أفكار ورؤى مؤسسة ودافعة للبناء) منشور ٢٠٢٠م.
- 📖 كتاب بعنوان: (على بصيرة ... تأملات في الدين والحياة). منشور ٢٠١٩م.
- 📖 كتاب بعنوان: (قد أفلح من زكاها). منشور ٢٠١٩م. ونشر ورقيا عن طريق دار المشرق الدولية للكتاب ـ ماليزيا.
- 📖 كتاب بعنوان : (مرايا الذات . بحث عن الحقيقة) ، منشور ٢٠٢١.
- 📖 كتاب بعنوان : (حياة الروح) ، منشور ٢٠٢٢م.

ملاحظة

رسالة الماجستير والدكتوراة، إضافة إلى الكتب السابقة مرفوعة على موقع مكتبة نور وغيرها على شبكة الإنترنت، ومسموح بتنزيلها من هناك. كما أن لديه بعض المشاريع لكتب ودراسات وأبحاث لم يستكمل إنجازها وتحتاج إلى وقت.



إن جولان الفكر، وإمعان النظر، وإعمال العقل والمنطق – وفق الضوابط الدينية- وفي حدود ما سمح به الشارع الحكيم، مزية فطرية ندبنا إليها الخالق عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه العزيز وهو يدعونا إلى التفكر والتأمل للوصول إلى المعرفة واليقين، والنفاذ إلى الحقائق، أو بالتعبير القرآني « البصائر».

والبصائر لا يمكن الصول إليها إلا بالفكر المتجرد الواعي اليقظ، المدرك لقضايا مجتمعه ، وهموم أمته، لأن الفكر هو محل تجليتها ، وموضع ما تنطوي عليه من بينات الإقناع ودلالات التأثير.

هذا الكتاب – محاولة للإسهام بدور فعال بعيد المدى في صقل العقل نفسه وتنمية ملكاته الفكرية، بما خلقه من بيئة تثاقفية راقية، وحوار عقلي، ذلك أن الفكر الأصيل هو وليد البحث والنظر والتأمل لاستكناه ما وراء السطور، وتناول المفاهيم العامة من زوايا مختلفة، لتقديم رؤى وتصورات جديدة، لذا لن يعدم القارئ الكريم – وهو يجول في سطور هذا الكتاب- أن يصادف حكمة مختبئة، أو يجد فائدة متوارية، أو يقف على فكرة جديدة، أو تتبلور لديه قناعة معينة.